أعلام المسلمين

٨١



سيد قطب

الأديبُ النَّاقِدُ، والدَّاعِيةُ المُجاهِدُ
والمُفكِّرُ المُفسِّرُ الرَّائِدُ

تأليف
صلاح عبد الفتاح الخالدي





دار القلم
دمشق

أعلام المسلمين
٨١

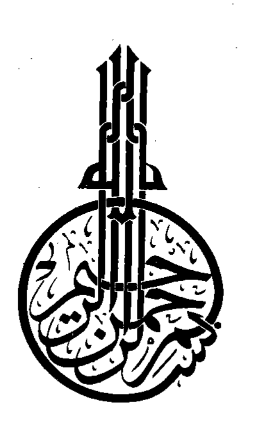


سيد قطب

الأَدِيْبُ ٱلنَّاقِدُ، وَٱلدَّاعِيَةُ المُجَاهِدُ
وَٱلمُفَكِّرُ ٱلمُفَسِّرُ ٱلرَّائِدُ

تأليف
صلاح عبد الفتاح الخالدي

دار القلم
دمشق



الطبعة الأولى
١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

تطلب جميع كتبنا من:
دار القلم - دمشق: ص.ب: ٤٥٢٣ - ت: ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت: ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة: ٢١٤٦١ - ص.ب: ٢٨٩٥
ت: ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

هـذا الرَّجُـل

- «الذين يعرفون الشهيد سيد قطب، ودماثة خلقه، وجم أدبه، وتواضعه، ورقة مشاعره، يعرفون أنه لا يكفر أحداً.

إنه داعية إسلامي، من عيون دعاة المسلمين! ظلمه من أخذ كلامه على غير مقاصده، ومن هاجموه متجنين، لما رأوا من عميق تأثير كلماته وكتاباته على الشباب الطاهر النظيف...»

الأستاذ عمر التلمساني

المرشد العام الثالث للإخوان المسلمين

- «.. لقد قرأت قراءات متعددة في عامة كتب سيد قطب، فوجدت في كتبه خيراً كثيراً، وإيماناً مشرقاً، وحقاً أبلجاً، وتشريحاً فاضحاً لمخططات العداء للإسلام..

والرجل كان أديباً نقادة، ثم اتجه إلى خدمة الإسلام، من خلال القرآن العظيم، والسُّنَّة المشرفة، والسيرة النبوية العطرة، فكان ما كان من مواقف، في قضايا عصره التي

هضمها، وسخر قلمه ووقته ودمه في سبيلها، فشرق بها طغاة عصره...

وأصر على موقفه في سبيل الله تعالى، وكشف عن سالفته، وطلب منه أن يسطر بقلمه كلمات اعتذار! فقال كلمته الإيمانية المشهورة: إن أصبعاً أرفعه للشهادة لن أكتب به كلمة تضارها...».

الأستاذ الدكتور

بكر بن عبد الله أبو زيد

- «إن كتاب معالم في الطريق قد حصر أملي كله في سيد قطب! فقد قرأته وأعدت قراءته! وإن سيد قطب هو الأمل المرتجى للدعوة الآن، إن شاء الله!.».

الأستاذ حسن الهضيبي

المرشد العام الثاني للإخوان المسلمين

- «.. إنني متأكد كاملاً إن شاء الله من أنه ليس في كتابات سيد قطب ما يخالف الكتاب والسُّنَّة، اللذين قامت عليهما دعوة الإخوان المسلمين، وتأكدي الكامل أيضاً من أنه ليس في هذه الكتابات ما يخالف أفكار وأقوال الإمام الشهيد حسن البنا، مؤسس هذه الجماعة..».

الأستاذ محمد قطب

- «.. كان سيد قطب رحيماً رحمه الله، لا يغضب إلا للحق، وما رأيته مرة واحدة غاضباً، عف اللسان حتى عند ذكر أسماء أعداء الله، لطيف المجلس، حلو المعشر، لا تفارقه الابتسامة الوقور، ذو دعابة مؤدبة، رقيق المشاعر، مرهف الحس... إذا سألت أو ناقشت يستمع إليك، حتى تنتهي من كلامك تماماً، فلا يقاطعك، ولا يعرض برأيك ولو خالفته الرأي، ولا يرفع صوته حتى ولو رفعت صوتك، ولا ينفعل حتى لو انفعلت...».

الأستاذ أحمد عبد المجيد

من قادة التنظيم الإخواني الجديد عام ١٩٦٥

- «كتاب التصوير الفني في القرآن فتح والله جديد، وسيد قطب وقع على كنز من كنوز القرآن، كأن الله أدخره له، فلم يعط مفتاحه لأحد قبله، حتى جاء هو ففتحه...».

الأستاذ علي الطنطاوي

- «... لقد برهن سيد قطب بمواقفه في عهد الطغيان على أنه يحسن القول في تأييد الحق يوم يتجهم وجه الباطل القوي للحق، إذا أنصرف عنه جنوده، وهناك كثيرون من حملة الأقلام يحسنون تأييد الحق إذا كانت له سوق يروج فيها، أو دولة تخطب ود مؤيديه ولو إلى حين، وهم على استعداد لأن يقولوا غير ذلك أيضاً...».

الأستاذ محب الدين الخطيب

- «... لقد تعاملت مع سيد قطب فرأيته متواضعاً، لم يتطلع إلى شيء من المناصب أو الألقاب...».

الأستاذ علال الفاسي

- «... قابلت سيد قطب في السجن بعد محاكمته والحكم عليه بالإعدام، فقلت له: ماذا تنتظر يا أستاذ سيد؟

فقال الرجل بابتسامة واثقة: أنتظر القدوم على ربي!!».

الأستاذ أحمد رائف

- «... المدير الفعلي للسجن هو سيد قطب وليس أنا! لأنه موضع احترام السجانين والمسجونين جميعاً...».

اللواء الحلواني

المدير الرسمي لسجن «طرة»

مقدمة

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُه ونستعينُه، ونتوبُ إليه، ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شرور أَنفسنا، ومن سيئاتِ أَعمالنا، منْ يهدِه اللهُ فلا مضلَّ له، ومنْ يضللْ فلا هاديَ له، وأَشهدُ أَنْ لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهدُ أنَّ محمداً عبده ورسولُه، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أَجمعين.

أَما بعد:

فإنَّ اللّهَ يمنُّ على مَنْ يشاءُ من عباده، بالإيمانِ والإسلام والالتزام والطاعة والعلمِ والمعرفة، ويوجِّهُه إلى هذا الميدان المبارك، وييسِّره له.. فيَسيرُ هذا العالمُ العاملُ في هذا الطريق، ويوظِّفُ كلَّ ما وهبه الله من مواهبَ وطاقاتٍ وقدرات، يبتغي بذلك وجه الله، ويرجو نيلَ رحمتِه ورضاه.

وتاريخُنا الإسلاميُّ مليءٌ بالعلماءِ الربانيين، الذين كانوا «رُوّاداً» في العلمِ والمعرفة، والدعوةِ والتربية، والجهادِ

والمجاهدة، استفادَ منهم الكثيرون، وتأَثَّروا بسيرهم، واقتدوا بهم، وساروا على طريقهم!

وأَرى أَنَّ الكتابةَ عن هؤلاء العلماءِ الرواد «أَعلامِ المسلمين» واجبة، ليتمَّ ربطُ حاضرِ الأمة بماضيها القريبِ والبعيد، ولتوجَّهَ الأَجيالُ الحاضرةُ إلى «سير» هؤلاء العلماء الأَعلام، تتعرَّفُ عليهم، وتقفُ على مظاهرِ نبوغِهم، ومجالاتِ علمهم، وإيجابيات حياتهم، فتزدادُ محبةً لهم، وثناءً عليهم، واعترافاً بفضلهم، وتقديراً لعلمِهم، واقتداءً واتساءً، بهم، ومتابعةً لهم..

وقد أَحسنَتْ «دارُ القلم» العامرة بإخراجِ هذه السلسلة المباركة «أَعلامِ المسلمين» التي صدرَ منها حتى الآن أكثرُ من سبعين حلقة، تُرجمَ فيها لنماذجَ عاليةٍ ساميةٍ من علمائنا في شتى الميادين، الذين كانوا «أَعلامَ المسلمين» حقاً، ونسأَلُ اللهَ أَنْ تستمرَّ هذه السلسلةُ المباركة، في حلقاتها القادمة، مُعَرِّفَةً بنماذجَ أُخرى لعلمائنا الأَعلام، وما أكثرهم.

وإنني أَعتقدُ أَنَّ «سيد قطب» رحمه الله تعالى - في مقدمةِ «أَعلام المسلمين» العلماءِ الرواد، لما اتصف به من صفاتٍ إيجابية، ولما قدمَه من علمٍ أصيلٍ متين، ولِما وقفَ به من مواقفَ إيمانيةٍ رائعة، نابعةٍ من إيمانه وصدقِه وجَدِّيَّته ووفائه!

وكما كان «رائداً» في فكرِه وعلمه، كان «رائداً» في سيرتِه وشخصيته وحياته، حيث اختارَ أَنْ يكون «جندياً» لهذا الإِسلام،

فكان داعيةً مربِّياً، وكان مفكِّراً مفسِّراً، وكان مجاهداً ثابتاً، انتهت حياتُه على حبلِ المشنقة، شهيداً في سبيل الله، إنْ شاء الله!

وأَعترفُ أَنني أُحبُّ سيد قطب محبةً عظيمة، كما يحبُّهُ العديدُ من المسلمين الصالحين في مختلفِ بقاعِ العالم، أُحِبُّه في الله، لما وقفْتُ عليه من مواقفَ إيمانية في سيرته وحياته الإسلامية، ولما وقفْتُ عليه من إضافاتٍ ثمينة أضافَها إلى العلمِ والفكرِ والمعرفة والثقافة، في التفسيرِ والعقيدةِ والدعوة والجهاد..

أُحبه محبةً عظيمةً في الله، وأَتقربُ بذلك إلى الله، وأَرجو اللّهَ أَنْ يجمعني به في الجنةِ يوم القيامة هو وإخوانُه الذين أَنعمَ اللّهُ عليهم من العلماءِ الأَعلام الربانيين الذين ينطبقُ عليهم قولُ الله سبحانه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾.

وروى البخاريُّ ومسلمٌ عن عبدِ الله بن مسعود رضي الله عنه قال: جاءَ رجلٌ إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله: كيف تقول في رجلٍ أَحَبَّ قوماً ولم يلحق بهم؟

فقال رسول الله ﷺ: «المرءُ مَع مَنْ أَحبّ».

وروى ابنُ جرير الطبري عن أَنس بن مالك رضي الله عنه، قال: سئلَ رسولُ الله ﷺ عن الرجلِ يحبُّ القومَ ولَمَّا يلحق بهم؟

فقال ﷺ: «المرءُ مع مَنْ أَحَبَّ»!

قال أَنس: فما فرح المسلمون بشيء فرحَهم بهذا الحديث!.. وإني لأحبُّ رسول الله ﷺ، وأَبا بكر وعمر رضي الله عنهما، وأَرجو الله أَنْ يبعثني معَهم، وإِنْ لم أعملْ كعملِهم...

وأَنا أَقول كما قالَ أَنَسُ بن مالك رضي الله عنه: إني أُحبُّ رسولَ الله ﷺ، والصحابةَ الكرام جميعاً، وأُحبُّ العلماءَ العاملين في هذه الأمة، على مدارِ تاريخها كلّه، وفي مقدمة هؤلاء الأَعلام المفسرُ الرائدُ سيد قطب، وأَرجو الله أَنْ يجعلني معهم يوم القيامة، في جنات النعيم!

يجبُ أَنْ نُحبَّ سيد قطب ونُقَدِّرَه، ونعترفَ له بالفضلِ والسبق.. ولكن لا يجوزُ لنا أَنْ نقدِّسَه، أَو أَنْ نَدَّعيَ له العصمة، فتقديسُ العلماءِ والمغالاةُ في حبهم لا تَجوزُ في الإسلام، والعصمةُ في ديننا لا تكونُ إلاّ لرسول الله ﷺ، وغيرهُ مُعَرَّضٌ للخطأ والوقوع في الذنب، مهما ارتقى في العلمِ والصلاحِ والتقوى، حتى لو كان من أصحاب رسولِ الله ﷺ!

لم يُقَدِّر اللّهُ أَنْ أُقابلَ سيد قطب، فقد ذهبتُ إلى مصر للدراسة في جامعة الأَزهر في شهر أيلول ـ سبتمبر ـ ١٩٦٥، وكان سيد قطب وقتها في السجن، حيث اعتُقل قبل ذلك بأَكثر من شهر، وبقيَ في الاعتقال والتعذيب والتحقيق والمحاكمة إلى أَنْ حُكِمَ عليه بالإِعدام، ونُفِّذَ الحكمُ فيه بعد حوالي سنة، حيث كان إعدامُه في يوم الاثنين ٢٩/٨/١٩٦٦.

وأَذكرُ أَنني رأيتُ صورةً تلفزيونيةً مؤثرةً لسيد قطب قبيلَ استشهاده: كنّا مجموعةً من الطلاب، في «كافتيريا» المدينة الجامعية لجامعةِ الأزهر، وكنا نتابعُ نشرةَ الأَخبار التلفزيونية في إِحدى الليالي.. وبعدما حُكم على سيد قطب وإخوانه بالإِعدام، عَرَضَ التلفزيون في تلك الليلة «اللقطة» لسيد قطب، بعدما علم بالحكم، وخرج من قاعة المحكمة العسكرية.

رأيناهُ في التلفزيون وهو يرتدي بدلتَه الأَنيقة، ويمشي خارجاً من قاعةِ المحكمة، والابتسامةُ تملأُ وجهه، وكان أَثناءَ سيره يصافحُ رجال الأَمن وغيرَهم من الذين يقابلهم، ويشدُّ على يدِ الواحدِ منهم، والابتسامةُ لا تفارقُه! وهبط درجات المحكمة حيث تنتظرُه السيارةُ العسكرية لتعيده إلى السجن، فصافح الرجال الذين كانوا على مدخل المحكمة بحرارة، ثم ركبَ في السيارة من الخلف، وقبلَ أَنْ تنطلقَ به السيارةُ إلى السجن، نظرَ من شباكِ السيارة إلى رجال الأمن وغيرِهم الواقفين، وحيّاهم تحيةً طيبة، والابتسامةُ تملأُ وجهه.. ونُشرت صورتُه وهو يبتسمُ هذه الابتسامة البليغةَ الساحرة المعبرة، المليئةَ بالدلالات، والتي قالَ فيها كلَّ ما يريدُ قوله...

ورغمَ أَنَّ الله لم يُقَدِّرْ لي الالتقاءَ بسيد قطب، إلاّ أنه قَدَّرَ لي أن أَتتلمذَ على فكره، وأَنْ أُقبلُ على مؤلفاته قارئاً متثقفاً،

ودارساً متعلماً، وقد «شَكَّلْتُ» فكري وثقافتي على أَساس الحقائق الصحيحة التي قَدَّمَها في أَبحاثه ومؤلفاته.

ولما قَدَّرَ اللّهُ لي متابعةَ دراستي العليا، اختار لي ـ سبحانه وتعالى ـ أَنْ أَدرسَ بعضَ مؤلفاته دراسةً أكاديميةً جامعية.

كانت رسالتي للماجستير بعنوان «سيد قطب والتصوير الفني في القرآن»، ونلْتُ بها شهادةَ الماجستير في التفسير وعلوم القرآن عام ١٤٠٠ ـ ١٩٨٠.. وكانت رسالتي للدكتوراه بعنوان: «في ظلال القرآن دراسة وتقويم» ونلْتُ بها شهادة الدكتوراه في التفسير عام ١٤٠٥ ـ ١٩٨٤م. والحمد لله!

ونَشَرْتُ رسالَتَيْ الماجستير والدكتوراه في خمسةِ كتب هي: سيد قطب الشهيد الحي، ونظرية التصوير الفني عند سيد قطب، ومدخل إلى «في ظلال القرآن»، والمنهج الحركي في ظلال القرآن، وفي ظلال القرآن في الميزان.

ثم أَتبعتُ هذه الكتبَ بكتابٍ سادس هو «أَمريكا من الداخل: بمنظار سيد قطب» جمعْتُ فيه كلامَ سيد قطب عن أمريكا في المجلات والكتب والأَبحاث.

وتابعْتُ جمعَ المعلومات عن حياة سيد قطب وفكره وعلمه ومؤلفاته وسيرته ومواقفه وجهاده، ولما حصلْتُ على «كَمٍّ» جيدٍ منها أَصدرتُ ترجمةً وافيةً لسيد قطب عام ١٩٨٩، بعنوان «سيد

قطب من الميلاد إلى الاستشهاد»، وكان في مجلدٍ كبير، تحدثتُ فيه عن مسيرةِ سيد قطب في مراحِلها المختلفة. والحمد لله.

ورغبَ الأُستاذُ الفاضل، والأَديبُ الباحث المثقف «محمد علي دولة» ـ صاحب دار القلم العامرة، التي نشرَتْ لي معظم مؤلفاتي ـ أَنْ يخصصَ حلقةً من السلسلة المباركة «أَعلام المسلمين» لحياة سيد قطب وفكره، وطلب منّي أَنْ أَكتبَ هذه الحلقة، لحسنِ ظَنِّه بمعلوماتي عن حياة سيد قطب وفكره، وعاودَ الطلبَ أكثرَ من مرة!!

ولم يكنْ لي بُدٌّ من الاستجابة، فالأُستاذُ محمد علي دولة «يَأْسِرُ» محدثَه بأَدبه ولطفه ورقته وفضله، وهو صاحبُ رسالةٍ علميةٍ فيما ينشرُ من مؤلفاتٍ علمية نافعة في دار القلم المباركة، جزاهُ اللّهُ عن العلم والعلماء والمتعلمين، وعن الإسلام والمسلمين خيرَ الجزاء.

لذلك أَعددتُ هذا الكتاب «سيد قطب: الأديب الناقد، والداعية المجاهد، والمفكر المفسر الرائد»، ليكونَ حلقةً من سلسلة «أَعلام المسلمين» المباركة، وجعلتُ هذا الكتابَ متفقاً مع سلسلةِ «أعلام المسلمين» بأَهدافها: التثقيفية التعليمية التهذيبية التربوية التوجيهية.

لم أُكررْ ما قلتُه قبلَ عشر سنوات عن سيد قطب في «سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد» وإنما أَخذتُ منه المعلوماتِ

والأَخبار، التي تتفقُ مع أهدافِ سلسلة «أعلام المسلمين» وانتقيتَ منها ما يحققُه ذلك انتقاءً.

أَردتُ أن يكونَ هذا الكتابُ مُعَرِّفاً بحياةِ سيد قطب، ومُعَرِّفاً بتراثه الفكري ومؤلَّفاته المختلفة، بينما كان الكتابُ السابق مُعرِّفاً بحياةِ سيد قطب فقط.

جعلتُ هذا الكتاب في تمهيدٍ وثلاثة فصول:

التمهيد: تحدثْتُ فيه عن الملامحِ العامة للقرن العشرين، حديثاً موجزاً جداً، لا يزيدْ على أَنْ يكونَ رؤوس أقلام.

وجاء التمهيد في مبحثين:

المبحث الأول: الملامح العامة للعالم.

المبحث الثاني: الملامح العامة لمصر.

الفصل الأول: مع سيد قطب في مسيرته الأدبية النقدية:

تابعْتُ فيه حياة سيد قطب الأُولى، وهي الحياةُ الأَدبية النقدية، التي أَقبلَ فيها على الدراسة والمطالعة، والبحثِ والتعليم والثقافة، وكانت اهتماماتُه فيها أَدبية نقدية شعرية بلاغية ثقافية. واستغرقَتْ هذه المرحلةُ حوالي أَربعين سنة من عمره، أي: ثُلُثَيْ عمرِه تقريباً!!

وجاءَ الفصلُ الأَول في تسعة مباحث:

المبحث الأول: مع سيد قطب في أسرته.

المبحث الثاني: مع سيد قطب في قريته.

المبحث الثالث: مع سيد قطب في دراسته في القاهرة.

المبحث الرابع: مع سيد قطب في وظيفته الحكومية.

المبحث الخامس: مع سيد قطب في السياسة والصحافة.

المبحث السادس: مع سيد قطب في صلاته بالأدباء والمفكرين.

المبحث السابع: مع سيد قطب في صلته بالعقاد.

المبحث الثامن: مع سيد قطب في أمريكا.

المبحث التاسع: مع سيد قطب في صلته بالثورة ورجالها.

ووقَفْتُ في نهايةِ الفصل عند انتهاءِ اهتمامات سيد قطب الأَدبية والنقدية، وبدايةِ اهتماماته الإسلامية والدعوية. وقادَنا الفصلُ الأَولُ إلى الفصلِ الثاني.

الفصل الثاني: مع سيد قطب في مسيرته الإسلامية الدعوية.

تحدَّثْتُ في هذا الفصل عن حياةِ سيد قطب الإسلامية التي قاربت العشرين سنة، وهي تستغرقُ ثلثَ عمرِه تقريباً. وهي أنضجُ وأَجودُ مراحلِ حياته، لأنها كانت مرحلةَ العطاءِ الفكري والثقافي والدعوي، وكانت قائمةً على توالي الابتلاءات والمحن، والظلمِ والعدوان، والاضطهاد والتعذيب، وانتهتْ هذه المرحلةُ بإنهاء حياته بالإعدام، ونيلِهِ الشهادةَ إن شاء الله!

وجاءَ هذا الفصلُ في تسعة مباحث أيضاً:

المبحث الأول: مع سيد قطب في توجهه الإسلامي.

المبحث الثاني: مع سيد قطب في طريقه إلى الإخوان المسلمين.

المبحث الثالث: مع سيد قطب في نشاطه الإخواني الثقافي.

المبحث الرابع: مع سيد قطب في محنته الأولى.

المبحث الخامس: مع سيد قطب في قيادته التنظيم الإخواني الجديد.

المبحث السادس: مع سيد قطب في محنته الثانية.

المبحث السابع: مع سيد قطب في محاكمته.

المبحث الثامن: مع سيد قطب في استشهاده.

المبحث التاسع: مع سيد قطب في شخصيته وطبيعته.

وقد شمل الفصلان الأَول والثاني نصفَ حجم الكتاب تقريباً، بينما شملَ الفصلُ الثالثُ أكثر من النصفِ الثاني، لأنه يتحدثُ عن فكر سيد قطب ومؤلفاته.

الفصل الثالث: مع سيد قطب في مسيرته العلمية الفكرية:

تحدثْتُ فيه عن سيد قطب الباحث الأَديب، المفكر المثقف، المؤلِّف المفسر، وتراثُه الأَدبيُّ والثقافيُّ والفكريُّ والدعويُّ موجودٌ مطبوعٌ متداول.

وهدفْتُ من هذا الفصل الذي استغرقَ أكثرَ من نصفِ الكتاب ـ إلى تعريفِ القراء بمؤلفاتِ سيد قطب المطبوعة، حيثُ كنتُ أذكرُ تاريخَ نشر الكتاب، والجوَّ الذي أَصدره فيه، وهَدَفه من إصداره، وطبيعةَ الكتاب وموضوعَه، وفصول الكتابِ ومباحثَه.

أَشرتُ إلى أنَّ تراث سيد قطب الأدبي والفكري قسمان: كتبُه المطبوعة، وبحوثه التي أعلنَ عنها ولكنه لم يطبعها، أو أنها أُتلفتْ من قبلِ الطغاة عند محنته وسجنه.

وبعدما عَرَّفْتُ ببحوثه التي أَعلن عنها لكنها لم تُنشر، عَرَّفْتُ بكتبه المطبوعة، التي حصرتُها بستةٍ وعشرين كتاباً، ورتبتُ هذه الكتب حسب صدور طبعاتها.

وجاء هذا البحث في تسعة مباحث:

المبحث الأول: تراث سيد قطب الأدبي والفكري.

المبحث الثاني: تعريفٌ بكتبه الأدبيةِ والنقدية. وهي ثلاثةَ عشر كتاباً: مهمة الشاعر في الحياة، والشاطىء المجهول، ونقد كتاب مستقبل الثقافة في مصر، والأطياف الأربعة، وأشواك، والمدينة المسحورة، وطفل من القرية، وكتب وشخصيات، وروضة الطفل، والقصص الديني للأطفال، والجديد في اللغة العربية، والجديد في المحفوظات، والنقد الأدبي أصوله ومناهجه.

المبحث الثالث: المفتاحُ الجماليُّ ومكتبةُ القرآن الجديدة: تحدثْتُ فيه عن مشروع «مكتبة القرآن الجديدة» الذي أسسه على

أساس مفتاحِه الجمالي الذي فتح به كُنوزَ القرآنِ الجمالية، وقدَّم به نظريتَه الرائدة: «نظرية التصوير الفني في القرآن».

وعَرَّفْتُ بكتابين أصدرهما في هذا الميدان، هما: التصوير الفني في القرآن، ومشاهد القيامة في القرآن.

المبحث الرابع: كتبُ سيد قطب الفكرية الإسلامية قبل سجنه: وهذه الكتب هي: العدالة الاجتماعية في الإسلام، ومعركة الإسلام والرأسمالية، والسلام العالمي والإسلام، ودراسات إسلامية.

المبحث الخامس: كُتبُ سيد قطب الفكرية الإسلامية في السجن: وهذه الكتب أربعة هي: هذا الدين، والمستقبل لهذا الدين، والإسلام ومشكلات الحضارة، وخصائص التصوير الإسلامي.

المبحث السادس: في ظلال القرآن: تفسيرٌ حركيٌ دعويٌّ تربوي، خصصْتُ هذا المبحثَ للحديثِ عن الظلال، بهدف تعريفِ القراء الكثيرين المعْجَبين بالظلال عليه. وقد تحدثْتُ فيه عن مراحلِ تأليف الظلال، والجوِّ الذي أُلِّفَ فيه، ومنهجِ سيد قطب فيه، في طبعتهِ الأُولى، وفي طبعته المنقحة، ووضَّحْتُ كيف أنَّ منهجَ سيد قطب فيه كان «منهجاً حركياً دعوياً تربوياً»، وأنَّ سيد قطب كان مؤسِّساً لهذه المدرسة الحركية الدعوية في التفسير!

كما تحدثت عن أهداف الظلال، ومراجع سيد قطب وهو يكتبه، من كتب التفسير والحديث والتاريخ والفكر الإسلامي المعاصر.

المبحث السابع: معالم في الطريق: رائدُ الكتبِ الحركية في فقه الدعوة. عَرَّفْتُ فيه بقصة تأليفِ هذا الكتاب، وهدفهِ منه، وقبولِ المرشدِ العام للإخوان المسلمين حسن الهضيبي له، ثم قبولِ خليفتهِ المرشد العام عمر التلمساني له. وعَرَّفْتُ بعد ذلك بفصولِ المعالم، وموضوعات كلِّ فصل! ثم بينتُ كيفَ أنَّ هذا الكتابَ هو رائدُ كتبِ فقهِ الدعوة.

المبحث الثامن: مُقَوِّماتُ التصور الإسلامي: خاتمةُ كتب وحياة وتجربة سيد قطب. ذكرْتُ قصةَ تأليفِ الكتاب، والجوَّ الذي أَلَّفَه فيه، ونشْرَ شقيقه الأُستاذ محمد قطب له، بعد عشرين سنة من استشهادة، ثم عَرَّفْتُ بفصولِ الكتاب تعريفاً مُفْهماً، مُقَدِّماً صورةً جيدة، للراغبِ في التعرُّفِ على طبيعة الكتاب، وموضوع فصوله.

المبحث التاسع: مزايا فكر سيد قطب وأَخطاءُ التعامل معه: ذكرْتُ في هذا المبحث المزايا الأساسية التي تميَّزَ بها فكرُ سيد قطب، واعتُبر بسببها رائدَ الفكرِ الإسلامي المعاصر، ودعوْتُ إلى حسن النظر إلى سيد قطب وفكره، بدون مبالغةٍ في الذم والانتقاص، ولا مغالاة في الحبِّ تصلُ إلى التقديس!

ثم عرضْتُ أهمَّ أَخطاء التعامل مع سيد قطب، التي وقعَ بها بعضُ مَنْ يَدْرُسون في مؤلفات سيد قطب، بهدفِ اكتشاف الأخطاء وتكبيرها، وجعلِها وثيقة إدانةٍ له.

فهذا المبحثُ خلاصةٌ موجزة لموضوع «الدفاع عن سيد قطب وفكره».

أما خاتمةُ هذا الكتاب، فقد أَحببتُ أَنْ أَسجلَ فيها «شهادات إِنصافٍ لسيد قطب» وتعمَّدْتُ أن تكونَ هذه الشهاداتُ لثلاثةِ أَعلام، كلٌّ منهم يمثلُ جزءاً مهماً، وجانباً أَساسياً، يتعلق بسيد قطب وفكره، وبالفكرِ الإسلامي المعاصر:

الشهادةَ الأُولى: للأستاذ محمد قطب: باعتباره شقيق الشهيد، وأَعرفُ الناس بفكره، لأنهما كثيراً ما كانا يلتقيانِ ويتدارسانِ المسائل الفكرية والدعوية التي أُثيرَ حولها كلامٌ وجدال فيما بعد، فوضَّحَ الشاهدُ حقيقةَ رأيِ أخيه في تلك المسائل.

الشهادةُ الثانية: للأُستاذ عمر التلمساني، المرشد العام الثالث للإخوان المسلمين، وقيمةُ هذه الشهادة أَنها صادرةٌ عن «أعلى» سلطةٍ قياديةٍ في جماعة الإخوان المسلمين، والأَصلُ أن تكونَ هذه الشهادةُ مقبولةً عند فريق من الإخوان الذين يحرصون على مهاجمةِ سيد قطب وتشويهِ فكره، واتهامه بالباطل!

الشهادةُ الثالثة: للأُستاذ الدكتور بكر بن عبد الله أبو زيد: العالم المشهور في المملكة العربية السعودية، وهو له شهرةٌ علميةٌ في مختلف الأَوساط العلمية والإسلامية.

وشهادتهُ في إِنصاف سيد قطب وفكره، وَرَدَتْ ردّاً منه على الدكتور ربيع بن هادي المدخلي، الذي أَلَّفَ كتباً في اتهام سيد قطب، وإثارة الشبهات المختلفة ضدّ فكره. فردَّ عليه الدكتور بكر أبو زيد بموضوعيةٍ وعلميةٍ وإِنصاف! وسجلْتُ رسالتَه التي وجَّهها للمدخلي كاملة!!

وأَخيراً هذه هي الدراسة عن حياة سيد قطب وفكره: فهو أَديب ناقد، وهو داعية مجاهد، وهو مفكر مفسر رائد.

نقدِّمُها لتكونَ حلقةً من السلسلة المباركة «أعلام المسلمين» على أنَّ سيد قطب هو أَبرزُ «أَعلام المسلمين» في هذا العصر. ونرجو أنْ يجدَ فيها الإخوةُ القراء بعضَ النفع والفائدة، وأَنْ يتعرفوا فيها على جوانب من شخصية العالم الرائد سيد قطب رحمه الله.

وأَتقدمُ إلى الله بهذا العمل، راجياً منه حسن قبوله، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي

الأحد ٢٢/ ٢/ ١٤٢٠هـ - ٦/ ٦/ ١٩٩٩م



تمهيد

الملامح العامة للقرن العشرين



الملامح العامة للعالم

سيد قطب عاشَ حياتَه في القرنِ العشرين الميلادي، حيث وُلدَ في مطلعِ هذا القرن، إذْ كانتْ ولادتُه سنة ١٩٠٦، واستُشهدَ في الربعِ الثالث منه، إذْ كان استشهادُه سنة ١٩٦٦.

وحتى نتعرَّفَ على حياةِ سيد قطب، لا بدَّ أن نقفَ على الملامحِ العامةِ لهذا القرن العجيب، ملامحِه العالمية، وملامحِه العربية والإسلامية، ونُجملُ القولَ في هذه الملامح العالمية والمحلية، ونُقدمُها في غايةِ الاختصار.

إنَّ القرن العشرينَ قرنٌ عجيبٌ حقاً، من أكثرِ قرونِ التاريخِ البشريُّ مفاجآتٍ وتطوراتٍ وتغييرات، ظهرَ هذا في نصفِه الأَوَّل، وكان أكثر ظهوراً في نصفه الثاني.

ويهمُّنا الحديث عن ملامحه العامةِ في نصفِه الأول، لأنها الفترةُ التي فتحَ سيد قطب عينيه عليها، والتي تأثَّرَ بها وأَثَّر فيها.

الاستعمار الصليبي للعالم:

شهدَ القرنُ التاسعُ عشر ـ الذي قبلَه ـ التخطيط والمكرَ والكيدَ الصهيونيَّ اليهوديَّ والصليبيَّ الغربيَّ للسيطرة على العالمِ العربيِّ والإسلامي.

وكانت معظمُ بلدانِ العالمِ العربيِّ خاضعةً للخلافةِ العثمانية الإسلامية، وكانت استانبول عاصمة الخلافة، ومحطَّ أنظارِ الجميع.

تمكنتْ أُوروبا الصليبيةُ الاستعماريةُ من استعمار بلادٍ كثيرة في العالم الثالث، في أَفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، والدول المستعمِرةُ هي: إسبانيا والبرتغال وإيطاليا وهولندا وبلجيكا وروسيا.

وكانت قيادةُ الاستعمارِ والسيطرة بيدِ الدولتين الكبيرتين: فرنسا وبريطانيا.

واستيقظت الأحلامُ التوسعيةُ والاستعماريةُ في العقلية الأمريكية، وبدأت التوجُّه نحو السيطرةِ على العالم الثالث، ومزاحمةِ الاستعمارِ الفرنسي والبريطاني.

الأطماع اليهودية:

وفتحت اليهوديةُ العالميةُ عيونَها على السيطرةِ والتمكين، والاستفادة من المكاسبِ التي يجنيها الغربُ الصليبيُّ

الاستعماري، ونشطَ الذراعُ السياسي لليهودية. وهو الصهيونيةُ العالمية ـ في التخطيطِ والكيدِ والتآمر.

وظهر في أوروبا يهودٌ صهاينة. نشطوا في العملِ بين اليهودِ المنتشرين في أُوروبا وأمريكا، ودَعوا إلى تجميعهم، وتوجيه حركتِهم السياسيةِ والاقتصادية والعلمية والفنية.

والعقليةُ اليهوديةُ عقليةٌ استعلائيةٌ انتهازيةٌ استغلاليةٌ نفعية، تُحسنُ الاستفادة من الفُرصِ المتاحة، ولا تتخلّى عن رغبتِها المتأصِّلة فيها في استغلالِ الآخرين، والتحكُّمِ فيهم، وإذلالِهم وتطبيعِهم، والاستحواذ على ما في أَيديهم.

واستيقظتْ في عقولِ قادةِ اليهوديةِ الصهيونيةِ العالمية أَحلامُ العودةِ إِلى «أَرضِ الميعاد»، المتمثلةِ في فلسطين وما حولَها، وتأسيسِ الدولةِ اليهوديةِ فيها، لتكونَ امتداداً للدولةِ اليهوديةِ القديمة، التي دُمِّرَتْ قبلَ حوالي أربعةٍ وعشرين قرناً!!

أَرادَ اليهودُ الصهاينةُ تجميعَ اليهودِ من العالم، وإِعادَتهم إلى أَرض فلسطين، وإِعلانَ الدولةِ اليهودية فيها، والتوسع بعد ذلك لأخذِ بقاعٍ مجاورة، والانطلاقَ منها للسيطرة على العالم!!

وكان النصفُ الثاني من القرنِ التاسع عشر للتخطيطِ وتحديدِ الوسائلِ والخطواتِ لتحقيقِ الأَهداف والغايات.

حدَّدَ زعماءُ اليهودِ الصهاينة أَهدافَهم ووسائلَهم، وسَجَّلوا بعضَها في «بروتوكولات» خاصة، وأَخفوا بعضَها الآخر. وظهرتْ تلكَ البروتوكولات، واطَّلَعَ عليها بعضُ الناس من غير اليهود.

المؤتمر اليهودي العالمي سنة ١٨٩٧:

وقبيل انقضاءِ القرنِ التاسع عشر، عُقِدَ المؤتمرُ اليهوديُّ الصهيونيُّ العالميُّ في «بازل» في سويسرا، وكان هذا عام ١٨٩٧م، وكان المؤتمرُ بزعامةِ اليهوديِّ الصهيوني «ثيودور هرتزل» ـ رئيس أَوَّلِ دولةٍ يهودية عام ١٩٤٨ ـ وقرَّرَ المؤتمرون جعْلَ القرنِ العشرين قرنَ «السيطرةِ اليهودية على العالم»!!

قرروا إقامةَ الدولةِ اليهوديةِ على أرضِ فلسطين في النصف الأَول من القرن العشرين، والانطلاقَ منها لإحكامِ السيطرةِ على فلسطين والمناطقِ المجاورةِ في النصفِ الثاني منه، بحيث لا ينتهي القرنُ العشرون إلاّ واليهودُ قد سيطروا على المنطقة، وعلى العالم!!

ورسَموا الخططَ اللازمةَ لتنفيذِ ذلك القرار، وتواصَوْا على تحقيقِ تلك الخطط بخطواتٍ مدروسةٍ بإتقانٍ وإِحكام!

ولذلك يمكنُ أنْ نطلقَ على القرنِ العشرين أَنه قرنُ «التخطيطِ اليهوديِّ الصهيوني» للسيطرةِ على الأرضِ المقدسة، والانطلاقِ منها للهيمنة على العالم!!

التآمر اليهودي الصليبي على الخلافة:

وبما أن المسلمين هم العدوُّ الأكبرُ لكلٍّ من اليهودِ والصليبيين، فقد التقى الحقدُ الصليبيُّ والكيدُ الصهيونيُّ للتآمرِ على المسلمين، وعلى قيادتِهم السياسية، المتمثلةِ في «الخلافةِ» العثمانية في استانبول. واتفقَ العَدُوّان اللَّدودانِ على تنسيقِ وتوجيهِ حقدِهما للقضاءِ على الخلافة، والسيطرة على المسلمين!

وشهدَ الربعُ الأولُ من القرنِ العشرين انقلابَ اليهودِ على الخلافة من الداخل، وإقصاءَ الخليفة عبدِ الحميد الثاني، واستيلاءَ عملاءِ اليهود والصليبيين من جمعيةِ «الاتحاد والترقي» على الحكم.

كما شهدَ الربعُ الأولُ من هذا القرن نشوبَ الحربِ العالمية الأَولى، حيث تحالفَتْ تركيا وألمانيا ـ من جهة، وتحالفَتْ بريطانيا وفرنسا ومَنْ معهما مِن جهةٍ أُخرى.

وأَدَّت الحربُ العالميةُ الأُولى إلى هزيمةِ تركيا وألمانيا أَمامَ قواتِ الحلفاء، وتمَّ القضاءُ على سلطان الخلافة، حيث اقْتَطعت الدولُ المنتصرةُ معظمَ البلدانِ التابعةِ للخلافة، واحتلَّ الفرنسيون بلادَ المغربِ العربي وسوريا ولبنان. واحتلَّ الانجليز مصرَ والأردن والعراق والخليج.

واقتسمتِ الدولتان المكاسبَ فيما بينهما، وعَقدتا معاهدةَ «سايكس ـ بيكو» ورَسَمتا فيها الخارطةَ السياسيةَ للمنطقة،

وقسَّمتاها إلى دولٍ صغيرةٍ تابعة لهما. وهكذا احتلَّ الانجليزَ والفرنسيون العالمَ العربي كلَّه، واستعمروه استعماراً مباشراً، واستَصْدَروا قراراً من عصبة الأُمم بوضْعِ «فلسطين» رسمياً تحتَ الانتدابِ الانجليزيِّ.

وتَوَّجَت اليهوديةُ العالميةُ انتصاراتِها مع قواتِ الحلفاء البريطانية والفرنسية، باستصدارِ بريطانيا رسمياً الوعدَ الذي عُرِفَ فيما بعد باسم «وعد بلفور». حيث تعهَّدَت بريطانيا رسمياً بإنشاءِ وطنٍ قوميٍّ لليهودِ على أرضِ فلسطين.

وفي آخرِ الربعِ الأَوَّل من هذا القرن قامَ رجلُ اليهودِ والصليبيين في تركيا «مصطفى كمال أتاتورك» بإلغاءِ الخلافة، التي أُلغيت عملياً قبلَ ذلك.

وبدأتْ حركاتُ التحررِ في مختلفِ بلادِ العالم للتحرر من الاستعمارِ الغربيِّ الصليبي، ووقعتْ مواجهاتٌ بين الوطنيين وقواتِ الاستعمار.

ونجحَ الشيوعيونَ في الاستيلاءِ على الحكم في روسيا القيصرية، ذاتِ الرقعةِ الواسعة، والمركزِ المرموق، وكان هذا في سنة ١٩١٧. ودخلت الشيوعيةُ العالميةُ مركزَ الثقل العالمي.

وشهدَ الربعُ الثاني من القرن العشرين ازديادَ نشاطِ القوات الوطنية ضدَّ قوات الاستعمار الصليبي

من نتائج الحرب العالمية الثانية:

وشهدَ انتشارَ الأفكارِ النازيةِ الاستعلائيةِ في ألمانيا. وحكمَ ألمانيا الزعيمُ النازيُّ «أدولف هتلر»، كما حكمَ إيطاليا حليفُه «موسوليني»، وقامتْ قواتُ النازية باحتلالِ بلدانِ أوروبا الشرقية والغربية.

وهكذا نشبت الحربُ العالمية الثانية، التي استمرتْ عدةَ سنواتٍ شديدةٍ عصيبة، وتحالفَتْ دولُ العالمِ ضدَّ ألمانيا وإيطاليا، وتمكنتْ قواتُ الحلفاءِ من هزيمةِ قواتِ النازية، واحتلتْ روسيا الشيوعيةُ أوروبا الشرقيةَ وألمانيا الشرقية، واحتلتْ قواتُ الحلفاءِ ألمانيا الغربية.

ودخلتْ أَمريكا الحربَ في جولتها الأخيرة، وقطفتْ ثمارَ النصر، وتمَّ إنشاءُ «هيئة الأمم المتحدة» على أَرضٍ أمريكية!

وشهدَ آخرُ الربعِ الثاني من هذا القرنِ إعلانَ الدولةِ اليهودية على جزءٍ من أرضِ فلسطين.

وهكذا وقعت في الربعِ الأول من هذا القرن الحربُ العالمية الأولى، وانتهى بإلغاءِ الخلافةِ الإسلامية، ووقعتْ في الربعِ الثاني الحربُ العالمية الثانية، وانتهى بإعلانِ الدولةِ اليهودية!!

وفي بدايةِ النصفِ الثاني من هذا القرن كانت أمريكا هي الدولةَ الأقوى في العالم، تقودُ العالمَ الغربيَّ الصليبي الرأسمالي،

وورثتْ بريطانيا وفرنسا في أماكِن نفوذهما في العالم، وفي العالمِ العربي والإسلامي على وجهِ الخصوص.

بينما كانت روسيا الشيوعية تقودُ العالمَ الشرقيَّ الشيوعي، في مواجهةِ أمريكا، ونشبتْ بين الدولتيْن العظميين الحربُ الباردةُ المعروفة!!

وعاشَ العالمُ في الربعِ الثالثِ من هذا القرن تصعيداً في الحرب الباردة بين أَمريكا والاتحاد السوفياتي، وحرصت كلٌّ دولة منهما على استقطابِ كثيرٍ من الدول معها. وتحررتْ دولُ العالم من الاستعمار الغربيِّ المباشر.. وانحازتْ بعضُ دولِ العالم العربي لأمريكا، وانحازَ بعضُها الآخرُ لروسيا.

وشنَّ اليهودُ حربَهم عام ١٩٦٧ على الدول المجاورة، واحتلّوا فلسطين كلَّها، كما احتلّوا سيناء والجولان، وأقاموا دولتَهم اليهودية على كاملِ أرضِ فلسطين. وانتقلوا إلى تحقيقِ المراحل التالية من دولتهم وهيمنتهم العالمية، وفقَ المخططِ الصهيوني اليهودي العالمي.

في ربع القرن الأخير:

أما الربع الأخيرُ من هذا القرن فقد شهدَ القضاءَ على الاتحاد السوفياتي، واستفرادَ أَمريكا بالهيمنةِ الظاهريةِ على العالم، كما شهدَ توجُّهَ الدولِ العربية للصلحِ مع الدولةِ اليهودية المحتلَّة،

وعقْدِ اتفاقياتِ «سلام» معها، وانسيابَ اليهودِ في العالم العربي سياسياً واقتصادياً وإعلامياً وفنياً واجتماعياً، وتحويلَ العالم العربي والإسلامي إلى سوقٍ مفتوحةٍ للجشعِ اليهودي!

وفي هذه الأيامِ الأخيرةِ للقرن العشرين، ها نحنُ نرى أَمريكا تتحكَّمُ في العالم، وتُوَجِّهُه حيث تشاء، وها نحنُ نرى انقضاءَ المائةِ عام التي حدَّدَها اليهود الصهاينة (١٨٩٧ ـ ١٩٩٧)، وقد حققَ اليهودُ فيها معظمَ ما أَرادوا وخططوا، وهم في طريقِهم للهيمنةِ على العالم، وهذا كلُّه إلى حينٍ طبعاً!

وها نحن نرى الانحسارَ والتراجعَ في مختلفِ المواقع والمجالات على الساحة العربية والإسلامية، فبينما يُوالي اليهودُ صعودَهم، يوالي العربُ والمسلمون نزولَهم وانحدارهم!!

الملامح العامة لمصر

بعدَ تقديم تلكَ الصورةِ المجملةِ لملامح الحياةِ العالمية، ننتقلُ لتقديمِ صورةٍ مجملةٍ لملامح الحياةِ العامةِ في مصر.

فمن المعلومِ أنَّ لمصرَ مكانةً مرموقةً في العالم العربي، تقومُ بدور الصَّدارةِ والقيادة، في الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية والثقافية.

وقد مرَّتْ مصر ـ ومعها العالمُ العربي ـ بتطورات وتغييرات ومفاجآتٍ خطيرةٍ في هذا القرن، بحيثُ أَصبحَ القرنُ العشرون هو أخطرَ القرونِ التي مرَّتْ على المنطقة.

كانت مصرُ تحتَ الاحتلالِ الانجليزي، وانطلقتْ قواتُ الانجليز لاحتلالِ فلسطين والأردن في الحربِ العالمية الأولى. وكانت تحكمُ مصرَ أسرةُ «محمد علي»، وتقيمُ فيها نظاماً وراثياً، لكنَّ هذا النظامَ كان تابعاً لقواتِ الاحتلالِ الانجليزي!

وكان في مصر الجامعُ الأزهر، ذو التاريخ الإسلاميِّ والعلميِّ والجهاديِّ المعروف، وعملَ الانجليزُ على تحجيم دورهِ

المؤثِّر، وتمَّ إنشاءُ المدارس والجامعات المصرية، التي تعلِّمُ على الطريقةِ الغربية، وتُطبقُ على الطلابِ مناهجَ التصوُّرِ والتفكيرِ الغربي.

نتائج الدراسة وفق المناهج الغربية:

وتم إيفادُ المتفوقين من الطلابِ للدراسةِ في جامعاتِ الغرب، وتقبَّلَ معظمُ هؤلاء مظاهرَ الحياةِ الغربية، والثقافةَ الغربية، والفكرَ الغربي، وغُسلتْ أَدمغتُهم وأَفكارُهم من الفكرِ الإسلامي، وعادوا إلى مصر بأسماءَ عربيةٍ إسلاميةٍ، وعقولٍ غربية، وشخصياتٍ أَجنبية، ولم يشذَّ عن هذه الظاهرةِ إلاّ القلائلُ ممن ثَبَّتهم الله!

وتولّى هؤلاء العائدون تعليمَ وتوجيهَ الأَجيالِ الناشئة على أفكارِهم وتصوراتهم الغربية، وشَغلوا مختلفَ مراكزِ الإدارةِ والتخطيط والتنفيذ.. وتخرَّجَتْ أَجيالٌ جديدةٌ من طلبةِ المدارس والكلياتِ والجامعات على المناهجِ التعليميةِ الغربيةِ الجديدة، ونشأوا غرباءَ عن دينهم ووطنهم، ولم يَسْلَمْ من ذلك إلاَّ القلائلُ ممنْ عصمهم الله!!

وفُتحت المدارسُ والجامعاتُ للتعليمِ المختلَط، بين الطلاب والطالبات،. وأدّى هذا الاختلاطُ بين الجنسين إلى مظاهرَ خطيرة، ومخالفاتٍ شديدة، ومفاسدَ مدمرة!

وتولّى الخريجون من الرجالِ والنساء الوظائفَ المختلفةَ في الوزارات والمؤسسات، وهم بهذه المخالفاتِ الشرعية والتبعيةِ الفكرية الغربية، والغربة عن الإسلام والتاريخ والتراث، ولم يسلمْ من ذلك إلاَّ مَنْ رحمهم الله وثَبَّتَهم على الحق.

ملامح الحياة السياسية والاجتماعية:

وقامَ الشعبُ المصريُّ بثورتِهِ المعروفة سنة ١٩١٩، وأَعلنوا رفضَهم للاحتلال الانجليزي، وكانت ثورتُهم ذاتَ ملامح وروحٍ إسلامية، ولكنَّ الثورةَ لم تُؤْتِ ثمارَها، وتمكَّنَ النفعيُّون من التسلُّقِ عليها، وقطفِ ثمارِها لمصالحهم، ولم يُطْرَد الانجليزُ من البلاد، وظهرَ «سعد زغلول» زعيماً للثورة، ثم صارَ زعيماً شعبياً للبلاد، وأَسَّسَ حزبَ الوفد، أَقوى الأحزاب المصرية وقتها.

وكان سعد زغلول من ثمراتِ التخطيطِ الغربيِّ الفكري والتعليمي للأجيالِ الجديدةِ في مصر، حيث كان تفكيرُه وتصوُّرُه وسلوكُه وارتباطُه وحياتُه وفقَ النظرةِ الغربيةِ للفكرِ والسلوك والحياة الغربيةِ على النظرة الإسلامية!

سيطرَ حزبُ الوفدِ على الحياةِ السياسيةِ المصرية في النصفِ الأولِ من هذا القرن، وكان بجانبه مجموعةٌ من الأحزابِ المصريةِ المتوسطة والضعيفة، تُشاغِبُ على حزب الوفد، ويُشاغبُ هو عليها، وكان القصرُ الملكيُّ يلعبُ لعبتَه في إشراكِ هذه الأَحزاب في الحكم، وتشكيلِ الحكومات المختلفة!!

وفسدت الحياةُ السياسيةُ في مصر فساداً كبيراً، بلَغ الذروةَ في نهايةِ الملكية وإقصاءِ الملك فاروق، على يد رجالِ الثورة، عام ١٩٥٢.

ولم تكن الحياةُ السياسيةُ بعدَ الثورة على يدِ عبد الناصر ونظامِه أَحسنَ حالاً من الحياةِ في عهد الملكية، حيث نَخَرَ فيها الفساد، وظهرتْ فئاتٌ من النفعيّين والمرتزقةِ والمرتشين والظالمين من المدنيين والعسكريين، زادت الأَحوالَ السياسيةَ سوءاً وفساداً وانحرافاً، حتى وقعتْ هزيمةُ عام ١٩٦٧.

وكانت الحياةُ الاجتماعية العامةُ تقومُ على ظلمٍ وقهر، فهناك طبقةُ المسؤولين التي تُحَقِّقُ مكاسبَها المتزايدة، بمختلفِ الوسائل غيرِ الشريفة وغير المشروعة، وهناك القطاعُ الكبيرُ من الشعب الذي لا يكادُ يجدُ أَفرادُه القوتَ الضروري.

وكلَّما زادَ النفعيّون المسؤولون مكاسبَ وغنى، ازدادت الجماهيرُ المسحوقةُ حرماناً وفقراً وجوعاً. سواءٌ في عهد الملكية، أم في عهدِ الجمهورية!!

ملامح الحياة العلمية والأدبية:

ونشطت الحياة العلميةُ والثقافية في مصر، بفضلِ المدارسِ والكليات والجامعات، ونشاطِ مَنْ يتخرَّجون منها، وبفضلِ أَقطابِ الأدبِ والشعرِ والعلم والفن.

وكان لانتشارِ الطباعةِ أثرٌ ملحوظٌ في نشرِ الأدبِ والثقافة في المجتمع، وظهرت الصحافةُ اليوميةُ والأسبوعيةُ والشهريةُ والفصلية، كما ظهرت المجلاتُ الأدبيةُ المتخصصة.

طُبِعَ الكثيرُ من الكتبِ في مختلف حقولِ المعرفةِ والثقافةِ والعلم، كتبٌ علميةٌ، وكتبٌ ثقافيةٌ، وكتبٌ فكريةٌ، وكتبٌ أدبيةٌ، وكتبٌ فنيةٌ.

وكانت سوقُ الأدبِ رائجة، بفضْلِ المجلات الأدبية، وما يُنشرُ فيها من مقالاتٍ وقصص وقصائد، وبفضلِ الكتبِ الأدبية المطبوعة، من رواياتٍ وقصصٍ ومسرحيات ودواوين شعرية، ودراساتٍ وتحليلات.

ونبغَ روادٌ من الأدباء، من كتّابِ الرواياتِ والقصص، ومن الشعراءِ والمحلِّلين، ومن الناقدين والمؤرخين. وظهرت المدارسُ الأدبيةُ والنقدية المختلفة، ونظرياتُ النقد الأدبي ومناهجُه المتعددة.

ظهرَ من الشعراء الكبار محمود سامي البارودي، وأحمد شوقي، وحافظ إبراهيم.. وكان من الشعراء أيضاً مصطفى صادق الرافعي وعباس العقاد، وأحمد زكي أبو شادي، وعبد الرحمن شكري، ومحمود حسن إسماعيل، وغيرُهم.

وظهرَ من كبارِ الأُدباء: عباس العقاد، ومصطفى الرافعي، وإبراهيم عبد القادر المازني، وأحمد حسن الزيات، ومصطفى

لطفي المنفلوطي، ومحمد حسين هيكل، وزكي مبارك، وأحمد أمين، وطه حسين، وغيرُهم.

وكان لسيد قطب وجودُه الأدبيُّ والنقديُّ والشعريُّ الملحوظ، ومكانهُ الراسخُ بين الأدباءِ والشعراء والنقاد.

وقادتْ مجلةُ الرسالة لصاحبها أحمد حسن الزيات، ومجلةُ الثقافة لصاحبها أحمد أمين الحركةَ الأدبيةَ والنقدية فترةً من الزمن، وكان لسيد قطب نشاطُه البارزُ في المجلتيْن.

وبذلك تكونُ الحياةُ الأدبيةُ المصرية قد شهدت تقدُّماً وازدهاراً في الربعِ الثاني من القرنِ العشرين، ولعلَّ هذه الفترةَ كانت أَزهى فتراتِها طيلةَ هذا القرن!!

ملامح الحياة الإسلامية:

أما الحياةُ الإسلاميةُ في مصر، فقد كان يمثُلها الأزهرُ في مطلعِ هذا القرن، فهو رمزُ الإسلامِ والعلمِ والمعرفة، وكان خريجوه الأَزهريّون يتولَّون أُمورَ الشعبِ الدينيةِ في المدنِ والقرى والمراكز والمدارسِ والمساجد. وكان يشاركُ الأزهرَ بعضُ الجمعياتِ والمؤسساتِ المحدودة.

وتمَّ تأسيسُ جمعيةِ «الشبان المسلمين» في مطلعِ هذا القرن، وكانتْ تقومُ ببعضِ النشاطِ الإسلاميِّ الرياضيِّ والثقافي.

وفي بدايةِ الربعِ الثاني من هذا القرن أَسَّس حسنُ البنا جماعةَ: «الإِخوان المسلمين» لتكون جماعةً إسلاميةً عامة، تقومُ بنشاطٍ إسلاميٍّ شامل، وتُقدمُ الإسلامَ للناس بمفهومِه المتكامل، وقدمَتْ هذه الجماعةُ نفسَها للناس باعتبارِها حركةً دعويةً جهاديةً تغييريةً شاملة، تريدُ إيجادَ المجتمعِ الإسلامي، واستئنافَ الحياةِ الإسلامية العملية، وتحريرَ البلاد الإسلامية من الاستعمارِ والنفوذِ الغربي، وإنشاءَ الخلافة الإسلامية.

ومن مزايا هذه الجماعةِ أنَّ حسن البنا أَسَّسَها بعدَ إعلانِ مصطفى كمال أتاتورك إِلغاءَ الخلافةِ الإسلامية، في تركيا، مما جعلَ بعضَ المسلمين يعتبرونَها شبهَ وارثةٍ للخلافة الإسلامية، وامتداداً طبيعياً لها.

ونشطَ حسنُ البنا في الربعِ الثاني من القرن العشرين في مختلفِ مدنِ وقرى مصر، من الاسكندرية إلى أَسوان، واستقطبَ حولَه الكثيرين من الشبابِ الإسلاميِّ الصالح، وأَنشأَ العديدَ من مراكزِ الإخوان في كلِّ المدن والقرى، والْتفَّ حولَه الدعاة.

وأَحدثتْ جماعةُ الإخوان المسلمين وعياً إسلامياً، وعودةً إلى الإسلام، في الأجيالِ الجديدة، التي عانَتْ من الغربةِ الإسلاميةِ من قبل، ووجدَ الشبابُ الصالحُ فيها بغيتَهم وآمالَهم، فانضمُّوا لها، وعملوا للإسلام من خلالها.

وقامَ الإخوانُ المسلمون بمواجهةِ الاحتلال الانجليزي مواجهةً جهاديةً قتالية، ومواجهةً فكرية وعلمية، وقدَّموا الكثيرَ من المظاهرِ والأَعمالِ الإسلاميةِ الناجحة، في الصحافةِ ودورِ النشر والمدارس، والمراكز والجمعيات الخيرية والشركات الاقتصادية.

وما أن أوشكَ الربعُ الثاني من القرن العشرين على الانقضاء، حتى كان الإخوان المسلمون أكبرَ جماعةٍ وتنظيمٍ إسلامي وحزبيٍّ في مصر، يضمُّ مئاتِ الأُلوف، ويقومُ بالعديد من الأعمالِ الإسلامية، التي نالتْ إعجابَ الشعبِ المصري.

وتَوَّجَ الإخوانُ المسلمون جهادَهم الداخليَّ بالتوجُّهِ إلى الجهادِ الخارجي، فأَرسلوا وحدات ومجموعاتِ المجاهدين، لقتالِ اليهود على أرضِ فلسطين، قبيلَ إعلانِ الدولة اليهودية عام ١٩٤٨. وقامتْ هذه المجموعات بجهادٍ ملحوظٍ ضدَّ اليهود!

الابتلاءات والمحن للإخوان المسلمين:

وفتحتْ قوى البغيِ والعدوان العالميِّ عيونَها على هذه الجماعة، وأدركَ الصليبيون واليهودُ مدى خطورتِها على مخططاتِهم ومكائِدهم، وعرفوا مقدارَ تأثيرِها في الجماهير، وأيقنوا أَنهم إِن لم يسارعوا بضربِ هذه الجماعةِ الصاعدة فسوف تنجحُ في تحقيقِ أَهدافها، في إحياءِ الإسلام في نفوسِ المسلمين، وإِعادةِ الخلافةِ الإسلامية، وهذا معناهُ فشلُ الجهودِ الضخمة التي بذلَها اليهودُ والصليبيون للقضاءِ على هذه الأمة!

وأَوعزَ الصليبيّون واليهودُ إلى أَعوانهم في مصر ـ المتمثلين في رجالِ النظامِ الملكي المصري ـ بضربِ الإخوان المسلمين وزجِّهم في السجون..

وشهدتْ آخرُ سنةٍ من الربع الثاني من هذا القرن الضربةَ الحكوميةَ الأُولى للإخوان المسلمين، حيث وُضِعَ الآلافُ منهم في السجون، وتَمَّ اغتيالُ مؤسسِ الإخوان حسن البنا رحمه الله، بتدبيرٍ من القصرِ الملكيِّ نفسِه!

ولما قامَ رجالُ الجيشِ بثورتهم عام ١٩٥٢، وسيطرَ عبدُ الناصر على البلاد، عادَ الإخوانُ المسلمونَ إلى نشاطِهم الإسلاميِّ الكبيرِ الشامل، ولم تُطِقْ قوى البغي والعدوانِ عودتَهم للنشاط، فأَوعزتْ إلى أَعوانِها في مصر بتدبير مذبحةٍ جديدةٍ للإخوان، وكانتْ مسرحيةُ اغتيال عبد الناصر عام ١٩٥٤، التي نتجَ عنها مذبحةُ الإخوانِ المسلمين الثانية، وكانتْ أَقسى من الأُولى في عهد الملكية.

وفي منتصفِ الستينيّات تَمَّ التخطيطُ للمذبحةِ الثالثة على يد عبد الناصر نفسه، وكان ضحية هذه المذبحة سيد قطب وثلةٌ من إخوانِه الذين تمَّ إعدامُهم سنة ١٩٦٦م.

هذه هي ملامحُ الحياةِ الداخلية في مصر، في النصفِ الأولِ من القرن العشرين، في مظاهرها المختلفة: السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والعلمية، والثقافية، والإسلامية.

وهذا هو الجوُّ الذي فتحَ سيد قطب عينيه عليه في مطلع هذا القرن، والذي عاشَه في سنواتِ حياته، والذي تفاعَلَ معه، فأَثَّرَ وتأَثَّرَ فيه.

لقد عاش سيد قطب عصْرَه، فلم يكنْ منعزلاً عنه، يَعيشُ وحدَه، ويُعَلِّمُ نفسَه ويثقفُها في منأى عما يَجري حولَه.

لقد عاش عصرَه، وتحرَّكَ في مجتمعه، وكان يتمتعُ بنشاطٍ كبير، وجهدٍ متواصل، وهمةٍ عالية، ومواهبَ متعددة. وتعاملَ مع ما يرى ويسمعُ بحضورٍ وتفاعل!

تأَثَّر بما حوله من نشاطٍ أَدبيٍّ وعلمي وثقافي واجتماعي وسياسي وإسلامي، وكان تأَثُّرُه سلبياً أحياناً، وإيجابياً أحياناً أُخرى. ويَسَّرَهُ اللّهُ لما خَلَقَه له، وقطعَ مراحلَ حياتِه المتعددة، بوعي وحضورٍ وانتباه..

كان يعرفُ ملامحَ العالِم التي أَجملْنا الإشارة إليها، وملامحَ مصر التي أوجزْنا الحديثَ عنها، ويُحسنُ تشخيصَ المشكلات، ومعرفة الحلولِ المناسبةِ الناجعة لها.

عاشَ سيد قطب عصْرَه وهو بهذه الملامح، وعاشَ همومَ ومشكلاتِ أُمته وهي بهذه المعالم، وقدَّمَ لها الرسالةَ التي انتهى إليها، والتي أَوقفَ نفسَه عليها، وهي الإسلامُ الذي رضيه اللّهُ لها ديناً.

وقد أحسنَ تصويرَ وتشخيصَ الواقع المعاصر، وملامحَ القرن العشرين، الأستاذ محمد قطب في كتابه «واقعُنا المعاصر»، وندعو كلَّ قارىء للاطلاع عليه والاستفادة منه!!

الفصل الأول

مع سيد قطب
في مسيرته الأدبية النقدية



(١)

مع سيد قطب في أسرته

تعريف بقريته الصعيدية:

اسمه: سيد قطب إبراهيم حسين شاذلي.

مكانُ الولادة: قريةُ «موشة»، وهي إحدى قرى محافظةِ أسيوط، في صعيدِ مصر.

تاريخ الولادة: في ٩/ ١٠/ ١٩٠٦م.

وُلِدَ سيد قطب في تلك القرية الزراعية «الصّعيديّة» الواقعة في الصعيد. وهذه القريةُ لها اسمٌ آخر هو «بلد الشيخ عبد الفتاح»، لأنه أحدُ أَوليائها، وله فيها مقامٌ بارز.

ومعظمُ سكان القرية من المسلمين، ويسكنُ معهم فيها بعضُ النصارى، ولهم فيها كنيسة[١].

---

(١) أشار سيد قطب إلى قريته في أكثر من موضع من كتابه «طفل من القرية». انظر: ٨٦ و١٤٤ و١٨٢ ـ ١٨٤ و٢٠٤ ـ ٢٠٥.

وهي قريةٌ زراعية، لأن نهرَ النيل يمرُّ بجانبها، وامتازتْ بالعديدِ من البساتين، التي يَزرعُ أَصحابُها مختلفَ أنواعِ الخضار والفواكه.

وكان أصحابُ القرية يزرعون الأَشجارَ والأَزهارَ في حدائق بيوتهم. ومُعظمُ أصحاب القرية يملكون بيوتاً للسكن وأَراضي للزراعة.

وكانت القريةُ معروفةً بالثراءِ النسبيِّ بالقياسِ إلى القُرى المجاورة، والفوارقُ الاجتماعيةُ بين سكان القرية غيرُ موجودة، فهم متقاربون من المستوى المعيشي غالباً، لهذا كان الوُدُّ والمساعدةُ يسودان علاقةَ السكان فيما بينهم.

كانوا يتزاورون فيما بينهم، ويتساعدون في أُمورِ الخير، ويجلسون في الليلِ في جلساتِ السمرِ الاجتماعية بأُلْفةٍ وانسجام، وروابطهم جيدة، وعلاقاتُهم متماسكة(١).

سيد قطب هنديُّ الأصل:

وسيد قطب هنديُّ الأَصل، حيثُ جاءَ جدُّه السادسُ من الهند إلى مكة المكرمة لأَداءِ مناسك الحج، وبعدَ ذلك قَدَّرَ اللّهُ له أن يتوجَّه إلى مصر، وأن يستقرَّ في قرية «موشة» في الصعيد، وأنْ يتزوجَ فيها، وأن يُتوفّى فيها.

---

(١) المصدر السابق.

وسيد قطب هو الذي أَشارَ إلى هذا. فلما زارَ السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي مصر سنةَ ١٩٥١، والتقى بسيد قطب، أَخبرَه سيد أنه يرغبُ في زيارةِ الهند، ومن البواعثِ له على تلك الزيارة ما قاله بالحرف: «وأَمّا الباعثُ الطَّبعي، فلأَنَّ جدَّنا السادس كان هندياً، وهو «الفقيرُ عبدُ الله» ولا تزالُ السحنةُ الهنديةُ موروثةً في أسرتنا»[1].

ويبدو أنَّ أهلَ القرية الصالحين، قَدَّروا هذا الجدَّ السادس، وأَطلقوا عليه لقب «الفقير»، وهذا لقبٌ يطلَقُ على الصالحِ التقي، يُطلقُه عليه العوامُّ للتحبب والتكريم، ولا يريدونَ به الفقيرَ من المال والمتاع.

والده عميد الأسرة ووجيه القرية:

وبقيت نظرة أهل القرية لأَولادِ «الفقير عبد الله» وأحفادِه، حتى جاء «قطب إبراهيم» والدُ سيد.

صارَ والدُه عميدَ الأُسرة، ووجيهاً مكرَّماً في القرية، يَنظرُ له أهلُها بإِكرامٍ واحترام، وإِكبارٍ وإجلال.

ووالدةُ سيد كانت من عائلةِ «عثمان»، وهي عائلة مرموقة عند أهالي القرية أيضاً، وجَدُّه لأُمِّه هو «حسين عثمان» كان قد

(١) مذكرات سائح في الشرق العربي لأبي الحسن الندوي، ص ١٥٣.

ذهبَ إلى القاهرة، وأَقامَ فيها فترة، ثم رجعَ إلى «موشة»، وكان أهلُ القرية يحترمونه ويُجلّونه.

وأَرسلَ جدُّه «حسين عثمان» اثنين من أولادِه للدراسة في الأزهر، أَحدُهما «أحمد حسين» خالُ سيد، الذي كان له نشاطٌ سياسيٌّ وأدبي في القاهرة، وكان يكتب في الصحف والمجلات باسم «أحمد الموشي» نسبةً إلى القرية.

وجَمعتْ أُسرتُه بين الوجاهةِ الاجتماعية والرقيِّ العلمي[١].

وكان والدُه عميدَ الأسرة ووجيهَ القرية، وكان له نشاطٌ سياسيٌّ في القرية، وقد انتسبَ إلى «الحزبِ الوطني» الذي أَسَّسه مصطفى كامل، وكانَ من أكثرِ الأحزاب المصرية وطنية، يثقُ به الوطنيّون في مصر.

اشتركَ والدُه في صحيفةِ الحزبِ الوطني «اللواء»، وكان يأتي إلى بيته أَهلُ القرية، يستمعونَ إلى قارىءٍ يقرأُ لهم بعضَ ما في الصحيفة، وكان سيد قطب يتولّى القراءةَ لهم أَحياناً.

فكأنَّ البيتَ أصبحَ مركزَ تثقيفٍ سياسيٍّ وعلميٍّ لأهل القرية.

---

(١) طفل من القرية، ص ٢١ ـ ٢٢.

تدين والده واستقامته:

وكانت صلةُ والدِهِ بالله متينة قوية، حيثُ كان محافظاً على الصلاة، ويؤدّيها في المسجد جماعةً غالباً، وكثيراً ما يصطحب طفلَه «سيد» معه إلى المسجد لصلاةِ الجماعة.

وقد أَدى فريضةَ الحج، ومعروفٌ بين أهلِ القرية بلقب «الحاجّ» وما كان يحجُّ في ذلك الزمان إلاّ القليلُ من الناس، الذين عمرَ اللّهُ قلوبَهم بالإيمان، وهذا دليلٌ على تديُّنِهِ وتقواه.

وكان يُكثرُ من الصدقةِ في سبيلِ الله على الفقراء والمساكين.

وكان كريماً مِضيافاً، يُقيمُ الموائدَ والولائمَ الكثيرة في بيته، في مختلفِ المناسبات الإسلامية، كالعيدين، وعاشوراء، والإسراء والمعراج، وليالي رمضان، يَجتمعُ أهلُ القرية في البيت، ويقرأُ القراءُ آياتِ القرآن، وبعد ذلك يقدَّمُ للحضور الطعام[1].

وكان سيد الطفلُ يرى كلَّ هذه المظاهرِ الاجتماعية والدينية، فيتأثَّرُ بها وتنطبعُ في ذاكرته.

---

(١) انظر إشارات سيد قطب إلى والده في «طفل من القرية» ص ٧٤ ـ ٧٩ و١٤٥ ـ ١٤٨ و١٢٠ و١٩٢ ـ ١٩٦.

ومِنْ تأثُّرِ سيد بوالده وتديُّنِهِ وتقواه واستقامته، أَنه أَهدى له ثانيَ كتابٍ إسلامي ألَّفه ـ بعد وفاةِ الوالد طبعاً ـ وهو كتاب «مشاهد القيامة في القرآن».

قال سيد في الإهداء: «لقد طبعْتَ في حسّي ـ وأَنا طفلٌ صغير ـ مخافةَ اليوم الآخر، لم تعظْني أو تزجرني، ولكنك كنتَ تعيشُ أمامي، واليومُ الآخر في حسابك، وذكراه في ضميرك، وعلى لسانك. وكنت تعلِّلُ تشدُّدَكِ في الحق الذي عليك، وتسامُحَك في الحقِّ الذي لك، بأنك تخشى اليومَ الآخر.

وكنتَ تعفو عن الإساءة، وأنتَ قادرٌ على ردِّها، لتكون كفارةً لك في اليوم الآخر، وكنتَ أحياناً تجودُ بما هو ضرورةٌ لك، لتجدَه ذُخراً في اليوم الآخر.

وإنَّ صورتَك المطبوعةَ في مخيلتي، ونحنُ نفرغُ كلَّ مساءٍ من طعام العشاء، فتقرأ الفاتحة، وتتجَّهُ بها إِلى روحِ أَبويْك في الدار الآخرة، ونحنُ أطفالُك الصغار، نتمتمُ مثلَك بآياتٍ منها متفرقات، قبل أن نُجيدَ حفظها كاملات..»[1].

هذا عن تديُّن وتقوى والده.

وتدين والدته واستقامتها:

أمّا والدتُه فلم تكن أقلَّ من والده تديُّناً واستقامةً وتقوى.

---

(١) مشاهد القيامة في القرآن، ص ٥ باختصار.

فقد كانتْ حريصةً على صلواتِها وعباداتها.

وكانت كزوجها كريمة، كثيرةَ الصدقةِ في سبيل الله، وتقومُ بنفسها بإعدادِ الطعام للعمالِ في المزارع، وللقُرَّاء الذين يأتونَ لقراءةِ القرآنِ في البيت، تتقربُ بذلك إلى الله.

وكانت تحبُّ سماعَ القرآن من القُرّاء، الذين يقومون بقراءتِه في البيت.

ومِنْ تأثُّرِ سيدِ بوالدته وتديُّنِها أَنه أَهداها أولَ كتاب إسلاميٍّ أَلَّفه، وهو «التصوير الفني في القرآن». ومما جاءَ في الإِهداءِ قولُه: «لطالما تَسَمَّعْتِ من وراء «الشيش» في القرية للقُرّاء، يرتِّلون في دارنا القرآن، طوالَ شهرِ رمضان. وأَنا ـ معك ـ أُحاولُ أنْ ألغوَ كالأطفال، فتردَّني منك إشارةٌ حازمة، وهمسةٌ حاسمة، فأُنصت معك إلى الترتيل وتشربُ نفسي موسيقاه، وإنْ لم أَفْهمْ بعدُ معناه..

وحينما نشأتُ بين يديك، بعثْتِ بي إلى المدرسةِ الأَوَّلية في القرية، وأُولى أَمانيك أن يفتحَ الله عليَّ، فأحفظَ القرآن، وأن يرزقَني الصوتَ الرخيم، فأُرتله لك كلَّ آن.

ولقد رحلْتِ عَنّا ـ يا أُمّاه ـ وآخرُ صورِك الشاخصةِ في خيالي، جلستُك في الدارِ أَمامَ المذياع، تستمعينَ للترتيلِ الجميل، ويبدو في قسماتِ وجهك الجميل أَنك تُدركين ـ بقلبك الكبير وحِسِّك البصير ـ مراميه وخفاياه..»[1].

---

(١) التصوير الفني في القرآن، ص ٥.

هذان الأَبَوان المؤمنان، اللَّذان عاش سيد قطب في حِضنيْهما، فاستقرت في ذاكرتِه المعاني والحقائقُ والقيمُ الإسلامية، التي استقاها منهما، من سلوكهما وتصرفاتِهما وممارساتِهما.

وكانت والدتُه تعدُّه ليكونَ رجلاً عزيزاً مؤمناً تقياً، وتُوحي له بهذه المعاني، وتَدعوهُ ليجعلَها هدفاً له، يسعى بهمةٍ لتحقيقه.

ولقد توفيَ والدُه «الحاج قطب إبراهيم» وهو في القاهرة.

أمّا والدتُه فقد تأخَّرَتْ وفاتُها، حيث شهدتْ تحقيقَ بعضِ آمالِها في ابنها الكبير «سيد»، إذْ تخرَّجَ من الكلية، وعملَ موظَّفاً في الوزارة، ولما استقرَّ في القاهرة، جاءتْ مع الأُسرة واستقرَّتْ معه.

وكانت وفاتُها سنة ١٩٤٠، وسيد في الرابعة والثلاثين من عمره.

ولما توفيتْ رثاها رثاءً حاراً، وذكَرَ في رثائِه بعضَ ما غرسَتْه في نفسه:

«أُمّاه:

مَنْ ذا الذي يقصُّ عليَّ أَقاصيصَ طفولتي، كأنها حادثُ الأمسِ القريب، ويصوِّرُ لي أَيامي الأُولى، فيعيدُ لها الحياة، ويبعثُها مرةً أُخرى في الوجود؟

لقد كنت تُصورينَني لنفسي كأَنما أَنا نسيجٌ فريد، منذُ ما كنتُ في المهدِ صبياً. وكنتِ تحدثينَني عن آمالكِ التي شهدَ

مولدَها مولدي، فينسربُ في خاطري أَنني عظيم، وأَنني مطالَبٌ بتكاليفِ هذه العظمة، التي هي من نسيجِ خيالك ووحْي جَنانكِ..

فمنْ يوسوسُ إليَّ بعدَ اليوم بهذه الخيالاتِ الساحرة؟ ومَنْ ذا يوحي إليَّ بعدَ اليوم بتلك الحوافزِ القاهرة؟»[1].

وكانت والدتُه هي الزوجةَ الثانية لأَبيه، وقد أَنجبَ والدُه من زوجتِه الأُولى ولداً، عملَ في الزراعة في القرية[2].

أَمَّا والدتُه فقد أَنجبتْ خمسةَ أَولاد: ابنيْن وثلاثَ بنات.

وفيما يلي بطاقةُ تعريفٍ موجزة بكلٍّ واحد:

نفيسة قطب:

هي المولودةُ الأُولى. وتكبرُ سيدَ بثلاثةِ أَعوام.

وليس لها مشاركةٌ في الأَعمال الأدبية كباقي إخوتها.

وتزوجَتْ من الوجيهِ المعروف «بكر شافع» وأَنجبتْ له أَولاداً، منهم «رفعت» الذي كان طالباً في كلية الهندسة بجامعة القاهرة، وقد اعتُقل رفعتْ مع الإخوان في محنة عام ١٩٦٥، وعُذِّبَ تعذيباً رهيباً، ولقيَ اللّهَ شهيداً ـ إن شاء الله ـ في السجن الحربي لأنهم أَرادوا أنْ يشهدَ ضدَّ خالِه «سيد» في أَحداثِ تلك المحنة، ولم يحتملْ جسمُه ذلك التعذيبَ الشديد.

---

(١) الأطياف الأربعة، ص ١٦٧ ـ ١٦٨.

(٢) انظر: طفل من القرية، ص ٣٣، ١٥٦، ٢٠٧.

ومنهم «عزمي» الذي تخرَّجَ من كلية الطب بجامعةِ القاهرة[1].

أمينة قطب:

هي المولودةُ الثالثة، تصغرُ سيد ببضعة أَعوام.

ودرستْ أَمينة، وثقفتْ نفسَها، وصارتْ كاتبةً أَديبة شاعرة. وأصدرتْ مجموعتيْن من القصص القصيرة: «في تيار الحياة» و«في الطريق».

وخُطبتْ أَمينةُ إلى أَحدِ قادة الإخوان المسلمين «كمال السنانيري» الذي كان معتقلاً منذ أَحداث ١٩٥٤، وتزوجته عند الإِفراجِ عنه عام ١٩٧٣، بعدما جاوزت الخمسين من عمرها.

وأُدخلَ «كمال السنانيري» السجنَ في أَحداثِ عام ١٩٨١، وعُذِّبَ تعذيباً رهيباً، ثم قَتَلَه الطغاةُ في سجنه، وزعموا أَنه انتحر.

ونظمتْ أُمينةُ مجموعةً من القصائد في رثاءِ زوجها الشهيد. ونَشرتْ ديوانَها الشعريَّ «رسائل إلى شهيد». كما نظمتْ قصائدَ في رثاءِ شقيقِها الشهيد سيد في ذكرى استشهاده[2].

---

(١) مذابح الإخوان في سجون ناصر، لجابر رزق، ص ١١٥.

(٢) انظر مقدمة ديوان «رسائل إلى شهيد» الذي أصدرته دار الفرقان بعمان عام ١٩٨٥.

محمد قطب:

بقي سيد هو المولدَ الذكرَ الوحيدَ ثلاثةَ عشر عاماً. وفي شهر «أبريل» ـ نيسان ـ عام ١٩١٩ وُلِدَ «محمد».

وأَكملَ محمد دراستَه الثانوية في القاهرة، لأنَّ الأُسرةَ كلَّها استقرَّتْ عند سيد في مصر. والْتَحقَ محمد بقسمِ اللغة الانجليزية في كلية الآداب بجامعة القاهرة، وتخرج من الجامعة حاملاً شهادة البكالوريوس في اللغة الانجليزية، ودبلوم في التربية وعلم النفس.

والتحق محمد بوظيفةٍ في وزارةِ التربية والتعليم.

واعتُقل محمد مرتيْن بسببِ اعتقال سيد في محنةِ الإِخوان المسلمين عام ١٩٥٤، وعام ١٩٦٥.

وطالتْ فترةُ اعتقالِه الثانية عام ١٩٦٥، وعُذِّب في السجن تعذيباً رهيباً، حتى أُشيعَ أَنه قُتل تحت التعذيب.

وبعدَ الإفراجِ عنه عام ١٩٧٢، تعاقدتْ معه جامعةُ الملك عبد العزيز في مكة والتي هي جامعةُ أُمِّ القرى في مكة حالياً ـ وعملَ فيها أُستاذاً في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة، وأَشرفَ على العديدِ من رسائل الماجستير والدكتوراه، وتخرَّجَ على يديه باحثون كثيرون، أَشغل بعضُهم مراكز أكاديميةً وعلميةً عالية مرموقة.

وتزوجَ بعد الإفراج عنه، وقد جاوز الخمسين من عمره، وله عدةُ أبناء.

وتوجَّهَ محمد قطب إلى الفكر الإسلامي منذُ شبابه، وأَصدرَ العديدَ من الدراساتِ الإسلامية: أَصدرَ أحد عشر كتاباً قبل سجنه عام ١٩٦٥، وأَصدرَ قريباً من هذا العدد بعدَ الإفراجِ عنه.

ولعلَّ من أَجودِ كتبه: منهج التربية الإسلامية، واقعنا المعاصر، مذاهب فكرية معاصرة، رؤية إِسلامية لأحداث العالم المعاصر، دراسات في النفس الإنسانية، جاهلية القرن العشرين، كيف نكتب التاريخ الإسلامي، مفاهيم ينبغي أَنْ تُصحح، التفسير الإسلامي للتاريخ.

وآخرُ إِصدار له ـ حتى هذا العام ١٩٩٧ ـ كتابٌ عظيم هو: «ركائز الإيمان».

ولسيد بصيرةٌ نافذةٌ في شقيقه محمد، فقد كان يتوقَّعُ أن يكونَ محمد امتداداً له في الحياةِ الأدبية، قبلَ أن يتوجَّهَ الشقيقان إلى الفكر الإسلامي.

فعندما طبع سيد أَوَّلَ ديوانٍ شعريٍّ له ـ وهو ديوان «الشاطىء المجهول» الذي طبعه سنة ١٩٣٥ ـ كان عمرُ محمد خمسةَ عشر عاماً، وأَهدى سيد ديوانَه إلى أَخيه. ومما جاءَ في الإهداءِ قولُه:

أَخي ذلِكَ اللَّفْظُ الذي في حُروفِهِ
رُموزٌ وأَلْغازٌ لشتى العواطِفِ

أَخـي ذلِـكَ الـلَّـحْـنُ الـذي فـي رَنـيـنِـهِ

تَـرانـيـمُ إِخْـلاصٍ وَرَيّـا تـآلُـفِ

أَخي أَنْتَ نَفْسي حينَما أَنْتَ صورَةٌ

لآمـالِـيَ الـقُـصْـوى الـتـي لَـمْ تُـشـارِفِ

فَـأَنْـتَ عـزائـي فـي حـيـاةٍ قَـصـيـرَةٍ

وَأَنْتَ امْتِدادي في الحياةِ وخالِفي[1]

وقَد استُشهد سيد قبلَ أكثرَ من ثلاثين عاماً، وكتبَ اللّهُ لشقيقه العمرَ المديد، وها هو على مشارفِ الثمانين من عمره، ونسألُ الله له المزيد، وأنْ يوفقَه لتقديم المزيدِ من العلم، لخدمةِ الإِسلامِ والمسلمين.

وها هو امتدادٌ لأخيه الشهيد في الفكرِ الإسلامي، وفي ما قدمه من دراساتٍ إسلاميةٍ نافعة بعدَ استشهادِ أَخيه.

حميدة قطب:

هي صغرى الإخوةِ الأربعة ـ أَصدروا كتاباً أَدبياً مشتركاً، سمّوه «الأَطياف الأربعة»، وكان إِصدارُه في مطلع الأربعينيات.

ولحميدة اهتماماتٌ أَدبية في المقالِة والخاطرة. ولما توجَّهَ أَخَواها إلى الفكرِ الإسلامي صارتْ لها اهتماماتٌ إِسلامية،

(١) الشاطىء المجهول، ص ٢.

وكَتبتْ مقالاتٍ إسلامية في مجلة «المسلمون» وصحيفة «الإخوان المسلمون».

وصُبَّ عليها العذابُ الرهيبُ في محنة عام ١٩٦٥، وحُكمَ عليها بالسجن عشرَ سنوات، وأُفرجَ عنها في مطلعِ السبعينيات.

وتزوجت من الدكتور حمدي مسعود، وتقيمُ معه في فرنسا[١].

في هذه الأسرةِ المؤمنة المترابطة المتماسكة عاشَ سيد قطب، عاش حياتَه الأُولى في القرية، ثم عاشت الأُسرةُ معه في القاهرة، وتولّى هو توجيه وتربيةَ أَفرادِها والإِشرافَ عليهم.

سيد قطب لم يتزوج:

هذا عن أُسرتِه التي عاشَ فيها حياةً أُسريةً متماسكة، واستمدَّ منها الكثيرَ من المعاني والحقائقِ والقيم، وأَمَدَّ إِخوتَه بالكثيرِ من المعاني والحقائقِ والقيم.

أَمّا عن تكوينه لأُسرةٍ خاصةٍ به، بمعنى أن يتزوجَ ويُنجبَ أَولاداً، فهذا ما لم يُقَدِّرْهُ اللّهُ له.

لقد قَدَّرَ اللّهُ له أَنْ يعيشَ حياتَه على هذه الدنيا بدون زواج!

---

(١) مذابح الإخوان في سجون ناصر لرزق، ص ١١٥.

ولم يكن عدمُ زواجه عزوفاً له عن الزواج، أو تركاً له، أو إيثاراً للعزوبية، رهبنةً وعداوةً للمرأة. وإنما لأنه لم يتمكَّنْ من ذلك، رغم بذلِه أَقصى جهدِه في ذلك.

عندما كان يعيشُ حياتَه الأَدبية في الثلاثينيات، وقبلَ التوجُّهِ إلى الفكر الإسلامي، تعرَّفَ على فتاةٍ قاهرية، وخطبَها من أَهلِها، وبعدما خطبها اكتشفَ أنها كانتْ تحبُّ شاباً آخر، وفُجع بحبِّه لها، واضطرَّ إلى أَنْ يفسخَ الخطبة، لأنه لم يرضَ أن يتزوجَ امرأةً كانت تحبُّ رجلاً قبلَه، وهو لا يريدُها عذراء الجسد فقط، وإنما يريدُها عذراء الجسدِ والقلب معاً!!

وتألَّمَ كثيراً مما جرى، وصُدم صدمةً شديدة، وأَلَّفَ قصةً رومانسيةً مؤثرة، سَجَّلَ فيها قصتَه مع خطيبته، سَمّاها «أشواك».

واستمرتْ صدمتُه العاطفيةُ سنوات، انصرفَ فيها إلى أَعمالٍ أَدبية وفكرية ودراسات إسلامية.

ولما توجَّهَ إلى الفكرِ الإسلامي والدعوة الإسلامية، وبعد قيامِ الثورة فكَّر في الزواج من جديد، وقبلَ أن يستقرَّ على اختيار شريكةِ حياتِه، وقعتْ محنةُ الإخوان المسلمين عام ١٩٥٤، وحُكمَ على سيد بالسجن عشر سنوات، مما أَوقفَ مشروعَه في الزواج.

ولما أُفرجَ عنه عام ١٩٦٤، وقد قاربَ الستين من عمره، استأنفَ مشروعَه في الزواجِ، وأَرادَ خطبة إحدى النساءِ الصالحات، ولكنَّ الطغاةَ لم يمكِّنوهُ من ذلك، فسرعان ما أودعوهُ السجن، ثم أَعدموهُ بعد ذلك[١].

(١) كتابنا «سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد»، ص ٢٤٧ ـ ٢٥٤.

(٢)

مع سيد قطب في قريته

عرفْنا أنَّ سيد قطب وُلِدَ في قرية «موشة» بالقرب من أَسيوط، في ٩/١٠/١٩٠٦.

وقد أَمضى سيد السنواتِ الستِّ الأُولى من عمره في حضنِ أُمِّه في البيت.

دراسة سيد قطب في مدرسة القرية:

ولما ناهز السنة السادسة أَدخله والدُه مدرسة القرية، وكان هذا سنة ١٩١٢.

وبما أنَّ سيد ابنُ وجيهٍ من وجوه القرية، فقد أَرادَ المسؤولونَ في القرية إِكرامَه وإِكرامَ أَبيه، ولهذا وضعوه في الصّفِّ الرابعِ مباشرة، مع الطلابِ الذين قاربوا السنة العاشرة من أعمارِهم، مع أَنه لم يسبقْ له أن قرأَ أَو كتب!!

وصارحَ مديرُ المدرسة والدَ سيد، بأَنَّ مصلحةَ الطفلِ أنْ يبدأ الدراسةَ من السنةِ التحضيرية التي تحضِّرُ الطلابَ للصفِّ الأول الابتدائي - وهي المعروفة في ما بعد باسم «الروضة» -

ووافقَ الحاجُّ قُطب على وضْعِ ابنِه سيد في السنة التحضيرية «الروضة»[1].

أَكملَ سيد السنةَ التحضيرية، ثم الصفَّ الأولَ الابتدائي.

وكان من المدرسين في المدرسة «شيخُ الكُتّاب» الذي كان له «كُتّاب» في القرية ـ المكانُ الذي يُقْرِئُ ويُدَرِّسُ فيه القرآنَ لأَهلِ القرية ـ.

وبينما كان سيد في الصفِّ الثاني الابتدائي، استغنت المدرسةُ عن شيخ الكُتّاب، وتمَّ تعيينُ مدرِّسٍ آخر مكانَه. فغضبَ الشيخُ من ذلك، وعادَ إلى «كُتّابه» يمارسُ إِقراءَ وتدريسَ القرآنِ فيه!

وشنَّ شيخُ الكُتّاب الإشاعات ضدَّ المدرسة والوزارة، بأنَّ الوزارةَ تريدُ محاربةَ القرآن، ولذلك فَصَلوا الشيخَ من المدرسة، ودعا آباءَ الطلابَ إلى إِخراجِ أَبنائهم من المدرسة، وإرسالِهم إلى كُتّابِ الشيخ ليتعلَّموا القرآن.

واتصلَ الشيخُ بالحاجِّ قطب، وخَجَّله، ووافقَ على إِخراجِ ابنهِ سيد من المدرسة، وإدخاله الكُتّابَ عند الشيخ. وحصَلَ خلافٌ في الأسرة، فأُمُّ سيد لا تريدُ إِخراجَ سيد من المدرسة، لأنَّ

(١) طفل من القرية، ص ٢٤ ـ ٢٥.

التدريسَ فيها أَفضلُ لابنها، وأَبوه يريدُ إدخالَهُ كُتّابَ الشيخ لأَنَّه وعدَه بذلك، ولا يجوزُ أن يرجعَ في وعدِه له!

وقرَّرَ والدُه إرسالَه إلى الكُتّاب، ونَفَّذَ الطفلُ القرار، ولكنه تألَّمَ لتركِه المدرسة، ولم يُعجبْهُ الكُتّاب، وفي صباحِ اليومِ التالي ذهبَ الطفلُ إلى ناظرِ المدرسة، الذي كان يحبُّه لتفوُّقِه وذكائِه، وحَدَّثَه بالأمر، فأقنعَ الناظرُ والدَه بإعادتِه إلى المدرسة[1].

ولما عادَ الطفلُ سيد إلى المدرسة تزعَّمَ فريقَ طلابِ المدرسة ضدَّ فريق طلاب «الكُتّاب».

سيد قطب يحفظ القرآن:

وأرادَ أن يُفَنِّدَ إشاعاتَ شيخ الكُتّاب عن حربِ المدرسةِ للقرآن، وأَنْ يُزيلَ تميُّزَ الكُتّاب على المدرسة بتحفيظِ الطلابْ القرآن. فقررَ ـ وهو في الصفِّ الثاني الابتدائي، وعمرُه لم يتجاوز الثامنة ـ أن يبدأ بحفظِ القرآن!

ووضعَ لنفسِه برنامجاً لحفظِ القرآن كاملاً، وأَتمَّ حفْظَه بإتقان، في نهاية الصفِّ الرابع الابتدائي، وعمره عشرُ سنوات!!

وكان يعقدُ المباريات، يُسَمِّعُ فيها القرآن، ويتفوَّقُ في حفْظِه على طُلاّب كُتّابِ الشيخ[2]!

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٤ ـ ٤٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٤١ ـ ٤٣.

وهكذا أَبطلَ إشاعاتِ طُلاّب الكُتّاب، وازدادَ تقديرُ أساتذتِه في المدرسة له، لأنه انتصرَ للمدرسة.

وكان لحفظِه القرآنَ كلَّه بإتقان، وهو في السنةِ العاشرة من عمره، أثرٌ إيجابيٌ في استقامةِ لسانه، وقوةِ لغته، وحيويةِ بيانه، واستقرارِ حقائقِ القرآن في «لاشعوره»، وسيظهرُ ذلك على أَدبِه وشعرِه في شبابه، وعلى توجُّهه الفكريِّ والدعويِّ بعد ذلك.

والدراسةُ الابتدائيةُ في القرية أربعُ سنوات، وقد أَتمَّها سيد، لكنه كان صغيرَ العمر، وصِغرُ عمرِه لا يؤهِّلُه لدخولِ مدرسةِ المعلمين الأولية، وهي المرحلةُ التاليةُ التي ينتقلُ لها الطلبةُ المتفوقونَ في الدراسةِ الابتدائية.

ولكن أَيْنَ يذهب؟

إنَّ أَساتذتَه في المدرسة يحبّونه لتفوُّقِه ونبوغه وذكائه، ولأنه حَفِظَ القرآن كلَّه بهمتِه وهو صغير، فلن يُفرطوا فيه بسهولة، ولذلك أَعادوا تسجيلَه في الصفِّ الرابع، وكأَنه طالبٌ مستجدّ، وهكذا أَمضى في المدرسة عاماً آخر[١].

دخلَ المدرسةَ وهو في السنةِ السادسة من عمره، وكانت دراستُه فيها ستَّ سنوات: الروضة، والصفوف الأربعة، والصفِّ

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٥.

الرابع مكرر. أي أَنه أَنهى الدراسة الابتدائية، وعمره اثنتيْ عشرةَ سنة.

وتخرَّجَ من المدرسة عام ١٩١٨.

من نشاطه الثقافي في القرية:

وكان لسيد نشاطٌ في القرية، في أَوساطِها الاجتماعية والدينية والثقافية، يتناسبُ مع عمره الصغير!

فمن إعجابِ مدير المدرسة بسيد لتفوُّقِه ونبوغه، وجدَهُ أَهلاً ليعيرَهُ كتابيْن: ديوانُ شعر وطني، وكتابٌ في التاريخ الإسلامي. فقرأهما سيد، ثم نسخهما على دفاتِره قبلَ إعادتهما[١] !!

وقد نشأَ سيد قطب على محبةِ المطالعة والقراءة، والتزوُّدِ من المعرفةِ والثقافة، فكان يحرصُ على شراء ما يستطيعه من الكتب الصغيرة من بائعِ الكتبِ المتجوِّل «العم الصالح» ويقرؤُها بسرعة، ثم يعيرُها إلى الذين يقرءون في القرية، كما كان يستعيرُ بعضَ الكتب من البائع، ويستعيرُ بعضَها من الذين يملكونها.

وكان يضعُ كتبَه التي يشتريها في مكتبة، ومكتبتُه مكوَّنَةٌ من «صفيحةٍ كاملة» مملوءةٍ بالكتب[٢] !!

---

(١) المرجع السابق، ص ١٤٧ ـ ١٤٩.

(٢) المرجع السابق، ص ١٢٧ ـ ١٣١.

وإِقبالُه على القراءة والمطالعة منذُ صغره دليلٌ على تفتُّحِ ميولِه الأَدبيةِ والثقافية منذ بداية حياته!

ومن نشاطِه الثقافيِّ في القرية ـ المتفقِ مع عمره ـ أَنه كان يقرأُ جريدةَ الحزبِ الوطني «اللواء» لأَهلِ القرية العوامّ، الذين كانوا يأتونَ إلى المنزل ليسمعوا أَخبارَها، فإذا حضرَ والدُه كان الوالدُ هو الذي يقرؤُها لهم، وإذا غابَ الوالدُ قام ابنهُ بالقراءة[1].

واشتُهرَ الطفلُ الصغيرُ بكتبه في القرية، وكان في مكتبته كتابان في البختِ والنجوم والتنجيم، كتابُ أَبي معشر الفلكي، وكتاب «شمهورش» في السحر، وموضوعهما له جاذبيةٌ خاصة عند نساء القرية، وكان «المشايخُ» الكبارُ يستخدمونَهما في كتابةِ الحُجُب والتمائم والتعاويذ، وجلْبِ المحبة.

ولما سمعتْ نساءُ القريةِ بوجودِ الكتابيْن عند الطفل، كنَّ يستدعينَه ويطلبنَه ليعملَ لهنَّ الحُجُبَ والتمائم، ويقرأَ لهنَّ البختَ والطالع! وكان عمره صغيراً، ووجودُه بينهنَّ لا يُثير إشكالاً.

وكان «يتسلّى» بهذه الأَعمال، ويجدُ فيها نشوةً عجيبة، لأَنَّ طلباتِ النساءِ تتوالى عليه، والأَبوابُ جميعُها تُفتح له[2]!

وانحاز الطفلُ منذ صغرِه إلى الأَدبِ والفضيلة، فلما كان طالباً في المدرسةِ التحقَ بها سبعُ طالباتٍ صغيرات، لا تتجاوزُ

---

(١) المرجع السابق، ص ١٤٦ ـ ١٤٧.

(٢) المرجع السابق، ص ١٤١.

الواحدةُ العاشرةَ من عمرها، وكان بعضُ الطلابِ المشاغبين يُغازلون هؤلاء الطالبات عندَ خروجهنَّ من المدرسة، ويؤذونهنَّ ببعضِ الحركاتِ أو الكلمات.

وكان سيد يدافعُ عن البنات، ويقفُ أَمامَ الطلابِ المشاغبين، يساعده الطلابُ الذين على رأيه[1]!!

شجاعته وعزته منذ صغره:

ونشأ سيد في القرية على «اعتدادِه» بنفسه، وتشرَّب معاني العزةِ والأنفةِ والكرامة، فكان يحبُّ مواقفَ العزة، ويأنفُ من مواقفِ الذلّ والجبن ويملكُ تجاهَ ذلك حساسيةً بالغة وحساً مرهفاً.

ولذلك كان يتحدّى الخطر، ويقتحمُ الهولَ ويتصنَّعُ الشجاعة!

«فعندما كان في الحادية عشرة من عمره كان يسهرُ مع أُمه عند أَقاربه، في مكانٍ بعيدٍ في القرية، فاحتاجَتْ أمه إلى غرضٍ من البيت، وتطوَّعَ سيد «بشهامة الرجال» لإحضاره، ولم تأْمَنْ أُمُّه أَنْ يذهبَ وحده، «فآذى التخوفُ كبرياءَه، وأَصرَّ على أن يذهبَ ويَعود.. وكان طريقٌ قصيرٌ إلى البيت، لكن فيه منزلٌ مهجور مُخيف، يعتقدُ كثيرٌ من أَهلِ القرية أَنه مسكونٌ بالجن والعفاريت،

(١) المرجع السابق، ص ٥٣ ـ ٥٤.

وكان الرجالُ يتخوَّفون من المرورِ به ليلاً، فحذَّرَتْه أُمُّه منه ـ وكان هذا التحذيرُ كافياً لأن يقتحمَ الطريقَ القصير في هذا الوقتِ المتأخِر ـ وعندما يصلُ المكانَ المخيف المظلم يحسُّ برهبةٍ وخوف، ويُشعلُ أَعوادَ الثقاب، ويحسُّ بحركاتٍ مزعجةٍ وسط الظلام، ويظنُّها عفاريت، ويزدادُ خوفاً ورعباً، ويتسمَّرُ مكانَه هلعاً، ويواصِلُ إِشعالَ الأَعواد... ويرسل اللّهُ له أحدَ الرجالِ لينقذَه من هذا الخطر.. ولما سأَله عن سبب وجوده «عاودَتْه شجاعتُه المصطنعة» فقال: أَنا لستُ خائفاً، فأنا لا أُصدقُ ما يُقال عن العفاريت، ولقد كنتُ واقفاً أَبحثُ عن هذه العفاريت التي يقولون عنها!!»[1].

وتكشفُ هذه الحادثةُ العجيبةُ عن شخصيته الراغبة في العزةِ والكرامة، والحريصة على الظهورِ بمظهرِ التحدي والشجاعة، وهي المعاني التي ترسختْ في حياته فيما بعد!

صلاته في المسجد:

ونشأ على التدينِ والعبادة، واعتادَ ارتيادَ المساجدِ لأَداءِ صلواتِ الجماعة، وكان يحرصُ على ذلك منذُ أن بلغَ العاشرةَ من عمره: «وكان يجتازُ شوارَع القريةِ بعد العشاء ـ فلقد أَخذَ يصلّي في المساجد، تشبُّهاً بالرجال ـ ومنذُ أن بلغَ العاشرةَ كان في وهمِه

(١) المرجع السابق، ص ١٢١ ـ ١٢٣.

قد صارَ رجلاً مسؤولاً ذا أهميةٍ خاصة، فما يليقُ أن يتركَ الصلاةَ الجامعة مع الرجال!...»[1].

وكان يحضرُ أحياناً دروسَ الوعظ التي يُلقيها المشايخُ في المساجد، وكان يقفُ أَحياناً ليناقشَ الوعاظ، وهو الطفلُ الصغير.

وأَشارَ إلى موقفٍ طريفٍ في أَحدِ تلك الدروس.

جاءَ إلى القريةِ «عالم أزهري»، ودخلَ المسجدَ ليدرِّسَ أَهلَ القرية، وكان الدرسُ «قراءةً نصيةً» من تفسيرِ «الكشاف للزمخشري» ـ وهو أَصعبُ كتبِ التفسير! ـ يقرأُ منه على القرويّين الأُمّيين!!

جلسَ العالمُ الأَزهريُّ في المسجد، والتفَّ حولَه القرويّون الأُمّيون، وسحبَ من صدره «ملزمةً» من تفسير الزمخشري، وصارَ يقرأُ عليهم منها، ويصفقُ بيديه بين آنٍ وآخر، ويقول: مفهوم؟

فيجيبُ بعضُ الأُمّيّين: مفهوم!!

ويَمضي يصبُّ عليهم ما في الزمخشري من بلاغةٍ ونحوٍ وصرف، وتأويلاتٍ لا يدرون عنها شيئاً.

وكان الطفلُ «سيد» يحضرُ هذه الدروس، كي يَصيرَ رجلاً!

---

(١) المرجع السابق، ص ١٢٠.

نقاشه مع الشيخ في المسجد:

وفي ليلةٍ كان الشيخُ يقرأُ تفسيرَ سورةِ الكهف من تفسير «الكشاف»، ومَرَّ بقوله تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: ٦٤].

ولما كانَ الطفلُ حريصاً على محصولِه من النحو، فقد لفتَ نظرَه أنَّ كلمةَ «نَبْغِ» في الآية محذوفةُ حرفِ العلة بلا مبررٍ ظاهر.

فرفعَ أصبعَهُ كما يصنعُ في المدرسة، وقال: يا سيدَنا الشيخ: لماذا حُذفت الياءُ في «نَبْغِ» بدونِ جازم؟

ورفعَ الشيخُ رأسَه بلا اهتمام، ثم مضى ـ وكأنه يستمرُّ في التلاوة ـ يقول: يا سيدي: «حُذفت الياءُ اعتباطاً للتسهيل!!»[(١)].

وتشيرُ هذه الحادثةُ إلى قوةِ شخصية الطفل سيد، وإلى جرأتِه وشجاعته، حيث تجرَّأ وطرحَ السؤالَ على العالمِ الأزهري.

كما تشيرُ إلى ثقافتِه الأدبيةِ والنحوية، بحيثُ لاحظَ أنَّ الياءَ في فعل «نَبْغِ» محذوفةٌ بدون سبب ظاهر. فأصْلُ الفعل «نبغي»، ولهذا طرحَ سؤالَه ليعرفَ السببَ.

كما تشيرُ إلى طريقةِ التدريس العجيبة في ذلك الوقت، وإلاّ فكيف يفهمُ القرويّون الأُمّيّون كلامَ الإمامِ الزمخشري في تفسير

---

(١) المرجع السابق، ص ٥٢ ـ ٥٣.

الكشافَ؟ ومعلومٌ أنَّ الكشافَ من أَصعبِ كتب التفسير، يحتاجُ فهمُه إلى طلبةِ علم!!

أَمّا جوابُ العالمِ الأزهريِّ على سؤالِ الطفل سيد، فهو جوابٌ «اعتباطي»، فكيفَ يرى أنَّ في القرآن «حذفاً اعتباطياً»؟ ومعلومٌ أنَّ الحذفَ والذكرَ في القرآن لحكمةٍ مقصودة، ووفقَ ميزانٍ دقيق!!

نشاطه في التحريض على ثورة ١٩١٩:

ووقعت ثورة سنة ١٩١٩، وكان سيد قد أَنهى دراستَه في مدرسةِ القرية الأولية، وعمرُه الآن ثلاثةَ عشر عاماً.

وبما أنَّ والدَه وجيهٌ من كبارِ وجهاء القرية، وكان سياسياً حزبياً عضواً في الحزبِ الوطني، فقد كان المنزلُ مركزاً للتخطيط لمشاركةِ أَهلِ القريةِ في الثورة، يلتقي فيه الرجالُ لقاءاتٍ سرية، ويتحدَّثون في الأَمر، وكان سيد يرى نفسَه رجلاً، ويشاركُ أَحياناً في تلك اللقاءاتِ والجلسات.

ولما وقعت الثورة، كان لسيد مشاركةٌ فيها تناسبُ عمرَه الصغير، فكان يقفُ في المساجدِ والمجامعِ يخطب في الناس ويشجعُهم ويحمِّسُهم، ويدعوهم إلى الاستمرار فيها[1].

(١) المرجع السابق، ص ١٥١.

وتشيرُ مشاركتُه في الثورة إلى استيقاظِ ميولِه واهتماماتِه السياسية والوطنية والجماهيرية في وقتٍ مبكرٍ من حياته.

وانتهتْ ثورةُ ١٩١٩، وهدأت الأُمورُ بعدها، وعادَ الناسُ إلى أعمالهم، وفَتحت المدارسُ والجامعاتُ أَبوابَها.

وبما أنَّ سيد قد أَنهى دراستَه في القرية، فلا بدَّ أنْ يكملَ دراستَه في مكانٍ آخر.

وفكَّرَ والداه في الأمر، ورأَوا أنَّ المناسبَ أن يكملَ دراستَه في القاهرة، وقَررا سفرَه إليها عام ١٩٢٠[١].

وهكذا قطعَ سيد قطب المرحلةَ الأُولى من حياته، حيثُ قضى في قريته أَربعةَ عشر عاماً، وغادَرها إلى القاهرة وهو في الرابعةِ عشرة من عمره...

---

(١) المرجع السابق، ص ٢١٧.

(٣)

مع سيد قطب في دراسته في القاهرة

سيد قطب عند خاله في القاهرة:

قرر والدا سيد سفرَهُ إلى القاهرة لإكمالِ دراستهِ الثانوية ثم الجامعية فيها... واختارا القاهرة لأنَّ ظروفَ إقامته فيها مناسبة.

كان يقيمُ في «حَيِّ الزيتون» في القاهرة، خالُ سيد قطب، وهو «أَحمد حسين عثمان».

وكان خالُه من خريجي الأزهر، واشتغلَ بالتدريسِ والصحافة. وكان يكتبُ في الصحفِ بتوقيع «أحمد الموشي»، نسبةً إلى قريته «موشة».

وانضمَّ «أَحمد الموشي» إلى حزبِ الوفد، وكان صديقاً للأديب الكاتبِ «عباس محمود العقاد»، فكلٌّ منهما عضوٌ في حزب الوفد، وكلٌّ منهما أَديب كاتب، وكلٌّ منهما «صعيدي»، لأنَّ أحمد الموشي من أَسيوط، وعباس العقاد من أَسوان، وكانا متجاورين: أحمد الموشي في حيّ الزيتون، وعباس العقاد في حيّ «مصر الجديدة»!

وسافر سيد قطب إلى القاهرة عام ١٩٢٠، وهو في الرابعة عشرة من عمره، وأَقامَ عند خالهِ، في «حيِّ الزيتون»[١].

سيد قطب يحصل على إجازة الكفاءة:

ولما استقر عند خالِه التحقَ بمدرسةِ المعلِّمين الأَولية، وكان التحاقُه بها سنة ١٩٢٢، بعد أَن انقطعَ عن الدراسةِ أكثرَ من سنةٍ لظروفٍ قاهرة.

والمدرسةُ التي التحق فيها كانت تسمّى «مدرسة عبد العزيز»، ومدةُ الدراسة فيها ثلاثُ سنوات، والدراسة فيها تعادلُ الدراسةَ الإعدادية ـ أو المتوسطة ـ في هذهِ الأيام. وتمنحُ إِجازةَ «الكفاءة للتعليم الأولي»[٢].

وتخرَّجَ سيد قطب من مدرسةِ عبد العزيز عام ١٩٢٤، حاملاً إِجازةَ الكفاءةِ للتعليم الأولي.

وكان حاملو إِجازةِ «الكفاءة» يَعملون مدرسين في المدارسِ الحكومية، ولو أَراد سيد أن يكونَ مدرساً بشهادةِ الكفاءة لأَصبح مدرساً، ولكنه يريدُ المزيدَ من الدراسة، والحصولَ على شهاداتٍ أَعلى.

---

(١) أخبرني بهذا الأستاذ محمد قطب عند مقابلتي له عام ١٩٧٨.

(٢) سيد قطب: لعبد الباقي حسين: ٥٤، من مقابلة عبد الباقي مع محمد إبراهيم جبر، زميل سيد في الدراسة في تلك المدرسة وقتها.

سيد قطب في تجهيزية دار العلوم:

كان المتفوقون في مدرسةِ المعلمين الأَولية يلتحقونَ بمدرسةِ «تجهيزية دار العلوم». وهي مدرسةٌ تابعةٌ لكليةِ دار العلوم في القاهرة، ومدةُ الدراسةِ فيها أَربعُ سنوات، وهي تعادلُ الدراسةَ الثانوية في هذه الأَيام. ويلتحقُ الناجحون المتفوقون فيها بكليةِ دارِ العلوم.

وبما أنَّ سيد قطب كان من المتفوِّقين في مدرسةِ المعلمين الأولية، فقد التحقَ بتجيهيزية دارِ العلوم سنة ١٩٢٥، وتخرج منها سنة ١٩٢٩.

والموادُّ التي يدرسُها الطلابُ في هذه المدرسة هي: الدين الإسلامي، والتفسير، والحديث، واللغة العربية، والفقه، والتاريخ، والجغرافيا، والرياضيات، وعلم الحياة «البيولوجيا»، والعلوم الطبيعية، ونظام الحكومات، والرسم، والرياضة البدنية[١].

دراسته في كلية دار العلوم:

التحقَ سيد بكليةِ دار العلوم في صيفِ عام ١٩٢٩، ودرسَ فيها أَربعَ سنوات، وتخرَّجَ منها في صيفِ عام ١٩٣٣، حاملاً شهادةَ «الإجازةِ العالية» ـ الليسانس ـ في اللغةِ العربية وآدابها.

---

(١) المرجع السابق، ص ٥٤ ـ ٥٥. نقلاً عن «تقويم دار العلوم» لمحمد عبد الجواد.

وقد دَرَسَ سيد قطب في كلية دار العلوم: «العلومَ الشرعية، وعلومَ العربية، والمنطق وعلم الكلام والفلسفة، واللغة العبرية، واللغة السريانية، ومقارنتهما باللغة العربية، والتاريخ، والاقتصاد السياسي، وغير ذلك..

وكانت كليةُ دار العلوم تصرف لطلابها كتباً أدبيةً ولغويةً أُخرى، قديمة وحديثة ـ بالإضافة إلى الكتب المقررة ـ مثل: الأمالي لأبي علي القالي، والعقد الفريد لابن عبد ربه، والكامل للمبرد، وفقه اللغة للثعالبي، والقاموس المحيط للفيروزآبادي[1]..

وهكذا أَكملَ سيد قطب دراستَه الجامعية، ونالَ الشهادةَ الجامعية الأُولى ـ الليسانس ـ وما كان يكملُ هذه الدراسة، وينالُ هذه الشهادةَ إلا المتفوّقون الناجحون الطموحون من الطلاب.

ولكنه تخرجَ من كليةِ دار العلوم، وعمره سبعٌ وعشرون سنة، لأَنه انقطعَ عن الدراسةِ بعضَ السنوات في القرية وفي القاهرة، لظروفٍ قاهرة.

وكانت «كليةُ دار العلوم» كليةً خاصة في إدارتِها وميزانيتها ودراستِها، أَنشأَها نفرٌ من التربويّين، ذوي العاطفةِ الإسلامية، لتجمعَ بين حسناتِ مناهجِ الدراسة القديمة، ومناهجِ الدراسة الحديثة، وفقَ النظرةِ الغربية، وقد خرَّجَتْ كليةُ دار العلوم منذ

---

(١) المرجع السابق، ص ٥٥. نقلاً عن «خطى مشيناها» لعباس خضر.

تأسيسها كثيراً من روّادِ الأَدبِ والنقد والفكر والدعوة. وفي طليعتهم الأُستاذُ الإمام حسن البنا، الذي تخرجَ منها عام ١٩٢٧، وسيد قطب الذي تخرج منها عام ١٩٣٣، رغمَ أنَّ الرائدينْ الإمامين وُلِدا عام ١٩٠٦.

وكان سيد يتمنّى لو دخلَ كليةَ الآداب في جامعة القاهرة، لأَنه ظنَّ أَن مناهجَ الدراسة الأَدبية فيها أَفضل، فلما رأى ما عليه خِرّيجوها، وقرأَ بعضَ كتاباتهم، عرفَ أَنَّ كليةَ دارِ العلوم أَفضل[1].

من نشاطه في كلية دار العلوم:

ولم يكن سيد قطب في كليةِ دار العلوم طالباً خاملاً، وإِنما كان له نشاطٌ أدبيٌّ ملحوظٌ فيها، يَعرفُه طلابها، ويُقَدِّرُهُ أَساتذتُها.

كان يُديرُ النقاشاتِ الأَدبية والنقدية بين الطلاب في الكلية، ويَنقسمُ الطلابُ حولَ ما يثيرُه إلى قسمين أَو أَكثر، وكان هو يتزعمُ الفريق الذي يرى رأَيه، وتدورُ بينه وبين الفريق الآخر نقاشاتٌ عنيفةٌ حادة.

وكان سيد جريئاً عنيفاً في تبني رأيِهِ، وفي انتقادِ الرأْيِ الآخر، وفي هجومه على الأُدباء والشعراء الذين لا يَرى رأْيَهم!

(١) نقد كتاب مستقبل الثقافة في مصر لسيد قطب، ص ٦٥.

وكثيراً ما وجَّهَ انتقاداتِه الأَدبية الحادة إلى أَحمد شوقي، ومصطفى صادق الرافعي.

ثناء أساتذته عليه:

وكان أَساتذتُه يقدرونَ نبوغَه وذكاءَه، وإنْ خالفهم في بعضِ نظراتِهم الأَدبية والنقدية.

ولذلك دعوهُ لإِلقاءِ محاضرةٍ أَدبية نقدية في الكلية سنةَ ١٩٣٢، وهو طالبٌ في السنة الثالثةِ فيها، وحضرَ المحاضرةَ أَساتذتُه وزملاؤُه الطلاب، وقَدَّمه في محاضرته، وعقَّبَ عليها أُستاذُه «محمد مهدي علام».

كانت المحاضرةُ بعنوان «مهمةِ الشاعرِ في الحياة» وانتقدَ سيد الشاعرَ أَحمد شوقي انتقاداً جريئاً حاداً، واستدركَ عليه أُستاذُه محمد مهدي علام، وردَّ سيد على استدراك أُستاذِه.

وختمَ أُستاذُه «عَلاّم» الجلسة بتسجيل شهادةٍ ثمينة من الأُستاذ لطالبه، قال فيها: «ولئن كنتُ قَدَّمْتُ المحاضرَ «سيد قطب» بأَنه طالب، يسرُّني أن يكونَ أحدُ تلاميذي، فإنني أَقولُ اليوم ـ وقد سمعْتُ محاضرتَه ـ إنه لو لم يكنْ لي تلميذٌ سواه، لكفاني ذلك سروراً، وقناعة، واطمئناناً إلى أَنني سأُحَمِّلُ أَمانةَ العلم والأدب من لا أَشكُّ في حسنِ قيامِه عليها!

يُعجبني في كاتبِ هذه المحاضرة جرأتُه الحازمة، التي لم تَسْفُه، فتصبحَ تهوُّراً، ولم تذلّ فتغدو جبناً، وإنَّ هذه الجرأةَ الرشيدة التي دعَتْه إلى الاستقلال برأيه في بحثه ـ حتى ولو خالَفَنا في بعضِ ما نعتقدُه من الآراءِ الأَدبية ـ لهي التي تجعلُه أَحَبُّ إلى قلوبنا..

وقصارى القراء، أَنْ أَقولَ لهم: إنني أَعُدُّ سيد قطب مفخرةً من مفاخر «دار العلوم»، وإذا قلت «دار العلوم» فقد عنيتُ دارَ الحكمةِ والأَدب!!»[1].

هذه الكلمةُ من «مهدي علام» تشيرُ إلى شخصيةِ سيد قطب العلمية والأدبية القوية، وهو طالبٌ جامعيٌّ يَدرسُ في الكلية.

من أصدقائه في الكلية:

وقد كان لسيد قطب أَصدقاء كثيرون من طلاب الكلية، واستمرتْ صلتُه بقسمٍ منهم، وصداقتُه لهم بعدَ التخرج.

من هؤلاء «سعد اللَّبَّان» رئيسُ جماعةِ دار العلوم، ووزيرُ التعليم في أَول حكومةٍ بعد الثورة.

ومنهم «محمد إبراهيم جبر» زميلُه في الدراسة الثانونية، وفي الكلية، وكان سيد يراسلُه في أمريكا.

ومن أَعزِّ أَصدقائه في الكلية اثنان:

---

(١) مهمة الشاعر في الحياة، ص ٩ ـ ١٠. باختصار.

«فايد العمروسي»: وأَصبحَ كاتباً في الأدبِ والتاريخ الإسلامي.

و«عبد العزيز عتيق»: وهو شاعرٌ وأَديبٌ وكاتب، وأَصدرَ عدةَ كتب في النقد الأدبي والبلاغة والنحو.

وتوفيّ هذان الأَديبان في السبعينيات، بعد سنواتٍ من استشهاد سيد قطب.

وكان لسيد قطب نشاطاتٌ عديدة أَثناءَ دراسته في الكلية.. ومن اهتمامِه بالكلية ومناهجِ الدراسة فيها أَنه قَدَّمَ مذكرةً لعمادةِ الكلية، ضَمَّنَها مقترحاتٍ لتعديلِ وتحسينِ مناهج الدراسة فيها، بإدخالِ مواد، وإلغاءِ مواد، وتعديلِ خططِ بعضِ المواد، وتحسينِ تدريبِ بعضِ المواد[١].

وهذه خطوةٌ رائدةٌ من سيد قطب، تدلُّ على نبوغه وفطنتهِ وقوةِ شخصيته، فما عهدْنا طالباً جامعياً يقدمُ خطةً لتعديلِ وتغييرِ مناهجِ الدراسة في كليته، أَثناءَ دراسته فيها!!

مشاركته في تأسيس جماعة دار العلوم:

ومن نشاطاتِه في الكلية أنه كان يتصلُ بالطلاب العرب من غير المصريين، وكان يعملُ مع مجموعةٍ منهم على تأسيسِ جمعيةٍ

---

(١) نقد كتاب مستقبل الثقافة في مصر، ص ٦٤.

للطلبة العرب في مصر، تهتمُّ بهم وتسعى إلى توثيقِ صِلاتِهم فيما بينهم...[1].

وفي السنةِ النهائيةِ الدراسية التي تخرجَ فيها سيد قطب من الكلية، تداعى مجموعةٌ من الطلبة الخريجين إلى تأْسيس جمعيةٍ تضمُّ خريجي الكلية، بهدفِ الدفاعِ عن اللغةِ العربية وآدابها، والوقوف في وجه أَعدائِها.

وكان في مقدمةِ هؤلاء الأَصدقاءُ الثلاثة: سيد قطب، وسعد اللبان، ومحمد إبراهيم جبر.

ونجحتْ جهودُهم في تأسيس «جماعة دار العلوم» سنة ١٩٣٣. وأُسندتْ رئاستُها إلى «سَعد اللّبّان»، وأَصدرت الجماعةُ مجلةَ «دار العلوم»، وكانت مجلةً فصلية ـ تَصْدُرُ أَربعَ مرات في السنة ـ وصَدرت المجلةُ أَربعَ عشرة سنة. وكان سيد قطب من كُتّابِ المجلة البارزين الدائمين.

وبتخرج سيد قطب من كليةِ دار العلوم سنة ١٩٣٣، يكونُ قد طوى المرحلةَ الثانيةَ من حياته، وهي دراستُه في القاهرة، والتي استمرت ثلاثَ عشرة سنة. من سنة ١٩٢٠ إلى سنة ١٩٣٣، وتخرَّجَ من الكليةِ وهو في السابعة والعشرين من عمره!

---

(١) الرسالة، السنة السادسة، المجلد الثاني، عدد ٢٨٢، ص ١٩٣٨.

(٤)

مع سيد قطب في وظيفته الحكومية

من ملف خدمته في وزارة المعارف:

عُيِّنَ سيد قطب مدرساً في وزارة المعارف ـ وزارة التربية والتعليم ـ فيما بعد ـ في نفسِ السنةِ التي تخرَّجَ فيها من الكلية.

ولما كان الباحث «عبد الباقي محمد حسين» يُعِدُّ رسالةَ الماجستير عن «سيد قطب وأَدبه» ذهبَ إلى وزارةِ التربية والتعليم، واستخرجَ من ملفِّه فيها المعلومات الموثقةَ التالية:

ملفُّ خدمتِه محفوظٌ بإدارةِ القيد والحفظ، بديوانِ عامّ الوزارة، ورقمُ الملفِّ ورمزُه هو: ١٢ ـ ٢١/ ٥.

ـ عُيِّنَ مدرساً في «تحضيريةِ الداوودية» في القاهرة، بتاريخ ٢/ ١٢/ ١٩٣٣. براتبٍ شهري، قدرُه ستُّ جنيهات! وظلَّ فيها حوالي سنتين.

ـ نُقِلَ إلى مدرسةِ دمياط الابتدائية، بتاريخ ١/ ٩/ ١٩٣٥. ولم يستمرَّ فيها إلاّ ثلاثةَ أشهر، لأنَّ جوَّ دمياط لم يناسبْه، لما فيها من رطوبة، والرطوبةُ تؤذي رئتيْه.

ـ نُقل إلى مدرسةِ بني سويف الابتدائية، بتاريخ: ١/ ١٢/ ١٩٣٥. وبقيَ فيها أحدَ عشر شهراً.

ـ نُقل إلى مدرسةِ حلوان الابتدائية، في ضواحي القاهرة، بتاريخ: ١/ ١١/ ١٩٣٦. وبقي مدرِّساً فيها حوالي ثلاث سنوات ونصف.

ـ نُقل إلى وزارةِ المعارف بتاريخ: ١/ ٣/ ١٩٤٠. بعد أكثر من ستٍّ سنوات قضاها في التدريس، متنقِّلاً بين مدارس القاهرة ودمياط وبني سويف وحلوان، التي استقرَّ فيها أخيراً.

ـ أولُ وظيفةٍ له في وزارةِ المعارف هي: محرر عربي في مراقبةِ الثقافة العامة.

ـ ثم نُدبَ إلى إدارةِ الترجمة والإحصاء في الوزارة، بتاريخ: ١٧/ ٤/ ١٩٤٠.

ـ غضبَ عليه وزيرُ المعارف عام ١٩٤٤، بسبب نشاطه الأَدبي والسياسي، فنقله إلى وظيفة «مفتش بالتعليم الابتدائي»، بتاريخ: ١/ ٧/ ١٩٤٤.

ـ أُعيد إلى وظيفته السابقة في «إدارة الثقافة العامة» في الوزارة، في شهر أَبريل ـ نيسان ـ سنة ١٩٤٥. وكان رئيسُه فيها «أَحمد أمين».

ـ في سنة ١٩٤٨ رَتَّب المخططون في الوزارة له مهمةً علمية في أمريكا، وسُجِّلَ في ملفِّه في الوزارة عن هذه المهمةِ

العبارة التالية: «في بعثةٍ علميةٍ من وزارةِ المعارف، للتخصصِ في التربيةِ وأُصولِ المناهج».

ـ سافرَ إلى أَمريكا، في الباخرة، وكانت مغادرته ميناءَ الاسكندرية بتاريخ: ٣/ ١١/ ١٩٤٨.

ـ بقيَ في أَمريكا حوالي سنتين، حيث عادَ منها بتاريخ: ٢٢/ ١٠/ ١٩٥٠.

ـ عند عودتِه من أَمريكا، عُيِّنَ بوظيفةِ «مراقب مساعد» بمكتب وزير المعارف، وبقيَ فيها سنةً وشهرين.

ـ نُقلَ إلى منطقةِ القاهرةِ الجنوبيةِ التعليمية، بتاريخ: ٢٢/ ١٠/ ١٩٥١.

ـ بقيَ في عمله الجديد ستةَ أَشهر، وأُعيدَ إلى الوزارة بتاريخ ١٧/ ٥/ ١٩٥٢، ليعملَ مراقباً مساعداً بالبحوث الفنية والمشروعات.

سيد قطب يستقيل من وزارة المعارف:

ـ وأخيراً قدم استقالته من الوزارة، بسببِ المضايقات الكثيرة التي تعرَّضَ لها، وكانت استقالتُه بتاريخ: ١٨/ ١٠/ ١٩٥٢[١].

---

(١) سيد قطب حياته وأدبه لعبد الباقي محمد حسين، ص ١٧ ـ ٤٣ باختصار.

وهكذا كانت خدمةُ سيد قطب في وزارة المعارف من ٢/ ١٢/ ١٩٣٣، إلى ١٨/ ١٠/ ١٩٥٢، وكان مجموعها ثمانيةَ عشر عاماً، وعشرة أشهر، وستة عشر يوماً!

أَي أَنه بقيَ على تقاعدهِ سنةً وشهرين ونصف، ولكنه لم يحصلْ على التقاعد، ولم يَنتظر التقاعد. لأَنه لم يستطع الاستمرارَ في العمل بسببِ كثرةِ المضايقات التي كان يوجِّهُها له المسؤولون والمخطِّطون والموجِّهون في الوزارة.

ولما استقال من الوزارة، كانت استقالتُه بعد قيام الثورة، وكانَ وزيرُ التربية والتعليم «إسماعيل القباني»، وكان القباني يحترمُ سيد ويقدرُه، ولذلك حاول بشتى الوسائل إقناعَه بالعدول عن الاستقالة، وإكمال سنواتِ الخدمة، ليحصلَ على التقاعد على الأَقل، ولكن سيد كان مُصمماً عليها.

وأَبقى الوزير الاستقالة عنده أَكثر من سنة، ولم يرفَعها إلى مجلسِ الوزراء على أَمل عُدولِ سيد قطب وتراجعه عنها.

وأَخيراً رفعَ القبانيُّ الاستقالةَ إلى مجلسِ الوزراء، الذي كان يرأسه جمال عبد الناصر، وكان ذلك بتاريخ ٣٠/ ١٢/ ١٩٥٣.

وعَزَّ على القباني أن يخسرَ سيد خدمتَه الحكومية التي قاربتْ تسعةَ عشر عاماً، وكتبَ مع الاستقالة التي رفعَها «مذكرةً» إلى مجلس الوزراء، وشهدَ في هذه المذكرة شهادةً جيدةً لسيد

قطب، ونَسَّبَ أَن يُضافَ إلى مدةِ خدمته سنتان أُخريان، ليستحقَّ الإِحالةَ على التقاعد، ويأخذ راتباً تقاعدياً.

ومما جاءَ في مذكرةِ القباني قوله: «... ولما كنتُ ـ بالرغم من هذا ـ أَعتقدُ أَنَّ به بعضَ النواحي الطيبة، التي يمكنُ الاستفادةُ منها، وإنَّ له من قوةِ تفكيره وكفايته ما يجعلُه قادراً على الإنتاج. فقد حاولْتُ أن أُثنيَه عن عزمه، وأَن أُقنعَه بالعودةِ إلى عمله، وكانت آخرُ محاولةٍ لذلك في الأسبوعِ الماضي، ولكنه أَصَرَّ على طلبه، وكان طولَ هذه المدة ممتنعاً عن العمل...»!!

وفي ١٣/ ١/ ١٩٥٤ وافقَ مجلسُ الوزراء برئاسةِ عبدُ الناصر على استقالةِ سيد، من تاريخ تقديمها ـ وهو ١٨/ ١٠/ ١٩٥٢ ـ وليس من تاريخ موافقةِ المجلس عليها، ولم يأخذ المجلس بتنسيبِ القباني زيادةَ سنواتِ خدمته[1].

وقصدَ رئيسُ الوزراء عبدُ الناصر ذلك، أَن يحرمَ سيد من التقاعد، بسبب تأزم العلاقة بين حكومة الثورة وبين الإخوان المسلمين.

من مقترحات سيد في الوزارة:

لم يكن سيد قطب في الوزارةِ مجردَ موظفٍ عاديٍّ كمعظمِ الموظفين، وإنما كان يفكرُ للنهوضِ بمستوى أَداءِ الوزارة،

(١) المرجع السابق، ص ٤٣.

وتحسين أَدائِها، وتعديلِ مناهجها ومخططاتها. وكان يقدمُ المقترحاتِ بذلك لمسؤوليه بجرأةٍ وشجاعة ووضوح. يقدمُها لأَنه يقومُ بواجبه، ويُرضي ضميرَه، ولو أَدى ذلك إلى غضبِ المسؤولين، فما كان يهمُّه رضى المسؤولين أو غضبُهم عليه، وما كان يتزلفُ أو يتقربُ إليهم، وما كان يفكرُ في الترقيات والزيادات.

ومن مقترحاتِه التي قدَّمَها:

- «مشروع الترجمة»: أَعدَّه وقدمه للوزارة، وطبعَ فيه خطةً عامةً للترجمة. وقد اهتمتْ به الوزارة فترة، ثم أغفلته وأَهملَتْه[1].

- «مشروع مكتبات المدارس». وهو المشروعُ الذي قالَ عنه سيد قطب: «ولقد اقترحْتُ مرةً على وزارةِ المعارف أَن تُزيلَ الغبارَ عن سمعتها في أَسواق الوراقين، وهي سمعةٌ لا يسرُّ الوزارة أن تعرفها، ورائحةٌ لا يريحُها أن تشمَّها. لقد اقترحْتُ عليها أن تُنشىءَ أَلفَ مكتبةٍ فرعيةٍ صغيرة، في المدنِ والقرى الكبيرة، ولا يكلفُ إنشاءُ الواحدةِ فيها أَكثرَ من مائة جنيه».

وقد رفضت الوزارةُ اقتراحَه، لأَنه ـ كما يقول سيد ـ «يحرمُ بعضَ دورِ النشر المحظوظة من الاستيلاءِ على أَكبرِ مبلغٍ من ميزانيةِ الكتب في وزارة المعارف، ويحرمُ بعضَ ذوي النفوذ من

---

(١) الرسالة، السنة الثالثة عشرة، المجلد الأول، عدد ٦١٨، ص ٤٦٦.

الاتجارِ بنفوذهم في سوق الوراقين، ويحرمُ بعضَ ذوي الشفاعات من المؤلفين، أن يستمتعوا بالربح الحرام»[1].

ـ اقتراحُه الذي قدَّمه إلى وزير المعارف عام ١٩٤٧، الدكتور عبد الرزاق السنهوري، ووضعَ فيه خطةً شاملةً لتغييرِ نظامِ دراسةِ التاريخِ في المدارس[2].

ـ مقترحاتٌ عديدةٌ قدَّمها بعد عودتِه من أَمريكا، وقال عن هذه المقترحات: «أَلم أُحاولْ عشرين مرة ـ بعد عودتي من البعثة إلى أَمريكا ـ أن أُنشىءَ لوزارةِ المعارف إدارةً فنيةً صحيحة، تُقيمُ نظمَ التعليم ومناهجَه على أَساسٍ سليم، ففشلْتُ في هذه المرات فشلاً ذريعاً، لأنَّ المرادَ في هذه المرة كان إِصلاحاً في الصميم..»[3].

من مضايقات المسؤولين له:

وقد أشارَ مرةً إلى واحدةٍ من المضايقات التي وجَّهها المسؤولون له في وزارةِ المعارف، وحديثُه عنها يعطينا صورةً عن بعضِ ما كان يعانيه من أَذى أُولئك المسؤولين له.

ونَدَعُ سيد قطب يحدثُنا عن تلك المضايقة له. قال: «كانت الحرب، وكانت الأَحكامُ العرفية، وقالَ الوزير ـ هو أحمد نجيب الهلالي ـ:

---

(١) الرسالة، السنة التاسعة عشرة، المجلد الأول، عدد ٦٤١، ص ٩٤١.

(٢) (٣) الرسالة، السنة العشرون، المجلد الأول، عدد ٩٩٥، ص ٨٣٧.

لا بدَّ أن يُفصلَ هذا الموظف، أو يُنفى من الأرض، أو يشرَّدَ فيها. فقد أَبلغتْني إدارةُ الأمنِ العام عنه أَشياء!! إِدارةُ الأَمن العام؟ أي: أَدارة الأَمن العام..

وأَبلغتْني أَنه يعملُ لحساب المعارضة.

ثم إنَّ «دوسيهه» ليس نظيفاً. فيه إِنذاراتٌ على كتابتِه في الصحف مقالات سياسية وهو موظف! أي: عبد. لا رأيَ له في قضيةِ بلده، ولو لم يكن لهذا الرأي صفةُ الحزبية!

وأُبلغْتُ أَنني منفيٌّ من الأرض!

وقررتُ أن أَستقيل! وأَباها الدكتور طه حسين. وقال: لن تصنَعَها وأَنا هنا في الوزارة.

قلتُ: ولكني لن أَخضعَ لأَهواءِ الوزارة. واجِهوني بما يُقالُ عني، ثم اصنَعوا ما شئتم، وسأَصنعُ كذلك ما أَشاء.

قال: وإذا استقلْتَ فماذا تصنع؟ وأَنا أَعرفُ أَعباءَك الثقال!!

قلت: أَصنعُ مايتهيأَ لي فلستُ من عجزةِ الديوان!

قال: لن تستطيعَ أن تفعلَ شيئاً في هذه الأيام، فالأَحكامُ العرفية تملكُ أن تعتقلَك إلى أَيِّ مكان، وأن تُلزمك الإقامةَ في هذا المكان حتى لو استقلْت من الحكومة، فخيرٌ لك أن تُقيمَ فيه موظفاً، ولا تقيمَ فيه منفياً.

قلت: معذرةً يا سيدي الدكتور، فإني أُفَضِّلُ أن أُقيم هناك منفياً.. ثم.. ثم.. إنني سأكون بطلاً في عهد الوزارة القادمة، ولم لا؟ ألم تتدهور البطولةُ عندنا. حتى صارت تُكتسبُ بالنقلِ إلى جهةٍ نائية في عهدٍ من العهود، أو بالتخلفِ عن درجة استثنائية كالزملاء!

وقال الرجل: أَتنفي لي أَنك أَتيتَ ما نُسبِ إليك؟

قلت: وهل أَدري ما يُنسبُ لي؟

قال: أشياء.. جلستَ في «بارِ اللواء» وقلْتَها لبعضِ الجالسين والأَصدقاء عن بعضِ الوزراء!! ومعارضاتٌ سرية للعهدِ الماضي، تنفيذاً لخطةٍ حزبية محكمة!

قلتُ: لقد اعتدتُ أَن أَنشرَ آرائي، وأَن أُوقعَها بإمضائي، فليس من عادتي أَنْ أُثرثرَ في المجالس بشيء، أو أن أَعمل في الخفاء!

قال: وأنتَ عندي مصدَّق. فدعْ لي الأمر، وسأُحدثُ أَزمةً من أجلك لو اقتضى الحال!

ووفقَ الرجلُ بين أَريحيتِه وتشدُّدِ الوزير. فكلَّفني أَنْ أَقومَ بمهمةٍ تفتيشية في الصعيد، لمدةِ شهرين أَختارُ فيها من الجهات والمدارس ما أَشاء، وأَكتبُ تقريراً شاملاً عن دراسةِ اللغة العربية في المدارس على اختلافِها وأُفَصِّلُ اقتراحاتي في إصلاحِ هذه الدراسة بصفة عامة!

ووجدتُ في ذاته المهمة ما يُغري، وفي أَريحيةِ الرجل ما يُخجل. فنفَّذْتُ التكليف!!»[1].

وبهذا نعرفُ أنَّ سيد قطب عملَ في الوظيفةِ الحكومية حوالي تسعة عشر عاماً، تنقَّلَ فيها بين مدرسٍ ومفتش ومراقب ومبعوث. وأَنه كان في وظيفته جريئاً عزيزاً، وأَنه كان «مشاكساً» لمسؤوليه، وأَنه كان نشيطاً في مقترحاته ومشروعاته، ونشيطاً في السياسة والاجتماع والأَدبِ والفن، ولذلك وُجه له الكثيرُ من الأذى والمضايقات!

وقد اضطرَّ إلى تقديمِ استقالته في النهاية، عندما لم يَعُدْ يتحمل المزيدَ من تلك المكائد والدسائس والمضايقات!

وخرجَ سيد قطب من وزارةِ المعارف في ١٨/ ١٠/ ١٩٥٢، وهو في السادسة والأربعين من عمره..

---

(١) الرسالة، السنة الرابعة عشرة، المجلد الثاني، عدد ٦٨١، تاريخ ٢٢/ ٧/ ١٩٤٧، ص ٧٩٦ ـ ٧٩٧.

(٥)

مع سيد قطب في السياسة والصحافة

اهتماماته السياسية المبكرة:

فتح سيد قطب عينيه على السياسةِ والأُمورِ العامة منذُ دراسته الابتدائية في القرية، فقد سبقَ أَن أَشرنا إلى أنَّ والدَه كان سياسياً متنوِّراً ـ بالنسبة إلى أهل القرية ـ حيثُ كان عضواً في لجنةِ الحزب الوطني في القرية، ومشتركاً في «اللواء» جريدةِ الحزب، وكان الناسُ يأْتونَ إلى منزله في القرية، يتحدَّثون الأَحاديثَ السياسية، ويستمعونَ إلى القارىء يقرأُ لهم في «اللواء» وكان سيد وهو صبيٌّ صغير يقرأُ هذه الصحيفة لهم أَحياناً.

وكان هذا سبباً في تفتُّحِ ميولِه السياسية في وقتٍ مبكرٍ من حياته.

ولما قامَتْ ثورة ١٩١٩ كان له فيها جهودٌ على مستواه ـ وهو ابنُ الثلاثةَ عشر عاماً ـ حيث كان يتحدَّثُ في النوادي والمجامعِ في القرية، يحضُّ الناسَ على الاستمرارِ في الثورة.

ولما سافرَ سيد قطب إلى القاهرة نمتْ ميولُه واتجاهاتُه السياسية، فقد أَقام عند خالِه أَحمد حسين عثمان، وكان خالُه عضواً في حزب الوفد.

وأَسَّس حزبَ الوفد الزعيم المصريُّ سعد زغلول، بعد ثورة ١٩١٩، وسُمِّيَ حزبُ الوفد، أَخذاً من حادثةِ إِرسالِ وفدٍ من زعماء مصر بزعامة سعد زغلول لمفاوضةِ الانجليز.

وتعرَّفَ الصبيُّ سيد من خاله على حزبِ الوفد، وانضمَّ إلى الحزبِ وهو يدرسُ في مدرسة المعلمين الأولية في القاهرة.

وتعرَّفَ سيد عن طريق خالِه على الأَديب السياسي «عباس محمود العقاد»، وكان العقادُ منضمَّاً لحزبِ الوفد، فتوثقتْ صلةُ سيد بحزبِ الوفد عن طريق خاله، وعن طريق عباس العقاد.

انتماؤه الحزبي مع حزب الوفد وغيره:

انضم سيد لحزبِ الوفد منذُ دراستِه المتوسطة، وبقيَ مع الحزب طيلةَ دراسته الثانوية، ودراستِه الجامعية، ثم في وظيفتِه الحكومية.

وبقيَ مع حزبِ الوفد حتى حادثةِ فبراير ـ شباط ـ عام ١٩٤٢، حيث اقتحمتْ دباباتُ الانجليز القصر الملكي، وتقدمَ السفيرُ الانجليزي في القاهرة بإنذارٍ إلى الملك فاروق، وأَمره أن

يطلبَ من «مصطفى النحاس» زعيمِ حزب الوفد تشكيلَ الحكومة، خلالَ أربع وعشرين ساعة! ورضخَ الملك لإنذارِ السفير الانجليزي، وأَمَرَ مصطفى النحاس بتشكيلِ الحكومة الجديدة.

وهكذا وصلَ حزبُ الوفدِ إلى الحكم عن طريق الدبابات الانجليزية، وبفضْلِ الاستعمار الانجليزي.

وخسرَ حزبُ الوفدِ بهذه الحادثة شعبيته، وانفضَّ عنه الكثيرُ من الأَعضاء والمؤيدين.

وكان سيد قطب وأُستاذُه العقاد في طليعة المنفصلين عن الحزب، بسببِ هذا الارتباطِ بين حزب الوفد وبين الاستعمار!!

تخلّى سيد عن حزبِ الوفدِ بعد أن كان عضواً فيه قرابةَ عشرين عاماً.

وشكَّلَ المنشقّون عن الحزب حزبِ «السعديّين» ـ نسبةً إلى سعد زغلول ـ وكان سيد قطب من هؤلاء.

تركه الأحزاب السياسية عام ١٩٤٥:

بقي سيد مع حزب السعديين حوالي ثلاث سنوات. وفي عام ١٩٤٥ تركَ الحزبَ لأَنه لم يُحققْ شيئاً.

وكتبَ عام ١٩٤٥ مقالاً عنيفاً، موجَّهاً إلى قادة الأَحزاب، سَمّاه «عَدِّلوا برامجكم أَو انسحبوا قبلَ فواتِ الأَوان»، دعاهم فيها

إلى تعديلِ برامجِ الأَحزابِ لتلبي مطالبَ الشعب، أو الانسحاب من السياسة[1].

وفي نهاية عام ١٩٤٥ كتبَ مقالاً تذكَّرَ فيه مؤسسَ الحزبِ الوطني «مصطفى كامل»، الذي أَجمعَ المصريّون على تقديرِه واحترامِه والاعتراف بوطنيته. وكان مقالُ سيد بعنوان: «أين أنت يا مصطفى كامل؟» وأعلنَ في هذا المقالِ تخلّيه عن الأَحزابِ كلِّها.

ومما جاءَ في مقالِه قولُه: «هذا القلمُ ليس لحزبٍ من الأحزاب، فقد باتَ صاحبُه لا يرى في الأَحزاب إلاّ أَقزاماً، بعد أن خلا الميدانُ من كلِّ جبار...»[2].

«... لم أَعُد أَجِدْ في حزبٍ من هذه الأحزاب ما يستحقُّ عناءَ الحماسةِ له، والعملَ من أَجلِه...

كلُّهم سواءٌ أولئك الرجال، رجالُ الجيلِ الماضي، للجميع عقليةٌ واحدة، لا تصلحُ لهذا الجيل، عقليةُ أَنصافِ الحلول، كلُّهم نشأوا وفي نفوسِهم أَنَّ انجلترا دولةٌ لا تُقهر، وأنَّ الفقرَ مرضٌ مستوطن...

---

(١) انظر: الرسالة: السنة الثالثة عشرة، المجلد الثاني، عدد ٦٢٧، سنة ١٩٤٥، ص ٧٢٣.

(٢) الرسالة: السنة الثالثة عشرة، المجلد الثاني، عدد ٦٤٨، تاريخ ٣/ ١٢/ ١٩٤٥، ص ١٣٠٩.

هؤلاء جميعاً، لم يعودوا يَصلحون لقيادةِ الجيلِ الجديد، أَعصابٌ منهوكة، وقلوبٌ خاويةٌ من الإيمانِ الحارِّ بشعبهم وأُمتهم...»[1].

ولما تخلّى سيد عن الأَحزابِ عام ١٩٤٥، بقيَ يقومُ بواجبه في الإصلاحِ السياسي، وانتقادِ الأَوضاع السياسية الفاسدة، والكلامِ على فسادِ رجالِ الأَحزابِ والوزراء والقصرِ الملكي، ويكتبُ هذا في مقالاتِه العديدة في مختلفِ الصحفِ والمجلات.

وكان منزلُه في حلوان منتدى سياسياً عاماً، يقصدُه الشبابُ الراغبون في الإصلاح، ويستفيدون من تحليلاته ونظراتِه السياسية والإِصلاحية.

ولم يتخلَّ سيد عن اهتماماتِه السياسية، ولهذا كان له دورٌ في الثورةِ التي قامَ بها «الضباطُ الأحرار»، وعملَ معهم فترةً من الزمن.

واستقرَّ به المطافُ السياسيُّ مع جماعةِ الإِخوان المسلمين، التي انضمَّ إليها عامَ ١٩٥٣، وبقيَ معها إلى أنْ لقيَ ربَّه عام ١٩٦٦.

وسنتحدثُ عن دورِه في الثورة، وصلته برجالها، وعملِه مع الإخوان، في الفصول التالية إن شاء الله.

---

(١) الرسالة: السنة الرابعة عشرة، عدد ٦٨١، تاريخ ٢٢/٧/١٩٤٦، ص ٧٩٦-٧٩٧.

صلته بالصحف والمجلات:

أما صلةُ سيد قطب بالصحفِ والمجلات، فقد كانت صلةً وثيقةً قويةً متينة، وهذا مظهرٌ من مظاهرِ اهتماماتِه السياسية والإصلاحية.

واستمرتْ صلتُه بالصحف والمجلات أكثرَ من ثلاثين عاماً، من عام ١٩٢٢ إلى عام ١٩٥٤.

أَولُ مقالٍ نشره، كان عن طُرُقِ التدريس، نشرَهُ في صحيفةِ البلاغ عام ١٩٢٢.

وكان لخاله أَحمد عثمان ولعباس العقاد ولحزب الوفد أَثَرٌ في توجُّهِ سيد قطب للكتابة في الصحفِ والمجلاتِ الأَدبية والسياسية، فلأَنه عضوٌ في حزبِ الوفد، فقد فتحتْ صحفُ الحزبِ صفحاتِها له.

وكان سيد قطب متقدِّماً في «فنِّ المقالة»، في طليعة مَنْ برزوا في هذا الفن، ولو جُمعتْ مقالاتُه من الصحفِ والمجلاتِ المختلفة، على مدارِ ما يزيدُ على الثلاثين عاماً، لبلغتْ عدةَ مجلَّداتٍ ضخمة!

لقد كتبَ في معظمِ الصحفِ والمجلات على مدارِ الثلاثين سنة، مثل: البلاغ اليومي والأُسبوعي، وكوب الشرق، والحياة الجديدة، والأُسبوع، والوادي، والمصور، والأَهرام، والجهاد،

والمقتطف، وأَبوللو، وروز اليوسف، والأَمام، والرسالة، والثقافة، ودار العلوم، والكتاب، والكاتب المصري، والشؤون الاجتماعية، والعالم العربي، والفكر الجديد، واللواء الجديد، والاشتراكية، والدعوة، والإخوان المسلمون...

فهذه خمسٌ وعشرون ما بين صحيفةٍ ومجلة، منهما اليوميُّ والأسبوعي والشهري والفصلي.

وكتابتُه في مجلتي الثقافةِ والرسالة، أكثرُ من غيرهما، وكان كاتبَ «الرسالة» الأَول.

وكانت كتابتُه في هذه الصحفِ والمجلاتِ منوَّعة، حيث كتبَ في مختلفِ الحقولِ والميادين، نشرَ قصائدَ شعرية، ومقالاتٍ أَدبية ونقدية، في موضوعاتٍ أَدبية، أو تحليلية، أو تعليمية، أو سياسية، أو اجتماعية أو فنية، أو غير ذلك.

كان أول عمل له مع الصحفي «عبد القادر حمزة» صاحب «البلاغ»، الذي كان يُصدرُ «البلاغَ اليومي» و«البلاغَ الأسبوعي». وكان يَنشرُ فيها مقالاتٍ أَدبيةً واجتماعية وتربوية.

وكتبَ في مجلةِ «دار العلوم» الفصلية التي صدرتْ في أَربعةَ عشر عاماً، ونشرَ مقالاتٍ وقصائدَ في كثيرٍ من أَعدادها.

وفي عام ١٩٣٣ أَصدرَ أَحمد حسن الزيات مجلةَ الرسالة، وكان سيد قطب مِن أَوائلِ مَنْ كتبَ فيها، منذُ صدورِها، حتى توقُّفِها في سنتها العشرين عام ١٩٥٣.

كتبَ فيها قصائدَ شعرية، ومقالاتٍ أَدبية ونقدية، وتربوية، واجتماعية، وإصلاحية، وسياسية وإسلامية.

وخاضَ على صفحاتِ الرسالة عدة معارك أَدبية، كمعركتِه مع تلاميذ الرافعي، ومع محمد مندور، ومع دريني خشبة، ومع عبد المنعم خلاف.

وترقّى في مجلةِ الرسالة إلى أَنْ أَصبحَ كاتبَ الرسالة الأول، يكونُ مقالُه أَولَ مقالٍ فيها، وكأَنَّ صاحبَ الرسالةِ الزيات جعلَ مقالَ سيد قطب افتتاحيةَ الرسالة.

وكانت مقالاتُه الأَخيرةُ في الرسالة مقالاتٍ إسلامية جهادية دعوية، لأَنَّ هذه المقالات تتفقُ مع توجُّهِه الإِسلاميِّ الجديد.

مجلات أصدرها سيد قطب:

وفي عام ١٩٤٧ اتفقَ سيد قطب مع رجلٍ نصراني اسمه «يوسف شحاتة» على أن يُمَوِّلَ شحاتَة مجلةً شهرية، يتولّى سيد رئاسةَ تحريرِها، والإشراف عليها، أَسْماها مجلة «العالمِ العربي».

وأَصدرَ سيد من المجلة أَربعةَ أَعداد، واستكتبَ فيها مجموعةً من الكُتّاب والأُدباء والمفكرين، من مصرَ والعالمِ العربي.

وكان له في كلّ عددٍ أَكثرُ من مشاركة، ما بين مقالٍ أَو قصيدةٍ أو خاطرةٍ أو تعليق.

وفي العددِ الخامسِ من المجلة أَعلنَ «يوسف شحاتة» عن تركِ سيد قطب لها، حيث أَسندَ الإشرافَ عليها إلى «محمد العزب موسى».

وبعدَما تركَ سيد قطب مجلةَ «العالم العربي» اتفقَ مع «محمد حلمي المنياوي» ـ صاحب دار الكتاب العربي ومن أعضاء جماعة الإخوان المسلمين ـ على أَنْ يُموِّلَ المنياوي مجلةً أُسبوعية، ويقومُ سيد قطب بالإشراف عليها.

أَصدرَ سيد قطب العددَ الأَول من مجلة «الفكر الجديد» في كانون الثاني ـ يناير ـ ١٩٤٨. وكان خَطُّها اجتماعياً إصلاحياً ثورياً، حاربَ فيها سيد الفقرَ والظلم والرأسمالية، والأَوضاعَ السياسية والاجتماعيةَ والاقتصادية السيئة، وفَعَلَ ذلك من وجهةِ نظرٍ إسلامية.

وضاقَت الحكومةُ ذرعاً بالمجلةِ وأُسلوبِها وحِدَّتها، فأغلقَتْها بعد ثلاثةِ أَشهرٍ من إصدارها، بعدما صدر منها اثنا عشرَ عدداً.

وكانت مقالاتُ سيد قطب فيها حادةً جداً، فمن تلك العناوين:

أَنتم أَيها المترفون تزرعون الشيوعية زرعاً. في العدد السادس.

أَفخاذ ونهود. في العدد الخامس.

أَولادُ الذوات وبناتُهم هم نتن الأَرض ولعنةُ السماء. العدد السابع.

تحرَّروا يا عبيدَ الأَمريكان والروس والانجليز. العدد الثامن.

ليس الشعب متسوِّلاً، فَرُدُّوا له حقوقَه، وهو غنيٌّ عن برِّكُم. العدد العاشر.

وذهبَ بعضُهم إلى أنَّ سيد قطب في هذه الفترة كان شيوعياً، وأنَّ مجلتَه «الفكر الجديد» شيوعية.

وخلطَ هؤلاء بين المجلتين: مجلةِ سيد «الفكرِ الجديد»، والمجلة السرية التي كان يُصدرُها الحزبُ الشيوعيُّ المصري في هذه الفترة «الفجرُ الجديد»، وهما متقاربتان في الاسم تقارباً كبيراً.

وبعد تجربتِه مع مجلَّتَيْ «العالم العربي» و«الفكر الجديد» توقَّفَ عن إصدارِ المجلات، واكتفى بالكتابةِ في الصحف والمجلات التي كانت تنشرُ له في تلك الفترة.

وبعد عودتِه من أَمريكا عام ١٩٥٠، كان يكتبُ في الصحفِ والمجلات المقالاتِ الإسلامية والسياسية والاجتماعية

والإصلاحية، ومن أَشهرِ تلك الصحف ثلاثة: الدعوة التي كان يُصدرُها صالح عشماوي، والاشتراكيةُ التي كان يُصدرُها أَحمد حسين، واللواءُ الجديد التي كان يُصدرُها فتحي رضوان، واستمرتْ كتابتُه في هذه الصحف وغيرِها بعدَ قيامِ الثورة عام ١٩٥٢.

وفي مطلعِ عام ١٩٥٤ قرَّرَ مكتبُ الإرشادِ لجماعة الإِخوان المسلمين إِصدارَ صحيفةٍ تنطقُ باسمِ الجماعة، اسمُها «الإِخوان المسلمون» وأَسندَ المكتبُ رئاسة تحريرِها إلى سيد قطب، وكانت أُسبوعيةً تصدرُ كلَّ يومِ خميس.

أَصدر سيد من الصحيفةِ اثني عشر عدداً، من ٢٠/ ٥/ ١٩٥٤ إلى ٥/ ٨/ ١٩٥٤، ثم اضطر مكتبُ الإرشاد إلى إغلاقها، بسببِ تفاقمِ الخلافِ بين الإخوان وبين رجال الثورة، ومنعِ الرقابة المتواصل من توزيعِ أَعدادِ الصحيفة[1].

سيد قطب يكشف ارتباط الصحف المشبوه:

وبعد صلةٍ طويلةٍ بالصحفِ والمجلات المختلفة زادَتْ على الثلاثين سنة، وتجربةٍ مريرةٍ معها، خرجَ سيد بنتيجةٍ قاطعة، وهي

---

(١) للوقوف على تفاصيل عمل سيد في الصحف والمجلات انظر: سيد قطب لعبد الباقي حسين، ص ٤٠٠ ـ ٤٣٤. وكتابنا سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد، ص ٩٣ ـ ١١٤.

أنَّ معظمَ هذه الصحف مشبوهة، ومرتبطةٌ بالمخابراتِ الدولية، وتُساعُد على أفسادِ المجتمع.

قال في مقالٍ له في صحيفة «الرسالة» سنة ١٩٥١: «إنَّ الصحفَ المصرية ـ إلاّ النادرَ القليل ـ مؤسساتٌ دولية، لا مصريةٌ ولا عربية! مؤسساتٌ تساهمُ فيها أَقلامُ المخابراتِ البريطانية والأَمريكية والفرنسية، والمصرية والعربية أَخيراً! مؤسسات تُحَرَّرُ صفحاتٌ كاملةٌ منها بمعرفة أَقلامِ المخابرات هذه، لتروجَ دعايتَها في أَوساطِ الجماهير. مؤسساتٌ تخدمُ الرأسماليةَ العالميةَ أَكثرَ مما تخدمَ أَوطانَها وشعوبَها الفقيرة..»[1].

وبَيَّنَ في آخر كتابهِ «معركة الإسلام والرأسمالية» الارتباطَ المشبوهَ لمعظمِ الصحفِ والمجلات: «فأماّ الصحافةُ فليست في وضعٍ يمكّنُها من الوقوفِ في صفِّ الجماهيرِ ضدَّ الطغاة والمستغلّين، ولا ضدَّ الاستعمار ووراءَه الرأسماليةِ العالميةِ القوية...

إنَّ تكاليفَ النسخةِ الواحدة من أيةِ جريدةٍ كبيرة، يوميةٍ أو أُسبوعية، أكثرُ من السعرِ الذي تُباعُ به هذه النسخةُ في السوق، وهذه حقيقةٌ قوية، يجبُ أن تكونَ في الحساب. ليعرفَ الجمهورُ الكادحُ الفقير، أَنه ليس هو الذي يمولُ الجريدةَ بقروشِه وملاليمهِ!

(١) الرسالة: السنة التاسعة عشرة، المجلد الأول، عدد ٩٤٣، ص ٨٥٣ ـ ٨٥٤.

إِنما تعتمدُ هذه الصحفُ في وجودها وبقائِها وربحها على موارد أُخرى غير القروش والملاليم!

إنها تعتمدُ أولاً على إعلانات تملكُها شركاتٌ ـ رأسمالية ضخمة...

وتعتمدُ ثانياً على المصروفاتِ السرية الدائمة، والمؤقَّتة من الوزارات...

وتعتمدُ ثالثاً على المصروفاتِ السرية لأَقلامِ المخابراتِ الدولية، وبخاصةٍ انجلترا وفرنسا...[1].

---

(١) معركة الإسلام والرأسمالية، ص ١١٧ ـ ١١٩ باختصار.

(٦)

مع سيد قطب في صِلاته بالأدباء والمفكرين

تعرَّفَ سيد قطب على الأُدباءِ في بدايةِ حياتِه، فقد أَقام عند خاله الأَديبِ الصحفيِّ أَحمد حسين عثمان، وعمرُه أَربعةَ عشر عاماً. وتعرَّفَ من خلالِه على أُستاذِه في الأَدبِ والسياسيةِ والحياةِ عباس محمود العقاد.

وامتدَّتْ صلتُه بالأُدباءِ والمفكرين أَكثرَ من ثلاثين سنة: اتصلَ بهم، والتقى معهم،وافقَهم أو خالَفَهم، أَيَّدَهم أو عارَضَهم، سارَ معهم أو اصطدمَ بهم، أَجرى مع بعضِهم نقاشاتٍ طويلة، واشتبكَ مع بعضِهم في معاركَ حامية.

من الأُدباءِ الذين لسيد قطب بهم صلةٌ وعلاقة: عباس محمود العقاد، وأَحمد حسن الزيات، والدكتور طه حسين، وعبد القادر حمزة، وأَحمد زكي أَبو شادي، وتوفيق الحكيم، وإبراهيم عبد القادر المازني، ويحيى حقي، ومحمود تيمور، والدكتور محمد مندور، وعبد الحميد جودة السحار، وأَحمد أَمين،

وعبد المنعم خلاف، وعباس خضر، وعلي الطنطاوي، وأَنور المعداوي...

أَمّا عباس العقاد فنرجىءُ الكلامَ عن صلتهِ به إلى الفصلِ القادم إنْ شاءَ الله، لأنَّ هذه الصلة تستحقُّ أن تُفْرَد في فصلٍ مستقلّ.

وبما أنَّ اهتماماتِه الأَدبية والنقدية قد غَطَّتْ مساحةً طويلةً من عمره، قاربت الخمسةَ عشرَ عاماً، فقدْ تعرَّفَ على معظمِ الأُدباءِ والكُتّاب، تعرَّفَ عليهم تَعَرُّفاً فكريّاً، وليس تعرُّفاً شخصياً.

وكان بينَه وبينَ بعضِ الأُدباء صلاتٍ شخصية وثيقةٍ متينة، كعبد القادر حمزة، وأَحمد حسن الزيات، وطه حسين، وتوفيق الحكيم، وعباس خضر، ومحمود أَبو الوفا، وطاهر أبو فاشا، وغيرهم.

نوادر بينه وبين بعض الأدباء:

وكان يدور بينهم بعضُ «القفشات» والنوادرِ والفكاهات، ويَسْمَرونَ سَمَراً أَدبياً برئياً، في بعضِ البيوت، وبعضِ المقاهي العامة كقهوة «الحلمية» في مصرَ القديمة.

روى صديقُ سيد قطب الأَديبُ عباس خضر بعَض تلك القفشات والفكاهات. قال: في تلك الفترةِ انتشرتْ حفلاتُ التكريم. فأرادَ طاهر أَبو فاشا، وجماعةٌ من أصحابه ـ ومنهم سيد

قطب ـ أَنْ يسخروا من تلك الحفلات. وتبرعَ أَحدُ الصِّحاب أن يكونَ هو موضوعَ السخرية. وهو الشاعر «مهدي مصطفى» وكان شيخاً مُعَمَّماً، وعَزَمَ أن يخلعَ زيَّ المشايخ، ويلبسَ زيَّ الأفندية.

طبعوا رقاع الدعوة، ووزعوها. وهي تبدأ هكذا: «تتشرفُ لجنة ذكرى الأحياء من بني آدم، بدعوة حضرتكم لحضورِ الاحتفال بإزاحةِ الككولا [أي الجبة والعمامة الأزهرية] عن جثمانِ الشيخ مهدي مصطفى».

وتنتهي هكذا: «لا أَراكم اللّهُ مكروهاً في عزيزٍ لديكم».

وكانت حفلةً حافلة، بدأَها سيد قطب ـ عندما خرجَ مهدي مصطفى لحاجةٍ ما ـ بقوله: «بمناسبةِ تغيُّبِ المحتفى به نبدأُ الحفل».

وخطبَ فيها أَكثرُ من عشرين شاعراً، منهم: حسين شفيق المصري، وسيد قطب، وأحمد مخيمر...»[1].

وروى عباس خضر عن زيارةِ سيد قطب له في بيته، بعدما سهروا سهرةً أَدبية في قهوةِ الحلمية: كانتْ أولُ مرةٍ تعارفْنا فيها بقهوةِ الحلمية إذ جاء إليها سيد قطب، من أجلِ صديقهِ أبو فاشا، وأَخَذَنا السَّمَر، فلم نشعرْ بمرورِ الوقت، حتى جاوزت الساعةُ

---

(١) مجلة الثقافة، السنة الرابعة، المجلد الثامن، عدد ٤٦، يوليو ١٩٧٧، ص ٤٧.

الواحدةَ بعد منتصفِ الليل، وكان سيد قطب يسكنُ في حلوان، وقطارُ حلوان ينتهي سيرهُ في الساعة الواحدة تماماً.

فجاء معنا إلى مسكني في الحلمية، حيثُ بتنا معاً، ونمنا على سريري، ذي الأَعمدةِ الحديديةِ الأَربعة واضطررنا أن ننامَ على السرير نحنُ الثلاثة بالعرض... حتى يَسَعنا!!

وكان طاهر يسكنُ معي، أو قل: يسكنُ عندي. إِذ لم يكنْ له مسكن.

وفي صباح تلك الليلة، التي استضَفْنا فيها سيد قطب، خرجَ طاهر لابساً «بيجامته» الحريرية، وبيده «السلطانية» [الإناء لوضع الفول فيه] وعادَ يحملُها مملوءةً بالفول المدمس بيد، وباليدِ الأُخرى أَرغفةَ الخبز، وتحت إِبطه حزمةٌ من البصلِ الأخضر..»[1].

وفاء سيد قطب لعباس خضر:

وكان سيد قطب وفيّاً لأصدقائِه من الأُدباء، وروى عباس خضر نفسُه حادثةً تدلُّ على وفائِه معه. حيث جاءَ سيد في ليلةٍ من ليالي شهرِ أُغسطس ـ آب ـ لعام ١٩٤٨ لإخراجِ صديقهِ عباس خضر من المخفر، قال: «ولا أَنسى ليلةً قضيتُها في قسم البوليس بحلوان، إذ اشتبه فيَّ رجلٌ غبيّ، وكنتُ في منطقةِ «عين حلوان»

(١) المصدر السابق.

أَتَنَزَّه، فلما رآني هناك ليلاً أَمسكَ بي، مُتَّهماً إيّاي بوضعِ قنبلةٍ عند العين، لنسفِ مبناها. وعلى هذا الافتراضِ فأنا عميلٌ صهيوني.. وكان ذلك عقبَ قيامِ إسرائيل.

قال لي ضابطُ الشرطة «النوبتجي» [المناوب] في القسم: أَتعرفُ أَحداً بحلوان يضمنُك؟

قلتُ: نعم. وأَمليتُ عنوانَ سيد قطب ـ وكان لا يزالُ مأموناً موثوقاً به عند السلطات ـ....

وجاءَ الصديقُ المنجد.. جاء لابساً معطفاً فوقَ «البيجامة» وبقدميه «شبشب»، لم يلبثْ حتى يستبدلَ بهِ حذاء... وعرفَ الموضوعَ من رجلِ الشرطةِ الذي استدعاه، فلما دخلَ ورآني، أَشارَ إليَّ ضاحكاً، وهو يقولُ للضابط: إنه صهيوني لا تَدَعوه يفلت!

وخرجْتُ من القسم، ناجياً من النومِ على «البرش»، في الساعة الثانية بعد منتصف الليل...

ومما يُذكرُ أَنَّ الضابطَ كتبَ في المحضر: وبتفتيشِه عُثِرَ في جيبه على شعر ومقالات..»[1].

---

(١) مجلة الثقافة، المجلد الثامن، السنة الرابعة، عدد ٤٧، تاريخ أغسطس ١٩٧٧، ص ٤٨ ـ ٤٩.

صلة سيد قطب بطه حسين وتوفيق الحكيم:

ومن الأدباء الذينَ كانت لسيد قطب صلةٌ وثيقةٌ بهم:

الدكتور طه حسين: وقد كان طهَ حسين مستشاراً في وزارةِ المعارِف، أَثناءَ عمل سيد في مراقبةِ الثقافةِ العامةِ في الوزارة. ومع صلتهِ به إلاّ أَنه كان ينقدُ أَدبه ونَتاجه بصراحة، يُثني على النقاطِ الايجابية، وَينْقدُ ويوضحُ النقاط السلبية، بدون مجاملةٍ أو مواربة.

فلما أَصدرَ طه حسين كتابَه الخطير «مستقبل الثقافة في مصر» نَقَدَهُ سيد قطب نقداً صريحاً مطوَّلاً، ونَشَره في مجلة «دار العلوم» في العددِ الرابع من السنةِ الخامسة عام ١٩٣٩. ثم طبعَه في كتابٍ خاصٍّ بعد ذلك.

ورغمَ الصلةِ الوثيقةِ بطه حسين، إلاّ أنه لم يسكتْ على طه حسين لما شَنَّ الأخيرُ هجوماً حادّاً على الأُدباءِ الشبّان، في عدد يونيو ـ حزيران ـ ١٩٤٧ من مجلةِ الهلال. فردَّ عليه سيد قطب بهجومٍ حادٍّ عنيفٍ في مجلةِ العالم العربي، هاجمَ فيه طه حسين والأدباءَ الشيوخ، واعتبرَ مؤرخو الأَدَبِ والنقد مقالَ سيد قطب وثيقةً خطيرةً ضدَّ كبارِ الأُدباء في مصر، كطه حسين والعقاد وأَحمد أَمين والزيات.

ولم يُتابعْ طه حسين المعركةَ الأَدبيةَ ضدَّ سيد قطب، وإِنما آثَرَ الانهزامَ والخروج منها، لأَنه لم يستطع الوقوفَ أَمامَ أُسلوبِ سيد الهجوميِّ القويّ.

ولما توجَّهَ سيد قطب للفكرِ الإسلاميِّ والدعوةِ الإسلامية انفصلَ نهائياً عن طه حسين، وقطعَ صلتَه به، لأنَّ موقفَ طه حسين من الإسلامِ والدعوةِ معروف!!

ومن هؤلاء الأُدباء توفيق الحكيم، الذي نقدَ نتاجَه من الرواياتِ والمسرحيات، وتحدَّثَ عن أُسلوبِه في الرواية، ولما كان سيد قطب في أَمريكا، جَرَتْ بينَه وبين توفيق الحكيم مراسلات، قَدَّمَ للحكيمِ فيها خطةً للخروج من التبعيةِ الفكرية والنفسيةِ للغرب، والعودة إلى التصورِ الإسلامي[1].

وخاضَ سيد قطب معاركَ أَدبيةً ونقديةً مع عددٍ من الأُدباء حولَ مسائلَ خاصة في الأَدبِ والنقدِ والفنِّ والحياة.

وكان أُسلوبُه في تلك المعاركِ والمساجلاتِ الأَدبية قوياً حادّاً هجومياً، يهاجمُ كلَّ مَنْ حولَه بعباراتٍ قويةٍ عنيفة.

وخيرُ مَنْ وصفَ سيد قطب في معاركِه الأدبية هو الأَديبُ علي الطنطاوي. قال: «إِنّي لم أَتخيَّلْ سيد قطب إلاّ مقارعاً محارباً، ولم أَعرفْهُ إِلاّ كاتباً مجادلاً مناضلاً، يهاجمُ مهاجماً ومدافعاً ومحايداً»[2].

وفيما يلي تعريفٌ موجزٌ جداً بأَشهرِ معاركه الأَدبية:

---

(١) انظر مقال سيد «إلى الأستاذ توفيق الحكيم» في عددي مجلة الرسالة: ٨٢٧، ٨٢٨ لعام ١٩٤٩.

(٢) الرسالة: السنة الثالثة عشرة، المجلد الثاني، عدد ٦٤٨، سنة ١٩٤٥، ص ١٣١٣.

١ ـ معركة «المنبر الحر» عام ١٩٣٤:

أَطلقَتْ مجلةُ الأُسبوع على صفحةِ النقدِ فيها اسم «المنبر الحر»، وفَتحت المجالَ لسيد قطب ليحررَها. وبدأت المعركةُ في صيف عام ١٩٣٤.

ونشرَ سيد ستَّ مقالاتٍ عنيفة، بَيَّنَ فيها دوافعَ وخفايا مساجلاتٍ أَدبية وقعَتْ بين أُدباء، مثل: معركة إِبراهيم المازني ضد المهندس علي محمود طه، ومعركة طه حسين ضد إِبراهيم ناجي وإِبراهيم المصري، ومعركة عباس العقاد ضد إِبراهيم ناجي، ومعركة إِبراهيم المصري ضد إِبراهيم ناجي، ومعركة أَحمد حسن الزيات ضد طه حسين، ومعركة محمود أَبو الوفا ضد جماعة أَبوللو.

وردَّ عليه بعضُ الأُدباء ردوداً قاسيةً عنيفةً حادة، واتهموه اتهاماتٍ جارحة. منهم: طه حسين، وأَحمد زكي أبو شادي، ومحمود الشرقاوي، ومختار الوكيل، وصالح جودت، وعبد الفتاح إِبراهيم[١].

وما أن خرج من المعركة مع أُولئك الأُدباء، حتى دخلَ في معركة عنيفة مع جماعة «أَبوللو» الأَدبية، التي أَسسها الدكتور

---

(١) انظر مجلة «الأسبوع»، سنة ١٩٣٤، أعداد: ٣١ ـ ٣٦.

أَحمد زكي أَبو شادي، وأَكثرهم ردوداً عليه أَحمد زكي رئيسُ الجماعة، وصالح جودت العضو البارز فيها[1].

٢ ـ معركته مع الرافعيين عام ١٩٣٨:

لما تُوفيَ مصطفى صادق الرافعي عام ١٩٣٧ كتبَ تلميذُه محمد سعيد العريان ستاً وعشرين مقالاً في مجلة الرسالة، أَشادَ فيها بأُستاذِه الرافعي، وانتقصَ فيها خصمَه اللدودَ عباسَ العقاد، وعرضَ ما جرى بين العقاد والرافعي من منظارِ الرافعيين!

وأَثارَ عملُ العريانِ العقّاديين وأَغضبَهم، واعتبروه انتقاصاً لأُستاذِهم العقاد.

وانبرى للردِّ على محمد سعيد العريان وعلى أُستاذِه الرافعي أَبرزُ تلاميذِ العقاد في ذلك الوقتِ سيد قطب.

نشرَ سيد قطب مقالَه الأَول في العدد (٢٥١) من مجلة الرسالة الصادر بتاريخ ٢٥ أبريل ـ نيسان ـ ١٩٣٨. بعنوان «بين العقاد والرافعي»، ثم أَتبعَهُ بسلسلةِ مقالاتٍ أَعلنَ فيها الحربَ على الرافعي وأَدبِهِ وبلاغتِه، وطريقتِه في التفكيرِ والتعبير، وحَلَّلَ أَدبَه وكتاباتِه، وتحامَلَ عليه تحامُلاً كبيراً، كما هاجمَ تلاميذَه الرافعيّين، وعلى رأسهم محمد سعيد العريان.

---

(١) انظر مجلة «الأسبوع»، سنة ١٩٣٤، أعداد: ٤٣ ـ ٥١.

ثم انتقلَ للإشادة بأُستاذِه العقاد، والحديثِ عن أَدبه وشعرِه وفكرِه وعلمهِ وشخصيته، ونظرَ له بمنظارِ المريدِ المعْجَبِ بشيخه إِعجاباً منقطعَ النظير، لا يَرى إلاّ هو.

وكانت معركتُه مع الرافعيين من أَطول معاركه الأَدبية، وأَقواها وأَعنفِها وأَشرسِها، حيث نشرَ فيها اثنين وعشرين مقالاً، نشرَ المقالَ الأَولَ منها في عدد: (٢٥١) من الرسالة، ونشرَ المقال الأُخير في العدد: (٢٨٠).

ودخلَ الرافعيون المعركةَ ضد سيد قطب، بدأَها العريانُ نفسه الذي استنفرَ زملاءَه، ودعاهم إلى الردِّ على سيد بمثلِها، فلبّى الرافعيّون الدعوة.

ومن الذين هاجموا سيد قطب بحدةٍ وقسوة: محمود محمد شاكر، وعلي الطنطاوي، ومحمد أَحمد الغمراويّ، وعبد المجيد المجدوب، وإسماعيل مظهر.

والعجيبُ أَنَّ سيد قطب وقفَ أَمامَ هؤلاء وحده، وتصدّى لهم وحده، ولم يعاونهُ في المعركة أَحدٌ من العقاديين.

ومن الطريف أَنَّ سيد كان يقدمُ العقاد على الرافعي، حيث جعلَ عنوانَ مسلسلِ مقالاتِه: «بين العقاد والرافعي». فيردُّ عليه الرافعيون بتقديم أَستاذهم، ويجعلون رُدودَهم تحتَ عنوان «بين الرافعي والعقاد».

ونزلَ أُسلوبُ الفريقين المتعاركَيْن إلى قريب من أُسلوبِ السباب والشتائم، سواء أسلوب سيد قطب أم أسلوب خصومه.

ولنقرأُ هذه القطعة من مهاجمةِ علي الطنطاوي لسيد قطب، التي لا تخرجُ عن كونها مهاترةً وشتائم، لندركَ المدى الذي وصلَتْ له المعركة!

قال: «ولكن متى سألْتُ سيد تقويمَ كلمتي؟ ومتى طلبتُ إليه رأْيَه فيها؟ وهل بقيَ عليَّ أن أَصدرَ عن رأيٍ سيد قطب فيما أكتب؟

لا يا سيدي: ما هكذا يكونُ النقد ولا هكذا تكونُ المناقشة..

عُدْ عن هذا الأُسلوب، أُسلوب التعريض والسخرية، واعلمْ أَنني إِن حططتُ عليك ساخراً ومُعَرِّضاً بك، لم أَدَعْك حتى تلتصقَ بالأرض! وأَنا مِنْ أَقدرِ الناس على ذلك! ولكن ذلك شيء يأْباهُ الخلقُ الكريم، وتأْباه «الرسالة». ولقد كانتْ لي في هذا الميدان جولات، صرعْتُ فيها كثيراً من الكُتّاب المُدَّعين المستكبرين، ثم أَقلعْتُ عنها، واستغفرْتُ الله، وأَرجو أَلاّ يضطرني أَحَدٌ إلى مثلها...»[1]

---

(١) الرسالة: السنة السادسة، المجلد الأول، عدد ٢٦٠، تاريخ ٢٧/٦/١٩٣٨، ص١٠٩.

ولا ننسى أَنَّ سيد كان في بدايةِ الثلاثينيات من عمره عندما شنَّ هذه المعركة على الرافعيين، حيث كان عمره اثنتين وثلاثين سنة، وكان حريصاً على أن يُثبتَ وّجودَه، ويُعلي ذكْرَه، وذلك ليرضيَ نفسيتَه الراغبةَ في الفخر والمباهاة والخيلاءِ والاستعلاء، وقد أَدَّبَهُ الإسلامُ لما التزمَ به فكرياً وعملياً وسلوكياً بعد ذلك، فأَزالَ هذه المعاني الاستعلائيةَ من نفسيته، وأَحَلَّ محلَّها الهدوءَ والطمأنينة والتواضع.

٣ ـ معركته مع دريني خشبة عام ١٩٤٣:

كان دريني خشبة زميلاً لسيد قطب في وزارة المعارف، وسببُ المعركة القصيرة بينهما، أنَّ سيد قطب كتب مقالاً في مجلةِ الرسالة، في نقدِ وتحليلِ كتاب «أَحلام شهرزاد» للدكتور طه حسين، وأثنى على النقاطِ الإيجابيةِ في الكتاب.

واعتبرَ دريني خشبة ثناءَ سيد قطب على كتابِ طه حسين دليلاً على عدم اهتمامِه بالأَخلاق، لأنه اعتبرَ كتابَ طه حسين يتنافى مع الأَخلاق.

وجَرَتْ بين الأَديبيْن الزميليْن مساجلاتٌ على صفحاتِ عدةِ أَعدادٍ من مجلة الرسالة لعام ١٩٤٣.

ولما وقعَتْ معركةٌ بين سيد قطب ومحمد مندور، تدخَّلَ خشبة ضدَّ زميله سيد، فردَّ عليه بهجومٍ عنيف[١].

---

(١) انظر الرسالة: سنة ١٩٤٣، أعداد ٥٠٨ ـ ٥١٠، وسنة ١٩٤٤، أعداد: ٥٦١ ـ ٥٦٤.

٤ ـ معركته مع الدكتور محمد مندور عام ١٩٤٣:

كان سببُ نشوبِ المعركة بينهما عدةَ مقالاتٍ كتبها الدكتور محمد مندور، في مجلةِ الثقافة عام ١٩٤٣، فَضَّلَ فيها شعراءَ (المهجر) لِما في شِعرهم من «همس»، وفضَّلَ مندور الأَدَبَ المهموسَ على الأدب الخِطابي.

ورفَضَ سيد قطب دعوةَ مندور للأَدب المهموس، وردَّ عليه في خمسِ مقالات في مجلة الرسالة، وردَّ عليه مندور في الرسالة، وهاجمه بعنفٍ وشدة، ونالَ كلٌّ واحد من الآخر بعباراتٍ قاسية، وانتقلت المعركةُ بينهما من ميدانِ الأدب والنقد إلى ميدان الشتائم والمهاترات الشخصية[1].

٥ ـ معركته مع صلاح ذهني عام ١٩٤٤:

كان صلاح ذهني تلميذاً لمحمودْ تيمور، وأَصدرَ بعضَ الكتب والقصص والروايات، وأَهداها لسيد قطب، طَمَعاً في أَنْ يتحدثَ عنها سيد ناقداً لها، ولكن سيد لم يجدْ فيها ما يستحقُّ الكلام، فجامَلَ ذهني بالسكوت.

ولما عَرَّفَ بروايةِ نجيب محفوظ «كفاح طيبة» وأَشادَ بها، تكلمَ على أَدبِ محمود تيمور. وأَغضبَ هذا تلميذَه صلاح ذهني، فهاجمه في مجلةِ الرسالة، وردَّ سيد على الهجوم بهجومٍ أَشدّ،

(١) انظر الرسالة، سنة ١٩٤٣، عدد ٥١٥ وما بعده.

وجَرَتْ بينهما مساجلاتٌ حادةٌ عنيفة، نُشرتْ في أكثرَ من ستٍّ أَعدادٍ من الرسالة[1].

٦ ـ معركته مع عبد المنعم خَلاَّف عام ١٩٤٥:

في شهر أبريل ـ نيسان ـ عام ١٩٤٥ أَصدرَ سيد قطب كتابَه الإسلاميَّ الأول «التصوير الفني في القرآن»، واستقبلَه جمهورُ الأُدباءِ والنقادِ استقبالاً طيباً، وقَرَّظَه بعضُهم في المجلات، مثل: نجيب محفوظ، وعلي أَحمد باكثير، وتوفيق الحكيم.

وكان ممن عَرَّفَ بالكتاب، وأَثنى عليه ثناءً جيداً، وأَشادَ بموهبةِ سيد قطب إشادةً طيبةً صديقُه عبد المنعم خلاف. واعتبرَ الكتابَ قد احتلَّ مكاناً رائداً في مكتبة القرآن، وفي مكتبةِ البحوث البلاغية، وفي مكتبةِ النقد الأَدبي، وفي مكتبة الأدب الفني.

وبعد ذلك سَجَّلَ خَلاّف بعضَ الملاحظات، وأَخذَ عليه بعضَ المآخذ.

وردَّ سيد قطب عليه، وبَيَّنَ وجهةَ نظره في ملاحظات خَلاّف. وردَّ خلاّف على إجابات سيد، وكانت مقالات عبد المنعم خلاّف خمسة، بينما كانت مقالاتُ سيد في الردِّ عليه ثلاثة[2].

---

(١) انظر الرسالة، سنة ١٩٤٤، أعداد ٥٨٩ ـ ٥٩٤.

(٢) انظر مجلة الرسالة سنة ١٩٤٥، أعداد ٦١٧ ـ ٦٥٠، مقالاتهما في هذه الأعداد.

ومن الملاحظ أنَّ المعركةَ بين الصديقيْن كانت هادئة، لأَنهما كانا هادئيْن ناضجين، وموضوعُ المعركة ـ أو الحوار ـ بينهما أَضفى عليهما الهدوء، وهو القرآن وأُسلوبُه وبلاغتُه وإعجازُه وتصويرُه.

ودخلَ في الحوار بينهما صديقُهما علي الطنطاوي، وقد أَشرنا قبلَ قليل إلى دخولِ علي الطنطاوي ضدَّ سيد قطب لما فتحَ سيد معركتَه ضد الرافعيين، وسجلْنا عباراته الحادَّة ضدَّ سيد.

أَمّا الآن فنذكُرُ فقرةً من كلام الطنطاوي، لنتعرفَ على الطبيعةِ الهادئة لهذه المعركة. قال: «هذه هي المرةُ الثانية التي أَتطفَّلُ فيها على مناظرات الأستاذ قطب. ولكن ليطمئنّ القراء، فما هي كالأُولى، ولا هي منها في شيء. وأَنا في هذه المرة مؤيدٌ له، وقد كنتُ في الأُولى عليه. وهذه مناظرةٌ هادئةٌ باسمة، وقد كانت تلك معركةً صاخبةً مجلجلة، كالحةَ الوجه عابسة»[1].

٧ ـ معركته مع إسماعيل مظهر عام ١٩٤٦:

أَصدرَ عبدُ الله القصيمي كتاب «هذه هي الأغلال» ووجَّهَ حربَه ضدَّ الدين وعلمائه وحقائقه، وانتصرَ له إسماعيل مظهر

(١) الرسالة: السنة الثالثة عشرة، المجلد الثاني، عدد ٦٤٨، تاريخ ٣/ ١٢/ ١٩٤٥، ص ١٣١٣.

صاحب المقتطف، وهاجمَ القصيميَّ وكتابَه الكُتّابُ الإسلاميون، وكان منهم: عبد المنعم خلاف، وسيد قطب.

وشنَّ إسماعيل مظهر هجوماً على سيد قطب بسبب ذلك، وردَّ سيد على هجوم مظهر بفضحِ موقف مظهر وصاحبه القصيمي[1].

---

(١) انظر الرسالة: سنة ١٩٤٦، أعداد ٧٠٠ ـ ٧٠٨.

(٧)

مع سيد قطب في صلته بالعقاد

صلةُ سيد قطب بالعقادِ صلةٌ وثيقةٌ متينةٌ خاصة، صلةٌ شخصية، وصلةٌ ثقافيةٌ علمية، وصلةٌ أَدبية فنية، واستمرتْ هذه الصلةُ حوالي ربعَ قرن، من سنة ١٩٢٢ إلى سنة ١٩٤٧.

نقاط التشابه بين سيد قطب والعقاد:

وبين الشخصيتيْن: الأستاذ العقاد والتلميذ سيد، نقاطُ تشابهٍ واتفاقٍ وانسجامٍ والتقاء. منها:

١ ـ كُلٌّ منهما صعيديٌّ قادمٌ من صعيدِ مصر، فسيد قطب من «موشة» بجانبِ أَسيوط، والعقاد من «أَسوان» في أَقصى الجنوب.

كُلٌّ منهما أَقبلَ على الشعرِ والأَدبِ والنقدِ منذُ مطلعِ حياتِه، فالعقادُ شاعرٌ وسيد شاعر، والعقادُ كاتبٌ وسيد كاتب، والعقادُ أَديبٌ ناقد، وسيد في طليعةِ الأَدباءِ النّقّاد.

٣ ـ كُلٌّ منهما كاتبُ مقالة متميز، وكتبَ كثيراً من الصحف والمجلاتِ الأَدبية والسياسية والحزبية.

٤ ـ كُلٌّ منهما بدأَ حياتَه السياسية في حزبِ الوفد، وكُلٌّ منهما ترك الحزب وانفصلَ عنه فيما بعد.

٥ ـ كُلٌّ منهما عاشَ حياتَه الاجتماعيةَ بدونِ زواج ـ رغمَ محاولاتِ سيد قطب المتكررة للخِطبة ـ ووهبَ نفسه للأَدبِ والعلمِ والبحث.

٦ ـ كُلٌّ منهما تمتَّعَ بشخصيةٍ قويةٍ مؤثرة مستَقِلَّة، تركتْ آثارَها الملحوظةَ على عالَمِ الأَدبِ والفكر.

٧ ـ كُلٌّ منهما توجَّهَ نحوَ الفكر الإسلامي والدراساتِ الإِسلامية، في مرحلةِ النضجِ العقليِّ والفكري.

٨ ـ ومن ما تميَّزَ به سيد قطب عن العقادِ أَنَّ توجُّهَ العقادِ الإِسلامي كان توجُّهاً نظريّاً عقليّاً ذهنيّاً، بينما كان توجُّهُ سيد قطب أَصدق، حيث كان توجّهُهُ الإِسلاميُّ حركيّاً دعويّاً جهاديّاً. ولذلك ختمَ حياته بالشهادةِ في سبيل الله ـ إن شاء الله ـ.

وكانت صلةُ سيد بالعقادِ في وقتٍ مبكِّرٍ من حياته، فما أَنْ وطئَتْ قدماهُ أَرضَ القاهرةِ حتى وجدَ نفسَه في مكتبةِ العقادِ الضخمة، وأَمامَ شخصيةِ العقادِ القويةِ المؤثرة.

إِنَّ خالَ سيد «أَحمد حسين عثمان» ـ الذي تربطُه بالعقاد صلةٌ أَدبيةٌ سياسيةٌ حزبية و«صعيدية» ـ هو الذي عَرَّفَ ابنَ أُخته الفتى على الأَديبِ الكبير، ومنْ يومِها تتلمذَ التلميذُ على الأُستاذِ الأَديب.

كان للعقادِ تلاميذُ كثيرون، من الشعراءِ والأُدباء والكُتّاب، من أَمثال: محمد خليفة التونسي، وعبد الرحمن صدقي، وأَحمد مخيمر.. ولكن سيد قطب كان أَبرزَ وأَشهرَ وأَنشطَ وأَذكى تلميذٍ في المدرسةِ العقادية.

وبينما ذابَ معظمُ التلاميذ في شخصيةِ الأُستاذ العقاد الساحرة القوية، حتى بعدَما كبروا وقَطعوا أَشواطاً في الأَدب، فإنَّ سيد قطب قد تمتعَ بشخصيةٍ قوية، لم تَذُبْ في شخصيةِ أُستاذه، ولم يكن نسخةً مكررةً عن أُستاذه.

غلو سيد قطب في ثنائه على العقاد:

قرأ سيد كلَّ ما أصدره العقاد من دواوين وكتبٍ ودراسات، واستوعَبَها، وعَرَّف بها كلِّها في الصحفِ والمجلات، وأَثنى على أَفكارٍ وآراءِ العقادِ فيها.

وقد غالى سيد قطب مغالاةً ملحوظةً في نظرتِه للعقاد، وحديثِه عنه، ولقد مرَّتْ عليه فترةٌ طويلة وهو لا يرى في سماءِ الأَدبِ إلا العقاد، ولا يلمسُ إلا جوانبَ من عبقرية العقاد، ولا يتذوَّقُ إلاّ شعرَ العقاد!! فالعقادُ عنده هو الأَديب العالم، والفيلسوفُ المفكر، وأَشعرُ شعراءِ العالم، وكلُّ أُدباءِ وشعراء العرب لا يساوون شيئاً إِذا قورنوا به!

قالَ سيد مرةً عن العقاد: «قد يكونُ هناك كتَّابٌ يتقاربون مع العقاد، ولكن ليس هناك شعراء في لغةِ العرب يتقاربونَ مع العقاد!

ولقد كنتُ هممتُ بإصدارِ بحثٍ عن الشعراءِ المعاصرين، ونظرتُ في أَدبِ جميعِ الشعراءِ الأَحياء ـ وأَنا من بينهم ـ ولكن عاقَني عن إِصداره أَنني لم أَجدْ نُقاط اتصالٍ بين العقاد الذي سأَكتبُ عنه أَوَّلاً، وبين جميعِ الشعراءِ الآخرين.

الفرقُ هائلٌ جداً، وأَكبرُ مما يتصورُه الأَكثرون، بين طاقةِ هذا الشاعر، وبين الطاقات الأُخرى..»[1].

وقال عنه في موضعٍ آخر: «ونحنُ لا ننصفُ الرجلَ حين نقول: إِن الأَوتارَ التي يوقِّعُ عليها الحبُّ في نفسه لم تجتمعْ قط لشاعرٍ عربي، ولا تجتمعُ لعشرةٍ من شعراء العربية في جميع العهود!

نحنُ لا ننصفُه حين نتحدثُ عن اللغةِ العربية وحدَها، ولكننا نقولُ ذلك مؤقَّتاً، لأَنها اللغةُ التي نستطيعُ الحكمَ على آدابها، حكماً نملكُ أَدلتَه كلَّها ونجزمُ فيها بالصواب.

وإِلاّ فبين يدي مُعَرَّباتٌ كثيرة، لشعراءَ من الغرب مشهورين معروفين، مثل: بيرون وشيلي، والفريد دي موسيه، وفكتور

---

(١) الرسالة: السنة السادسة، المجلد الأول، عدد ٢٥١، تاريخ ٢٥/ ٤/ ١٩٣٨، ص٦٩٤.

هوجو، لا أَرى فيها من تعدُّد الجوانب الصادقة الأَصيلة، ما أَراهُ في غزل العقاد وشعرِه عامة..»[1].

كان سيد قطب يخشى الذوبان في شخصية العقاد:

وبعد ست سنوات من كلامه السابق اعترفَ سيد قطب بأَنه كان يخشى الذوبانَ في شخصيةِ العقاد، وهذه الخشيةُ زالَتْ فيما بعد، عندما شقَّ طريقَه، وبدأَ يتعرفُ على معالم تفرُّدِه وتميُّزِه فيه: «إنني لم أَعُدْ أَحرصُ اليوم على مقاومةِ الفناءِ في الشخصياتِ الأُخرى، لأني عدتُ أَكثرَ اطمئناناً لعدمِ الفناء! وإني لأَعرفُ اليومَ أَنَّ صيحتي يومذاك، إنما كانتْ صيحةَ الخائفِ الذي يحدِّثُ نفسَه في الظلام، ويَنفي عنها الأَوهام، ليشعرَ بالاطمئنان!

لقد كنتُ يومَها أَتحدثُ عن العقاد، وكانت شخصيةُ العقاد هي الشخصيةَ الوحيدة التي أَخشى الفناءَ فيها ـ كنتُ أُحسُّ هذا بيني وبين نفسي ـ ولقد ظلَّتْ هذه الخشيةُ إلى وقتٍ قريب، حينما بدأتُ أَشعرُ أَنني قد تخلَّصْت، وأَنني أَنتفعَ بالعقاد، ولكني لا أُقلده. وأَنَّ لي طريقاً أَلمحُ معالمه، وأَستشرفُ آفاقَه. وأَنني أتذوَّقُ بحسّي، وأَنظرُ بعيني، وأَسمعُ بأُذني. وإن كانَ للعقادِ فضْلُ التوجيهِ

(١) الرسالة: السنة السادسة، المجلد الثاني، عدد ٢٦٨، تاريخ ٢٢/٨/١٩٣٨، ص١٣٨٠ ـ ١٣٨١.

في الطريقِ العام. عندئذ بدأْتُ أسكت عن كلِّ اتهام، وبدأْتُ أَتحدثُ عن أستاذيةِ العقاد لي وتلمذتي عليه..»[1].

كان سيد يخالف العقاد أحياناً:

ورغمَ تلمذةِ سيد قطب للعقاد إلاّ أَنه كانَ يخالفُه أَحياناً في بعضِ نظراتِه في الأَدب، وكان ينقدُه أَحياناً في الصحف. العقادُ الذي لا يقبلُ لأحدٍ أَنْ ينقدَه، فكيف إذا كان هذا الناقدُ تلميذاً له؟!

في عام ١٩٣٣ أَصدرَ العقادُ ديوان «هدية الكروان» فكتبَ سيد قطب ناقداً له في صفحةِ «الأَهرام» الأَدبية. ومما قالَه عنه: «إن «هديةَ الكروان» منتهى النضوج الفنيِّ للعقاد، وإنها سلمتْ من بعضِ أَشياء، كانتْ تَغُضُّ من الجمالِ الفنيِّ الكامل. لبعضِ شعرِ العقاد، وهي «قسوةُ القالب»، ويعني بها: أن يَحتجنَ الشعورُ الطليقُ في ثوبٍ أَضيقَ وأَقسى مما يلائمُ هذا الشعور الطليق!!».

وغضبَ العقادُ على ملاحظةِ سيد النقدية عن «قسوةِ القالب» عنده. قال «فأمّا العقادُ فهو ساخطٌ حانق، ساخطٌ لأني جمعْتُ بينَه وبين أَحمد زكي أَبي شادي في مقال، وحانقٌ لأن أَقولَ شيئاً عن «قَسوةِ القالب» في بعضِ شعره..

---

(١) الرسالة: السنة الثالثة عشرة، المجلد الثاني، عدد ٥٩٧، تاريخ ١١/ ١٢/ ١٩٤٤، ص ١٠٨٧ ـ ١٠٨٨.

وأُقابِلُه، فيعلُنَ هذا السخط، وهذا التَّبرم.. إنه لا يُسَلِّمُ بقسوةِ القالب في بعضِ شعره، ولا يُبيحُ لي أَنْ أُوَجِّهَ هذا النقدِ له، لأنَّ منشأَه هو قصوري عن فهمِ شعرِه، وإِنَّ على الناقدِ أنْ يرتفعَ لمستوى الشاعر، وليسَ على الشاعرِ أن يهبطَ لمستواه..

وكان العقادُ مهتاجاً، ولكنني كنتُ هادىءَ الأَعصاب!...

وافترقْنا، وفي نفس العقاد شيءٌ أُحسه، ولكني آسفٌ له، وإنْ كنتُ لا أنوي التأَثُّرَ به...»[1].

انتقدَ سيد قطب فهمَ العقادِ للشعر في أَكثرَ من مرةٍ في الأَربعينيات، وكتبَ هذا النقدَ في المجلات ثم جمَعَه في كتابه «كتب وشخصيات».

ومن ذلك، ما انتقدَه به في تعريفِه بكتابِ «دفاع عن البلاغة» لأَحمد حسن الزيات، ولكتاب «أَغاني شيراز»، وما أَوردَه في مقاله «الوعي في الشعر»[2]

انفصال سيد عن العقاد:

وبدأ انفصالُ سيد قطب عن العقّاد تدريجياً، منذُ بدايةِ الأَربعينيات وكان سيد قد بدأَ يُقبلُ على القرآن، يتدبرُه ويتذوقُ

(١) الأسبوع، عدد ٣٥، تاريخ ٢٥/ ٧/ ١٩٣٤، ص ٢٢ ـ ٢٣.

(٢) راجع «كتب وشخصيات»، ص ٤٢ ـ ٤٧ و٦٨ ـ ٨٣ و٨٤ ـ ١٠٢ و٢٧٣ ـ ٢٩٠.

أُسلوبَه وتعبيرَه، ويتأثَّرُ ببيانهِ وبلاغتهِ، لأجلِ هذا بدأَ يبتعدُ عن العقاد.

وفي بداية عام ١٩٤٨ أَعلنَ انفصالَه عن العقاد نهائياً، وخروجَه عن مدرستِه الأَدبية، واستقلالَه بفهمِ الشعرِ والأَدبِ والبلاغةِ والفن، فهماً يخالفُ به العقادَ ومدرستَه.

أَصدرَ أَحدُ تلاميذِ العقاد، الشاعرُ أَحمد مخيمر ديوان «الزوميات مخيمر»، فنقدَه سيد قطب في مقالٍ نقديٍّ يُعتبرُ وثيقةً هامة،، وأَصدرَ المقالَ في مجلة «الكتاب» عدد فبراير - شباط - ١٩٤٨.

ونقتطفُ من ذلك المقال الفقراتِ الهامَّةِ التالية:

«لقد آن لنا أن نفهمَ الشعر، لا على طريقةِ مدرسةِ شوقي وحافظ والمنفلوطي، ولا على طريقةِ مدرسةِ العقاد وشكري والمازني.

فكلتاهما مرحلتان من مراحلِ التطور، قامَتا بدوريهما في النهضة، وآنَ أن يخلفَهما فهمٌ للشعرِ جديد.

لقد قامَتْ أَولاهما، على أَساسِ أَنَّ الشعرَ جزالةُ تعبير، وجلجلةُ إِيقاع، وابتداعُ أَخيلة، وبراعةُ تناول، ومقدرةُ أَداء... وعلى الإجمال: مهارةُ صناعةٍ تعبيرية وتخييلية، ولا شيءَ وراءَ ذلك، مما له علاقةٌ بصميمِ النفوس، وحقائقِ الشعور.

وقامتْ أُخراهما على أَساسِ أَنَّ الشعرَ صورُ حياة، وخلجاتُ نفوس، وسماتُ شخصيات، وحقائقُ شعور..

وهذا كلُّه صحيح. ولكن هذا المدرسة عند التطبيقِ العملي لفهمها للشعر، كانت طاقتها الشعرية أَقلَّ من تصورها للشعر، فجاءَ نتاجُها الشعري ـ في عمومه ـ ناقصَ الحرارة، غيرَ مكتملِ الشاعرية. وظلَّتْ ـ إلاّ قليلاً ـ تَمتَحُ من تصورها الواعي للشعر، قبلَ أَنْ تفيضَ من شعورِها الكامن في الضمير.

لم تُفرقْ هذه المدرسةُ في نتاجِها بين الفكرةِ الشعرية والإِحساس الشعري...

ويتابعُ سيد كلامَهُ مُعلناً خروجَه على هذه المدرسة... «... ولستُ أَنكرُ فتنتي فترةً طويلةً من العمر بهذه المدرسةِ كفكرة، وفتنتي بنَتاجِها الأَدبيُّ كشعر، وتأَثُّري بها، إِلى الحدِّ الذي أَنفقْتُ فيه شَطراً من عمري، وأَنا أَقولُ الشعر، لا أُفَرِّقُ فيه بين الفكرةِ الجميلة، أَعتنقُها مذهباً، والإِحساسِ الجميل الشعري، ينبضُ به شعوري، ويعيشُ انفعالاً غامضاً في ضميري..

ولم أَجِدْ نفسي إلاّ منذ عامَيْن اثنين.. أَنتبهُ إِلى الفارقِ الأَصيلِ بين الفكرةِ الجميلة، والشعورِ الجميل... وأَجدُ للشعرِ مذاقاً آخرَ غيرَ ما سبقَ لي أن أحسسْتُه نحو خمسةَ عشر عاماً أو تزيد...».

«ولأَضربْ هنا الأمثلةَ من شعر العقاد ـ أُستاذي الأول ورأْسِ هذه المدرسة ـ وإِنَّ الفوارقَ في شعره لبعيدة، بين شعرِ الفكرةِ المجردة، التي لم تلمسْ قلْبَه، وشعرِ الفكرةِ الحارةِ التي

مسَّتْ شعورَه، وشعرِ الإحساسِ الفائض، الذي عاشه الشاعر، وانتقلَ مباشرةً من الضميرِ إلى التعبير..

«إنَّ الوعيَ في الشعر هو أَظهرُ سماتِ المدرسةِ العقادية، والوعيُ في الشعر مُعَوِّقٌ قويٌّ للغناءِ.. وما لم يكن الانفعالُ وراءَه دافقاً حاراً، إلى الحدِّ الذي يغمرُ الوعيَ ويجرفُه، تتعرّى الفكرةُ وتتجرد، وقد تَبرد، فتبعدُ عن ميدانِ الشعر بمقدارِ ما يتخلّى عنها التدفقُ والحرارة...»[1].

وهكذا صارَ لسيد بعدَ عام ١٩٤٧ فهمٌ خاصٌّ للشعرِ وللأدب، استقلَّ به عن فهمِ العقادِ ومدرستِه، مما دَعاهُ إلى أَنْ ينفصلَ عن العقاد، ويخرجَ على مدرسته.

سيد يذكر أسباب انفصاله عن العقاد:

وأخبرَ سيد زميلَه عباس خضر عن ما بعد العقاد. قال له: «إنني أَشعرُ أَننا بحاجةٍ إلى مرحلةٍ ما بعدَ العقاد، إلى الانتقالِ من الذهنيةِ الغالبةِ والخواطرِ العقلية. إلى المشاعرِ والوجدان..»[2].

---

(١) مجلة الكتاب، المجلد الخامس، فبراير ١٩٤٨، ص ٢٤٨ ـ ٢٥١.

(٢) مجلة الثقافة، السنة الرابعة، المجلد الثامن، عدد ٤٧، أغسطس ١٩٧٧، ص ٤٨.

هذه الأَسبابُ الشعريةُ والأَدبيةُ لخروجِه على مدرسةِ العقاد، وأَضافَ سيد لخروجه أَسباباً أُخرى، منها: ضعفُ الناحيةِ الروحيةِ عندَ العقاد، ورغبةُ سيد في إِشباعِ هذه الميولِ الروحية عنده.

قال سيد قطب لأَبي الحسنِ الندوي، عندما قابلَه الأَخيرُ في القاهرة عام ١٩٥١: «إِنَّ نفسي لم تزلْ متطلعةً إلى الروح وما يتصلُ بها، وكنتُ في صغري مشغوفاً بقراءةِ أَخبارِ الصالحين وكراماتِهم، ولم تزلْ هذه العاطفةُ تنمو في نفسي مع الأَيام.

والأُستاذُ العقاد رجلٌ فكريٌّ محض، لا يَنظرُ إلى مسألة، ولا يبحثُ فيها، إلاّ عن طريقِ الفكر والعقل.

فذهبتُ أَرْوي نفسي من مناهلَ أُخرى، وهي أَقربُ إلى الروح..

وإِني كنتُ أَعتقدُ أَنَّ مثلَ العقاد في عقلِه الكبير وشخصيتِه العظيمة، لا يخضعُ للضرورات والملابسات، كالحكومةِ والسلطة، ولكنه سالَمَها..»[١].

سيد يعتب على تجاهل العقاد له:

وفوجىء العقاد بانفصالِ سيد قطب عنه، واستقلالِه بفهمٍ خاص في الشعر والشعورِ والأَدب والفنّ، ولذلك جفاهُ وذَمَّه، وصار يتحدثُ عنه في مجالسِه، وينتقدُه ويلومُه ويأسفُ لتوجُّهِهِ

(١) مذكرات سائح في الشرق العربي للندوي، ص ٩٦.

الجديد، ويعتبرُه قد اختارَ طريقَ الغفلةِ والسذاجة، وأَهملَ عقْلَه وفكْرَه.

وكتب العقاد مقالاً في مجلة الرسالة بعنوان «إرادة الغفلة» عنى به سيد قطب، وأنه هو الذي أراد الغفلة، وألغى الذكاء والفطنة.

وأَصدرَ سيد قطب عدداً من الكتبِ والدراسات الأَدبية والإسلامية، وتوقَّعَ من أُستاذه السابق «العقاد» أَنْ يكتبَ عنها، أَو يتحدثَ عنها، وطمعَ أَنْ يَسمعَ منه كلمةَ ثناءٍ أو تشجيع، ولو من بابِ «رَدّ الجميل» على الأَقَلّ! ولكنَّ العقادَ لم يفعل وآثرَ تجاهُلَ سيد قطب ونتاجِه الأَدبيِّ والفكري.

وعتبَ سيد على العقادِ لموقفِه منه، ولكنَّه أَسَرَّ العتبَ في نفسه، واستعلى على آلامِه، ومضى سائراً في طريقه.

وجاءَتْ مناسبةٌ عام ١٩٥١، سجَّلَ فيها سيد عَتَبَهُ على أُستاذِه السابق العقاد، وعلى كُلِّ الأُدباءِ الشيوخ، الذين يَظهرونَ بمظهرِ رُوّادِ الأَدبِ الكبار، ويُهملونَ الأُدباءَ الشبان الصاعدين من أَمثال: عباس العقاد، وطه حسين، وأَحمد أَمين، ومحمود تيمور، وتوفيق الحكيم، وأَحمد حسن الزيات...

كان ذلك لما كتبَ أَحمد أَمين مقالاً في مجلةِ الثقافة عام ١٩٥١، سَمّاهُ «ضيعَة الأَدب» أَهداهُ إلى سيد قطب، وحَمَّلَ الأُدباءَ

الشبان ـ وعلى رأسهم سيد قطب ـ مسؤوليةَ ضياعِ الأَدب، كما حَمَّلَ الأُدباءَ الشيوخَ المسؤوليةَ أَيضاً.

وبما أَنَّ أَحمد أَمين أَهدى مقالَه لسيد قطب، فقد اعتبر سيد نفسه مدعوّاً لقبولِ المقال، والرّدِّ عليه، وبَيَّنَ سيد في الرّدّ «أَنانيةَ» شيوخِ الأَدب، وعدمَ أَخذِهم بيد الأُدباءِ الشبان، بل إِغلاقَ الطريقِ أَمامَهم لحرصِهم على أَنْ يَبْقوا وحْدَهم في الميدان.

وضرب سيد مثالاً على ما يقول، تجربتَه المُرَّةَ مع العقاد، ولنقرأْ ما يقولُ عنها بدونِ أَنْ يُسميَ العقادَ بالاسم: «ودَعوني الآن أُصارحُكم بتجربتي الخاصّة، التي تركَتْ في نفسي ذاتَ يومٍ مرارة. ومن أَجْلِ هذه المرارة لم أَكتبْ عنها من قبل، حتى صَفَتْ روحي منها، وذهبتْ عني مرارتُها، وأَصبحتْ مجردَ ذكرى، قد تنفعُ وتعظ..

لقد كنتُ «مُريداً» بكلِّ معنى كلمةِ المريد، لرجلٍ من جيلكم، تعرفونَه عن يقين. ولقد كنتُ صديقاً أو ودوداً مع الآخرين من جيلكم كذلك، لقد كتبتُ عنكم جميعاً بلا استثناء، شرحْتُ آراءَكم، وعَرَّفْتُ كتبكُم، وحلَّلْتُ أَعمالكم، بقدرِ ما كنتُ أَستطيع..

ثم جاءَ دوري...

جاء دوري في أَنْ أَنشرَ كتباً، بعدَ أن كنتُ أَنشرُ بحوثاً ومقالاتٍ وقصائد. جاءَ دوري في نشر الكتبِ متأخِّراً كثيراً، لأَنني

آثَرْتُ ألاّ أَطلعَ المئذنةَ من غير سُلَّم، وأن أتريثَ في نشرِ كتبٍ مسجَّلة، حتى أُحسَّ شيئاً من النضجِ الحقيقي، يَسمْح لي أَنْ أَظهرَ في أَسواقِ الناشرين!!

وكانَ أولُ كتابٍ نشرتُه، هو ذلك الكتاب الذي نالَ إِعجابَ صديقكم الراحل المغفور له «عبدُ العزيز فهمي باشا»، ذلك الاعجابُ الذي آثرتُم أن تبلِّغوني نبأه في رسالةٍ منكم إِليّ، وأَنا مريض، لعلَّ ذلك أن يكونَ له أَثَرٌ طيبٌ في صحتي - كما قَدَّرْتُم - ذلك هو كتاب «التصوير الفني في القرآن».

وكان كتاباً موفَّقاً حقاً. أَقولُها الآن مطمئنّاً، بعد أن أَصبحتْ حقيقة أَدبيةً منفصلةً عن شخصي!

فماذا كان موقفُ أُستاذي؟

وماذا كان موقفُ جيلِكم كلِّه؟ ماذا كان موقفُ جيلِ الشيوخ - لا من هذا الكتابِ وحده، ولكن من الكتبِ العشرة التي نشرتُها حتى الآن؟

أُراجعُ كلَّ ما خطَّتْهُ أَقلامُ هذا الجيل كلِّه عن عشرةِ كتب، فلا أَعثرُ إلاّ على حديثٍ في الإِذاعة لفقيدِ الأَدبِ المرحوم الأُستاذِ المازني، وإلاّ إشارةً كريمةً للأُستاذِ توفيق الحكيم في أَخبارِ اليوم.

هذا كلُّ ما خطَّتْه أَقلامُ جيلِ الأَساتذةِ عن عشرة كتب، لمريدٍ جيد، دَرَس كلَّ آثارِهم، واستوعبَها، ونَوَّهَ بها، وشَرَحها، وحَلَّلَها، في خلال عشرين عاماً!!

وأَنا اليوم: أَحمدُ الله، على أَنني خططْتُ طريقي بنفسي مستقلاً، وبجُهدي خالصاً.. لم يأخذْ بيدي عظيم، ولم يقدِّمني إلى الناس أُستاذ!!

ولكن كلمةً طيبةً من جيل الأَساتذة، كانتْ قبلَ خمسِ سنوات فقط تُعَدُّ في نفسي شيئاً عظيماً، وتتركُ في روحي أَثراً طيباً.. غير أَنها ـ مع الأَسف ـ لم تكن...»[1].

وفي ختامِ هذا المبحثِ عن صلةِ سيد قطب بالعقاد، رأَيْنا كيفَ أَنها مَرَّتْ بمراحلَ متدرجة:

ـ فقدْ بدأَتْ تلمذةً من سيد على أُستاذِه العقاد، منذُ بدايةِ شبابه.

ـ ثم تحولَتْ إلى محبةٍ عظيمة، وإعجابٍ عظيم، من التلميذه بأُستاذه.

ـ ثم أَصبحَ التلميذُ «مريداً» بكلِّ ما تحمُله كلمةُ مريد من معنى لأُستاذه.

ـ ثم اعتنقَ المريدُ كلَّ آراء وأَفكارِ أُستاذه، ودافعَ عنها.

ـ ثم بدأَ المريدُ يخالفُ أُستاذَه في بعضِ آرائه الأَدبية، وينفصلُ عنه.

ـ ثم استقلَّ سيد بطريقٍ جديد، وانفصلَ عن العقادِ نهائياً...

---

(١) الثقافة، السنة الثالثة عشرة، عدد ٦٦٣، تاريخ ١٠/١٢/١٩٥١، ص ٨.

(٨)

مع سيد قطب في أمريكا

ضيق القصر بسيد قطب قبل إيفاده إلى أمريكا:

بدأ سيد قطب يتوجه نحو القرآن في بدايةِ الأَربعينيات، وتَعززَ اتجاهُه الإسلاميُّ بعد منتصفِ الأَربعينيات. وصارتْ تَضعفُ اهتماماتُه الأَدبية والنقدية، وتَقْوى اهتماماتُه الإصلاحيةُ والاجتماعيةُ والسياسية، حيث كان يطالبُ بإصلاحِ أَحوالِ المجتمع، على أَساسِ الإسلام، وكانَ أُسلوبُه واضحاً صريحاً، وحادّاً جريئاً.

واستخدمَ الصحفَ والمجلات لنشرِ مقالاتِه الإصلاحية الحادّة العنيفة مثل: الرسالة، والثقافة، ودار العلوم. كما عملَ على إصدارِ مجلاتٍ خاصةٍ لهذه الغاية مثل: العالم العربي، والفكر الجديد.

وضاقَت الحكومةُ والقصرُ به، فأَغلقتْ مجلَّتَه «الفكرَ الجديد» بعد أَربعةِ أَشهرٍ من إصدارِها.

ولم يَجد القصرُ الملكيُّ حجةً قانونيةً لاعتقالِه، لأَنه كانَ للقانونِ في ذلك الوقتِ نوعٌ من الاعتبار، وكان سيد يَصوغُ عباراتِه بحيث لا يؤخَذُ عليه مأخذٌ قانوني! وكانت تربطُ سيد قطب صلةُ صداقةٍ قديمةٍ برئيس الوزراء عام ١٩٤٨ «محمود فهي النقراشي»، لمَّا كانا معاً في حزبِ «الطليعة الوفدية» أو: السعديين.

ولذلك رتَّبَ «النقراشي» وسيلةً لخروجِ سيد قطب من مصر، فترةً من الزمن، لئلاّ يقع عليه الأَذى من رجال القصر من ناحية، ولِيستريحوا منه ومن نشاطه ومقالاته وإزعاجه من ناحيةٍ أُخرى.

أهدافهم من إيفاده إلى أمريكا:

وكان سيد قطب عام ١٩٤٨ موظَّفاً في مراقبةِ الثقافة العامة، في وزارة المعارف، ورئيسُه فيها الأَديبُ الكاتب أَحمد أَمين.

وكان المخطِّطون للثقافةِ والتعليم في مصر يَعرفون مواهبَ سيد في مجالِ التربيةِ والثقافةِ والتعليمِ والتدريبِ والبرمجةِ والتخطيط، فأَرادوا أَنْ يتوجَّه في هذا المجال توجُّهاً خاصّاً، يستوحيهِ من النظرةِ الغربية، ويستلهمُ فيه التجربةَ الأمريكيةَ بالذات، ويُطبقُ في مصر مناهجَ التربية الأمريكية، وكانت أَمريكا «تخططُ» بعد الحربِ العالمية الثانية للسيطرة على مصر والعالم العربي، ثقافياً وتعليمياً وإِعلامياً واقتصادياً واجتماعياً. وكانت

تنتقي قادةَ الأَدبِ والثقافةِ والتربيةِ والتوجيه، وتحتويهم بطرقٍ عديدة، فيتحوَّلوا بعدَها إلى دعاةٍ للمناهجِ الأمريكية.

وبما أنَّ سيد قطب من القادةِ المعتَبَرين في هذا الميدان، فلا بُدَّ أَنْ تُرَكَّزَ عيونُ المخطِّطين عليه، علَّهم ينجحون في تجنيدِه داعيةً للتجربةِ الأَمريكية!

هذه هي الأَجواءُ التي «رُتِّبَتْ» فيها مهمةُ سيد العلمية التربوية في أَمريكا، وهذه هي الأَسبابُ الحقيقيةُ التي دعَتْ إلى ذلك!

أُوفدَ سيد قطب إلى أَمريكا في مهمةٍ علميةٍ تربويةٍ تخصُّصية، وكُتِبَ عن مهمتِه في ملفِّهِ في وزارةِ المعارف: «في بعثةٍ علميةٍ من وزارةِ المعارف للتخصُّص في التربية وأُصول المناهج»[1].

في طريق سيد قطب إلى أمريكا:

سافر سيد قطب إلى أمريكا في ٣/ ١١/ ١٩٤٨، على ظهرِ باخرة من الاسكندرية إلى نيويورك[2].

---

(١) الثقافة، السنة الثالثة عشرة، عدد ٦٦٣، تاريخ ١٠/ ١٢/ ١٩٥١، ص ٨.
(٢) سيد قطب لعبد الباقي، ص ٤٠.

وبينما كانت الباخرةُ تَسيرُ نحوَ أَمريكا، فكَّرَ سيد قطب في طريقه الجديد، واتخذَ قرارَه أن يكون هو الإسلام، والالتزامَ به، والدعوةَ إِليه.

حَدَّثَنا سيد عن هذا القرار، وعن اختبار الله له، ونجاحِه في امتحانِ الفتنة والإِغراء. قال: «رحْتُ أُخاطبُ نفسي: أَأَذهبُ إِلى أَمريكا، وأَسيرُ فيها سيرَ المبتعثين العاديّين، الذين يكتفونَ بالأَكلِ والنوم، أَم لا بدَّ من التميُّز بسماتٍ معينة؟ وهل غيرُ الإِسلام، والتمسكُ بآدابه والالتزامُ بمناهجه في الحياة، وسْطَ المعمعانِ المترف، المزوَّدِ بكلِّ وسائلِ الشهوةِ واللذة والحرام؟ وأَردتُ أن أَكونَ الرجلَ الثاني ـ المسلم الملتزم ـ.

وأَرادَ اللّهُ أن يمتحنَني: هل أَنا صادقٌ فيما اتَّجهتُ إِليه أَمْ هو مجردُ خاطرة؟

فما أَنْ دخلْتُ الباب، حتى كانَ البابُ يُقرع.. وفتحت.. فإِذا أَنا بفتاةٍ هيفاءَ جميلة، فارعةِ الطول، شبهِ عارية، يبدو من مفاتنِ جسمها كُلُّ ما يُغري.. وبدأَتني بالانجليزية: هل يسمحُ لي سيدي بأن أَكونَ ضيفةً عليه هذه الليلة؟

فاعتذَرْتُ بأَنَّ الغرفةَ معدةٌ لسريرٍ واحد، وكذا السريرُ لشخصٍ واحد!

قالت: وكثيراً ما يتسعُ السريرُ الواحدُ لشخصين!!

واضطررتُ أَمامَ وقاحتِها، ومحاولةِ الدخولِ عنوة، لأَنْ أَدفعَ البابَ في وجهها، لتصبحَ خارجَ الغرفة.. وسمعْتُ ارتطامَها بالأَرضِ الخشبية في الممرّ، فقد كانت مخمورة.. وحمدتُ اللّهَ!!»[1].

حمدَ الله على انتصارِه على نفسِه وشهوتِه، وانحيازِه إلى جانب الأَخلاق والعفةِ والطهارة.

سيد قطب يخطب الجمعة على ظهر السفينة:

ولما انحاز إلى الإسلام تحولَ إلى داعيةٍ للإسلام، مُواجِهٍ لأَعدائِه، حتى وهو على ظهرِ الباخرة.. فقامَ بدعوةِ ركابِ الباخرةِ المسلمين لأَداءِ صلاة الجمعة.

وأَخبرَنا عن قصةِ صلاةِ الجمعة، وأَثَرِها في الركاب عموماً قال: «إِنَّ الأَداءَ القرآني يمتازُ ويتميزُ عن الأَداء البشري.. إِنَّ له سلطاناً عجيباً على القلوبِ ليس للأَداءِ البشري، حتى ليبلغَ أَحياناً أن يُؤَثِّرَ بتلاوتِه المجردة على الذين لا يَعرفون من العربيةِ حرفاً...

وهناك حوادثُ عجيبة لا يمكنُ تفسيرُها بغيرِ هذا الذي نَقول ـ وإن لم تكنْ هي القاعدة ـ ولكنَّ وقوعَها يحتاجُ إلى تفسير وتعليل..

---

(١) أمريكا من الداخل، ص ٢٧.

ولنْ أَذكرَ نماذجَ مما وقعَ لغيري، ولكني أذكرُ حادثاً وقعَ لي، وكانَ عليه معي شهودٌ ستة... وذلك منذُ حوالي خمسةَ عشر عاماً...

كنّا ستةَ نفرِ من المنتسبين إلى الإسلام، على ظهرِ سفينةٍ مصرية، تمخُرُ بنا عُبابِ المحيط الأَطلسي إلى نيويورك، من بينِ عشرين ومائة راكبٍ وراكبة ليس فيهم مسلم..

وخَطَر لنا أن نُقيمَ صلاةَ الجمعة في المحيط على ظهرِ السفينة! واللّهُ يعلمُ أَنه لم يكنْ بنا أَنْ نُقيمَ الصلاةَ ذاتَها أَكثرَ مما كان بنا حماسةٌ دينية إِزاءَ مبشِّرٍ كانَ يزاولُ عملَه على ظهرِ السفينة، وحاولَ أَنْ يُزاولَ تبشيرَه معنا.

وقد يَسَّرَ لنا قائدُ السفينة ـ وكان انجليزياً ـ أن نُقيمَ صلاتَنا، وسمحَ لبحارةِ السفينة وطهاتِها وخدمِها ـ وكلُّهم نوبيّون مسلمون ـ أَنْ يصليَ منهم مَعَنا مَنْ لا يكون في «الخدمة» وقت الصلاة! وقد فرِحوا بهذا فرحاً شديداً، إذ كانت المرةَ الأُولى التي تُقامُ فيها صلاةُ الجمعة على ظهر السفينة..

وقمتُ بخطبةِ الجمعةِ وإمامةِ الصلاة، والركابُ الأَجانبُ ـ معظمهُم ـ متحلِّقون يَرْقُبون صلاتَنا.. وبعدَ الصلاة جاءنا كثيرٌ منهم يهنئوننا على نَجاحِ «القُدّاس»!! فقد كانَ هذا أَقصى ما يفهمونَه من صلاتنا!

ولكنَّ سيدةً من هذا الحشد ـ عَرَفْنا فيما بعد أنها يوغسلافيةٌ مسيحيةٌ هاربةٌ من جحيم تيتو وشيوعيته ـ كانت شديدةَ التأثر والانفعال، تَفيضُ عيناها بالدمع، ولا تتمالَكُ مشاعِرَها، جاءتْ تشدُّ على أَيدينا بحرارة ـ وتقول ـ في انجليزيةٍ ضعيفة ـ إنها لا تملك مشاعرَها من التأثر العميقِ بصلاتنا هذه، وما فيها من خشوع ونظام وروح...»[1].

تجول سيد قطب في ولايات أمريكا:

ولما وصل سيد قطب إلى أمريكا، أَمضى عدةَ شهورٍ في تعلُّمِ اللغةِ الانجليزية ـ لأَنه لم يدرسْها دراسةً أَكاديمية في كليةِ دارِ العلوم ـ ولما أتقنَ اللغةَ الانجليزية صارَ يقومُ بجولاتٍ ميدانية على المدارسِ والكليات والمراكز والنوادي والجامعات للاطلاع على مناهجِها وبرامجِها ونظمِها التعليمية.

وزَارَ عدةَ مدنٍ في الولايات المتحدة، مثل: واشنطن، ونيويورك، وجريلي، ودنفر، وسان فرنسيسكو..

وحاولَتْ أَمريكا عدةَ محاولاتٍ لإغوائه عن طريقِ الشهوة ففشلَتْ، وبقيَ محافظاً على عفتِه وطهارتِه، كما حاولَتْ عدةَ محاولات لاحتوائِه والتحكم في تصوُّره وتفكيرِه، وتجنيدِه فكرياً

(١) في ظلال القرآن، ٣: ١٧٨٦.

ليكون داعيةً لها معجباً بمناهجها، ففشلَتْ في ذلك أَيضاً، وبقي سيد منحازاً إلى إِسلامه، متميزاً بتصورِه والتزامِه..

وقد أَشارَ سيد إلى بعضِ محاولاتِ إِغوائِه: كمحاولةِ فتاةٍ أَمريكية ذلك، عندما لاحقَتْه من جامعةٍ إلى أُخرى، وفتاةٍ أَمريكية ناقشته في معهد المعلمين في مدينة جريلي - في مسائل جنسية مكشوفة، وفتاةٍ أَمريكية ممرضةٍ في مستشفى، تخبرُه عن الصفاتِ المطلوبة في الرجل ليكون عشيقاً لها، وفتاةٍ أَمريكيةٍ جامعية ناقشته في المسألةِ الجنسية، وأَنها عمليةٌ «بيولوجية» جسدية، لا شأن لها بالأخلاق، وعامِل الفندق الأَمريكي الذي استعدَّ لتلبيةِ كلِّ طلباتِه الجنسيةِ الطبيعيةِ والشاذة!![1].

ولكنَّ سيد قطب نجحَ في كلِّ تلك المحاولات، وحافظَ على عفته وطهارتِه وسموِّ أَخلاقه ومشاعره، واستعاذ بالله، واستعصَم بحبله!!

جهود رجل المخابرات لاحتواء سيد قطب:

ووجهت المخابرات أحد رجالها للتأثيرِ على سيد قطب ومحاولةِ احتوائِه، هذا الرجلُ هو الإِنجليزي «جون هيوورث دن»، الذي أَقامَ بمصر فترة، باحثاً دارساً مخططاً، وزعمَ أَنه اقتنعَ بالإِسلام، فأَسلمَ وتسمى باسم «جمال الدين دن».

---

(١) انظر إشارات لهذه الحوادث في كتابنا «أمريكا من الداخل»، ص ٢٧ - ٢٨.

أَقامَ «دن» في أَمريكا، وأَلَّفَ فيها كتابَه الخطير «التياراتُ السياسية والدينيةُ في مصر الحديثة» وحرصَ «دن» على إِقناعِ سيد قطب بما يريد، لكنَّ سيد كان يعرفُه، ويعرفُ هدفَه الخبيث، فلم يُخدعْ به!

أَخبره «دن» أَنَّ معظم الحاكمين في أَمريكا هو خريجو معاهدِ التبشير، وهذا معناهُ أَن خَلْفِيتَهم تبشيريةٌ نصرانية. ولما تشكَّكَ سيد قطب في كلام «دن» بحثَ عنه، فتحقَّق من صحته.

وعرضَ عليه «دن» أَنْ يترجمَ كتابَه «العدالة الاجتماعية في الإسلام» مقابلَ عشرةِ آلافِ دولار ـ وهو مبلغ كبيرٌ في ذلك الوقت ـ ولكن سيد رفضَ العرضَ لما يعرفُه من خلفيةِ «دن». وقدَّمَ الكتابَ إلى «المركزِ الأَمريكي للدراسات الاجتماعية» ليترجمه مجاناً.

وحَدَّثَ «دن» سيد قطب عن أَحداثِ مصر السياسيةِ والاجتماعية، وعن المخاطر المستقبلية التي تهدِّدُها، وأَخذتْ جماعةُ الإِخوانِ المسلمين حيِّزاً كبيراً من حديثه، حيث قَدَّم له معلوماتٍ مفصلةً ودقيقة عن الإِخوان ونشاطِهم وبرامجهم، وحذَّر سيدَ من الخطرِ الماحق الذي يهددُ مصر إِن استلمَ الإِخوانُ الحكم، وأَخبره أَن الأَملَ معقودٌ بالمثقفين والمفكرين من أَمثاله، ليحولوا بين هذه الجماعةِ وبين حكمِ مصر..

تنقَّلَ سيد بين عدة ولايات أَمريكية، وزارَ عدةَ جامعات ومعاهدَ فيها، واطلعَ على مناهجِ وطرقِ التدرسِ فيها. وكان وقْتُه يسمحُ له بالقيامِ بجولاتٍ وزياراتٍ لمرافق المدنِ التي يُقيم فيها. والاطلاعِ على معالِمها ومناظرها.

وكان يقومُ بجولاتٍ ميدانيةٍ فاحصة، يدرسُ فيها عيناتٍ ونماذجَ للمجتمع الأَمريكي، ويُقَوِّمُ من خلالها الحياةَ الاجتماعية هناك، وكان يدرسُ ويبحثُ ويراقبُ ويسجلُ الملاحظات.

وكان يُرسلُ بعضَ المقالاتِ إلى الصحفِ والمجلات في مصر، كما كان يرسلُ بعضَ الرسائلِ الشخصيةِ إلى إِخوانِه وأَصدقائه.

من المدن التي أَقامَ فيها: نيويورك، وواشنطن، وجريلي بولاية كولورادو، وسان فرانسيسكو، وبجانبها بالو آلتو، وسان دييجو.

رسائل لسيد قطب من أمريكا:

ومن الرسائلِ التي بعثها لأَصدقائِه في مصر: رسالةٌ إلى توفيق الحكيم، ورسالةٌ إلى عباس خضر، ورسالةٌ إلى الناقد أَنور المعداوي، ورسالةٌ إلى صديقه محمد إبراهيم جبر.

وسجَّلَ في هذه الرسائل خلاصةَ تقويمه لأَمريكا. ونقتطفُ من كلامِهِ في تلك الرسائل الجملَ التالية:

قال لتوفيق الحكيم: «إنَّ شيئاً واحداً يَنقصُ هؤلاء الأَمريكيين ـ على حين تذخرُ أَمريكا بكلِّ شيء ـ شيءٌ واحدٌ لا قيمةَ له عندهم... الروح.

بَحْثٌ يُقَدَّمُ للدكتوراه في إِحدى جامعاتهم ـ وقد قُدِّمَ فعلاً ـ عن «أفضلِ الطرقِ لغسلِ الأَطباق» أَحَبُّ إِليهم أَلْفَ مرة وأَهَمُّ من رسالةٍ عن «الإِنجيل» إنْ لم يكن أَهمَّ من ذاتِ الإِنجيل..».

وقال لعباس خضر: «... تصلحُ أَمريكا أَنْ تكونَ «ورشةَ العالم» فتؤدي وظيفتَها على خير ما يكون.. أَمّا أن يكونَ العالمَ كلُّه كأمريكا، فتلك هي كارثةُ الإنسانية، بكلِّ تأكيد...».

وقال للناقد أَنور المعداوي: «... كيفَ أَنت؟ وكيفَ الأَدبُ والفنُّ على حِسِّك؟ أُحسُّ أَنَّ آباداً وآماداً بيني وبين ذلك الماضي القريبِ منذ العام..

هنا الغربة، الغربةُ الحقيقيةُ، غربةُ النفسِ والفكر، غربةُ الروحِ والجسد. هنا في تلك «الوَرْشَة الضخمة» التي يَدْعونَها العالمَ الجديد.

عرفْتُ الآن مدى الدعايةِ التي تغمرُ بها أَمريكا العالم، والتي يُسهمُ فيها المصريّون الذين جاؤوا إلى أمريكا، ثم عادوا، وأَستطيعُ أَنْ أَقيسَ على ضوئها مدى الدعايةِ التي تغمرُنا بها أَوروبا، والتي يسهمُ فيها المصريون العائدون من هناك.

إنهم لا يَجدونَ لأَنفسهم قيمةً ذاتية، فيُبالغون في تَضخيمِ أَوروبا وتضخيم أَمريكا، علَّهم يستمدون منها قيمةً ذاتية...»

وأَخبرَ الناقدَ أَنور المعداوي في رسالةٍ أَخرى أَنه تركَ النقدَ الأَدبي، وأَنه سيخصصُ جهدَه ووقْتَه لبرنامجٍ اجتماعي كامل: قال: «تنتظرُ عودتي لآخذَ مكاني في ميدانِ النقدِ الأَدبي؟ أَخشى أَنْ أَقولَ لك: إِنَّ هذا لن يكون! وإِنه من الأَوْلى أَنْ تعتمدَ على نفسك، إلى أَنْ ينبثقَ ناقدٌ جديد!!

إنني سأُخصصُ ما بقيَ من حياتي وجُهدي لبرنامجٍ اجتماعيٍّ كامل، يستغرقُ أَعمارَ الكثيرين.. ويَكفي أن أَجِدَك في ميدان النقدِ الأَدبي، لأَطمئنَّ إلى هذا الميدان..».

وقالَ لزميله محمد إِبراهيم جبر: «... ليس أَبعدَ عن الإِفادةِ من الجهدِ في تعلُّم اللغةِ الانجليزية من الطريقةِ الأَمريكية! ولكنك كمدرسٍ تملكُ بجهدك الخاص، أَنْ تتلافى عيوبَ الطريقة.

وقد انقلبتْ وظيفتي في «المركزِ الدولي لتعليم اللغات» من مجردِ طالبٍ يتعلَّمُ اللغة، إلى مدرسٍ يُعلمهم كيفَ يَدْرُسون اللغة.. ولقد أَفْلَحَتْ طريقتي، ونجحَتْ شيئاً ما في تعديلِ طريقتهم، في كثيرٍ من الأَحيان!

نستطيعُ أنْ نُفيدَ من أَمريكا في البعثاتِ العلمية البحتة: الميكانيكا والكهرباء والكيمياء والزراعة، وما إليها.

فأَمّا حين نحاوِلُ أَنْ نستفيدع من أَمريكا في الدراساتِ النظرية ـ ومنها طرقُ التدريس ـ فأحسبُ أَننا نخطىءُ أَشدَّ الخطأ، وننساقُ وراءَ الطريقةِ الأمريكية في الإِعلان!..».

«... أولئك الذين يتحدَّثون عن أَمريكا كما يتحدثون عن الأَعاجيبِ السبع، فهم يحاولونَ أَنْ يستمدُّوا قيمةً جديدةً لأَنفسهم من وراءِ هذا التهويل..».

وقالَ لمحمد جبر في رسالةٍ أُخرى: «لا أَملكُ أَنْ أَكتبَ لك بالتفصيل عن الحياة الأَمريكية، فهذا يتطلبُ وقتاً وجهداً لستُ أَملكُهما اليوم.. وسيكون هذا موضوعَ كُتيب في سلسلة «إقرأ»...

ولكن أَحْسَبُني أُلَخِّصُها لك حين أَقول: إِنها حياةٌ عمادُها اللذةُ والنجاحُ العملي، وإنه لا حسابَ فيها لأيِّ خُلُقٍ من الأَخلاق، التي تعتزُّ بها الإنسانية.. وإِنَّ كلَّ القيمِ الخلقية هي موضوعُ السخريةِ عند الأَمريكان..»[1].

عودة سيد من أمريكا إلى مصر:

أمضى سيد قطب في أمريكا حوالي سنتين. وبعدَ ذلك قرَّرَ العودةَ إلى مصر. ووصلَ بالطائرةِ إلى القاهرة يوم ٢٠/٨/ ١٩٥٠.

---

(١) انظر كتابنا: سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد، ص ٢٠٠ ـ ٢٠٨.

وفي ٢٣/ ١٠/ ١٩٥٠ ـ اليوم الثالث لوصوله ـ الْتَحَقَ بوظيفةِ مراقبٍ مساعد بمكتبِ وزيرِ المعارف[١].

وَخَيَّبَ سيد قطب إِرادةَ الأمريكان وأَعوانِهم من بعثتِه إِلى أَمريكا، فلم يَعُدْ «بوقاً» أَمريكياً في مصر، وإِنما عادَ صاحبَ مهمةٍ ورسالةٍ إِسلامية، حيث جعلَ الإسلامَ رسالةً له، أَوقفَ باقي عمرِه عليه. وهذا هو فَضْلُ اللّهِ عليه..[٢].

(١) المرجع السابق، ص ٢١٠ ـ ٢١١.

(٢) خصصنا لبعثة سيد قطب إلى أمريكا، وكلامه عنها كتاب «أمريكا من الداخل بمنظار سيد قطب».

(٩)

مع سيد قطب في صلته بالثورة ورجالها

الإخوان والثورة وعبد الناصر:

بدأ التخطيطُ للثورةِ منذُ مطلعِ الأَربعينيات، وكان للإخوانِ المسلمين التفاتٌ مبكرٌ إلى هذا الأمر، وعَيَّنَ الإمامُ الشهيدُ حسن البنا الصاغ محمود لبيب وكيلاً للإخوان المسلمين للشؤون العسكرية. وشكَّلَ الضابط محمود لبيب أَول «أُسرةٍ إِخوانية» من ضباطِ الإِخوان في الجيش في أكتوبر ـ تشرين الأول ـ عام ١٩٤٢.

وكانتْ هذه «الأسرةُ» مكونةً من سبعةٍ من ضباط الإِخوان، هم: عبد المنعم عبد الرؤوف، وجمال عبد الناصر، وكمال الدين حسين، وحسين أحمد حمودة، وسعد توفيق، وصلاح خليفة، وخالد محيي الدين، ونقيبُ الأُسرة هو الضابط محمود لبيب.

ونشأَ تنظيمُ «الضباط الإخوان» برئاسةِ محمود لبيب، وكان مساعدُه هو الضابط عبد المنعم عبد الرؤوف.

وبعد وفاةِ المسؤولِ الإخواني محمود لبيب، حصلتْ أُمورٌ جديدة، أَدَّتْ إلى أن ينفردَ جمال عبد الناصر بزعامةِ التنظيم، ويبتعدَ به عن الإخوان المسلمين تدريجياً، ويضمَّ له ضباطاً آخرين لا يلتزمونَ بالخلقِ والسلوكِ الإسلامي مثل عبد الحكيم عامر وزكريا محيي الدين وجمال سالم.

وقد رصدَ المؤرخون من ضباطِ الإخوان المسلمين وغيرهم مسيرةَ تنظيم «الضباط الإخوان» الذي تحولَ إلى تنظيمِ «الضباط الأَحرار» وأَساليب جمال عبد الناصر الماكرةِ الخبيثة في السيطرةِ على التنظيم، وأَلاعيبهِ الخبيثة، وخداعِه لقيادةِ الإخوان المسلمين، إلى أن نجحَ في الاستفرادِ بالقيادةِ قبيل قيامِ الثورة عام ١٩٥٢[1].

ويهمُّنا هنا أن نتعرَّف على صلةِ سيد قطب برجالِ الثورة قبلَ قيامها، وصلته بهم بعدَ قيامها.

نشاط سيد قطب الإصلاحي قبيل الثورة:

كان سيد قطب ساخطاً على الملكيةِ والأَوضاعِ السيئة في مصر، وظهرتْ مقالاتُه الإسلامية في الصحفِ والمجلاتِ منذ

---

(١) انظر خلاصة القصة في كتابنا: سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد، ص ٢٨٧ - ٢٩٥. وانظر أيضاً: مذكرات عبد المنعم عبد الرؤوف. وأسرار حركة الضباط والأحرار والإخوان المسلمون لحسين حمودة. وصفحات من التاريخ لصلاح شادي. والإخوان المسلمون رؤية من الداخل لمحمود عبد الحليم، والإخوان المسلمون والنظام الخاص لأحمد عادل كمال.

بدايةِ الأَربعينيات، وكان أبرزُها ما ظهرَ في مجلتِه «الفكر الجديد» التي لم تُطقْها الحكومةُ فأغلقَتْها كما أَشرنا إلى هذا من قبل.

وأَصدرَ أَولَ كتابٍ إسلاميٍّ فكريٍّ إصلاحي له، هو «العدالة الاجتماعية في الإسلام»، الذي طبعه أَخوه محمد، أَثناءَ ابتعاثه إلى أَمريكا، حيثُ صدرَ الكتاب عام ١٩٤٩. وأُعجبَ الناسُ بما فيه من أَفكارٍ إصلاحيةٍ جريئة.

ولما عادَ سيد قطب من أَمريكا في أَواسطِ عام ١٩٥٠ وضعَ لنفسِه برنامجاً إصلاحياً اجتماعياً كبيراً. وتخلّى عن اهتماماتِه الأَدبيةِ والنقدية السابقة، ولم تظهر له مقالاتٌ في النقدِ بعد عام ١٩٥٠ إلاّ نادراً.

وصارَ يكتبُ المقالات الإصلاحية القويةَ والعنيفةَ والحادةَ والجريئة، ينتقدُ فيها الأَوضاعَ الاجتماعية والاقتصادية والسياسية السيئة، ويَدعو إلى الإصلاح والتغيير، ولو عن طريق الثورة!

وكانت أَشهرُ المجلات الإصلاحيّة الجريئةِ قبيلَ الثورة ثلاثة: «الدعوة» التي أَصدرَها صالح عشماوي، عضو مكتب الإرشاد للإخوان المسلمين. و«اللواء الجديد» التي أَصدرها فتحي رضوان، زعيمُ الحزبِ الوطني الجديد، الذي هو استمرارٌ للحزب الوطني الذي أَسسه مصطفى كامل في مطلع القرن العشرين. و«الاشتراكية»: التي أَصدرها أَحمد حسين، زعيم الحزب الاشتراكي - مصر الفتاة سابقاً -.

وكان سيد قطب يكتبُ المقالات الإصلاحية الجريئة في المجلاتِ الثلاثة ويكتب أَحياناً في بعضِ المجلات الأُخرى مثل: الرسالة، وروز اليوسف، والمصور.

وكان سيد يحاربُ المتسبِّبين في الفسادِ الاجتماعيِّ والاقتصادي والسياسي، دونَ أَنْ يسمّيهم، لئلا يقعَ تحت طائلةِ القانون، وأَصابَ هجومُه رجالَ القصر الملكي من حاشيةِ الملك فاروق، ورجالاتِ الأحزاب، وكبارَ الرأسماليين الإقطاعيين، ورجالاتِ الإِنجليز، وعملاءَ الأَمريكان، وقادةَ الفن.

وجَرَّتْ هذه المقالاتُ على سيد قطب كثيراً من المصاعب والأَذى والبلاء، فكانت الرقابةُ تمنعُ المقالةَ وتصادرُها، وأَحياناً تمنعُ توزيعَ الصحيفةِ التي نشرتْها، وأَحياناً كان سيد قطب يقدَّمُ للاستجوابِ في مخافرِ الشرطة، أَو يقدَّمُ للمحاكمةِ في المحكمة.

الضباط الأحرار يتدارسون كتب سيد قطب ومقالاته:

ولكن سيد كان يزدادُ نشاطاً وكتابة، وتصعيداً في هجومهِ وحِدَّتِه، ويشعرُ بالرضا عما يقدِّمُه، لأَنه يحسُّ أَنه يقدِّمُ شيئاً.

ونالتْ مقالاتُه إِعجابَ وتقديرَ الجماهير، واستحوذَتْ على قلوبهم..

وكان ضباطُ الجيشِ الوطنيّون، الراغبونَ في الإِصلاح والتغيير، في مقدمةِ المعجَبين بمقالاتِ سيد قطب، وأَصدرَتْ

قيادةُ تنظيم «الضباط الأَحرار» بزعامة عبد الناصر، أَمراً سرياً لأَعضائِها بقراءةِ مقالاتِ سيد قطب!!

وكان كتابُ سيد الفكريِّ الإِسلاميِّ الأول: «العدالة الاجتماعية في الإسلام» من أَوائلِ الكتبِ التي كان الضباطُ الأَحرارُ يتدارسونها في لقاءاتهم السريةِّ[1].

ودليلُ ذلك ما قالَه الأَديب «الطاهر أَحمد مكي» في مقالٍ له في مجلةِ «الهلال» عام ١٩٨٦: «... طلبَ مني الكتابَ صديق، له ضابطٌ في الجيش، ثم عادَ ورجاني أَنْ أَدُلَّهُ أَينَ يُباع، فهو بحاجةٍ إلى أَكثرَ من نسخة، وكان هذا الضابطُ هو البكباشي «إِبراهيم عاطف» الذي انتخبهُ الضباطُ سكرتيراً لناديهم مع محمد نجيب»[2].

قادة الضباط الأحرار يلتقون بسيد قطب سراً:

كان لقادةِ الضباطِ الأحرار صلةٌ شخصيةٌ وثيقةٌ بسيد قطب، وكانوا يأتونَ إلى منزله في حلوان، ويَجتمعون به، ويأخذونَ صوراً تذكاريةً معه، ولا يفعلون ذلك قبلَ قيامِ الثورة إلاّ لصلتِهم الوثيقةِ به.

---

(١) انظر كتابنا: سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد، ص ٢٩٥ ـ ٢٩٨.

(٢) مقال الطاهر أحمد مكي في مجلة الهلال، عدد أكتوبر: ١٩٨٦.

يَروي صديقُ سيد قطب الأُستاذ «سليمان فياض» عن حادثةٍ تدلُّ على ذلك.

زارَ سليمان فياض سيد قطب في بيته بعدَ قيامِ الثورة، وجلسا في حديقةِ البيت، تحت الشجرةِ الباسقةِ في الحديقة.

قال سليمان: سألْتُه عن رأيه في هذه الثورة؟

ابتسمَ وقالَ لي: هنا تحتَ هذه الشجرة كان الضباطُ الأَحرارُ يعقدونَ بعضَ اجتماعاتِهم معي، في فترةِ التمهيد للثورة.

ثم دخلَ سيد البيت، وعادَ يحملُ مظروفاً. أَخرجَ منه صوراً، وأَخذَ يُريها لي، واحدةً واحدة، وكان هو في كلِّ صورة، وتحتَ هذه الشجرة، وكانت كلُّها صوراً ليلية، أُخذتْ في ضوء «الفلاش»، وفي كلِّ صورة كان هؤلاء الضباطُ الأحرار، وهو بينهم أَبداً واسطةَ العقد!!

ولما رددتُ إِليه آخرَ صورة، قلت: لا أَرى بينهم محمد نجيب؟

قال: هذا جاءوا به واجهةً للثورة، الرتبةُ العسكريةُ لها حساب!

ثم أَشارَ إلى صورةِ جمال عبد الناصر، وقال: هذا قائدُ الثورة الحقيقي، يتوارى الآن وراءَ نجيب، وغداً سيكونُ له شأنٌ آخر!

قلتُ له: أَراضٍ أَنتَ عن هذه الثورة؟

قال: لا أَجدُ في تطوُّرها ما يُريح! فهؤلاء الأَمريكانِ يُحاولون احتواءَها بدلاً من الانجليز. أَتفهمُ ما أَعنيه؟...»[1].

نشاط سيد قطب بعد قيام الثورة:

ولما قامت الثورة عام ١٩٥٢ كان سيد قطب في مقدمةِ المتحمسين لها، فكان تأييدُه لها قوياً، وحماسُه لها عالياً.

يَروي الأُستاذُ أَحمد عبد الغفور عطار - الأَديبُ الحجازيُّ المعروف والصديقُ الأَثيرُ لسيد قطب - عن صلةِ سيد برجال الثورة بعد قيامها، فيقول: بلغَ من احترامِ الثورة لسيد قطب، وعرفانِها بجميله وفضْلِه، أَنَّ كلَّ أَعضاءِ مجلس قيادة الثورة كانوا ملْتَفّين حولَه، ويَرجعونَ إليه في كثيرٍ من الأُمور، حتى إنه كان هو المدنيَّ الوحيدَ الذي يحضرُ جلساتِ المجلس أَحياناً، وكانوا يترددون على منزله في حلوان..

ويتابع عطار كلامَه: «قررَ مجلسُ قيادةِ الثورة - ونَشرت القرارَ مجلةُ آخر ساعة - أَنْ يُسندَ إلى سيد قطب منصبَ وزير المعارف، كما أَذكر، ولكنَّ سيد قطب اعتذر!!

ورجوْهُ أَنْ يتولّى منصبَ المديرِ العام للإذاعة، فاعتذر!!

وأَخيراً وافقَ على أن يكونَ السكرتيرَ العامّ لهيئةِ التحرير، ولبثَ فيه شهراً.

---

(١) مقال سليمان فياض في مجلة الهلال، عدد سبتمبر ١٩٨٦.

وبدأَ الخلافُ بين سيد قطب وبين عبد الناصر وزملائه، فاضطر سيد إلى الاستقالةِ من هيئة التحرير..»[1].

وسيدِ قطب نفسُه يَروي عن صلتِه برجالِ الثورةِ بعد قيامها فيقول: «استغرقْتُ في العملِ مع رجال ثورة ٢٣ يوليو ٥٢، حتى شهر فبراير ١٩٥٣. عندما بدأَ تفكيري وتفكيرُهم يفترقُ حولَ هيئةِ التحرير، ومنهجِ تكوينها، وحولَ مسائلَ أُخرى في ذلك الحين، لا داعي لتفصيلِها..

ويقول: «كنتُ أَعملُ أَكثرَ من اثنتي عشرةَ ساعة يومياً، قريباً من رجال الثورة...»[2].

قادة الثورة يقيمون حفل تكريم لسيد قطب:

ومن تقديرِ وتوقيرِ رجالِ الثورةِ له أَنهم أَقاموا حفلَ تكريمٍ له بعدَ شهرٍ من قيامِ الثورة.. وكانَ أَساسُ الحفل محاضرةً لسيد قطب بعنوان «التحرر الروحي والفكري في الإِسلام» دُعيَ سيد لإِلقائِها في نادي الضباط في الزمالك في شهر أُغسطس ـ آب ـ ١٩٥٢.

وذهبَ سيد لإِلقاءِ المحاضرة في الموعدِ المحدد، وكان معه صديقُه الأَديبُ الحجازي أَحمد عبد الغفور عطار.

---

(١) مجلة كلمة الحق، السنة الأولى، العدد الثاني، عدد صفر ١٣٨٧، ص ٣٨.

(٢) لماذا أعدموني لسيد قطب، ص ١١ و١٣.

وبدلَ أن يلقيَ سيد محاضرتَه، حَوَّلَ قادةُ الثورة الحفلَ إلى كلماتٍ وخطابات للإِشادةِ بسيد وبيانِ مناقبه.

ونَدَعُ الأُستاذَ عطار يَصفُ ما جرى في الحفل:

«وفي الموعدِ المحدَّدِ حضرتُ معه، وكان النادي مزدَحِماً بحدائقِه وأَبهاتِه الفسيحة، وحضرَها جمعٌ لا يُحصى من الشعب، وحضرَ إلى النادي أَبناءُ الأَقطارِ العربية والإِسلامية الموجودون في مصر، وكثيرٌ من رجالِ السلك السياسي، وكبارُ زعماءِ الأَدب والفكر والقانون والشريعة، وأَساتيذُ من الجامعاتِ والكليات والمعاهد..

وكان مقرراً حضورُ محمد نجيب، وتولّيه تقديمَ سيد قطب، إلاّ أَنَّ عُذْراً عارضاً اضطرَ محمد نجيب للتخلف، وبعثَ برسالةٍ تُليتْ على الحضور، تلاها أَحَدُ الضباط.. وموجزُ كلمة محمد نجيب: أَنه كانَ حريصاً على أَنْ يَحضرَ المحاضرة، ويُفيدَ من علمِ سيد قطب، ووَصَفَ سيد بأَنه معلمُ الثورة ورائدُها وراعيها..

وبعثَ نجيب برسالتِه مع أَنور السادات، وأَنابَ عنه جمال عبد الناصر.

وحَوَّلَ الضباطُ محاضرة سيد إلى مناسبة للاحتفالِ والاحتفاءِ به، وبيانِ مناقبه، وبدلَ أن يحاضرَ سيد فيهم، صارَ الخطباءُ يتكلمونَ عن سيد، ويُثنون عليه، وهو جالس!

افتتحَ أَحَدُ الضباطِ الحفل، بآياتٍ من القرآن. وقالَ أَحدُ كبارِ الضباط: «كان مقرراً أنْ يَقومَ الرئيسُ محمد نجيب، بتقديمِ أُستاذِنا العظيم. ورائد ثورتِنا المباركة، مفكِّرِ الإسلامِ الأَوَّل في عصرنا الأُستاذِ سيد قطب، ولكنَّ أمراً حالَ دون حضوره.. وأُريدَ مني تقديمُ الأُستاذ سيد قطب، وإنْ كان في غنى عن التقديم، وعن التعريف».

وكان حاضراً الحفلَ الدكتورُ طه حسين، فتقدَّمَ وأَلقى كلمةً رائعة قال فيها: «إنَّ في سيد قطب خصلتَيْن، هما: المثاليةُ المثالية، والعِناد، فهو ليس مثالياً فقط، ولكنه مثاليٌّ في المثالية».

وذكرَ سيدَ قطب وأَثَرَهُ في الثورة ورجالها.. وختمَ كلامَه بالقول: إنَّ سيد قطب انتهى في الأَدبِ إلى القمة والقيادة، وكذلكَ في خدمةِ مصر والإسلام.

ما قاله سيد قطب وعبد الناصر في الحفل:

ثم وقف سيد قطب، وأَلقى كلمةً مرتجلة، وسطَ تصفيقِ المصفِّقين، وهُتافِ الهاتفين له.

قال عن الثورة: «إنَّ الثورةَ قد بدأَتْ حقاً، وليس لنا أن نُثنيَ عليها، لأَنَّها لم تعملْ بعدُ شيئاً يُذْكَر، فخروجُ الملكِ ليس غايةَ الثورة، بل الغايةُ منها العودةُ بالبلادِ إلى الإسلام!!».

ثم قالَ سيد قطب: لقد كنتُ في عهد الملكية، مهيّئاً نفسي للسجنِ في كلِّ لحظة! وما آمَنُ على نفسي في هذا العهد أَيضاً، فأنا في هذا العهد، مهيىءٌ نفسي للسجن، ولغيرِ السجن، أَكثرَ من ذي قبل!!».

وهنا وقفَ جمال عبد الناصر، وقال بصوته الجهوري ما نصُّه: «أَخي الكبير سيد: واللّهِ، لن يَصلوا إِليكَ إِلاّ على أَجسادنا، جثثاً هامدة، ونعاهدُك باسم الله، بل نجددُ عهدَنا لك، على أن نكونَ فداءَك حتى الموت!!».

وصفَّقَ الناسُ تصفيقاً حاداً متواصلاً، مع الهُتافِ المتكررِ بحياةِ سيد قطب.

ثم وقفَ الضابط «محمود العزب» وتكلمَ عن دورِ سيد قطب في التمهيدِ للثورة، وعن حضورِه لبيت سيد قُبيلَ الثورة، وأَنه وجدَ عنده عبد الناصر، وغيرَه من ضباط الثورة!! وبَيَّنَ نظرةَ رجالِ الثورة لسيد.

ثم وقفَ الأُستاذُ أَحمد عطار، وعقبَ على كلام الدكتور طه حسين عن سيد، فقال عطار عن سيد: إنَّ سيدَ عنيدٌ في الحق، فهو إِذا اعتقدَ شيئاً أَصَرَّ عليه، ولا يَعتقدُ إِلاّ الحق، وهو عنيدٌ في كفاحِه وجهاده...

وعندما انتهى الحفلُ كان البكباشي جمال عبد الناصر في وداعِ سيد قطب، وكان الضباطُ والجنودُ وجماهير الناس تهتفُ بحياةِ سيد»[1].

نكتفي بتقديم هذه المعلومات العجيبة عن سيد، كما رواها أحدُ الحضور، ونشيرُ فقط إلى فراسةِ سيد الإيمانية النفاذة، حيث استشرفَ المستقبل، وتوقَّعَ السجنَ والموت، وسطَ مظاهرِ الإشادةِ والاحتفاءِ والثناء!!

ونُذَكِّرُ بأنَّ عبد الناصر ـ الذي أَقسمَ أَمامَ الجماهير الحاشدة في ذلك الحفل، أن يُحافظَ على سيد وحياتِه، والذي عاهده أن يكونَ فداءَه حتى الموت ـ هو الذي حكمَ عليه بالإِعدام، بعد أَربعةَ عشر عاماً كاملةً من هذا التاريخ!!

خلاف سيد قطب مع رجال الثورة وانتهاء صلته بهم:

أَنشأَ جمال عبد الناصر «هيئةَ التحرير» في ٢٣/١/١٩٥٣، وأَسندَ إلى سيد قطب رئاستَها. وحاولَ سيد أن تكونَ الهيئةُ إسلامية، ولكنَّ رجالَ الثورة لا يريدون ذلك.

ولم يستمرّ سيد في عمله إلاّ حوالي شهر، حيث استقالَ منها في شهر فبراير ـ شباط ـ ١٩٥٣[2].

---

(١) مجلة كلمة الحق، السنة الأولى، العدد الثاني، مايو ١٩٦٧، ص ٣٧ ـ ٣٩.
(٢) انظر كتابنا «سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد»، ص ٣٠٧.

ولما بدأَ عبدُ الناصر يمكرُ بالإِخوان المسلمين ويتآمَرُ عليهم، حاولَ سيد قطب الإِصلاحَ بين عبد الناصر والإِخوان، لئلا يقعَ الصدامُ بين الطرفين، وفي هذا خسارةٌ للإخوانِ والثورةِ والوطن.

ولم يكنْ سيد قطب حتى مطلعِ عام ١٩٥٣ قد انضمَّ للإخوان المسلمين، ولذلك حاولَ الإِصلاح بين الطرفين، باعتبارِه صديقاً لكلِّ طرفٍ منهما.

لم يستمعْ عبدُ الناصر لسيد قطب، ولم يَقبلْ تدخُّلَه للإِصلاح، لأَنه كان يُضمرُ في نفسه شيئاً خطيراً ضدَّ الإخوان.

وكان بعضُ المقرَّبين من عبد الناصر يوغِرونَ صدْرَه على الإِخوان، ويُقَدِّمون له التقاريرُ الكاذبةَ عنهم. وكانتْ تُحركُهم أَصابعُ أَجنبية.

قالَ سيد قطب عن جهودِه في الإِصلاح بين رجال الثورة والإِخوان: «فيما يتعلقُ بالخلافِ بين رجال الثورة والإِخوان.. وكنتُ في ذلك الوقت أُلاحظُ نُمُوَّهُ عن قرب، لأَنني أَعملُ أَكثرَ من اثنتيْ عشرةَ ساعةَ يومياً، قريباً من رجال الثورة، ومعهم، ومع مَنْ يحيط بهم...

«... وقد حاولْتُ وقتَها ـ ما أَمكن ـ منعَ التصادم، الذي كنتُ أَلمحُ بوادرَه، ولكنّي عجزْتُ.. وتغلَّبَ الاتجاهُ الآخرُ في النهاية..»[1].

وهكذا انتهتْ علاقةُ سيد قطب برجالِ الثورة في شهرِ فبراير ـ شباط ـ عام ١٩٥٣، بعدما عرفَ حقيقةَ توجُّهِ قادةِ الثورة، وعلى رأْسِهم عبدُ الناصر، فغسلَ يديْه منهم، وتوجَّهَ إِلى الإِخوانِ المسلمين، ليكملَ باقي سنواتِ عمرِه معهم!!

(١) لماذا أعدموني، لسيد قطب، ص ١٣ ـ ١٤.



الفصل الثاني

مع سيد قطب

في مسيرته الإسلامية الدعوية



(١)

مع سيد قطب في توجهه الإسلامي

عشْنا فيما مضى المراحلَ التي قطعَها سيد قطب في مسيرتِه الحياتية، منذُ ولادته، حتى العام السابع والأربعين من عمره ـ ١٩٠٦ ـ ١٩٥٣ ـ ولاحظْنا معالمَ حياته في هذه المراحل.

ووقفْنا على مشارفِ حياتِه الدعوية، عندما أَقبلَ على الإِسلام والدعوة. فصارَ باحثاً إِسلامياً، ومفكراً إِسلامياً، وقُطْباً من أَقطابِ الفكرِ والدعوةِ والحركة والجهاد.

والملاحَظُ أنَّ إِقبالَه على الفكرِ الإسلامي والدعوةِ الإسلامية لم يكن فجأة، وإنما كان متدرِّجاً على مراحل.

مراحل حياته الإسلامية كما حددها هو:

إِن سيد قطب نفسه هو الذي حَدَّدَ هذه المراحل، وبَيَّنَ معالمَها، ففي عام ١٩٥١ زارَ مصر الأُستاذُ أَبو الحسن الندوي، والتقى الندويُّ بسيد قطب، وكان لسيد توجُّهاً إِسلامياً واضحاً.

ذكرَ سيد قطب للندوي مراحلَ حياتِه الخمسة:

الأُولى: نشأَتُه على تقاليدِ الإِسلام في قريته وبيته.

الثانية: انتقالُه إلى القاهرة، حيث انقطعَتْ صلتُه بنشأته الأُولى، وتبخَّرَتْ ثقافتُه الدينية الإسلامية.

الثالثة: مروره بمرحلةِ الارتيابِ في الحقائقِ الدينية إلى أَقصى حدود.

الرابعة: إِقبالُه على القرآن، ينظرُ فيه لدَواعٍ أَدبية.

الخامسة: تأثيرُ القرآن فيه، حيثُ تدرَّجَ به إلى الالتزام[1]..

وسنقفُ مع سيد قطب وقفاتٍ موجزة في هذه المراحل. نتعرَّفُ على مظاهر التغيُّرِ عليه فيها.

قضى سيد في قريتِه أَربعَ عشرة سنة من عمره: ١٩٠٦ - ١٩٢٠. وهذه الفترةُ كافية لتلقِّيه الإسلام، وتأثُّرِه به.

وقد عَرَفْنا نشأَتَه على الإِسلام والقرآن منذُ طفولتِه، وتفاعَلَ مع جلساتِ قراءةِ القرآن في بيته، وتأَثَّرَ بمنظر والدتِه وهي تتابعُ تلاواتِ القرآن بخشوع، وبمنظرِ والده وهو يقرأُ القرآن، ويختمُ يومَه بالاستغفارِ لوالديْه، وعرَفْنا ارتيادَه المساجدَ لأَداءِ الصلاة فيها، وهو طفلٌ صغير وكيفَ كان يناقشُ الوعاظَ أَحياناً.. وعَرَفْنا نجاحَه في حفظِ القرآن كاملاً وهو طفلٌ صغير.

(١) مذكرات سائح في الشرق العربي، لأبي الحسن الندوي، ص ١٨٩.

هذه المظاهرُ الإِسلامية التي نشأَ عليها في القرية، تعمقتْ في شخصيته، فكان فتى صالحاً، ملتزماً بالإِسلام في سلوكه، محافظاً على عبادته وصَلاته، منضبطاً في أَخلاقه!

كمنت توجهاته الإسلامية أثناء اهتماماته الأدبية:

ولما سافرَ إلى القاهرة انفتحتْ أمامَه أَبوابُ العلمِ والأَدب، والمعرفةِ والثقافة، وكان عند سيد «نَهَمٌ» عجيبٌ للمعرفةِ والدراسةِ والثقافة، يقرأُ ويتثقَّفُ ويَبحث، بدونِ توقفٍ أو ملل أو انقطاع.

وأَقبلَ على المجالاتِ الأَدبية والثقافية الجديدة، وأَمضى معها سنواتٍ عديدة، بلغَتْ حوالي عشرين عاماً: ١٩٢٠ ـ ١٩٣٩.

ولما أَقبلَ على اهتماماتِه الثقافية والأدبية والنقدية الجديدة، توقَّفَ عن اهتماماتِه الإسلامية التي تفاعلَ معها في القرية، ولم يَعُدْ يلقي لها بالاً لأنَّ اهتماماتِه الجديدة ملأَتْ عليه وقْتَه.

وبذلك «كَمُنَتْ» توجُّهاتُه الإِسلامية كُموناً، واختفَتْ في داخلِ شخصيتِه إلى حين، تنتظرُ الفرصةَ المناسبةَ لتبرزَ من جديد، وتُعيدَ توجيهَه إلى الإِسلام والقرآن.

ولَمّا «كَمُنَتْ» توجهاتُه الإِسلامية، حلَّ محلَّها في الظاهر توجُّهاتُه الأَدبية والنقدية والثقافية، حيث عَرفت الأَوساطُ الأَدبية في القاهرة سيد قطب شابّاً متحمساً، مُقْبلاً على الأَدب: شاعراً ينظمُ القصائد، وناقداً أَدبياً يكتبُ المقالات النقدية، ويُديرُ

الجلساتِ النقدية، ويُلقي المحاضراتِ الأَدبية النقدية، وكاتباً تَصدرُ له إصداراتٌ أَدبية، من الشعرِ والقصةِ والدراسة.

وفتحتْ دراستُه الأَدبيةُ والثقافيةُ عينيْه على مختلف مجالاتِ المعرفة، في الفكرِ والتصور، وفي البحثِ والنظر، سواء كانت عربيةً أم غربية مترجَمة، وأَخذَ سيد من هذه المجالاتِ العديدة، وتأَثَّرَ عقلياً وفكريّاً بها، ودخلَ بعضُها إلى تصوُّرِه وفكرِه، وبعضُها غريبٌ على التصورِ الإِسلامي.

ونتجَ عن هذا مرورُ سيد قطب في الثلاثينيات بغربةٍ فكريةٍ تصورية، اعترفَ هو بها، وقالَ عنها للندوي: «مررتُ بمرحلةِ الارتياب في الحقائقِ الدينية إلى أَقصى حدود..»!!

وقد وقَفْنا مع هذه المرحلةِ التي عاشَ فيها سيد غربةً فكرية، في كتابِنا «سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد» وأَسميناها: رحلةَ الضياع.

تحدَّثْنا عن أَسبابِها ومظاهرِها ومجالاتِها، وأَوردْنا كلاماً له فيها، دالاًّ على غربتِه وضياعِه الفكري، ثم كيفَ انتهتْ هذه الصلةُ بعودتِه إلى عالِمَ اليقين في القرآن[1].

---

(١) انظر فصل «مع سيد قطب في رحلة ضياعه»، في كتابنا «سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد»، ص ٢١٣ ـ ٢٤٥.

بداية توجّهه الإسلامي: الدراسة الأدبية للقرآن:

ويهمُّنا أن نمسكَ بدايةِ الخيط في عودتِه إلى الإسلام، وتوجُّهِه نحوه.

كان هذا في أَواخرِ الثلاثينيات، حيث نَشَرَ عام ١٩٣٩ مقالاً على حلقتيْن في مجلة «المقتطف» الشهرية بعنوان «التصوير الفني في القرآن الكريم». تحدَّثَ فيه عن ظاهرةٍ بلاغيةٍ أُسلوبيةٍ بيانية في التعبيرِ القرآني، هي ظاهرةُ «التصوير». وسنتحدثُ عن هذا في الفصلِ القادم إن شاءَ الله.

وأَعلنَ في خاتمةِ مقالَه أَنَّ الموضوع كبير، يصلحُ أن يكونَ موضوعَ رسالةٍ جامعية، أَو دراسةٍ منشورة.

وهو لم يقفْ على «التصوير الفني» في مقاله المذكور إلاّ بعدَ أن قرأَ كثيراً في القرآنِ الكريم، وأَمعنَ النظرَ في آياته، ووقفَ على مظاهرِ تعبيره وبلاغتِه وبيانِه.

وكانت هذه هي الخطوةُ الأُولى في توجُّهه الإِسلامي، وعودتِه إلى قرآنه، يدرسُه دراسةً أَدبيةً بيانية.

وتركَ الموضوعَ جانباً لمدةِ خمسِ سنوات، واستمرَّ في ميدانِه الأَدبيِّ والنقديِّ والشعري، يكتبُ المقالات النقدية، وينظمُ القصائد، ويُصدرُ الكتب.

وانتظرَ في هذه الفترة أَنْ يُقبلَ أَحدُ الدارسين على التصويرِ الفني في القرآن يدرسُه ويحللُه، ولكن لم يفعلْ ذلك أَحد.

كتابه «التصوير الفني في القرآن» عام ١٩٤٥:

عاد سيد قطب إلى القرآن عام ١٩٤٤ يدرسُ ويحللُ ما فيه من تصويرٍ رفيعٍ معجز، وأَصدرَ كتابَه «التصوير الفني في القرآن» في ربيع عام ١٩٤٥. وهذا الكتابُ هو أَوَّلُ كتابٍ إسلاميٍّ قرآني له، وهو الكتابُ الرابع في سلسلةِ إِصداراتِه حيث أَصدرَ قبلَه ثلاثةَ كتبٍ أَدبية.

وكان كتابُ «التصوير الفني في القرآن» تأَسيساً لحياةِ سيد قطب الإسلامية الدعوية، تلكَ الحياةُ التي استغرقَتْ حوالي ربعَ قرنٍ من عمره.

تفاعلَ سيد مع القرآن من جديد، ولكنه ليس تفاعُلاً بدائياً ساذجاً، كما كان في قريتِه وهو طفلٌ صغير، وإنما هو تفاعلُ الواعي الباحثِ الدارسِ الأَديبِ الناقدِ الشاعرِ المفكر.

أَقبلَ سيد على القرآن يدرسُه دراسةً أَدبيةً نقديةً فنيةً بيانية، يتذوقُ أُسلوبَه وتعبيرَه وبلاغتَه، وانفتحَتْ له آفاقٌ واسعةٌ في أُسلوبِ القرآن وبيانِه، وعزَمَ على إِصدارِ سلسلةِ دراساتٍ بيانية قرآنية، تحتَ عنوانِ «مكتبة القرآن الجديدة».

وتفكيرُه في عدةِ دراساتٍ قرآنية بيانية، ضمنَ مكتبةِ القرآن الجديدة، دليلٌ على التأثيرِ الكبيرِ للقرآن عليه، الذي كان تأْثيراً أَدبياً بيانياً، بحيثُ ملأَ القرآنُ عليه حياتَه الأَدبيةَ البيانية، ووَجَدَ فيه ما يُريد.

ولما أَقبلَ على القرآن إقبالاً أَدبياً بيانياً انصرف عن دراساتِه الأَدبية في الدراساتِ الأَدبية العربية والغربية المترجمة، ووجَدَها لا تُساوي شيئاً أَمامَ البيانِ القرآني المعجز.

وبعدَ سنتين من إِصدارِه «التصوير الفني في القرآن» أَصدرَ كتابَه القرآنيَّ الثاني «مشاهد القيامة في القرآن». وتحدَّثَ فيه عن التصوير في موضوعٍ من موضوعاتِ القرآن، وهو مشاهدُ القيامة بما فيها من مشاهدِ النعيم والعذاب، في ساحة العرض، وفي الجنة والنار.

دراساته الفكرية وكتابه «العدالة الاجتماعية في الإسلام»:

وتعمقت دراستُه للقرآنِ بعدَ عام ١٩٤٧، ولم يَعُدْ يُشغلُه بيانُ القرآن وتعبيرُه فقط، كما فعلَ في كتابيه: التصوير الفني ومشاهد القيامة. وإِنما صارَ يُشغلُه معاني القرآن ومضمونُه، وحقائقُه ورسالتُه.

أَي أَنَّ نظرَه في أُسلوبِ القرآن قادَهُ إلى مضمونه، وتدبُّرَهُ لأَلْفاظِ القرآن قاده إلى معانيه، وهذا انتقالٌ موضوعيٌّ منهجي.

وقفَ سيد أَمامَ القرآن، يتعرَّفُ على توجيهاتِه الفكرية والاقتصادية والاجتماعية، ووجدَ في القرآن علاجاً ربانياً شافياً للمشكلاتِ الخطيرة التي يُعاني منها المجتمعُ المصري والعالمي، المشكلاتِ الاجتماعيةِ والاقتصاديةِ والسياسيةِ والحضارية. وهو

الموضوعُ الذي كان يُشغلُ سيدَ بعدَ منتصفِ الأَربعينيات ويستولي على اهتماماتِه.

وأَلَّفَ كتابَه الفكريَّ الأَوَّلَ «العدالة الاجتماعية في الإسلام» وطُبِعَ الكتابُ عام ١٩٤٩ بينما كان سيد في أَمريكا.

ودخلَ سيد قطب بكتابُه «العدالة الاجتماعية في الإسلام» عالَمَ الفكرِ الإِسلامي، وصارَ القراءُ يعرفونَه بتوجُّهِه الإِسلاميِّ الجديد، ولم يَعُدْ مجرَّدَ أَديبٍ ناقد، وشاعرٍ باعث، وكاتبٍ في الأَدب والنقد، إنما هو الآن كاتبٌ إِسلامي، وباحثٌ في القرآن والإِسلام والإِصلاح.

وتراجعَت اهتماماتُ سيد السابقة، التي ملأَتْ عليه ربعَ قرنٍ من عمره، اهتماماتُ الشعر والنثر والأَدبِ والنقد، وصارتْ مرحلةُ تاريخية، مضَتْ ولن تعود، وحلَّ محلَّها اهتماماتُه الإِسلامية الإِصلاحية.

وهكذا إنتهتْ رحلةُ الضياعِ الفكريِّ والشعوري التي مَرَّ بها سيد، وعادَ إلى إِسلامه ملتزماً موقناً، وإلى قرآنه باحثاً محلِّلاً، وهذا هو الوجْهُ الذي عُرِفَ به، واستمرَّ عليه إلى أَنْ لقيَ وَجْهَ الله!

ولما أَقام سيد في أَمريكا سنتيْن، تعمَّقَ فيها توجُّهه الإِسلاميُّ هناك، فكان رجلَ التزامٍ بالإسلام في أَمريكا، منحازٍ إليه، مُواجهٍ لأمريكا وأَفكارِها.

وعادَ سيد قطب إلى مصر بمشروعٍ إسلاميٍّ واقعيٍّ كبير، حملَ فيه القرآن والإسلام، وعملَ على إصلاحِ مجتمعه على أساسه، وحلِّ مشكلاتِه المختلفة، الاجتماعيةِ والاقتصاديةِ والفكريةِ والسياسيةِ والإصلاحية..

وأَصدرَ في هذه الفترة كتباً إسلاميةً إصلاحية. منها: «معركة الإسلام والرأسمالية»، الذي طبعَه في مطلعِ عام ١٩٥١. وكتاب «السلام العالمي والإسلام»، الذي طبعَه في نهايةِ عام ١٩٥١. وتفسير «في ظلال القرآن» الذي بدأَ إصدارَه في نهاية عام ١٩٥٢. و«دراسات إسلامية» الذي ضمَّ ستاً وثلاثين مقالةً إسلامية، نشرَها سيد في عدةِ مجلات، وصدرَ الكتابُ عام ١٩٥٣.

هذا على مستوى نشاطِه الفكري العلمي المتمثل في إصداراته الإسلامية المختلفة.

أَمّا على مستوى نشاطِه العمليِّ الميدانيِّ فقد كان نشاطاً إسلامياً، حيثُ عُرِفَ في مختلف الأَوساطِ بتوجُّهِه الإسلامي، فما أَنْ عادَ من أَمريكا في نهاية عام ١٩٥٠ حتى عُرِفَ باهتمامِه بالإصلاح على أَساسِ الإسلام، وكان يتحركُ بالإسلام، ويكتبُ في الإسلام، ويُصلحُ بالإسلام، ويحاضرُ في الندوات بالإسلام، ويحاربُ المظاهرَ الكثيرةَ في المجتمع باسم الإسلام.

سيد قطب من الريادة الأدبية إلى الريادة الإسلامية:

وتخلى عن اهتماماتِه الأَدبية والنقدية التي ملأَتْ عليه حياتَه فيما مضى، والتي عُرِفَ بها في الحياةِ الأَدبية والثقافية المصرية.

واللطيفُ في مسيرةِ سيد قطب أَنه يكون عَلَماً مشهوراً في الطريقِ الذي يختارُه، فما يرضى أن يكون شخصاً عادياً في ذلك الطريق!

فلما اختارَ طريقَ الأَدب والنقد، تدرَّجَ فيه إلى أن أَصبحَ في طليعة الأُدباءِ الكُتّاب، وفي مقدمةِ النُّقّاد الأَدبيين، ولا نُخطئُ إِذا قلنا: إِنه في بدايةِ الأربعينيات، وصلَ إلى مرتبةِ الناقدِ الأَدبيِّ الأَوَّلِ في مصر!! وكان متميِّزاً في نظراتِه الأَدبية والنقدية، وله نظريةٌ متكاملة في النقدِ الأَدبي، تبنّى فيها «المنهجَ المتكامل» في النقدِ الأدبي، كما ظهرَ هذا في كتابيْه النقديَّيْن: «كتب وشخصيات» و«النقد الأدبي: أصوله ومناهجه».

ولو أَرادَ قطب الشهرةَ لاكتفى بهذه المنزلةِ التي وصلَ إليها في عالمِ النقد، فماذا يريدُ أَكثر من أَنْ يتربَّعَ على كرسيِّ الأَدب والنقد؟!

ولكنه بعد أَنْ وصلَ الغايةَ في النقدِ الأَدبي، توجَّهَ إلى طريقٍ آخر، نافعٍ له في الدنيا والآخرة، ونافعٍ لأُمَّته ومجتمعِه، هي طريقُ الفكرِ الإسلامي والدعوة الإسلامية، وبقيَ يتدرجُ ويترقّى في هذا الطريق حتى وصلَ إلى ذروتِه ونهايته!!

عندما يسيرُ في طريقٍ فإنه يتدرجُ ويترقّى فيه ليكون «سَيِّداً قطباً» ورائداً قائداً! ويصدقُ عليه قول الشاعر:

عَـجـباً بـأَنَّـكَ سـالِـمٌ مِـنْ وَحْـشَـةٍ
فـي غـايـةٍ مـا زِلْـتَ فـيـهـا مُـفْـرِدا

كان عمله الإسلامي فردياً في البداية:

وقد كان توجهه الإسلاميُّ منذ عام ١٩٥٠ إلى عام ١٩٥٣ فرديّاً، يتحركُ بالإسلام، ويدعو إليه، ويُصلحْ باسمه، بجهدِه الفرديّ.

وكان يزورُه بعضُ الشبابِ الراغبين في الإصلاح في بيتِه في «حلوان» جنوب القاهرة، ويتحدثُ معهم عن الإسلام والإصلاح، وكانوا يُعجبونَ بتحليلاتِه ونظراتِه.

كما كان يتصلُ برجالِ الثورة قبلَ قيامِها، وبعدَ قيامِها، بجهدِه الشخصيِّ الفردي، باعتبارِه مصلحاً إسلامياً راغباً في التغيير.

وكانَ في مصر جمعياتٌ وجماعاتٌ إسلامية في هذه الفترة، في مقدمتِها جماعةُ الإخوان المسلمين، ولم يكن سيد حتى عام ١٩٥٢ منضمّاً إليها.

وكان نشاطُ الإخوانِ المسلمين قبيلَ الثورة كبيراً شاملاً، وكانوا الجماعةَ الأُولى في طولِ البلاد وعرضِها، ومحطَّ آمالِ

الملايين من الشعبِ المصري. وكان سيد قطب يَعرفُ ذلك، وله أَصدقاءٌ عديدون من الإِخوان المسلمين، لكنه لم يكن منضمَّاً للإِخوان المسلمين. ومع ذلك كان ينسقُ معهم، ويتحدثُ إليهم، ويلتقي بهم، يوافقُهم أَحياناً ويخالفُهم أَحياناً.. وكان صديقاً ودوداً لهم، مقرَّباً عندهم، ينظرُ له الإِخوان بكلِّ تقديرٍ واحترام، ويَشكرونَ له نشاطَه الإِسلاميَّ المحمود، ويتمنّون لو كانَ واحداً منهم تنظيمياً..

والخلاصةُ أَنَّ توجُّهَه الإِسلاميَّ الجادَّ بدأَ عام ١٩٣٩ وتدرَّجَ في سيرِه الإِسلامي إلى أَن انضمَّ إِلى الإِخوان المسلمين عام ١٩٥٣.

(٢)

مع سيد قطب في طريقه
إلى الإخوان المسلمين

من أخطاء الكاتبين في كلامهم عن انضمام سيد قطب إلى الإخوان:

لم ينضمّ سيد قطلب إلى الإِخوان المسلمين فجأة، وإِنما سلكَ طريقاً طويلةً ـ زمنياً ـ سارَ فيها خطواتٍ متدرجة، إلى أن صارَ «أَخاً مسلماً عاملاً».

وكثيراً ما وقعَ الكاتبون والمتكلِّمون في أَخطاء، وهم يتحدَّثون عن بدايةِ انضمامِ سيد قطب إلى الإِخوان المسلمين، لأَنهم لا يتكلمونَ بالحقائقِ التاريخية الموثَّقة، وإِنما يتكلمونَ بدونِ دليل.

من هذه الأَخطاء:

ـ أنَّ سيد قطب الْتقى بالإِمامِ حسن البنا مؤسِّس الإِخوان المسلمين.

ـ وأَنَّ سيد قطب سمعَ محاضرةً من حسن البنا، فأُعجبَ به.

ـ وأَنَّ سيد قطب دَفَعَ إلى حسن البنا أُصولَ كتابه «العدالة الاجتماعية في الإسلام» ليطبَقَه، وأَنَّ حسن البنا طبعه بعد سفرِ سيد إلى أمريكا.

ـ وأَنَّ سيد قطب أَهدى كتابَه «العدالة الاجتماعية في الإسلام» إلى شباب الإخوان المسلمين، الذين كانوا وقْتَها في السجون والمعتقلات.

ـ وأَنَّ سيد قطب الْتقى بالإِخوان المسلمين بعد عودتِه من أَمريكا عام ١٩٥٠، وأَبدى اعتراضاتٍ على عملِهم، وأنَّ صالحَ عشماوي دعاهُ إلى الانضمامِ للجماعة، وإِصلاحِها من الداخل!

ـ وأَنَّ سيد قطب انضمَّ إلى الإخوان المسلمين عام ١٩٥١، وكان يقول: ولدتُ عام ١٩٥١.

ـ وأَنَّ جمال عبد الناصر كان يتعاملُ مع سيد قطب قبلَ قيامِ الثورة باعتبارِه مندوباً رسمياً عن الإِخوانِ المسلمين.

ـ وأَنَّ حسن الهضيبي المرشدَ العامَّ للإخوان المسلمين قَدَّم سيد قطب لعبدِ الناصر ليكونَ وزيراً عن الإخوان في حكومةِ الثورة.

ـ وأَن سيد قطب كان عام ١٩٥١ عضواً في مكتبِ الإرشاد للإخوان المسلمين.

ـ وأَنَّ سيد قطب كان منذُ عام ١٩٥١ رئيساً لقسمِ نشرِ الدعوة عند الإخوان.

ـ وأَنَّ مكتبَ الإرشاد انتدبَ سيد قطب للتنسيقِ مع الحزبِ الشيوعيِّ المصري، لمقاومةِ طغيانِ عبدِ الناصر عام ١٩٥٣.

وهذه كلُّها أَخطاء، لا دليلَ عليها، بل إِنَّ المعلوماتِ التاريخية تدلُّ على خلافها..

اعترفَ سيد قطب بأنه لم يعرفْ إلاّ القليلَ عن الإِخوان المسلمين عندما سافرَ إلى أَمريكا. وذلك في قوله: «لم أَكُنْ أَعرف إلاّ القليلَ عن الإِخوان المسلمين، إلى أَنْ سافرْتُ إلى أَمريكا، في ربيع عام ١٩٤٨»[١].

وهذا نصٌّ منه على أَنه لم يتعامَلْ مع الإِخوان قبلَ سفره إلى أَمريكا، ولم يتصلْ بحسن البنا، ولم يسمعْ منه محاضرةً تأَثَّرَ بها، ولم يُعْطِه كتابَ «العدالة الاجتماعية في الإسلام» ليطبعه له.

قصة الإهداء في كتابه «العدالة الاجتماعية في الإسلام»:

والصحيحُ أن سيد قطب كان قد فرغ من تأليفِ كتابه «العدالة الاجتماعية» وأَرادَ أَنْ يطبَعَه، لكن حالَ سفرُه إلى أَمريكا دون إشرافه على طباعته، وقد عهدَ إلى شقيقِه محمد قطب الإِشراف على طباعته، وأَنه طبعَه في ربيعِ عام ١٩٤٩، بعدَ شهريْن من استشهادِ حسن البنا رحمه الله..

---

(١) لماذا أعدموني، ص ١٠.

وقد صَدَّرَ سيد كتابَه «العدالة الاجتماعية» بإهداءٍ مثير، قالَ فيه: «إلى الفتيةِ الذين أَلمحُهم في خيالي قادِمين، يَرُدّونَ هذا الدين، جديداً كما بدأَ.. يُقاتلون في سبيل الله، فيَقْتُلون ويُقْتَلون، مؤمنين في قرارةِ أَنفسهم أَنَّ العزةَ لله ولرسوله وللمؤمنين.

إلى أُولئكَ الفتية، الذين لا أَشُكُّ أَنَّ روحَ الإسلام القويةَ، ستبعثُهم من ماضي الأَجيال، إلى مقبلِ الأَجيال، في يومٍ قريب.. جَدِّ قريب..»[1].

وفَهِمَ كثيرون أَنَّ سيد يريدُ بإِهدائه شبابَ الإِخوان الذين كانوا وقتَها في السجون، مع أَنَّه لم يقصدْهم، لأنه لم يكن قد بدأَ التعرفَ عليهم.

قال سيد: «في الوقتِ ذاتِه صدرَ لي كتابُ «العدالة الاجتماعية في الإسلام» سنة ١٩٤٩، مُصَدَّراً بإِهدائِه هذه الجملة.. ففهمَ الإِخوانُ في مصر، أَنني أَعنيهم بهذا الإِهداء، ولم يكن الأَمْرُ كذلك!! ولكنهم من جانبهم تبنّوا الكتاب، واعتبروا صاحبَه صديقاً..»[2].

ومما يدلُّ على أَنَّ سيد لم يقصدْ شبابَ الإِخوان في إِهداءِ الكتاب في طبعته الأُولى أَنه قصدَهم وعَناهم في طبعةِ الكتابِ الثانية، التي أَصدرها عام ١٩٥٤، بعدما انضمَّ إلى الإخوان. قالَ

(١) نقل هذا الإهداء يوسف العظم في كتابه «الشهيد سيد قطب»، ص ١٥٤.

(٢) لماذا أعدموني، ص ١٠ ـ ١١ باختصار.

في إهداء الطبعةِ الثانية: «إلى الفتية الذين كنتُ أَلمحهم بعينِ الخيال قادِمين، فوجدتُهم في واقعِ الحياة قائِمين.. يُجاهدون في سبيل الله بأَموالِهم وأَنفسِهم، مؤمنين في قرارةِ نفوسهم: أنَّ العزةَ لله ولرسوله وللمؤمنين.

إلى هؤلاء الفتيةِ الذين كانوا في خيالي أُمنيةً وحُلُماً، فإذا هم حقيقةٌ وواقع، حقيقةٌ أَعظم من الخيال، وواقعٌ أَكبرُ من الآمال.

إلى هؤلاء الفتية الذين انبثَقُوا من ضميرِ الغيب، كما تنبثقُ الحياةُ من ضميرِ العدم، وكما ينبثقُ النورُ من خلال الظلمات.

إلى هؤلاء الفتية الذين يُجاهدونَ باسم الله، في سبيلِ الله، على بركةِ الله.. أَهدي هذا الكتاب..»[1].

حادثتان في أمريكا قربتا سيد قطب من الإخوان:

قلنا إن سيد قطب لم يلتقِ بالإخوان حتى سفرِه إلى أَمريكا.

ولما كانَ في أَمريكا عرفَها على حقيقتِها باعتبارِها قائدةَ الجاهليةِ المعاصرة، ووقفَ على بعضِ مظاهرِ الكيدِ والحقد التي يُكِنُّها الغربيّون الكافرون للإسلام والمسلمين، وحربِهم للدعوةِ الإسلامية، ممثلةً في حركةِ الإخوان المسلمين! وبما أَنه كان في أَمريكا صاحبَ حسٍّ إسلامي، فقد كانَ يجدُ نفسَه قريباً ـ نفسياً ـ من الإخوان المسلمين!!

(١) العدالة الاجتماعية في الإسلام، ص ١.

وقد حدثَتْ له في أَمريكا حادثتان قَرَّبَتاه من الإخوان:

الأُولى: أَثَرُ اغتيالِ الحكومةِ لحسن البنا مؤسسِ الإِخوان على الأَمريكان، فقد اغتالَه رجالُ الحكومة في ٢٢ فبراير ١٩٤٩م. ولاحظَ سيد قطب مظاهرَ الفرحِ والابتهاجِ - بل والشماتة - عند الأَمريكان لاغتيالِ البنا، وقرأَ تحليلاتِ وتعليقاتِ الصحف هناك، التي أَشادَتْ بمقتلِ البنا، حيث اعتبروهُ أَخطرَ رجلٍ في الشرق، واعتبروا جماعةَ الإِخوانِ أَخطرَ تنظيم في الشرق، يقفُ أَمامَ مخططاتِ الغربيين.

قالَ سيد قطب عن هذه الحادثة: «وقد قُتِلَ الشهيدُ حسن النبا، وأَنا هناك في عام ١٩٤٩، وقد لفتَ نظري بشدة ما أَبْدَتْهُ الصحفُ الأَمريكية - وكذلك الإنجليزية التي كانتْ تصلُ إلى أَمريكا - من اهتمامٍ بالغٍ بالإخوان، ومن شماتة، وراحةٍ واضحة، في حَلِّ جماعتِهم وضربها، وفي قتلِ مرشدها..»[1].

الثانية: جهودُ رجلُ المخابرات البريطاني «جون هيوورث دِن» في تحذيرِ سيد من خطرِ الإِخوان.

وقد جاءَ «دن» من بريطانيا إلى مصر، ودَرَسَ في جامعتِها، وتعرَّفَ على المسلمين فيها، بهدفِ الرصدِ وجمعِ المعلومات، ثم

---

(١) لماذا أعدموني، ص ١٠.

ادّعى الإسلام، وتسمّى باسم «جمال الدين دن» وتزوَّجَ من مصريةٍ مسلمة تدعى «فاطمة»، ثم غادَرَ مصر إلى أَمريكا، واستقرَّ هناك مُدَرِّساً في جامعاتها[1]..

حَدَّثَ «دِنْ» سيدَ قطب وهو في أَمريكا عن الإِخوان المسلمين، وعرضَ عليه تقاريرَ مفصَّلَة عن الإِخوان منذُ تأسيسِ جماعتهم عام ١٩٢٨ إلى حلِّها عام ١٩٤٩. وصوَّرَ لسيد الخطرَ الماحقَ الذي سيحلُّ بمصر إذا حكمَها الإِخوان، وبَيَّنَ له أَنَّ على المفكرين، من أَمثالِ سيد واجبَ الحيلولةِ دون ذلك.

قالَ سيد عن ذلك: «.. ومن حديثٍ عن خطرِ هذه الجماعة، على مصالحِ الغربِ في المنطقة، وعلى ثقافةِ الغرب وحضارتِه فيها، وصدرت كتبٌ بهذا الخصوص سنةَ ١٩٥٠، أَذكرُ منها كتاباً لجيمس هيوورث دن بعنوان «التيارات السياسيةُ والدينية في مصر الحديث». كلُّ هذا ألفتَ نظري إلى أَهميةِ هذه الجماعة، عندَ الصهيونية والاستعمارِ الغربي..»[2].

سيد قطب قريب من الإخوان بعد عودته من أمريكا:

ولما عاد سيد من أَمريكا عام ١٩٥٠، كان قريباً جداً من الإِخوان المسلمين، لكنَّه لم ينضمّ رسمياً إِليهم، لأَنه قامَ بأَشغالِ

---

(١) أخبرني بهذا الأستاذ محمد قطب.

(٢) لماذا أعدموني، ص ١٠.

كثيرة في الإِصلاح والتوجيه والكتابة والبحث، والتمهيد للثورة، والاتصالِ بالضباط الأحرار، وكان هذا يأخذ من وقته الكثير!

قال سيد قطب: «فلما عدتُ في نهايةِ عام ١٩٥٠، بدأَ بعضُ شبابهم يزورُني، ويتحدثُ معي عن الكتاب ـ العدالةِ الاجتماعية في الإسلام ـ ولكن لم تكنْ لهم دار، لأنَّ الجماعةَ كانتْ لا تزالُ مصادَرَة..»[1].

ومن الذين أَخطأوا في تحديدِ سنةِ انضمام سيد قطب إلى الإِخوان «جيلس كيبل» مؤلف كتاب «النبي والفرعون: التطرف الإسلامي في مصر» حيث روى عن شهودٍ أَحياءَ من الإِخوان المسلمين: أنَّ صالحَ عشماوي ـ صاحبَ مجلةِ الدعوة ومؤسِّسَها ـ هو الذي أَقنعه بالانضمامِ إلى الجماعة.. وأَنَّ ذلك كانَ بالنسبةِ له أَحدَ تحوُّلاتِه الكُبرى. لأَنه قبلَ أَخيراً الدخولَ في تنظيم، بعد أن استمرَّ أَكثرَ من ربعِ قرنٍ يرفضُ قيودَ التنظيمات والأحزاب..

وأَنه قالَ بعد انضمامه إلى الإخوان: «لقد ولدتُ من جديد عام ١٩٥١..»[2].

---

(١) لماذا أعدموني، ص ١١.

(٢) سيد قطب لحمودة، ص ١٠٠، نقلاً عن جيلس كيبل.

الأستاذ يوسف العظم يخطىء في حديثه عن سيد قطب والإخوان:

ومن الذين أخطأوا في تحديد سنةِ انضمامِه إلى الإخوان، وبنوا على ذلك أخطاء أُخرى الأُستاذُ يوسف العظم.

ذَكَرَ العظم أَنَّ «سيد» انضمَّ إلى الإِخوان عام ١٩٥١، وأَنه في العامِ التالي انتُخب عضواً في مكتبِ الإِرشاد، ورئيساً لقسم نشر الدعوة. قال: «وهكذا كانتْ صلةُ الرجلِ بالجماعة إعجاباً، فاتِّصالاً، فانتظاماً في الصّف، عقبَ عودتِه من الولايات المتحدة عام ١٩٥١.

... وفي عام ١٩٥٢ فورَ خروجِ رجالِ الإِخوان المسلمين من معتقلاتِ فاروق، انتُخب الأُستاذ سيد قطب عضواً في مكتبِ الإِرشاد للجماعة، وعُيِّنَ رئيساً لقسمِ نشرِ الدعوة في المركزِ العام للجماعة..»[1].

ولدى مناقشتِنا لكلامِ الأُستاذ يوسف العظم، فإِننا نراه قَد أخطأَ فيه من ثلاثةِ جوانب:

الأَول: قوله: إِنَّ الإِخوانَ المسلمين قد أُفرجَ عنهم من معتقَلات فاروق عام ١٩٥٢. وهذا غيرُ صحيح، فمنَ المعلومِ أَنَّ حكومةَ السعديّين - برئاسةِ إبراهيم عبد الهادي، التي اغتالَتْ حسن

(١) الشهيد سيد قطب ليوسف العظم، ص ٣٧ ـ ٣٨.

البنا ـ قد أُسقطتْ بعد انتخاباتِ عام ١٩٥٠، وأنَّ حزبَ الوفد هو الذي شَكَّلَ الحكومةَ الجديدة في يناير ـ كانون الثاني عام ١٩٥٠، فأولُ عملٍ قامَ به حزبُ الوفد هو الإفراجُ عن الإِخوان!

فخروجُ الإِخوان من معتقلات فاروق كان في مطلع عام ١٩٥٠، وليس عام ١٩٥٢.

وقد بايعَ الإِخوانُ المسلمون حسنَ الهضيبي مرشداً عاماً، خَلَفاً للإمامِ الشهيد حسن البنا، وكانت المبايعةُ في ١٩/ ١٠/ ١٩٥١[1]. وسمحت الحكومةُ للإِخوانِ بفتح دورهم وممارسة نشاطهم بصورةٍ رسميةٍ في شهر ١٢ عام ١٩٥١[2].

سيد قطب لم يكن عضواً في مكتب الإرشاد للإخوان:

الثاني: قوله: إن سيد قطب انتخبَ عضواً في مكتبِ الإرشادِ للإِخوان المسلمين عام ١٩٥٢.

وهذا غيرُ صحيح أَيضاً!!

لقد كانت الدورةُ الأُولى لمكتب الإِرشاد عام ١٩٥١، حيث قامَ المكتبُ بانتخابِ حسن الهضيبي مرشداً عاماً للإِخوان.

وأَعضاءُ مكتب الإرشاد في تلك الدورةِ هم الإِخوةُ: عبدُ القادر عودة، منير دَلّة، عبد الحكيم عابدين، صالح عشماوي،

---

(١) الإخوان المسالمون، لمحمود عبد الحليم ٢: ٣٠١.

(٢) المرجع السابق، ص ٢: ٣٧٧.

أحمد حسن الباقوري، عبد الرحمن البنا، محمد الغزالي، عبد العزيز كامل، الدكتور حسين كمال الدين، فهمي أبو غدير، محمد خميس حميدة، مختار عبد العليم، فريد عبد الخالق، حسني عبد الباقي[1].

والدورةُ الثانيةُ لمكتب الإرشاد كانت في أَواخر عام ١٩٥٣، وقد نجحَ في عضوية المكتب كلٌّ من الإخوة: الدكتور محمد خميس حميدة: وكيلاً للجماعة. وعبد الحكيم عابدين: أميناً للسر. والدكتور حسين كمال الدين: أميناً للصندوق. وعبد القادر عودة، والدكتور كمال خليفة، وعمر التلمساني، وعبد الرحمن البنا، وعبد المعز عبد الستار، وأحمد شريت، ومحمد فرغلي، وعبد العزيز عطية، ومحمد حامد أبو النصر، ومنير دلة، وصالح أبو رقيق، والبهي الخولي..»[2].

ومن رواية الأُستاذ محمد حامد أَبو النصر عن أَعضاءِ مكتبِ الإرشادِ في الدورتين ١٩٥١ و١٩٥٣، نرى أَنَّ سيد قطب لم يكنْ من بينهم. فعلى ماذا اعتمدَ الأُستاذُ يوسف العظم في كلامه السابق؟

---

(١) حقيقة الخلاف بين الإخوان المسلمين وعبد الناصر، لمحمد حامد أبو النصر، ص ٥٦ ـ ٥٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٧٦ ـ ٧٧.

سيد قطب لم يكن رئيساً لقسم نشرة الدعوة عند الإخوان:

الثالث: قول الأستاذ العظم: إنَّ سيد عُيِّن رئيساً لقسمِ نشرِ الدعوة.

وهذا لم يصحّ أيضاً، بدليلِ كلامِ سيد قطب نفسُه، فكان مجالُ عملِهِ عند الإِخوان هو «الأُمورُ الثقافية، ودرسُ الثلاثاء، وجريدةُ الإِخوان المسلمين، وكتابةُ بعضِ الرسائلِ الشهرية للثقافة الإسلامية..»[1].

ومما يدلُّ على أنَّ سيد قطب لم ينضمّ إلى الإِخوان إلاّ في مطلع عام ١٩٥٣، المساجلة الصحفية بين سيد قطب وحسن الهضيبي المرشد العام للإخوان المسلمين في بداية عام ١٩٥٢.

ففي نهاية عام ١٩٥١ فَجَّرَ الإِخوانُ المسلمون المعاركَ ضدَّ الاحتلال الانجليزي في منطقةِ قناةِ السويس، وكان بعضُ الإِخوان يرونَ توسيعَ المواجهةِ الجهادية ضدَّ الانجليز، وبعضُهم يرى التريثَ وعدمَ العجلة حتى تحينَ الفرصةُ المناسبة.

وقد نشرتْ جريدةُ المصري كلمةً للأَخ محمد طاهر منير - رئيس شعبة الإِخوان المسلمين في السويس - يَدعو إلى التريثِ والانتظار وعدمِ العجلة. فردَّ عليه الشيخُ محمد الغزالي عضوُ

---

(١) لماذا أعدموني، ص ١٢.

مكتبِ الإِرشاد، وطالبَ بأنْ يُلقي الإخوانُ كلَّ ثقلِهم ضدَّ الانجليز.

وبما أنَّ الناس قد وضعوا ثقتَهم وأَمَلَهم في الإِخوان المسلمين، ليقودوا الجهادَ ضدَّ الإنجليز، فقد خشيَ كثيرٌ منهم أن يتغلّب الرأيُ المطالبُ بالتريثِ والانتظارِ على الرأيِ المطالبِ بالجهاد. ونشروا مقالاتٍ يطالبون فيها الإِخوانَ بالجهاد، وكان منها مقالُ إحسان عبد القدوس.

قال الأَخُ محمود عبد الحليم في حديثِه عن هذه المسألة: «وهنا تقدَّمَ الأُستاذ سيد قطب ـ وكان حتى ذلك الوقت لا يزال في صفوف المتعاطِفين مع الإِخوان ـ تقدَّمَ بطلبِ الكلمةِ الفاصلة من المرشدِ العام. فنشرَتْ له صحيفةُ المصري في أول يناير ١٩٥٢ كلمةً تحت عنوان «رأيُ الإِخوانِ ورأْيُ الإسلام» صرحَ فيها بأَنَّه أَولى الناسِ أن ينصحَ الإِخوان لأَنه أَقربُ الناسِ إِليهم.

ومما قالَه سيد قطب في كلمته: «هناك كلمةٌ صريحةٌ يجبُ أَنْ تُقالَ للإخوان المسلمين، وأَحسبُني أَقدرَ الناسِ على قولِها لهم، بحكْمِ ما بيني وبينهم من صداقةٍ وثقةٍ وتعاون!

إِنه لا الأَخُ الحاجُّ طاهر منير رئيسُ شعبةِ الإخوان بالسويس، ولا الأَخُ الأُستاذُ محمد الغزالي عضوُ مكتب الإرشاد، يملكُ أنْ يقولَ كلمةَ الإخوان الرسمية. فقانونُ الإِخوان يجعلُ هذه الكلمةَ الرسمية من حقِّ المرشد العام..

.... فالناسُ في حاجةٍ ماسَّة، إلى كلمةٍ صريحةٍ واضحةٍ رسميةٍ من الإِخوان في هذه الأَيام، لأنَّ هناك ما يَدعو إلى قولها.. وأَصدقاءُ الحركةِ الإسلامية من أمثالي، هم أَحرصُ الناسِ على سماعِ هذه الكلمة، فيما تواجهُه البلدُ من أَحداث!».

لقد صرحَ سيد قطب في هذه الكلمة أَنه ليس منتظماً مع الإِخوان، وإِنما هو صديقٌ لهم، بينه وبينهم صداقةٌ وثقةٌ وتعاون.

وإِذا كان تاريخُ هذه الكلمة هو يناير ـ كانون الثاني ـ ١٩٥٢، فإِنَّ هذا صريحٌ في أَنه لم ينضمّ إلى الإِخوان حتى هذا التاريخ!

وكان المرشدُ العامُّ ـ حسنُ الهضيبي ـ عند حسنِ ظنِّ سيد قطب، فردَّ عليه بعدَ يومين في جريدة «المصري» ـ في ٣/ ١/ ١٩٥٢ ـ أكدَ فيها حرصَ الإِخوان على الجهاد، ورغبتَهم في مقاومةِ الإنجليز، ودعا إلى العملِ الصامت.

وقال عن سيد قطب وكلمتِه السابقة: «قال الكاتبُ الجليلُ الأُستاذُ سيد قطب: إِنَّ دورَ الإسلام في الكفاحِ الشعبيِّ دورٌ إِيجابيٌّ دائماً».

.. فإِذا كان رأْيُ الإِسلام في ذلك واضحاً، فما معنى السؤال؟ إِنَّ رأْيَ الإخوان كذلك واضح».

وأَشارَ الهضيبي إلى أنَّ كتابَ سيد «العدالة الاجتماعية في الإسلام» يدرسُه الإِخوانُ فيما يدرسون من كتبٍ بدقة وعناية..»[1].

سيد قطب «أخ مسلم منتظم» عام ١٩٥٣:

وقد صرح سيد قطب بأَنه انتظمَ مع الإخوان عام ١٩٥٣. وذلك في قوله: «وفي الوقتِ نفسِه كانت علاقاتي بجماعةِ الإخوان تتوثق، باعتبارِها في نظري حقلاً صالحاً للعملِ للإسلام على نطاقٍ واسع، في المنطقة كلها، بحركةِ إحياءٍ وبعثٍ شاملة.

وهي الحركةُ التي ليسَ لها في نظري بديلٌ يكافئها، للوقوفِ في وجهِ المخططاتِ الصهيونيةِ والصليبية الاستعمارية، التي كنتُ قد عرفْتُ عنها الكثير ـ وبخاصةٍ في فترةِ وجودي في أمريكا ـ.

وكانت نتيجةُ هذه الظروف مجتمعة، انضمامي بالفعل سنة ١٩٥٣ إلى جماعةِ الإخوان المسلمين..»[2].

ونُذَكِّرُ أَنَّ انضمامَ سيد قطب للإِخوانِ كان بعد مفارقته لرجالِ الثورة، فقد كان حتى مطلع عام ١٩٥٣ يعملُ مع عبد الناصر لإِصلاحِ الأَحوالِ في مصر، وكان يرى عملاءَ أَمريكا في

(١) انظر المساجلة بين سيد قطب وحسن الهضيبي في كتاب «الإخوان المسلمون» لمحمود عبد الحليم: ٢: ٤٨٠ ـ ٤٨٩.

(٢) لماذا أعدموني، ص ١١ ـ ١٢.

مصر يُحَرِّشونَ عبدَ الناصر على الإخوان، لكنه لم يجدْ عند عبد الناصر استعداداً لذلك، ولهذا فاصَلَهُ وفارَقَهُ في شهرِ فبراير - شباط - ١٩٥٣. وانضمَّ إلى الإِخوان المسلمين مباشرة.

يظهرُ لنا مما سبقَ أنَّ لسيد قطب ارتباطيْن مع الإِخوان:

الأَول: ارتباطٌ عاطفي: كان فيه مؤيِّداً للإِخوان، مقتَنِعاً بفكرتهم ودعوتِهم وبرامجِهم للإِصلاح، وكان صديقاً لكثيرٍ من رجالِهم وقادتِهم، وعلى صلةٍ وثقةٍ وتعاونٍ معهم. وهذا الارتباطُ العاطفيُّ استمرَّ حوالي سنتيْن منذُ عودتِه من أَمريكا عام ١٩٥٠ حتى تركِه رجال الثورة في مطلع عام ١٩٥٣.

الثاني: ارتباطٌ تنظيميٌّ: عندما انضمَّ إلى الإخوان فعلاً، وصار أَخاً مسلماً ملتزماً منتظماً، وكان هذا في ربيع عام ١٩٥٣.

(٣)

مع سيد قطب في نشاطه الإخواني الثقافي

قلنا إِنَّ سيد قطب انضمَّ إلى الإِخوان المسلمين في ربيع عام ١٩٥٣. بعدما وقفَ على مكرِ عبد الناصر بالإِخوان، وتآمُرِه عليهم، وبعدما حاولَ أَنْ يُصلحَ بين الطرفين، فلم يستطعْ بسبب رفضِ عبد الناصر.

أجواء انضمامه إلى الإخوان دليل صدقه وتجرده:

وانضمامه للإِخوان في هذه الأَجواءِ دليلٌ على صدقِ توجُّهه الإِسلامي، وإِخلاصِه لله.

كانوا مُقْدِمين على محنةٍ خطيرةٍ شديدةٍ قاسية. وكان قبلَ انضمامِه إليهم مقرَّباً من عبد الناصر ورجالِ الثورة، وهم يملكونَ الوظائفِ والمراكزِ والمناصبِ والأَموال.

ومع ذلك تركَ الدنيا وما فيها عندَ عبد الناصر، وذهبَ إلى الإِخوان، وصار واحداً منهم، وهو يعلمُ ما هم مُقْدِمون عليه، ويكادُ يرى المحنَ والأَهوال التي تنتظرُهم!!

إنَّ انضمامَه إلى الإخوان في هذه الأجواء لا يتفقُ مع منطقِ «المتاجرة» بالأَفكارِ والمبادىء، ولا منطقِ إيثارِ السلامة والعافية.. وهذا الموقفُ العظيمُ منه يدلُّ على طبيعتِه ونفسيتِه، تلك النفسيةُ المؤمنةُ الصادقةُ الجادةُ الجريئة، ويدلُّ على تجردِه وإِخلاصِه لله.

وهو في هذا الموقفِ يذكِّرُنا بصحابةِ رسولِ الله ﷺ، الذين آمنوا راغبين في ما عندَ الله، وأَسلموا وقتَ الخطرِ والمحنة، وساروا مع النبيِّ ﷺ وهم يعرفونَ عقباتِ الطريق!!

يذكِّرُنا هذا بموقفِ الحبرِ اليهودي الصالح «مُخَيْريق»، الذي كان من أَغنى يهودِ المدينة، وأَكثرِهم جاهاً ومنزلة، ثم آمنَ واتبعَ الرسولَ ﷺ في وقتٍ عصيب، وهو هزيمةُ المسلمين في الجولةِ الثانية من جولاتِ غزوة أُحد، حيث شاهدَ عشراتِ المسلمين شهداء، وعشراتٍ منهم جرحى، والرسولُ ﷺ جريحاً! والصولةُ والجولةُ في ميدانِ أُحُد للمشركين، والمسلمين مُعَرَّضون للقضاءِ عليهم!!

ومع هذا كلِّه أَوصى «مُخَيْريق» بكلِّ مالِه للمسلمين، ونطقَ بالشهادتين، ودخل ميدان أُحُد مجاهداً مع المسلمين، وما هي إلاّ لحظاتٌ حتى لقيَ «مُخَيْريق» وجْهَ اللّهِ شهيداً، ولم يُصَلِّ للّهِ ركعة، وقد قالَ فيه رسولُ الله ﷺ: «مُخَيْريق خَيْرُ اليهود»[1].

---

(١) انظر قصة مخيريق في «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر ٣: ٣٩٣.

إنَّ انضمامُ سيد للإخوان وقتَ المحنة يذكِّرُنا بقصةِ إسلامِ واستشهادِ الشهيد مخيريق على أَرض أُحُد!!

كان عمله في الجانب الثقافي الدعوي:

عمل سيد قطب مع الإخوانِ قبلَ المحنة حوالي سنةٍ ونصف، من مارس ١٩٥٣ إلى نوفمبر ١٩٥٤.

وكان عملُه معهم يتفقُ مع ثقافتِه واهتماماتِه. قال سيد عن ذلك العمل: «ومع ترحيبِهم ـ على وجْهِ الإجمال ـ بانضمامي إلى جماعتِهم، إلاَّ أَنَّ مجالَ العملِ بالنسبة لي في نظرِهم كان في الأُمورِ الثقافية لقسمِ نشر الدعوة، ودَرْسِ الثلاثاء، والجريدةِ التي عملْتُ رئيساً لتحريرِها، وكتابةِ بعضِ الرسائل الشهرية للثقافة الإسلامية. أَمّا الأَعمالُ الحركية كلُّها، فقد ظللتُ بعيداً عنها..»[1].

وأَهمُّ الأَعمالِ التي قامَ بها سيد خلال هذه الفترةِ القصيرة:

ـ إشرافُه على جريدةِ الإخوان المسلمين: حيثُ قَرَّرَ المركزُ العامُّ للإخوان إصدارَ جريدةٍ أُسبوعية باسم «الإخوان المسلمون» تصدرُ صباحَ كلِّ يوم خميس، وأُسندتْ رئاسةُ تحريرِها لسيد قطب.

أَصدرَ سيد من الجريدةِ اثني عشر عدداً من ٢٠/ ٥/ ١٩٥٤ إلى ٥/ ٨/ ١٩٥٤، وقد أَغلقَها سيد قطب بعد ذلك، بسببِ

---

(١) لماذا أعدموني، ص ١٢.

استمرارِ تدخُّلِ الرقابةِ الحكومية فيها، وشطبِ بعضِ مقالاتِها، ومصادةِ بعضِ أَعدادِها.

- إلقاؤُه حديثَ الثلاثاء في المركزِ العام، وكان يحضر الحديثَ آلافٌ من الإخوان، وكان آخرُ حديث أَلقاه بعد عودةِ المرشد العام الهضيبي من بلادِ الشام بأُسبوع.

- أَوفده الإِخوانُ المسلمون مندوباً عنهم، ليحضرَ مؤتمرَ «الدراسات الاجتماعية» الذي عُقِد في دمشق في ٢/ ٣/ ١٩٥٣، حيث أَلقى في المؤتمر بحثاً عن «التربية الخلقية كوسيلةٍ لتحقيق التكافلِ الاجتماعي».

وبعد المؤتمر التقى سيد بقياداتِ الإِخوانِ المسلمين في سوريا، وأَلقى محاضرةً في جامعةِ دمشق عن إِعجازِ القرآن وتعبيره وتأثيره[1].

وحاولَ بعدَ المؤتمر دخولَ الأردن - كما يروي الأستاذ يوسف العظم - ولكنَّ السلطاتِ الأُردنية منعَتْه من الدخول بأمرٍ من «جلوب»[2].

- أَوفده الإِخوانُ المسلمين مندوباً عنهم ليشاركَ في المؤتمرِ الإسلامي، الذي نظَّمه الإِخوان، ودَعوا له قادةَ الفكر والعمل في

---

(١) مجلة الشهاب اللبنانية، السنة الرابعة، العدد الحادي عشر، تاريخ ١٥/ ٨/ ١٩٧٠، ص٩.

(٢) الشهيد سيد قطب ليوسف العظم، ص ٣٨.

العالمِ الإسلامي، والذي عُقِدَ في بيت المقدس في شهر كانون الأول عام ١٩٥٣[١].

قالَ الأُستاذُ علي الطنطاوي عن سيد في المؤتمر الإسلامي: «وصِرْتُ أَلقى على انفرادٍ من اصطفيْتُ من أَعضاءِ المؤتمر، فكانت لنا لقاءات مع الشهيدِ السعيد سيد قطب، كان يحضرُها عصامُ العطار وزهيرُ الشاويش، ويحضرُها أَحياناً أَديب صالح، وكنا لا نفترقُ إلاّ قليلاً..»[٢].

وكان «عَلاّل الفاسي» الزعيمُ المغربيُّ المعروفُ ممن حضرو المؤتمر، وأَخبرَنا عما لاحظه في سيد قطب: «واجتمعْنا في المؤتمرِ الإسلامي الذي انعقدَ في القدس، برئاسةِ عَلاّمة العراق المجاهد السيد «أَمْجَد الزهاوي» فرأيْتُ من «قطب» المناضلَ المتواضع، الذي لم يكن يتطلعُ لشيء من المناصب أو الأَلقاب، بل يتأَثَّرُ حينما يرى بعضَ أصدقائِه يتهافَتون عليها..

ولقد عملْنا معاً في لجنةِ المؤتمر السياسية، التي كنتُ أَترأَسُها، وصلينا وأَعضاءَ هذه اللجنة بأثرِ وشايةٍ من بعض شيوخ فلسطين المشهورين، ذوي الصلة بجلوب باشا..»[٣].

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٨ ـ ٣٩.

(٢) ذكريات، لعلي الطنطاوي، ٥: ١٤١.

(٣) سيد قطب، بقلم طائفة من الكتّاب، ص ١٥.

موقف سيد قطب من الفتنة الإخوانية الداخلية عام ١٩٥٣:

وفي أواخرِ عام ١٩٥٣ وقعَتْ فتنةٌ شديدةٌ داخلَ صفوف الإِخوان المسلمين، أَدَّتْ إلى فرقةٍ وانقسامٍ بين الإِخوان. وقد أَدَّى الاختلافُ والنزاعُ داخلَ الإِخوان إلى اتخاذِ مكتبِ الإرشادِ قراراً بفصْلِ «عبد الرحمن السندي» رئيس الجهازِ الخاص للإخوان المسلمين، وفصْل ثلاثةٍ من كبار مساعديه، وهم: أَحمد زكي، وأَحمد عادل كمال، ومحمود الصباغ، وكان هذا مساءَ يومِ الأَحد ٢٢/١١/١٩٥٣.

وقامَ عددٌ من الإِخوان المؤيدين للمفصولين الأَربعة بالفوضى والتشويش، وتوجَّهوا لاحتلالِ منزلِ المرشدِ العام حسن الهضيبي.

وكان هناك ارتباطٌ وثيق بين الإِخوةِ الأَربعةِ المفصولين، وبين ثلاثة من كبارِ قادةِ الإِخوان أَعضاءِ الهيئة التأسيسية، وهم: صالح عشماوي، ومحمد الغزالي، وأَحمد عبد العزيز جلال.

واحتلَّتْ جموعُ الإخوان المتمرِّدين المركز العام مساء يوم الجمعة ٢٧/١١/١٩٥٣، وكانَ معهم القادةُ الثلاثة، وأَعلنوا عزلَ المرشدِ العام حسن الهضيبي، وحلَّ مكتبِ الإرشاد، وتعيينَ الشيخ «سيد سابق» مرشداً جديداً، وتعيينَ «صالح عشماوي» وكيلاً له!!

وجاءَ الإِخوانُ المؤيِّدون للقيادةِ الشرعية، بقيادة «صلاح شادي» وطردوا المتمرِّدين عن المركز العام، وعادَ مكتبُ الإِرشاد إلى عمله، واتخذَ قراراتٍ عديدة، منها فصْلُ القادة الثلاثة: جلال، والغزالي، وعشماوي!!

وقد أَدْمَتْ هذه الفتنةُ القاسيةُ قلبَ كلِّ أَخٍ من الإِخوان المسلمين، وتركَتْ آثارَها السيئةَ على دعوتِهم لسنواتٍ تالية[1].

ويهمُّنا هنا موقفُ سيد قطب من هذه الفتنة، التي واجهَتْهُ عندَ بدايةِ انضمامِه للإِخوان.

لقد كان سيد يلمحُ الخيطَ الدقيقَ بين الإِخوان المتمردين وبينَ عبد الناصر، الذي كان حريصاً على تفريقِ صَفِّ الإِخوان، والانتقامِ من حسن الهضيبي، الذي وقَفَ أَمامَ عبدِ الناصر برجولةٍ وجرأةٍ وثبات.

روى الأَخُ محمود عبد الحليم عن الأَخِ سيد عيد الذي كانَ له دورٌ في إِنهاءِ احتلالِ الإِخوان المتمردين للمركزِ العام:

«في أثناءِ انتظارِنا في ذلك المساء قربَ منزلِ المرشد العام، التقيْنا بالأَخِ الأُستاذ سيد قطب، وكان غاضباً يُرَدِّد: يا فرحةَ الصهيونيةِ والصليبية العالمية!».

---

(١) انظر تفاصيل هذه الأحداث الأليمة في كتاب «الإخوان المسلمون» لمحمود عبد الحليم، ٣: ١٩٥ ـ ٢٥٤.

ويقولُ الأَخُ سيد عيد: وعندما أُتيحَتْ لي فرصةُ الالتقاءِ بالأُستاذِ سيد قطب في السجن سأَلْتُه: ما دخْلُ الصهيونيةِ والصليبية العالمية بخلافٍ داخليٍّ بين الإِخوان؟

فقالَ لي: لقد اتصلَ بي الأُستاذ «علي أَمين» في الساعةِ الثانيةِ ظهر يوم الحادث [الجمعة ٢٧/ ١١/ ١٩٥٣] وقال لي: أَينَ حاسةُ الصحفيِّ عندك؟.. الإِخوان «قايْمين» على بعضٍ بالسلاح، وأَنتَ قاعدٌ في البيت؟

فقمتُ في الحال، وأَخذتُ سيارَةَ تاكسي، وذهبتُ إلى بيتِ المرشد، فلم أَجدْ شيئاً غيرَ عادي.. وذهبتُ إلى المركز العام، فلم أَجدْ شيئاً ملفتاً للنظرِ كذلك.. ثم تَحْدُثُ بعدها كلُّ الأُمورِ التي حدثَتْ.. هذا ما جعلَني أَقْطعُ بأن الأَمْرَ مدبَّرٌ من أَكثرَ من جهة..»[1].

لقد كان سيد قطب مع الشرعيةِ الإخوانية، مثلُ جموعِ الإِخوان المسلمين، ففي يوم الأَحد ٢٩/ ١١/ ١٩٥٣ حضرَتْ وفودٌ من الإِخوان من مختلفِ الشُّعَب، إلى المركز العام، معلنةً تأْييدَها للمرشدِ الهضيبي، وتَحَدَّثَ في الوفود كلٌّ من الإخوة: عبد الحكيم عابدين، وسيد قطب، وحسن دوح، وعز الدين إبراهيم، وسعيد رمضان، ومحمد خميس حميدة، ثم تكلمَ المرشدُ

(١) الإخوان المسلمون لمحمود عبد الحليم ٣: ٢١٤.

الهضيبي وأثنى على الإخوان[1].

من هذا نعرفُ أَنَّ نشاطَ سيد قطب الإِخواني ما بين ٣/ ٥٣ إلى ١٠/ ١٩٥٤ كان نشاطاً ثقافياً دعويَّاً، يتمثلُ في إِصدار صحيفة، أو كتابةِ رسالة إسلامية ثقافية، أو إِلقاءِ حديثٍ إِسلامي ثقافي، أو الاشتراكِ في ندوةٍ أو مؤتمر، وتقديم كلمة أو بحث حول الإسلام.

نقض مزاعم واتهامات حول عمله مع الإخوان:

وقد زعم بعضُ المؤرخين اليساريين ـ كالدكتور عبد العظيم رمضان ـ أَنَّ الإِخوانَ المسلمين انتَدبوا سيد قطب ليكون مندوباً عنهم في التنسيقِ والتخطيطِ مع الحزبِ الشيوعيِّ المصري، الذي يرأَسُه الدكتور فؤاد مرسي، من أَجلِ مقاومةِ حكم عبد الناصر! وأَنَّ سيد قطب التقى مع قيادةِ الحزبِ الشيوعي المصري، ونَسَّقَ معهم كيفيةَ مواجهةِ عبد الناصر[2].

نتوقَّفُ في قبولِ هذه المزاعم لأَنَّها من روايةِ الشيوعيين واليساريين، وهؤلاء غيرُ أُمناء، وهم مُغْرِضون مُحَرفون. ولو كانَ الكلامُ صحيحاً لذكَرَه سيد أَثناءَ اعترافاته، ولحاكَمَتْه عليه الحكومة.

---

(١) المرجع السابق ٣ ص ٢١٧.

(٢) انظر كتاب «سيد قطب «العادل حمودة، ص ١٩٩ ـ ٢٠٠.

ومن مزاعمِ الحكومةِ والمخابرات: أنَّ سيد قطب كان عضواً في التنظيمِ السريِّ للإخوان، وأَنه أَوقفَ جريدةَ «الإخوان المسلمين» العلنية، وبدأَ ضدَّ حكومةِ الثورة «حربَ المنشورات» السرية. ونُسِبَ له الإِشراف على النشرةِ السريةِ التي كان يصدرُها التنظيمُ السري «الإخوانُ في المعركة» والتي كانَ سيد يفضحُ فيها عبدَ الناصر، ويذكُرُ عمالتَه للأَمريكان ولليهود، ويبينُ أنَّ عبدَ الناصر قد اتفقَ مع اليهود أَثناءَ حصارهم له في «الفالوجة» في حربِ فلسطين، وأَنهم جَنَّدوه من يومِها لمصلحتِهم. وأَنَّ سيد انتقلَ سراً من القاهرة إلى «بني سويف» لهذه الغاية[1]!

وهي اتهاماتٌ باطلة، حوكمَ سيد قطب عليها، وحُكمَ عليه بالسجن عشرَ سنوات.

وسيد نفسُه نفى هذه الاتهاماتِ في تقريره: «ثم كانتْ حوادثُ ١٩٥٤، فاعْتُقِلْتُ مع مَن اعْتُقِلوا في يناير، وأُفرجَ عنهم في مارس، ثم اعْتُقِلْتُ بعد حادثِ المنشية، في ٢٦ أكتوبر كذلك، واتُّهمتُ بأَنّي في الجهازِ السري، ورئيسٌ لقسمِ المنشورات به، ولم يكن شيءٌ من هذا كلِّه صحيحاً!

وأَرجو أَنْ يُلاحَظ أَنني لا أَقصد تبرئةَ نفسي، من عملٍ

(١) انظر كتاب «سيد قطب» لعادل حمودة، ص ١٩٩ ـ ٢٠٠.

سجنْتُ من أَجْلِه عشرَ سنوات، وانتهى أَمْرُه، ولا قيمةَ لتبرئةِ نفسي منه الآن...»[1].

وهكذا أَمضى سيد قطب مع الإِخوانِ المسلمين حوالي سنةٍ ونصف من شهر ٣/ ١٩٥٣ إلى شهر ١١/ ١٩٥٤، قامَ فيها بنشاطاتٍ ثقافيةٍ إِسلامية عديدة. ثم وَقعت المحنةُ الأُولى في أَواخر عام ١٩٥٤.

---

(١) لماذا أعدموني، ص ١٢.

(٤)

مع سيد قطب في محنته الأولى

تفاقمَ الخلافُ بين عبد الناصر والإِخوان المسلمين، وبَيَّتَ النيةَ لضرب الإِخوان، ولم تنفعْ وساطاتُ الإِصلاح!

وفي ١٥ يناير - كانون الثاني - عام ١٩٥٤، في الساعةِ الواحدةِ إلاّ ربعاً من صباح ذلك اليوم أَصدرَ مجلسُ قيادةِ الثورة أَمراً بحَلِّ جماعةِ الإِخوانِ المسلمين، واعتبارِها حزباً سياسياً، يَجري عليها ما يجري على الأَحزابِ السياسية التي حُلَّتْ من قبل.

وأَذاعَ مجلسُ قيادة الثورة بياناً، أُذيع في الإِذاعة، ونُشر في الصحف، نَسبوا فيه إلى الإِخوان القيامَ بأَعمالٍ خطيرة، تُفَرِّقُ الأُمة، وتُهددُ الأَمن، كما اتَّهموا الإِخوان بالاتصالِ بالانجليز، والتآمرِ معهم على الوطن[1]!

---

(١) انظر بيان مجلس قيادة الثورة في كتاب «الإخوان المسلمون» لعبد الحليم ٣: ٢٥٩ - ٢٦٧.

الاعتقال الأول لسيد قطب:

وفي فجر ذلك اليوم تمَّ اعتقالُ المرشدِ العام حسن الهضيبيِ وقادةِ الإِخوان، وكان سيد قطب في مقدمةِ الإِخوان المعتقلين.

وهذا هو أَولُ اعتقالٍ لسيد قطب في حياته، فلم يُعتقلْ من قبل، ولم يدخل السجنَ من قبل!

وقد تحققَ له ما توقَّعَه قبلَ ستةِ أَشهر، عندما أَخبرَ رجالَ الدولةِ المحتفين به في صيفِ عام ١٩٥٣، بأَنه كان يتوقعُ السجنَ قبل الثورة، وهو يتوقعُ السجنَ بعدَ الثورة أَيضاً. وها هو عبدُ الناصر يُدخلُه السجن، وهو الذي وعدَ أن يكونَ فداءَه حتى الموت!!

وتَطوَّرت الأَحداثُ بعد اعتقالِ الإِخوان، حيث أَقالَ عبدُ الناصر الرئيسَ محمد نجيب من جميعِ مناصبه في ٢٥/ ٢/ ١٩٥٤.

وفي ٢٨/ ٢/ ١٩٥٤ نَظَّمَ الإِخوانُ مظاهرةً ضخمةً حاشدة، توجَّهَتْ نحوَ مجلسِ قيادة الثورة. اضطرَّ عبدُ الناصر بسببها إِلى الرضوخِ لمطالبِ المتظاهرين فأَعادَ محمد نجيب إِلى الرئاسة، وأَفرجَ عن الإِخوانِ المعتقلين[1].

---

(١) انظر تفاصيل تلك الأحداث في كتاب الإخوان المسلمون لعبد الحليم ٣: ٢٦٨ - ٢٩١.

وأُفرجَ عن سيد قطب بعدَ أَنْ أَمضى في السجن شهرين. وكان هذا تمهيداً لسجنِه الطويلِ بعدَ ذلك.

وبعد الإِفراجِ عن سيد قطب ضاعفَ نشاطَه معهم، فلم يُرهبْه السجن. ولم يُضعفْ همتَه وعزيمتَه، لأَنَّه وَطَّنَ نفسَه عليه من قبل، فلم يفاجَأْ به..

اعتقاله الثاني الطويل بعد مسرحية اغتيال عبد الناصر:

استمرَّ في عمله مع الإِخوان بهمةٍ ونشاط حتى كان حادثُ «المنشية» في ٢٦/ ١٠/ ١٩٥٤.

حيث أُذيعَ في الساعةِ الثامنة من مساءِ ذلك اليوم أنَّ الرئيسَ عبد الناصر قد نجا من محاولةِ اغتياله، عندما أَطلقَ عليه الجاني النار، وهو يخطبُ في دار هيئةِ التحرير في منطقة المنشية في الإِسكندرية.

ونُسبت المؤامرةُ إلى الإِخوان المسلمين، واتُّهِم فيها «محمود عبد اللطيف» عضوُ أُسرةٍ من أُسَرِ «النظامِ الخاصِّ» في القاهرة، نقيبُه هو المحامي «هنداوي دوير».

وقامَتْ الحكومةُ بحملةٍ مسعورة، أَلْقَت القبضَ على عشراتِ الآلاف من الإِخوان المسلمين، وزَجَّتْ بهم في السجون[1].

---

(١) انظر هذه الأحداث في كتاب عبد الحليم السابق، ٣: ٣٨٥ ـ ٣٩٨.

وكان سيد قطب في مقدمةِ المعتقلين.

ويقول سيد حول ذلك: «ثم كانت حوادثُ ١٩٥٤، فاعتُقلتُ مع مَن اعْتُقلوا في يناير، وأُفرجَ عنهم في مارس، ثم اعتُقلتُ بعد ذلك، في حادثِ المنشية، في ٢٦ أُكتوبر..»[١].

وهكذا بدأَتْ محنةُ سيد قطب الطويلة في السجن، في ٢٦/ ١٠/ ١٩٥٤، وهو في الثامنةِ والأَربعين من عمره.

وهذا السجنُ شرفٌ له، لأَنه أُدخلَ فيه بسببِ التزامِه وإِيمانِه وصلاحِه، ودعوتِه إلى الله، ومواجهتِه لأَعداءِ الله، ونصرِه لدين الله.

وشُكِّلتْ لمحاكمةِ الإخوان المسلمين محاكمُ عسكرية، قُضاتُها ومحاموها من ضباط الجيش، وسُميت تلك المحاكم «محكمة الثورة».

وصُبَّ على الإخوان العذابُ في السجون صَبّاً، وكان نصيبُ سيد من التعذيبِ كبيراً، وقد أَدَّى إلى مضاعفةِ أَمراضه، المستوطنةِ في بدنه، وإِصابتِه بسلسلة أُخرى من الأَمراضِ الجديدة!

محاكمة سيد قطب والحكم عليه:

كانت المحكمة الأُولى لمحاكمةِ قادةِ الإِخوان، وهي برئاسة

---

(١) لماذا أعدموني، ص ١٢.

جمال سالم، وعضويةِ أنور السادات وحسين الشافعي، والثلاثةُ كانوا من كبارِ قادةِ الثورة، وأَعضاءَ في مجلسِ قيادةِ الثورة.

بدأت المحكمةُ محاكمةَ المرشدِ العام حسن الهضيبي. وأَثناءَ محاكمةِ الهضيبي استُدعيَ سيد قطب ليكون شاهداً في تلك المحاكمة.

وكان قد عُذِّبَ تعذيباً رهيباً، وكانت آثارُ التعذيبِ والسياطِ والحرقِ والكَيِّ بالنار باديةً على جسمه، وكان قد أُصيب بنزيفٍ رئويٍّ شديد.

وأَرادَ رئيسُ المحكمة جمال سالم أَنْ يحاورَ سيد.

قال له: يبدو عليك التعبُ يا أُستاذ سيد. فهل أَنت تعبان؟

سيد قطب: نعم! لأَني كنت واقفاً على قدمي ستَّ ساعات! قبلَ دخولي المحكمة!

جمال سالم: وماذا يعني هذا؟ كلُّنا نقفُ مدداً طويلة!

سيد قطب: ولكننا نحن الإِخوان المسلمين تطبَّقُ علينا في السجن مبادىءُ الثورة!!

ونزعَ سيد رداءَه عن جسمه أَمامَ الحضور، فظهرتْ على جسمِه آثارُ التعذيبِ الشديد!

فاضطر جمال سالم إلى رفعِ الجلسة فوراً[1]!!

وهذه الحركةُ العجيبةُ المفاجئةُ من سيد قطب تدلُّ على جرأَتِه وشجاعتِه ومعلومٌ ما يترتبُ على أَمثالِ هذه الحركة من تعذيبٍ رهيب، بعد العودةِ إلى السجن، وسيد يعلمُ ما ينتظرُه عند عودته، لكنه أَراد أَنْ يُخبرَ الناسَ في الخارج عن بعضِ ما يجري في أَقبيةِ السجون!!

تأخَّرَتْ محاكمةُ سيد قليلاً بسببِ الأَمراضِ الكثيرة التي أُصيبَ بها. وبدأَتْ محاكمتُه بعد أكثر من نصفِ سنةٍ من توظيفِه، واستمرتْ محاكمتُه شهريْن. حيث بدأَتْ في ٣/ ٥/ ١٩٥٥، وحُكِمَ عليه في ١٣/ ٧/ ١٩٥٥.

وكان الحكمُ عليه بالسجنِ خمسةَ عشر عاماً مع الأَشغال الشاقة.

ويَحكي سيد في تقريرِه عن مرضه الذي أَدّى إلى تأجيلِ محاكمته: من أَنه كان في «السجن الحربي» تمهيداً لمحاكمته، فلما مرضَ نُقِلَ إلى سجن «طرة»، ولما خَفَّ مرضه أُعيدَ إلى السجنِ الحربيِّ للمحاكمة: «من ذلك اليوم أَنا كنتُ في «طُرَّة» معتقَلاً، ولم يَصْدُر عليَّ حكمٌ بعد، ولم أُحاكَمْ، وذلك بسبب تمزُّقٍ في الرئتين ونزيفٍ حاد، اقتضى نقلي من السجن الحربي في ٢٥/ ١/ ١٩٥٥ إلى مصحة ليمان طرة للعلاج.. وفي أَبريل ـ نيسان ـ كانت حالتي

---

(١) انظر مجلة المجتمع الكويتية، عدد ٥٣٩، تاريخ ٢٥/ ٨/ ١٩٨١، ص ٢٧. وانظر مذابح الإخوان في سجون ناصر، لجابر رزق، ص ١١٣.

قد تحسنَتْ نوعاً ما، وتقررَ إِعادتي للسجن الحربي، لتقديمي للمحاكمة..»[1].

سيد قطب يمضي محكوميته في مستشفى السجن:

وبعد الحكمِ على سيد بالسجن خمسة عشر عاماً، نُقِلَ إلى سجن «طرة» لتنفيذِ المدة، وهو من أَسوأ سجونِ مصر، وأَكثرِها قذارةً وإيذاءً.

وكان في السجن حوالي أَربعمائة من الإِخوان المسجونين، من بينهم منير دلة وصالح أبو رقيق، ومن بينهم بعضُ ضباطِ الإِخوان المسجونين، مثل: حسين حمودة، وجمال ربيع، وفؤاد جاسر[2].

وبينما كان سيد قطب يُمضي «محكوميتَه» في سجنِ طرَّة، وفي يوم السبت ١/٦/١٩٥٧ وقعتْ مذبحةٌ رهيبة في السجن، وأَطلقَ رجالُ الجيش النارَ على الإِخوان المسجونين بتخطيطٍ وأَمرٍ من الحكومة نفسها، التي كان زكريا محيي الدين وزيرَ الداخلية وقتها. وأَدت المذبحةُ إلى استشهاد واحدٍ وعشرين أخاً وجرح ثلاثة وعشرين آخرين!!

(١) لماذا أعدموني، ص ٢٠.

(٢) المرجع السابق، ص ١٩.

وقال ضابطُ المباحث «أَحمد صالح داود» لأَحد الإِخوانِ بعد المذبحة بأنَّ سببَها هوِ أنَّ الإِخوان المسلمين بالأُردن قد ساعدوا على إِفشالِ انقلابٍ عسكريٍّ في الأُردن قاده عميل عبد الناصر «علي أَبو نوار» ضدَّ الملك حسين، فعاقبَ عبد الناصر الإخوان في مصر، ورتَّبَ لهم هذه المذبحة[1]!!

سيد قطب موضع احترام الجميع في السجن:

وكان السجانون في سجنِ طرة يحترمونَ سيد قطب، فقد توقَّفَ عنه التعذيبُ البدنيُّ بعد الحكمِ عليه، وهو في سجن طرة يُمضي محكوميتَه، وينفذُ العقوبة. كانوا يحترمونَه، لأَنَّه كان - بشخصيتِه القوية وسلوكِه الجيد وهيبتِه الآسرة - يَفرضُ عليهم احترامَه وتقديرَه. ولهذا كانوا يُخففون الرقابةَ عليه أَحياناً، ويتسامحون في معاملتِه، ولا يُطبقون عليه كلَّ لوائحِ السجنِ بدقَّة.

كان موضعَ احترامِ المسجونين من الإخوان وغيرهم، وكان إِخوانُه في السجن يخدمونه، ويَعملونَ على راحته.

وبسببِ احترام الجميع لسيد، أُطلقَ عليه لقبُ «قاضي السجن».

---

(١) انظر تفصيل المذبحة وشهادة شهودها في وثيقة جابر رزق «مذبحة الإخوان في ليمان طرة» وانظر رواية الشهيد محمد يوسف هواش لها في رسالته «مجزرة القرن العشرين».

ولقد قالَ الضابط «الحلواني» مديرُ السجن: «إنَّ المديرَ الفعليَّ للسجن هو سيد قطب»[1].

ويَروي الأَخُ عبد الحكيم خفاجي حادثةً تدلُّ على هذه الحقيقة: لما تقرَّرَ ترحيلُ الإخوانِ المسجونين من سجنِ طرة إلى سجن الواحات عام ١٩٥٥، جاءَ سيد قطب ليتعرَّفَ علينا، وليودِّعَنا بقامتِه الفارعة، وهامتِه الشامخة، وملامحِهِ الجادَّة الراضية، ونظراتِه الودودة النافذة.

وظَنّي أنَّ حضورَه إلينا هو الاستثناءُ الوحيد من قاعدة «التَّسْليك» ـ أي الدفع للسّجّانين ـ لِما يحظى به من احترامٍ وحبٍّ جميعِ المسجونين والسجانين على السواء..»[2].

وكان سيد كريماً مع إخوانه المسجونين، فعندما أُدخلَ الزنزانة كان شريكُه الأَخ «مصطفى العالم»، وقد أُصيب «العالم» في الزنزانةِ بانفصال غضروفي، والوسيلةُ الوحيدةُ لعلاجه هي أَنْ يبقى مستلقياً على ظهرِه مدةً لا تقلُّ عن ستةِ أَشهر. وفي هذه الفترةِ الطويلة كان سيد يقومُ على خدمةِ أَخيه وتطييبِ خاطره[3].

ومن كرمِ سيد قطب وطيب نفسه، أَنه عندما كان أَهلُه يزورونه، ويكرمونَه بهديةٍ من الطعام، كأن تكون «دجاجةً» أَو

(١) أخبرني بهذا الأستاذ محمد قطب.

(٢) عندما غابت الشمس لعبد الحليم خفاجي، ص ٢١٠.

(٣) مجلة الشهاب اللبنانية، السنة السادسة، العدد التاسع، أيلول ١٩٧٢، ص ٨.

«وزة» محمرة، كان يتناولُها، ويُنادي إِخوانَه المسجونين ويكرمُهم بها.

وشملَ كرمُه في سجنه الحيوانات، فكان عنده في السجن قطٌّ عجوز، وكان سيد يُطعمه ويَعتني به! ولما سُئِلَ عن سر اعتنائه به قال: لا يليق بنا أن نأْخذَ شبابَه، ثم لا نرحمه في شيخوخته!!

من أمراض سيد قطب في سجنه:

وقد تضاعفت أمراضُ سيد الجسمية في السجن، بسببِ طبيعةِ السجن المعروفة، وأَمامَ تدهورِ حالته الصحية كان لا بدَّ أَنْ يُنقلَ إلى مستشفى السجن. وهو ليس مستشفى بالمعنى المعروف، وإِنما هو بناءٌ صغير متواضعٌ داخلَ السور الكبيرِ المحيط بالسجن!

وهكذا قَدَّرَ اللّهُ أن يُمضيَ سيد في مستشفى سجن طرة حوالي تسعَ سنوات.

لقد ابتلى اللّهُ سيد قطب بالأَمراض التي لازمَتْه منذ الصغر، ولكن السجنَ الكئيب ضاعفَ هذه الأَمراض المزمنة، وأَضافَ له أَمراضاً أُخرى.

كانت الأَمراضُ التي صاحبتْه منذ الطفولة في جهازِه التنفسيِّ وجهازِه الهضمي، تصيبُه في الرئتين وفي المعدةِ والأَمعاء.

وبعد حوالي خمسِ سنوات من سجنه تدهورتْ حالتُه الصحية: «في نهايةِ سنة ١٩٦٠ ساءتْ حالةُ سيد قطب الصحية إلى حد كبير.

ولم تكن إمكاناتُ العلاج في مستشفى طرة تُناسبُ أَمراضَه، ولم تكن قادرةً على وقفِ تدهورِ صحته.. فالرئة تتعرضُ لحالاتِ من النزيف المفاجيء.. والمعدةُ والأَمعاءُ تتعرضُ لنوباتٍ لا تتوقف من التقلصات.. والقلبُ بدأَ يضاعفُ من ضرباته إلى أَنْ وصلَ لمرحلة الأزمة..

وكان أَنْ بُذلتْ محاولاتٌ عديدة من خارج سجنه، لنقلِه إلى مستشفى متخصص للعلاج.. ولكن كلٌّ هذه المحاولات لم يُكتبْ لها النجاح..

وكان ـ بعد حدٍّ من التدهور ـ أَنْ قَررت اللجنةُ الطبيةُ العليا لمصلحةِ السجون، نقلَه إلى مستشفى «المَنْيَل» الجامعي.

وفي هذا المستشفى كَشفت الأَجهزةُ الطبيةُ الحديثة، أَنه يقتربُ من حالةِ «الذبحة الصدرية».

وبعد ستةِ أَشهر قضاها في مستشفى المنيل الجامعي عادَ إلى مستشفى ليمان طرة.. وفي العام التالي تَدهورتْ صحتُه من جديد، فعاد إلى مستشفى المنيل الجامعي مرةً أُخرى، لمدةِ ستةِ أَشهر أخرى... رجعَ بعدها إلى مستشفى سجن طرة...».

الإفراج عن سيد قطب عام ١٩٦٤ بعفو صحي:

«وفي سنة ١٩٦٤ تعرض سيد قطب لانهيارٍ حادٍّ جديد في صحتِه «استدعى نقلَه مرةً أُخرى إلى مستشفى المنيل الجامعي.

لكنه هذه المرة لم يُنقل إلى سجن طرة، لأَنه أُفرجَ عنه بعفوٍ صحي!!»[(١)].

وخرجَ سيد من سجنه بعفوٍ صحي عام ١٩٦٤، بعدَ إِصابتِه بالذبحة الصدرية، مع قائمةٍ من الأَمراض الأُخرى في الكِلى والمعدة والأَمعاء!!

قال سيد قطب عن هذا: «وكنتُ قد خرجتُ بعفوٍ صحي، بعد سوءِ حالةِ الذبحةِ الصدرية، التي أُصبتُ بها في السجن، مع بقيةِ أَمراضي الأُخرى..»[(٢)].

وكان في مستشفى السجن يؤلفُ كتبَه الإِسلاميةَ المؤثرة، وفي مقدمتِها تفسيره «في ظلال القرآن». وسنعودُ لهذه المسألةِ في ما بعد إِن شاء الله.

وأَمامَ تدهورِ حالةِ سيد قطب الصحية، توجهت الحكومةُ للإِفراج عنه بعفوٍ صحي. ووافقَ هذا اتصالَ الإِخوان المسلمين

---

(١) سيد قطب لعادل حمودة، ص ٦٠ و١٥٩.

(٢) لماذا أعدموني، لسيد قطب، ص ٧٢ ـ ٧٤.

في العراق بالرئيسِ العراقي عبد السلام عارف، وطَلبوا منه التوسطَ لدى عبد الناصر للإفراج عن سيد قطب بعفو صحي.

وكان عبدُ السلام عارف معجَباً بكتبِ سيد وسارعَ بالوساطة. وقد قال سيد قطب نفسه عن ذلك: «تحدثَ فضيلةُ الأُستاذ أَمجد الزهاوي بشأني، مع سيادةِ الرئيسِ عبد السلام عارف. ووجدَ عنده كلَّ استعدادٍ للتوسطِ لدى عبد الناصر، بل إنه فكرَ في ذلك من نفسه. فقد كان كتابي «في ظلال القرآن» هو أَنيسُه في فترة اعتقاله أَيامَ عبد الكريم قاسم! وبالفعل نجحت الوساطة، والحمد لله...»[1].

وأُفرجَ عن سيد قطب بعفوٍ صحي في شهر مايو ـ أيار ـ عام ١٩٦٤. وبعد أَنْ أَمضى في السجنِ حوالي عشر سنوات!!

---

(١) الموتى يتكلمون، ص ١٠٤ ـ ١٠٥.

(٥)

مع سيد قطب في قيادته التنظيم الإخواني الجديد

التنظيم الإخواني الجديد:

توقف تنظيمُ الإخوان المسلمين بعد محنةَ عام ١٩٥٤، بسببِ حلِّ الجماعة، واعتقالِ قيادتها والآلافِ من أعضائها.

وقد قامَ بعضُ الإخوان المتحمسين بمحاولاتٍ متواضعةٍ اجتهاديةٍ - باجتهاد منهم - لإحياءِ التنظيم الإخواني خارجَ السجن، منها محاولةُ محمد يوسف هواش، ومحاولةُ المهندس مراد الزيات، ومحاولةُ أحمد عادل كمال، ومحاولةُ أَحمد رائف، ومحاولةُ عبد الفتاح حسين.

ومن أَنجحَ تلك المحاولات تلكَ التي قام بها الشهيدُ عبد الفتاح إسماعيل، وقد التقى التنظيمُ الذي أَسَّسَه عبدُ الفتاح إسماعيل، بالتنظيمِ الذي أَسسه علي عشماوي وأَحمد عبد المجيد في القاهرة.

وتمَّ تشكيلُ قيادةٍ خماسيةٍ للتنظيمِ الإِخواني الموحد، مكوَّنةٌ من: عبد الفتاح إِسماعيل، وعلي عشماوي، ومجدي عبد العزيز متولي، وصبري عرفة الكومي، وأحمد عبد المجيد عبد السميع[1].

واتصلَ عبدُ الفتاح إسماعيل بالمرشد العام حسن الهضيبي، وأَخذَ منه موافقتَه على استئنافه التنظيم.

وهكذا عملَ التنظيمُ الإِخوانيُّ الجديدُ تحتَ إِطارِ الشرعية، حيثُ أَذنَ المرشدُ العامُّ للشيخِ عبد الفتاح بذلك[2].

وكان القادةُ الخمسةُ من الشبان، فأَرادوا أَنْ يكونَ قائدُ التنظيمِ رجلاً من الكبار المجرِّبين. وبَحثوا عن رجلٍ يصلحُ لذلك، وعَرضوا الفكرة على «محمد فريد عبد الخالق» عضوِ مكتبِ الإرشاد، فاعتذر، وبَيَّنَ لهم خطورةَ الأَمر، وأَخبرهم أَنَّ أَحسنَ حالات التنظيم في هذه المرحلة هي عدمُ التنظيم! وزادَ بأَنْ شكى الشبابَ إلى المرشد العام، ولكنَّ الشيخَ عبدَ الفتاح إسماعيل دافع عن التنظيمِ أَمامَ المرشد، وأَخذَ منه الموافقة.

واستقرَّ رأَيُ الشبانِ على سيد قطب، الذي كانَ في السجن.

---

(١) انظر البوابة السوداء لأحمد رائف، ص ٢٣٥ ـ ٢٣٩.

(٢) لماذا أعدموني، ص ١٧.

أفكار سيد قطب الدعوية الحركية الجديدة:

وقبلَ أن نتحدثَ عن اتصال قادةِ التنظيمِ الإِخواني بسيد قطب في سجنه، نحبُّ أن نتوقَّفَ قليلاً، لنقفَ على أَفكارِ سيد قطب في سجنه، عن الإِسلامِ والدعوةِ والعملِ والحركةِ والإِخوان.

فلما استقرَّ به المقامُ في سجنِ طُرَّة، صارَ يستعرضُ شريطَ الأَحداثِ الكئيبةِ المريرة، التي مَرَّت به وبالإِخوان المسلمين، وكان يرى أَنَّ للقوى العالمية المحاربةِ للإِسلام والدعوة ـ من صليبيةٍ ويهودية وإِلحاد ـ يداً في ذلك. وأَنها قد نجحتْ في تنفيذِ مخططِها بحلِّ جماعةِ الإِخوان المسلمين، وتعذيبِ أَفرادِها تعذيباً رهيباً.

ورأى أَنَّ إِيقافَ نشاطِ الجماعة وتغييبَ أَفرادِها في السجون فتحٌ لأَبوابِ الفساد.

استمرَّ تفكيرُه بالأَحداثِ حوالي سبع سنوات: ١٩٥٥ ـ ١٩٦٢.

وقادَهُ تفكيرُه المتأنّي الطويلُ إلى مجموعةِ من الحقائقِ في العقيدةِ والدعوة والحركة والتربية.

ومما يتعلقُ بالعملِ والدعوةِ والحركة قَرَّر أَنَّ الردَّ على المخططاتِ المعادية للإسلام يكمنُ في إِعادةِ نشاطِ الحركةِ الإِسلامية.

قالَ عن النتيجة التي خرجَ بها: «ويستطيعُ الإنسانُ أن يلحظَ بسهولةٍ علاقةَ هذا الانحدار، بتدميرِ حركةِ الإخوان المسلمين، ومنْعِ نشاطها، كما يستطيعُ أَنْ يربطَ بين هذا التدمير، وبين الخططِ الصهيونيةِ والصليبية الاستعمارية، بخصوصِ هذه الجماعة، وبخصوصِ المنطقة بجملتها..

هذه هي رؤيتي للموقفِ التي انطلقَ منها التصميمُ على ضرورةِ العملِ لحركةٍ إسلامية، امتداداً لحركةِ الإخوان المسلمين المصادَرَة الموقوفة مع الانتفاعِ بالتجربة، وبالتجارب التي سبقتها.

وفيما بين عام ١٩٥٥ وعام ١٩٦٢ كان التفكيرُ في منهجِ الحركةِ وطريقةِ البدءِ بها».

«.. إنَّ الحركةُ الإسلاميةَ لا بدَّ أن تستمرّ، وإنَّ القضاءَ عليها في مثلِ تلك الأَحوال، يُعَدُّ عملاً فظيعاً جداً، يصلُ إلى حدِّ الجريمة..»[١].

تصوره لمنهج الحركة الإسلامية في العمل:

أَمّا منهجُ الحركةِ الإسلامية في العمل فقد قالَ عنه سيد قطب: «توجَدُ معسكراتٌ صهيونية وصليبية واستعمارية قوية، تحاربُ كلَّ محاولةٍ للدعوةِ الإسلامية، وتعملُ على تدميرِها عن

(١) المرجع السابق، ص ٢٧.

طريقِ الأَنظمةِ والأَجهزةِ المحلية، بتدبيرِ الدسائسِ والتوجيهاتِ المؤديةِ لهذا الغرض.

ذلك بينما الحركاتُ الإسلاميةُ تُشغلُ نفسَها في أَحيانٍ كثيرة بالاستغراقِ في الحركاتِ السياسيةِ المحدودةِ المحلية..

كما أَنها تُشغلُ نفسها بمطالبةِ الحكوماتِ بتطبيقِ النظامِ الإِسلامي والشريعةِ الإسلامية، بينما المجموعاتُ ذاتُها بجملتِها بعدتْ عن فهمِ مدلولِ العقيدة..

ولا بدَّ إذنْ أَنْ تبدأَ الحركةُ الإسلاميةُ من القاعدة. وهي: إِحياءُ مدلولِ العقيدةِ الإسلامية في القلوبِ والعقول.. وتربيةُ مَنْ يَقْبَلُ هذه الدعوة، وهذه المفهوماتِ الصحية، تربيةً إِسلاميةً صحيحة. وعدمُ إِضاعةِ الوقت في الأَحداثِ السياسية الجارية. وعدمُ محاولاتِ فرضِ النظامِ الإِسلامي عن طريقِ الاستيلاءِ على الحكم، قبلَ أَنْ تكونَ القاعدةُ المسلمةُ في المجتمعات هي التي تطلبُ النظامَ الإسلامي، لأنها عرفَتْه على حقيقتِه، وتريدُ أَنْ تُحكم به..

وفي الوقتِ نفسه، ومع المضيِّ في برنامجٍ تربويٍّ كهذا، لا بدَّ من حمايةِ الحركة من الاعتداءِ عليها من الخارج. كالذي حدثَ للإخوان سنة ١٩٤٨، ثم سنة ١٩٥٤، وكالذي حدثَ للجماعة الإسلامية في باكستان.

هذه الحمايةُ تتمُّ عن طريقِ وجودِ مجموعاتٍ مدربةٍ تدريباً فدائياً، بعد تمام تربيتها الإسلامية، من قاعدةِ العقيدة ثم الخُلُق..

هذه المجموعاتُ لا تبدأُ هي اعتداء، ولا محاولةً لقلبِ نظامِ الحكم، ولا مشاركةً في الأحداث السياسية المحلية..»[1].

حديث سيد قطب عن المنهج مع إخواته المسجونين:

ولما اهتدى إلى منهجِ عملِ الحركة الإسلامية وهو في السجن، كان يلتقي بالإخوان المسجونين القادمين إلى مستشفى السجنِ للعلاج، ويكلمُهم عن أَفكاره وتصوُّراتِه الجديدة، ويقدِّمَها بصفتِه الشخصية، لأَنه ليست له صفةٌ تنظيمية.

قال: «أَنا إلى ذلك الوقتِ في محيطِ الإخوان المسلمين مجردُ أَخٍ مسلم.

حقيقة إنَّ له من نفوسهم قيمتَه ومكانتَه الشخصية، بوصفِه كاتباً إسلامياً مفكراً، له خبرتُه وتجربتُه في المجالات العامة.

ولكنَّه مع ذلك كلِّه ليستْ له صفةٌ حركيةٌ إداريةٌ في الجماعة، تُعطي له الحقَّ الشرعي في رسمِ خطةٍ حركية، ولا في توجيهِ الإخوانِ إليها، لأَنَّ هذا الحقَّ لمكتبِ الإرشاد وحده، ولمن

---

(١) لماذا أعدموني، ص ٢٦ ـ ٢٩ باختصار.

يكلفُه بذلك، ولستُ من أَعضاءِ المكتب، ولا مكلَّفاً منه بشيء...»[1].

وبعضُ الإِخوة المسجونين تَقَبَّلوا آراءَ وتصوُّرات سيد قطب، وبعضُهم رَفضوها وحاربوها، ووصَلَ الأَمر إلى مكتبِ الإرشاد.. وزارَ عضوان من مكتبِ الإِرشاد سيد قطب في سجنِ طرة، وهما عمر التلمساني وعبد العزيز عطية، ولما أَوضحَ لهما الصورة شعرا بالراحة[2]..

اتصال سيد قطب بالتنظيم الإخواني خارج السجن:

وكان أول اتصال بين قادة التنظيم الإخواني وبين سيد قطب عام ١٩٦٢، عندما زارَ سيدَ قطب في سجن طرة الشيخُ عبدُ الفتاح إِسماعيل، وطلبَ منه: «أَنْ يكون أباً روحياً لجماعةٍ من الإِخوان، خارجَ السجن، تريدُ مَنْ يصحح مفاهيمها، ويَهديها إلى الصراط المستقيم، وأَنهم يتوسَّمون فيه هذه القدرة..

ووافقَ سيد قطب على ذلك، وصارتْ كتاباتُه تأخذُ طريقَها إلى هذا التنظيم، قبلَ طبعها أَو بعده..»[3].

---

(١) لماذا أعدموني، ص ٣١.

(٢) المرجع السابق، ص ٣١ ـ ٣٧.

(٣) البوابة السوداء لأحمد رائف: ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣.

وكان الاتصالُ بسيد في السجن «يتمُّ بواسطةِ الشيخ عبد الفتاح، والحاجّةِ زينب الغزالي، ثم الأُخت حميدة قطب، شقيقة سيد، وكان هذا الطريقُ مأموناً بتوفيق الله..»[1].

ولما أُفرجَ عن سيد قطب في مايو ـ أيار ـ ١٩٦٤ زاره الشيخُ عبدُ الفتاح إسماعيل مهنئاً، ولما سافرَ سيد إلى «رأس البر» في الإسكندرية، طلبَ من الشيخ عبد الفتاح اجتماعَه بقادةِ التنظيم.

قال أَحمد عبد المجيد عن لقائه بهم: «ثم طلبَ من الشيخِ عبد الفتاح مقابلتَنا، وتقابَلْنا معه في صيفِ ١٩٦٤، في رأس البر، واستقبَلَنا استقبالاً طيباً، كأَنه يعرفُنا منذُ سنوات، وتحدَّثَ معنا حديثاً شيقاً بأُسلوبٍ جذابٍ يشدُّ الانتباه، وسمعْنا منه مفاهيمَ جديدة لأَوَّل مرة... وعرضْنا عليه ترشيحَ شقيقِه الأُستاذِ محمد قطب للجلوس معنا والاستفادة منه، ولكنه اعتذرَ لنا اعتذاراً رقيقاً، وقال: إِن محمداً له مجالٌ آخر.. وأيُّ شيء تطلبونَه أَنا تحت أمركم، وفي أَيِّ وقتٍ تَرغبون...

وقد تركت هذه المقابلةُ في نفوسِنا أَثراً كبيراً، فعلى الرغم من أَنه لم يَخرجْ من السجن إِلاّ لأَيامٍ معدودة مضَتْ، إِلاَّ أَنَّ كلَّ انشغالِه واهتمامِه هو هذا الدين!!

---

(١) الإخوان وعبد الناصر لأحمد عبد المجيد، ص ٦٠.

وضربَ لنا موعداً نلتقي به في منزِله بحلوان بعد ذلك.. وتمَّ اللقاء.. وتكررت اللقاءات.. وهو يوجِّهُ فكرَنا منحى آخر، وبطريقةٍ ذكية...

وكانت هذه اللقاءاتُ قاصرةً على ما نسمعُه منه من توجيهاتٍ عامة، أَو ما نعرضُه عليه من استفساراتٍ أو قضايا. وكنا نتلاقى خارجَ هذه الجلسةِ لمناقشة شؤون التنظيم المختلفة.

سيد قطب قائد التنظيم الإخواني الجديد بموافقة المرشد العام:

وبعد عدة لقاءاتٍ اتفقنا على أن نفاتحَه في أَنْ يُشاركَنا في الأَمرِ كلِّه، ويوجِّهَنا توجيهاً كاملاً.. وبعد أَن استمعَ إلى وجهةِ نظرِنا هذه، قال: ليس لديَّ مانع!

ولكن قبلَها لي مطلبان: أُريدُ أَنْ أَعرفَ كيف التقيتُم مع بعضِكم البعض، ولا بدَّ من أَخْذِ إِذن بذلك من الأُستاذِ المرشد.

فشرحْنا له الظروفَ التي مَرَرْنا بها، والمشاكلَ التي واجهَتْنا، ولا زالَتْ تواجهنا.

وأَجبناهُ عن المطلبِ الثاني بأنَّ لدينا إِذناً سابقاً من فضيلةِ المرشد...

وبالنسبة للنقطةِ الثانية أَجاب: إنَّ هذا الإِذنَ خاصٌّ بي شخصياً لا بكم، وأَنا لا أَفعلَ شيئاً بدون مشورته! ولا بدَّ من

استئذانِه أَوَّلاً قبلَ البدءِ معكم، وسوفَ أكتبُ له مذكرةً بما سمعتُ منكم، وأُرسلُها له...

بعد ذلك أَرسلَ للأُستاذِ المرشد المذكرةَ مع الشرحِ والتعليقِ في عدةِ صفحات، كما أَبْلَغَنا.

وبعدها تَمَّ ترتيبُ لقاءٍ في بيتِه بالمنيل، وتناقشَ معه في أَمرِ التنظيم، وسأَله الأُستاذُ المرشدُ عن العدد، فأَجابه بأَنَّهم ما بين ثلاثمائة إلى ثلاثمائة وخمسين شخصاً!

فقال: أَنا لا أَتصوَّرُ أَنه في مصر ثلاثمائة رجل، فما بالك بثلاثمائة رجل مسلم؟ عليك بتربيتِهم والاهتمامِ بهم،ولا داعي لإِضافةِ أَحدٍ جديد حالياً!»[1].

وهكذا تسلَّمَ سيد قطب قيادةَ التنظيمِ الإِخواني الجديد في صيفِ عام ١٩٦٤، وكان معه الإِخوانُ الخمسةُ القادة، وتركَ لهم مهمةَ تصريفِ أُمورِ التنظيمِ العملية، وكانتْ قيادتُه لهم قيادةً فكريةً ثقافيةً توجيهية تربوية.

قالَ سيد عن طبيعةِ قيادتِه لهم: «... إِنني كما تعلمونَ رجلٌ مريض بأَمراضٍ مستعصيةٍ على الطب حتى الآن، وخطيرة، والآجالُ بيدِ الله، ولكنَّ قَدَرَ اللّهِ يتمُّ بأَسبابٍ يوجدُها الله.

لذلك يجبُ أن تَعْتَمِدوا على الله، وتُحاوِلوا أَنْ تكونوا أَنتم

---

(١) المرجع السابق، ص ٦٩ ـ ٧٣ باختصار.

قيادة، ومهمَّتي الحقيقية معكم هي بذلُ كلِّ ما أَملكُ لتوعيتكم، وتكوينكم العقلي، لتكونوا قيادة.

وكانت اجتماعاتي بهم أَحياناً مرةً كلَّ أُسبوع، أَو كلَّ شهر...»[1].

واستمرتْ قيادتُه لهم مدةً تزيدُ على السنة، من شهر حزيران ١٩٦٤ إلى شهر تموز ١٩٦٥.

وركَّزَ لهم على العقيدة، وأَهميةِ البدءِ بها، والتربيةِ عليها، قالَ أَحمد عبد المجيد: «شرحَ الشهيد ـ رحمه الله ـ كيف أَنه بدأَ ينتبهُ إلى ذلك عندما طلبَ من منزلهِ كتب الإِمامِ الشهيد حسن البنا والأُستاذِ أَبي الأَعلى المودودي.

ثم عكفَ بعدَها على دراسةِ الإِسلام، خاصة في كتبِ ابن تيمية وابن القيم والتفاسير، وأَضافَ أَنَّ أَيةَ حركة لا بدَّ أَنْ تبدأَ من العقيدة، حتى مع المسلمين وأَصحابِ الدعوة أَنفسِهم، لأَنَّ العقيدةَ هي الأَساسُ والركيزةُ لأَية دعوة...»[2].

قواعد منهج عمل التنظيم الجديد:

وقد سجلَ سيد قطب منهجَه في الدعوة والحركة، وجعَلَه يقومُ على ستٍّ قواعد:

---

(١) لماذا أعدموني، ص ٤٧.

(٢) الإخوان وعبد الناصر، ص ٧٩.

الأُولى: وجوبُ البدءِ مع الشباب المسلم ـ ومع الناس الآخرين ـ بالعقيدة، وبيانِ معنى الإِيمانِ والإِسلام والعبودية والتحاكمِ إلى الله.

الثانية: تربيةُ الشبابِ المسلم الفاهِم لدينه على الأَساسِ السابق، على الأَخلاقِ الإِسلامية، وتوعيتُهم بما يَجري حولَهم في المعسكراتِ المحلية والخارجية المعادية.

الثالثة: عدمُ البدءِ بتنظيمِ الأَفراد إلاّ بعد وصولِهم إلى درجةٍ عاليةٍ من فهمِ العقيدة، ومن الخلق والسلوك، ومن الوعيِ بكلِّ ما يَجري ويحدث.

الرابعة: نقطةُ البدءِ في الحركةِ الإِسلامية ليستْ في المطالبةِ بإقامةِ النظام الإِسلامي، وإِنما بنقْلِ المجتمعات ـ أو قطاعاتٍ مؤثرةٍ فيها ـ إلى الإِسلام، وفقَ النقاطِ السابقة لتطالبَ هي بتطبيقِ الإِسلام.

الخامسة: لا يكونُ الوصول إلى إقامة النظام الإسلامي عن طريق انقلابٍ في الحكم، يجيءُ من أَعلى، ولكن عن طريقِ تغييرِ تصورات المجتمع ـ أو قطاعاتٍ مؤثرةٍ فيه ـ وقيمِه وأَخلاقِه والتزامِه بالإِسلام، بحيثُ يَعلمُ أَفرادُه أَنَّ تطبيقَ الإِسلام فريضةٌ لا بدَّ منها.

السادسة: في الوقتِ ذاتِه تجبُ حمايةُ الحركةِ الإِسلامية، وهي سائرةٌ في خطواتِها السابقة، بحيثُ إذا اعْتُدِيَ عليها وعلى أَفرادها تَرُدُّ الاعتداء، وما دامَتْ هي لا تريدُ أن تعتدي على

غيرها، ولا تُريدُ أن تَفرِضَ نظامَ اللّهِ بالقوةِ من أَعلى، فيجبُ أن تُتركَ لتؤدِّيَ واجبها، وأَلاّ يُعتدى عليها وعلى أَهلها.

فإذا وقعَ الاعتداءُ عليها، كان الردُّ عليه من جانبها، بضربِ القوةِ المعتدية، بالقدرِ الذي يسمحُ للحركةِ أَنْ تستمرَّ في طريقها...»[1].

وعندما ننظرُ في هذه القواعدِ فسوفَ نرى أَنها قواعدُ منهجيةٌ منضبطة، صادرةٌ عن عميقِ فهمِ سيد قطب للإسلامِ والدعوةِ والحركة والجهاد.. مع تحفُّظِنا على القاعدةِ السادسة، المتعلقةِ بردِّ الاعتداء، لأَنَّنا نراها لا تتفقُ مع روحِ الدعوة والجهاد، ولا معَ حركةِ الأنبياءِ في المواجهة مع قوى الباطل.. ونرى أَنها كانت النافذةَ التي دخل منها الأَعداءُ الراصدون، إلى التنظيم الإِخواني الجديد، وأَدَّتْ إلى «توريط» هذا التنظيم، وجعْلِ هذا وسيلةَ إدانته عند الظالمين في مذبحة عام ١٩٦٥[2].

نشاط سيد قطب خارج التنظيم الإخواني:

هذا عن قيادتهِ للتنظيمِ الإِخوانيِّ الشرعيِّ الجديد من حزيران ١٩٦٤ إلى تموز ١٩٦٥.

---

(١) لماذا أعدموني، ص ٤٢ ـ ٤٥ باختصار.

(٢) انظر نقدنا لهذه القاعدة في كتابنا «سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد»، ص٣٩٧ ـ ٤٠٨.

وقد كان له نشاطٌ خارجَ قيادةِ هذا التنظيم، كأبحاثِه ودراساتِه الإسلامية، التي منها إكمالُ تفسيرِ الظلال، ومقوماتِ التصورِ الإسلامي.

وفتحَ بيتَه للزائرين من داخلِ مصر وخارجها، وعَقَدَ فيه «ندوةَ الجمعةِ الأُسبوعية» يَحضرُ إليه مَنْ يشاء، ويتحدثُ فيهم حديثاً إسلامياً عاماً.

ومن الذين زاروه من داخلِ مصر الحاج حسين صدقي، وزينب الغزالي، والمرشد العام الهضيبي، وزارَ هو حسن الهضيبي في بيتِه عدةَ مرات، كما زارَ الشيخَ «محمد الأُودَنْ» عدةَ مرات.

ومن الذين زاروهُ من خارج مصر: مندوبٌ عن الإخوان المسلمين في العراق، ومندوبٌ عن الإخوان المسلمين في الأُردن، وفي ليبيا، والسودان، وسوريا.

ومنهم السفيرُ العراقي في القاهرة موفداً من الرئيسِ العراقيِّ عبد السلام عارف، وبعضُ العلماء المشاركين في مجمعِ البحوث الإسلامية في القاهرة[١].

وهكذا كان بيتُه في حلوان «مزاراً» للشبابِ الصالحِ داخلَ مصر وخارجَها!!

---

(١) انظر هذه الزيارات في كتابنا السابق، ص ٤١٠ ـ ٤١٢.

(٦)

مع سيد قطب في محنته الثانية

سيد قطب يتوقع محنة عام ١٩٦٥:

كان كل ما في الجوِّ ينذرُ بمحنةٍ جديدة ضدَّ الإِخوانِ المسلمين، ويوحي بأنَّ صيفَ عام ١٩٦٥ سيكونَ صيفاً حاراً جداً.

وكانِ الإِخوانُ المسلمون يتوقَّعون أَحداثاً خطيرة، وينتظرون محنةً رهيبةً قادمة، وكانت لجنةُ القيادةِ الخماسية للتنظيمِ الإِخوانيِّ الجديد تعيشُ تلك الأَيام بترقُّب وحذر.

وكان سيد قطب يتوقَّعُ المحنةَ الخطيرةَ القادمة، وأَنْ ينالَه منها أَكبرُ نصيب، ويعلمُ أَنَّ الحكومةَ تريدُ رأَسَه هذه المرة!!

وفي بدايةِ صيفِ عام ١٩٦٥ زارَ الصحفيُّ محمودُ الركابي سيدَ قطب في منزله، وجرى بينهما حوارٌ عجيب، يدلُّ على فراسةِ سيد الإِيمانية وبُعْدِ نظره.

قال الركابي: قلتُ لسيد: الحمدُ لله على السلامة، ما شاءَ الله! صحتُك جيدة، ولم يبقَ إلاّ «العروسة»!

فضحكَ سيد ثم قال: أَيَةَ عروسة تَقْصد؟

قلت: لكلتَيْهِما خُلِقْنا!

وتحدَّثْنا قليلاً، ثم سأَلَني سيد فجأة: هل لك في تأويلِ الأَحلام؟ لقد رأيتُ البارحة كأنَّ ثعباناً أَحمر يلفُّ نفسَه حولي، ثم يقترب، فاستيقظتُ من ساعتِها ولم أَنَمْ!

قلت: اسمعْ يا سيدي: هذه هديةٌ سيقدمُها لك أَحدُ المؤمنين وهي ملفوفةٌ لفّاتٍ بخيطٍ أَحمر! وإن شئتَ أَحضرْتُها لكَ الآن، فخذْها واستأنف النوم!

قال سيد: ولماذا لا يكونُ تفسيرُها أَنْ أَكونَ أَنا الهديةَ المقدمةَ للمؤمنين؟

قلت: أَليس بقاءُ الصالحين أَنفعَ للدعوة الإِسلامية؟

قال سيد: ليس دائماً، بل ربَّما يكونُ ذهابُهم أَنفعَ! وأَنا الآن لا أتعمَّدُ التهلكة. ولكن يجبُ أن نتعمَّدَ الثبات، مع علمِنا أَنَّ في الثباتِ التهلكة!

قلت: يا رجل لا تتشاءَمْ هكذا، فالقومُ يَسيرون نحو الاعتدال!

قال سيد: ستعلم!

وحصلَ ما توقَّعه سيد قطب[1].

---

(١) الشهيد سيد قطب، ص ٦٤ ـ ٦٥. نقلاً عن ملحق جريدة النهار البيروتية، الأحد ١٩٦٦/٩/١٨.

وفي أَواخرِ شهر مايو ـ أَيار ـ ١٩٦٥ أَوقفَ سيد لقاءاتِه التنظيمية مع لجنةِ القيادة الخماسية، واستأجَرَ «عِشَّة» في مصيفِ رأس البر في الإِسكندرية ليقضي فترةً من الصيف على شاطىء البحر، وليعيشَ فترةً من النقاهة بسببِ الأَمراض التي أَلَمَّتْ به.

وسافرَ مع عائلتِه في العاشر من يونيو ـ حزيران ـ لهذه الغاية.

وفي شهر يوليو زاره في «رأس البر» كلٌّ من علي عشماوي وعبد الفتاح إسماعيل.

بداية محنة عام ١٩٦٥ واعتقال سيد قطب:

وبدأت المحنة في ٢٩/ ٧/ ١٩٦٥ باعتقالِ محمد قطب في القاهرة. ولما علمَ سيد باعتقالِ شقيقه بعثَ برسالةِ احتجاجٍ إِلى المخابراتِ العامة، حَمَلَها ابنُ أُخته «رفعت بكر شافع».

وقارنَ سيد قطب في رسالةِ الاحتجاجِ بين اعتقالِ المخابراتِ لمحمد قطب، وبين اعتقالِ الحكومة البريطانية للفيلسوف «برتراند رسل» لأَنه خالفَ سياستَها، حيث كانَ أَهلُه يعرفون مكانَه، بينما أَهلُ محمد قطب لا يعرفون مكانَه، وهو مفكرٌ مثلُ «رسل»[١].

---

(١) الموتى يتكلمون، ص ١٢٠ ـ ١٢١.

ولم يكن محمد قطب عضواً في التنظيمِ الإِخواني الجديد، والبدءُ باعتقالِ محمدِ قطب دليلٌ على أنَّ الحكومةَ لم تعرف التنظيمَ السريَّ الإِخوانيَّ حتى هذا التاريخ.

وفتشت المباحث بيتَ سيد في حلوان، ومكانَ إِقامته في المصيف تفتيشاً دقيقاً، فبعثَ سيد رسالةَ احتجاجٍ إِلى المخابرات على طريقة التفتيش، وكان احتجاجهُ بتاريخ ٢/ ٨/ ١٩٦٥.

وفي ٤/ ٨/ ١٩٦٥ بعثَ سيد تعليماتِه الأَخيرةَ للجنةِ القيادة الخماسية عن طريقِ شقيقتِه حميدة وزينب الغزالي، بإِيقافه خطةِ استيرادِ الأَسلحة من الخارج، وإِلغاءِ تفكيرهم في رَدِّ الاعتداء.

وفي ٦/ ٨/ ١٩٦٥ سافرَ سيد إِلى رأس البر مرةً ثانية.

وفي ٩/ ٨/ ١٩٦٥ داهمت المباحثُ مكانَ إِقامتِه في رأس البر قبلَ الفجر،وألقت القبضَ عليه، وساقَتْه إِلى السجنِ الحربي. وبقيَ في التحقيقِ والتعذيب والمحاكمة إِلى أَنْ تَمَّ إِعدامُه بعد سنةٍ من هذا التاريخ!

وحتى يوم اعتقال سيد في ٩/ ٨/ ١٩٦٥ لم تَكتشف الحكومةُ شيئاً عن التنظيم الإِخوانيِّ الجديد،وكانتْ كلُّ اعتقالاتِها للإِخوان المسلمين الذين سبق اعتقالهم عام ١٩٥٤.

كيف تم اكتشاف التنظيم الإخواني؟:

وكانت بداية اعتقال أولِ أخٍ في التنظيمِ الجديد قَدَراً، بدونِ تخطيط ولا تدبير من الأَجهزةِ الأَمنية!

فقد كانت الأَجهزُ الأمنية مشغولةً بقضية «حسين توفيق» وجماعتِه، واعتقلَتْ شخصاً من جماعةِ حسين توفيق، هو المهندس سامي عبد القادر، ولما عَذَّبوا سامي عبد القادر تعذيباً رهيباً اتهمَ أَحَدَ الإِخوان المسلمين القدامى بأَنه خطط معه لاستعمالِ قنابل يدوية، وهذا الأَخُ هو «يوسف القرش» من قرية «سنفا» في محافظةِ الدقهلية.

ولما ذهبت الأَجهزةُ الأَمنية لاعتقالِ الأَخ القرش لم يجدوه في بيته، وعلموا أَنه عند الأَخ «حبيب عثمان» في القاهرة.

والأَخُ حبيب عثمان عضوٌ في أُسرةٍ إِخوانية في التنظيمِ الإِخواني الجديد.

واعتقلوا الأَخَ حبيب عثمان، وعَذَّبوه تعذيباً رهيباً، فاعترفَ على أَعضاءِ أُسرتِه، واعتُقل أَفرادُ الأُسرة، ومنهم الأَخ «محمود فخري».

واعترفَ الأَخُ محمود فخري على الأَخِ «مرسي مصطفى مرسي» صاحبِ الشقة السرية في أمبابة، واعتُقل الأَخ مرسي، وجعلت المباحثُ شُقَّتَه فخاً لاصطيادِ الإِخوان.

وفي ليلة الجمعة ٢٠/٨/ ٦٥ ذهبَ ثلاثةٌ من قادةِ التنظيمِ إلى شقةِ الأَخ مرسي، وهم: علي عشماوي وعبد الفتاح إسماعيل ومبارك عبد العظيم، ولما طرقوا بابَ الشقة، وجدوا رجالَ المباحثِ بانتظارهم، فاعتقلوهم، وساقوهم إلى السجنِ الحربي.

وفي صباح يومِ الجمعة ٢٠/٨/ ١٩٦٥ حدثَتْ مفاجأتان في السجن الحربي:

الأُولى: سقوطُ أَولِ شهيدٍ من شهداءِ الإِخوان من شدةِ التعذيب، وهو الشهيد «محمد عواد» الذي أَشرفَ شمسُ بدران على تعذيبِه شخصياً، وحطَّمَ الجلادُ المجرمُ صفوت الروبي رأسَه على جدار غرفةِ التحقيق، أمام شمس بدران فلقيَ اللّهَ شهيداً في تلك الليلة.

اعترافات مفصلة مذهلة من اللغز علي عشماوي:

الثانية: اعتراف عضوِ لجنةِ القيادة الخماسية المهندس علي عشماوي على كافةِ رجال التنظيم.

وشتانَ بين الموقفين: موقفِ الشاعرِ الشهيد محمد عواد، وموقفِ المهندسِ المتخاذلِ علي عشماوي[1].

(١) انظر قصة اكتشاف التنظيم في: مذابح الإخوان لجابر رزق، ص ٣١ ـ ٣٩، والإخوان وعبد الناصر، ص ١٠٣ ـ ١٠٨.

وعلي عشماوي: رجلٌ غامضٌ عليه علاماتُ استفهامٍ كثيرة، منذ بدايةِ تكوينِ التنظيم الجديد عام ١٩٥٧، ويُشَكِّكُ فيه كثيرٌ من الإِخوان، ويعتبرونَه من رجالِ المخابرات، وأَنَّ المخابرات هي التي تمكنَتْ من «زرعه» داخلَ قيادةِ التنظيمِ الإِخواني الجديد!![١].

كتب علي عشماوي صبيحة ليلةِ اعتقاله تقريراً كاملاً عن التنظيم الإِخواني مكوَّناً من ثماني صفحات، وقالَ فيه كلَّ شيء[٢].

وكما قالَ عنه الأَخ جابر رزق: «وكان علي عشماوي هو أَهَمُّ شخص، ويَعرفُ خبايا التنظيمِ على مستوى الجمهورية.. وكان عشماوي ذا ذاكرةٍ حديدية، حيث قال أَكثر مما يستطيعُ شخصٌ آخر أَنْ يقولَه.. وكانت تلكَ الليلةُ عيداً لضباطِ الشرطةِ العسكرية..»[٣].

وقامت المباحثُ العسكريةُ باعتقالِ الإِخوانِ المسلمين ومعارفِهم وأَصدقائِهم وعائلاتهم، رجالاً ونساءً وشباباً، وامتلأَ السجنُ الحربي بالآلاف من الإِخوان وأَصدقائِهم.

---

(١) انظر الأسئلة الحائرة حول علي عشماوي في كتابنا: «سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد»، ص ٤٠٨ ـ ٤١٠.

(٢) انظر تقرير علي عشماوي في «الموتى يتكلمون لسامي جوهر، ص ٥٠ ـ ٥٩.

(٣) مذابح الإخوان في سجون ناصر لجابر رزق، ص ٣٦ ـ ٣٧.

ووقعت المجازرُ الرهيبةُ داخل «البوابة السوداء» للسجنِ الحربي!!

وبعدَ عشرةِ أيامٍ من اعتقالِ الإخوان أعلنَ جمال عبد الناصر من موسكو عاصمةِ الإلحاد ـ في ١٩٦٥/٨/٢٩ ـ عن مؤامرةٍ دبَّرَها الإخوانُ المسلمون لقلبِ نظام الحكم، وتخريبِ مؤسساته.

وبدأت الصحفُ المصريةُ تتحدثُ عن الأَحداثِ بعد شهرٍ من اعتقال سيد قطب، وذلك في ١٩٦٥/٩/٧.

وبعدَ اعتقالِ سيد قطب مباشرة كتب تقريراً مختصراً ومجملاً وموجزاً عن التنظيم الإخواني، تحمَّلَ فيه كلَّ شيء عن التنظيمِ ليحميَ إخوانَه.

ولما علمَ أنَّ علي عشماوي اعترفَ بكلِّ شيء، وأنَّ الإخوانَ أَعضاءَ التنظيمِ اضطروا للاعترافِ بكلِّ شيء، كتبَ تقريراً آخر مطولاً مفصلاً، في ١٩٦٥/١٠/٢٢.

اعتراف سيد قطب وكتيب «لماذا أعدموني؟»:

وهو التقريرُ الذي وصلَ إلى ناشري مجلة «المسلمون» في لندن، حيث نَشَروه على حلقاتٍ في المجلة. ثم أَصدروهُ في كُتَيِّبٍ صغير، جَعلوا عنوانه «لماذا أَعدموني؟».

وتقريرُ سيد قطب الذي كتبه بخطِّ يدِه ما زال محفوظاً لدى محكمةِ أَمنِ الدولة بمصر، في ملفِّ القضيةِ رقم ١٢ لسنة ١٩٦٥ أَمْن دولة عليا، وملفّ القضية رقم ٤٨٤ مصر لسنة ١٩٦٥.

ومقدمةُ التقريرِ وخاتمتُه مهمتان، تُقَدِّمان أَضواءَ كاشفة عن شخصيةِ سيد قطب وجرأتِه وإِيمانِه وإِخلاصِه!!

قال في المقدمة: «لقد كتبتُ بياناً مجملاً قبلَ هذا، تنقصُه تفصيلاتٌ كثيرة، كما تنقصُه وقائع وبياناتٌ كثيرة.

ولقد أُسيءَ فهمُ موقفي، وتقديرُ دوافعي في كتابةِ ذلك البيان، على ذلك النحو. وأَرجو أَنْ يكونَ في هذا التقريرِ الجديد المفصَّلِ ما يفي بالمطلوب، وما يجعلُ موقفي مفهوماً على حقيقته.

واللّهُ يعلمُ أَنني لم أكنْ حريصاً على نفسي، ولا قصدتُ تخليصَ شخصي بذلك الإِجمال!

ولكنني ـ ويجبُ أَنْ أَعترفَ بذلك ـ كنتُ أُحاولُ أَوَّلاً وقبلَ كلِّ شيء، حمايةَ مجموعةٍ من الشباب الذي عملَ معي في هذه الحركة، بقدْرِ ما أَملك، لاعتقادي أنَّ هذا الشبابَ مِن خيرةِ مَنْ تحملُ الأَرضُ، في هذا الجيلِ كلِّه، وأَنه ذخيرةٌ للإِسلام وللإِنسانية، حرامٌ أَنْ تُبدد وتُهدر!!

وأَنني مطالَبٌ ـ أَمامَ الله ـ أَنْ أَبذلَ ما أَملكُ لنجاتِهم، وأَنَّ ذلك البيانَ المجمل، الذي لا يَحتوي كلَّ التفاصيلِ الدقيقة، هو كلُّ ما

أَملكُه في الظرفِ الحاضر للتخفيفِ عنهم، وقد يَشمُلُني هذا التخفيف ضمناً، ولكنَّ اللّهَ يعلمُ أنَّ شخصي لم يكن في حسابي!!

وقد احتملْتُ المسؤوليةَ كاملة، منذُ أَولِ كلمة، وقلت:

إنَّه آنَ أَنْ يُقَدِّمَ إنسانٌ مسلمٌ رأْسَه، ثمناً لإعلانِ وجودِ حركةٍ إسلامية، وتنظيمٍ غير مصرَّحٍ به، قامَ أَصلاً على أَساسِ أَنه قاعدةٌ لإقامةِ النظام الإسلامي، أياً كانت الوسائلُ التي سيستخدمُها لذلك!

وهذا في عرفِ القوانينِ الأَرضية جريمةٌ تستحقُّ الإعدام!!

ويجبُ أَنْ أُبيِّنَ في هذه المقدمةِ القصيرة، أَنَّ تقديمي ذلك البيانَ الأَوَّلَ المجملَ بهذا القصد، هو واجبي كمسلم، فالأَسيرُ المسلمُ لا ينبغي له أَنْ يدلَّ على ما وراءه من جندِ الإسلام، ولا يكشفُ مقاتلَ وعوراتِ المسلمين ما أَمكنه!

وقد كنتُ أُؤَدّي واجبي بمفهومي الإسلامي، متعامِلاً فيه مع الله بغضِّ النظر عن القوانينِ والهيئات البشرية!

ولكنِّي الآن وقد بَيَّنْتُ أَنَّ هذا الشبابَ قد قررَ كلَّ تفاصيلِ أَدوارِه الخاصةِ والعامة، وأَنني أَنا لا أَدُلُّ عليهم بشيء، فقد ارتفعَ الحرجُ عن صدري، في ذكْرِ كلِّ التفاصيل، مع محاولةِ ترتيبِها زمنياً بقدرِ الإمكان...»[1].

---

(١) لماذا أعدموني، ص ٧ ـ ٨.

خاتمة كلام سيد في اعترافه وتوصياته:

أَمّا خاتمةُ التقرير فقالَ سيد قطب فيها:

١ ـ «إِنَّ العنفَ الذي عوملَ به الإِخوان سنة ١٩٥٤ وحدهم، بناءً على حادث المنشية المدبَّرِ لهم، حيثُ تضمَّنَ ذلك العنفُ القتلَ والتشريدَ وتخريبَ البيوت.. هذا العنفُ هو الذي أَنشأَ فكرةَ الرَّدِّ على الاعتداء، إِذا تكررَ بالقوة.. ولو كنّا نعلمُ أَنَّ الاعتقالَ مجردُ اعتقالٍ ينتهي بمحاكمةٍ عادلة، وعقوباتٍ قانونية ـ حتى على أَساسِ القوانينِ الوضعيةِ المعمولِ بها ـ لما فكَّرَ أَحَدٌ في رَدِّ «الاعتداء بالقوة».

وأَنا أَعرفُ أَنه ليستْ هناك قيمةٌ عمليةٌ الآنَ لتقريرِ هذه الحقيقة، ولكنها حقيقةٌ يَجبُ أَنْ أُسَجِّلَها في كلماتي الأَخيرة!!

٢ ـ إِنه مما لا شكَّ فيه أَنَّ تدميرَ حركةِ الإِخوان المسلمين ـ والحركاتِ الإِسلامية المماثلة ـ في المنطقة، هدفٌ صهيونيٌّ وصليبيٌّ استعماري، وهو وسيلةٌ من وسائل تدميرِ العقائد والأَخلاقِ في المنطقة. وأَنهُ تُبذلُ جهودٌ ومؤامرتٌ مستمرة، لتحقيقِ هذا الهدف!

وأَنه لو استُخدم في معاملةِ حركةِ الإِخوان أُسلوبٌ آخر، غيرُ ما حدث ـ سواءٌ في سنة ١٩٥٤ أو في هذه المرة ـ لأَمكنَ تدميرُ المخططاتِ الصهيونيةِ والصليبيةِ الاستعمارية في المنطقة، بدلاً من تدمير الحركة الإِسلامية.

٣ ـ إنه أَعقبَ ضربَ الإِخوانِ في سنة ١٩٥٤ موجةٌ من الانحلالِ الأَخلاقي والاتجاهُ الإِلحادي. وستعقبُ ضربَهم الآن موجةٌ أَشدّ، لا يعلمُ إلاّ اللّهُ مداها. فلحسابِ مَنْ هذا الانهيار؟ إنه قطعاً ليس لحسابِ هذا البلد، ولا حتى لحسابِ النظام القائم.

ومهما كانت الآذانُ الآنَ غيرَ مستعدةٍ لسماع هذا الكلام، فإنَّ من واجبي إِبلاغَه، وتبرئةُ ذمَّتي بقولِه!!

٤ ـ لقد سمعتُ عدةَ مرات: وهل أَنتم وحدَكم المسلمون؟ أَوَلا يكفيكُم المؤتمرُ الإسلامي، وبرنامجَ «نور على نور»، والمساجدُ تُقامُ فيها الصلاة والناسُ يَذهبون إلى الحج؟

ويجبُ أَنْ أُقرِّرَ أَنَّ الإِسلام شيءٌ أَكبرُ من هذا كلِّه.. إِنه نظامُ حياةٍ كاملة، وإِنه لا يقومُ إلا بتربيةٍ وتكوينٍ للشباب، وإِلاّ بتحكيمِ شريعةِ الله..

وإِنَّ حركة الإِخوان المسلمين كانت هي أَنجحَ تجربةٍ للتربيةِ والإعداد، وإِنَّ أَيَّ خطأ في الطريقِ لا يبررُ تدميرَها، وخصوصاً إذا كان الخطأُ منها، ناتجاً عن خطأ في معاملتِها!!

ولقد أَردتُ في سنةِ ١٩٥٢ القيامَ بتجربةٍ مثلِها، في هيئةِ شبابِ التحرير، وكان الاتجاهُ معي في أَولِ الأمر، ولكن في النهاية تغلَّبَ توجيهُ جمعيةِ الفلاح الأَمريكية، وأَشتاتِ المنتفعين، الذين أَرادو هيئةَ التحرير بالصورةِ المهلهلة التي وُجدتْ بها، والتي تخالِفُ كلَّ ما كنّا اتفقْنا عليه بشأنها.

وبقيتْ حركةُ الإِخوان، هي وحدها القائمةَ بهذا الواجب!

إِنَّ الإِسلام لا يقومُ ولا يوجَدُ في بلدٍ ليس فيه حركةٌ تربية، ثم قيامُ نظامٍ إِسلامي، يَحكمُ بشريعةِ الله في النهاية!

هذه في النهايةِ كلماتُ رجل، يَستقبلُ وجْهَ اللّهِ، يُخَلِّصُ بها ضميرَه، ويُبَلِّغُ بها دعوتَه إلى آخر لحظة!

والسلامُ على من اتبع الهدى!

السجن الحربي في ٢٢/ ١٠/ ١٩٦٥[١].

رئيس نيابة أمن الدولة يحقق مع سيد قطب:

وكان رئيسُ نيابة أمنِ الدولة في تلك الفترة هو «صلاح نصار»، ونقلَ مكتبه من محكمةِ أَمن الدولة إلى السجن الحربي، ليحققَ مع قياداتِ الإِخوان المسلمين، رغمَ مخالفةِ ذلك لقوانينِ الإِجراءات الجنائية.

وكانَ سيد قطب حبيسَ زنزانةٍ انفرادية في السجن الحربي، مُنِعَ من الخروجِ منها منذُ اعتقاله في ٩/ ٨/ ١٩٦٥.

وبدأَ صلاح نصّار تحقيقَه مع قائدِ التنظيم الإِخواني سيد قطب مساءَ يومِ الأَحد ١٩/ ١٢/ ١٩٦٥، بعد أَربعةِ أَشهرٍ من اعتقالِه.

وقد استمرَّ التحقيقُ مع سيد ثلاثةَ أَيامٍ متتابعات.

---

(١) لماذا أعدموني، ص ٩١ ـ ٩٤.

الأَحد ١٩/ ١٢/ ١٩٦٥: من الساعةِ السادسة والنصف مساء، إلى الساعة العاشرة والنصف.

الاثنين: ٢٠/ ١٢: من الساعةِ الثالثة مساء، إلى الحاديةِ عشرة مساءً.

الثلاثاء: ٢١/ ١٢: من الساعةِ الواحدة مساءً[١]...

وكان سيد قطب في التحقيقِ صريحاً، صادِقاً، جريئاً، شجاعاً، يُجيبُ على أَسئلةِ صلاح نصار بمنتهى الصدقِ والصراحة والجرأة والشجاعة، بدون خوفٍ أَو جبن أو تهرب[٢]..

وبعدَ انتهاءِ التحقيقِ مع سيد قطب أُعيدَ إلى الزنزانة بانتظارِ محاكمته.

وفي فترة الانتظارِ قام المجرمون بتعذيبِ الشابِّ المؤمنِ ابنِ أُختِ سيد، وهو «رفعت بكر شافع» أَمامَ خاله، واستُشهدَ الشابُّ تحتَ التعذيبِ أَمامَ أَنظار خاله، الذي كان يحبُّه محبةً عظيمة[٣]!!

---

(١) انظر محضر التحقيق في الأيام الثلاثة في «الموتى يتكلمون»، ص ١١٢ ـ ١٤٦.

(٢) انظر تلخيصنا لمحضر التحقيق في كتابنا عن سيد قطب، ص ٤٣٠ ـ ٤٣٩.

(٣) انظر رواية مصطفى غالب لاستشهاد رفعت بكر في كتابنا عن سيد قطب، ص ٤٤١ ـ ٤٤٢.

تعذيب سيد قطب رغم سوء حالته الصحية:

وبسبب الحالةِ الصحيةِ لسيد وإِصابتِه بالذبحةِ الصدرية، فقد أَوصى طبيبُ السجنِ الحربي «الدكتور ماجد حمادة» أَنْ يتركوا سيد يمشي مشياً عند استدعائِه لمكاتبِ التحقيق..

ولما استُدعيَ للتحقيق خالفَ الجلاّدون نصيحةَ الطبيب، وأَمروا بإِحضارِ سيد «بالخطوةِ السريعة»!! ودَفَع الحراس سيد أَمامهم.. وأَخذوا يضربونَه بالسياطِ والكرابيج ليسرع، فجاءَتْه أَزمةٌ قلبية، وسقطَ أَمامَهم على الأَرض... واستُدعيَ الطبيبُ ليعالجه، واستنكرَ ذلك خشيةَ أَنْ يموتَ قبلَ المحاكمة!!

وبسببِ خطورةِ سيد الصحية لم يَجعلوا على زنزانتِه باباً حديدياً، وإِنما وضعوا عليها بطانية، ليأتيه الهواء، ويتمكَّنَ من التنفس. ولكن هذا جَرَّ عليه العذاب، فلما مَرّت السجينة «زينب الغزالي» من أَمام الزنزانة، حَرَّكَ الهواءُ طرفَ البطانيةِ، فظنَّ الجلاّدون أَنَّ سيد حَرَّكَها ليكَلّم زينب الغزالي، فانهالوا عليهِ بالسياط[١]!!!.

(١) انظر «مذابح الإخوان في سجون ناصر» لجابر رزق، ص ١١٤ ـ ١١٧.

(٧)

مع سيد قطب في محاكمته

محاكمة سيد قطب أمام الدجوي:

انتهى التحقيقُ مع سيد قطب يومَ الثلاثاء ٢١/ ١٢/ ١٩٦٥، وشُكلت المحاكمُ العسكرية لمحاكمتِه هو وإِخوانِه، قُضاتُها من ضباطِ الجيشِ الظالمين. واختصَّت المحكمةِ العسكريةُ الأُولى بمحاكمة قادةِ التنظيم الإِخواني. وكانت المحكمةِ برئاسةِ الفريق الأَول «فؤاد الدجوي».

وفؤادُ الدجوي ظالمٌ غاشم، وسُفيهٌ بذيء، وجاهلٌ فارغ، لكنه متكبرٌ منتفش. وهو أَمامَ الأَعداء جبان، فقد كانَ في قطاع غزة أَثناءَ العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦، وأَخذه اليهودُ أَسيراً، وتكلمَ من إِذاعتهم، وشتمَ مصر وعبدَ الناصر!

وهذا الجبانُ كان بطلاً شجاعاً في محاكمةِ سيد قطب وإِخوانِه! كما كان سَفيها بذيئاً في نقاشِه مع المحامين، وحديثِه مع الإخوان المتهمين، والصفاتِ التي يُطلقُها عليهم!

وبدأَتْ محاكمةُ الإِخوان المتهمين في القضيةِ الأُولى يومَ السبت ٩/٤/١٩٦٦. وأَلقى كلمةَ الادعاء «صلاح نصار» رئيسُ نيابةِ أَمن الدولة. وعَينت الحكومةُ المحامي «أَحمد مختار قطب» للدفاعِ عن سيد قطب. وقد يظنُّ بعضُهم أَنَّ المحامي من أَقاربِ سيد قطب، وليس الأَمْرُ كذلك، وإِنما هو عميلٌ قديمٌ من عملاء المخابرات!

وكان صلاح نصار ومَنْ مَعه يُلقبون سيد قطب بألقابِ السخرية والاستهزاء، مثل «القطبُ الأَغَرّ» و«القطبُ اللامع» و«زعيمُ الإجرام»[1].

أَما سيد قطب فقد كانَ شجاعاً جريئاً في المحكمة، عملاقاً عزيزاً، والقضاةُ حولَه كانوا أَقزاماً تافهين! وكان رئيسُ المحكمة الدجوي يخشى سيد قطب، ويحذَرُ أن تلتقيَ عينُه بعينه!

يروي الأَخُ ممدوح الديري ـ الذي كانَ مع سيد قطب في قفصِ الاتهام ـ: «كان هناك كثيرٌ من النظرات المتبادلة بين الشهيد سيد قطب وبين الدجوي قاضي المحكمة، وكانتْ نظراتُ الشهيدِ سيد قطب تُثيرُ غيظَ الدجوي، وتنرفزه، وكانَ أَيُّ تصرفٍ يَحدثُ في المحاكمة من الدجوي يكفي للردِّ عليه نظرةٌ من الشهيد سيد!!

---

(١) انظر بعض ما قاله نصار والدجوي عن سيد في كتابنا «سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد»، ص ٤٤٤ ـ ٤٤٦.

ولما بدأَتْ محاكمةُ سيد قطب وإِخوانِه كان المراقبون يعلمون ما في هذه المحاكمات من تَجاوزات وانحرافات!

وتطوَّعَ محامون عرب للقدومِ إلى مصر، والدفاع عن سيد قطب وإِخوانه، وكانوا من السودان والأُردن والمغرب وغيرها، ولكن الحكومةَ المصريةَ منعَتْهم من القدوم!

وحاولتْ منظمةُ العفوِ الدولية إِرسالَ أَحدِ أَعضائِها المحامين لحضورِ المحاكمات بصفةِ مراقب، لكنَّ الحكومةَ المصريةَ لم توافقْ على ذلك!

وأَذاعتْ منظمةُ العفوِ الدولية بياناً للصحف والرأي العام بتاريخ ١٥/ ٤/ ١٩٦٦ أَدانَتْ فيه المحاكماتِ المصرية، وسجلَتْ عليها ثمانيةَ أَخطاءٍ أَساسية، وأَنَّ المحاكمَ العسكريةَ مطلقة الصلاحيات، ولذلك ليستْ مؤهَّلَة لمحاكمة المدنيين[١]!

وبعدما ألقى صلاح نصار الادعاء الذي فيه اتهامات سيد قطب، بدأت محاكمته يوم الثلاثاء ١٢/ ٤/ ١٩٦٦.

وكان الدجوي في محاكمته لسيد قطب وكلامه معه في غاية السوء والسفه والطيش والبذاءة، ولكن سيد كان معه في غاية الوضوح والحزم والهيبة والشجاعة! والاطلاع على كلام الدجوي

---

(١) انظر بيان منظمة العفو الدولية في كتابنا «سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد»، ص ٤٤٨ ـ ٤٤٩.

السفيه الساخر العابث، وكلام سيد قطب الجازم الحازم الجريء يُري الإنسانَ الفرق الكبير بين الشخصية الجاهلية الفارغة المتكبرة العابثة، وبين الشخصية الإسلامية الواثقة الجريئة المتوكلة على ربها، والمستعلية بإيمانها(١)!

واستمر الدجوي يناقش المتهمين من الإخوان حوالي شهر، وفي ١٨/ ٥/ ١٩٦٦ أعلن عن حجز القضية للحكم. ووافق ذلك سفر رئيس الوزراء السوفياتي وقتها «الكسي كوسيجين» من القاهرة.

سيد قطب ينتظر الحكم عليه بالإعدام:

ومضتْ أربعةُ أشهرٍ بعد المحاكمة، والمتهمون ينتظرونَ الحكمَ عليهم.

وكان سيد قطب يعلمُ أَنهم سيحكمونَ عليه بالإِعدام!

روى الأُستاذُ إِبراهيم المصري قائلاً: «وهنا لا بدَّ من كشفِ النقاب عن حديثٍ استكتَمَه سيد ـ رحمه الله ورضي عنه ـ أَحَدَ إِخوانه، قبلَ اعتقالِه بأَسابيع.. كان الحديثُ يدورُ حولَ اليهودية العالمية، وخطرِها على العالم أَجمع، والمسلمينَ بخاصة.

---

(١) انظر بعض ما جرى في المحكمة في المرجع السابق، ص ٤٥٠ ـ ٤٦١. نقلاً عن الموتى يتكلمون، ص ١٦٠ ـ ١٨٢.

يقول سيد: لقد وقفْتُ على مدى تغلغلِ الأَصابعِ اليهودية وخطرِها، بعدَ بحثٍ وطولِ عناء، واليهودُ إِذا علموا أَنني أُحيطُ بذلك فلا بدَّ أَنْ أُقتل!»[1].

وقابلَ الأَخُ أَحمد رائف سيد قطب، بعد محاكمتِه وقبلَ الحكمِ عليه، وروى ما جرى بينهما: «في مرةٍ من المرات، أَخذوني مع بعضِ الزملاء، لنُحضرَ الطعامَ من المطبخ، وفي الطريق سنحتْ فرصةٌ للتحدثِ مع سيد قطب..

قلتُ له ـ فيما قلت ـ: ماذا تنتظرُ؟

فقالَ لي الرجلُ بابتسامةٍ واثقة، نابعةٍ من صدرٍ هادىءٍ مطمئن: أَنتظرُ الوُفودَ على ربي!!!

هذا كلُّ ما كان ينتظرُه، أَمّا ما قالَه في المحكمة، فكان يريدُ به ذكْرَ شيءٍ للتاريخ!!»[2].

كان ينتظرُ القُدومَ على ربِّه لأَنه يشعرُ بأنه أَدّى الواجبَ الذي عليه، وصدقَ ما عاهدَ اللّهَ عليه، وبَلَّغ دعوتَه، وهو فرحٌ سعيدٌ راضٍ.

وقد نُقِلَ عنه قولُه لأَحدِ إِخوانه: «لقد عرفْتُ أَنَّ الحكومة تُريدُ رأْسي هذه المرة، ولستُ نادماً لذلك، ولا متأَسِّفاً لوفاتي.

---

(١) مجلة الشهاب اللبنانية، السنة الخامسة، العدد الحادي عشر، أيلول ١٩٧١، ص٣.

(٢) البوابة السوداء لأحمد رائف، ص ٢٢٣.

وأَنا سعيدٌ للموت في سبيلِ الله، وسيقررُ المؤرخون في المستقبل مَن كان على حق: الإِخوان أَم نظامُ الحكم؟!».

وصَرَّحَ بهذا في تقريره الذي قدَّمه للمحكمة: «إِنه آنَ أَنْ يُقَدِّمُ إِنسانٌ مسلمٌ رأْسَه، ثمناً لإعلان وجود حركةٍ إِسلامية!»[1].

كمال الدين حسين ينتصر لسيد قطب:

وقد أثارت المحاكماتُ الظالمةُ لسيد قطب وإِخوانِه بعضَ الرجالِ في مصر، في حين لاذَ كثيرون بالصمت، إيثار للسلامة.

ومن الرجالِ الذين انْتَصروا لسيد «كمال الدين حسين» ـ وكان عضواً في مجلسِ قيادةِ الثورة، ووزيراً سابقاً للتربية والتعليم، ونائباً سابقاً لرئيس الجمهورية، لكنه استقالَ من وظائِفه العليا، لما أَمعنَ عبدُ الناصرِ في الظلم والعدوان ـ.

بعثَ كمالُ الدين حسين رسالةً لعبدِ الناصر، وصورةً عنها لعبد الحكيم عامر ـ نائب رئيس الجمهورية والمسؤولِ عن جهازِ المباحث الجنائية العسكرية، التي تقومُ بالتعذيب.

قال كمال الدين حسين في رسالته:

«بسم الله الرحمن الرحيم

السيدُ جمال عبد الناصر ـ رئيس الجمهورية.

السلامُ عليكم ورحمةُ الله وبركاته.. وبعد..

---

(١) لماذا أعدموني، ص ٧.

لا خَيْر فِيَّ إذا لم أَقُلْها لك: اتَّقِ الله.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥].

اتَّقِ الله...

قالَها اللّهُ سبحانه وتعالى لنبيِّه الكريم ﷺ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ..﴾ [الأحزاب: ١].

اتَّقِ الله.. ولا تكنْ ممن قالَ اللّهُ فيهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٦].

اتَّقِ الله.. أَمَرَ اللّهُ بها الرسولَ والمؤمنين.. وأَمر بها الرسولُ أَصحابَه المؤمنين.. وقالَها الخلفاءُ والأئمةُ لبعضِهم ولولاتهم وللمسلمين.. وقالَها المسلمون للخلفاءِ والأئمة والولاة.. ولبعضهم بعضاً...

اتَّقِ الله.. قالَتْها تلكَ الأمةُ التي أَعَزَّها اللّهُ بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ..﴾ [آل عمران: ١١٠].

وسلامي على من اتبع الهدى..»[1].

---

(١) الموتى يتكلمون لسامي جوهر، ص ١٩٦ ـ ١٩٧.

ووصلت الرسالةُ لعبد الناصر، ولم يَتَّقِ الله، وإنما أَخذتْهُ العزةِ بالإثم، فاعْتَقَلَ صديقَه السابقَ كمالَ الدين حسين، كما اعتقلَ أَقاربَه وأَفرادَ أسرته، وسارعَ بإعدامِ سيد قطب..

رسالتان إيمانيتان من سيد قطب لعطار:

وفي الفترةِ التي كان سيد قطب ينتظرُ فيها تطبيق حكمِ الإعدام به، كان يعيشُ حالةً إيمانيةً عالية، وكان في غايةِ السعادةِ والطمأنينة، واليقين والرضا، والإقبالِ على الله، رغمَ قسوةِ الحياة، المادية التي تُحيطُ به، حيث جَوُّ السجنِ الحربي الرهيب.

وتجلّى هذا في رسالتيْن إيمانيتيْن عظيمتيْن بعثَهما من سجنه ـ مُهَرَّبتين ـ إلى صديقه السعودي في مكة، الأُستاذ أَحمد عبد الغفور عطار.

قال الأُستاذُ «عطار» عن كيفية وصولِ رسالتيْ سيد قطب إليه: «بلغَ الأَمْرُ إلى أَنَّ تأثيرَ سيد قطب امتدَّ إلى حُرّاسه الأَشدّاء في محاكمتِه الأَخيرة.

فتلقيتُ منه رسالتيْن في شهرِ صفر ١٣٨٦هـ ـ يونيو ١٩٦٦، وصَلَتا إِلَيَّ بواسطةِ ضابطٍ في مخابرات عبد الناصر، على صلةٍ بأولئكَ الحراس!.».

وقد نَشَرَ «عَطّارُ» نصَّ الرسالتين (بالزنكوغراف) بخطِّ سيد قطب، في العددِ الثانيِ من مجلةِ كلمةِ الحق، التي أَصدرها في مكة.

ومما جاءَ في الرسالةِ الأولى قولُ سيد قطب:

«بسم الله الرحمن الرحيم

أَخي أَحمد:

سلامُ اللّهِ عليك ورحمتُه وبركاتُه، وبعد:

فقد أَنستُ برسالتك بعد هذا المدى الطويل...

أَما أَنا: فأجدُني خيراً مِن أَيِّ وقتٍ مضى. في عقيدتي وإِيماني، وفي وُضوحِ هذه العقيدة وهذا الإِيمان في نفسي.. وفي وضوحِ إِدراكي وتصوُّري لهذا الأَمرِ ومقتضياتِه.. ووضُوحِ الهدفِ والوسيلةِ والطريقِ والغاية..

وكلُّ هذا خيرٌ جزيلٌ جميل، يرجحُ كلَّ ما أَديتُه ثمناً له، من راحتي وصحتي.. والحمدُ لله..».

والرسالةُ الثانيةُ أَعجبُ وأَعظمُ من الرسالةِ الأُولى:

«بسم الله الرحمن الرحيم

أَخي أحمد:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

.. أَهَمُّ من أَشكرَك ـ فيما أَعتقد ـ أَنْ أَطمئِنَك عَلَيّ، وأَنا في وضعي الذي تعلَمُه..

لقد وجدتُ الله، كما لم أَجدْه مِن قبلُ قط.. ولقد عرفْتُ منهجَه وطريقَه، كما لم أَعرفْه من قبلُ قط.. ولقد اطمأننتُ إلى رعايته، ووثقْتُ بوعدِه للمؤمنين، كما لم أطمئنّ من قبلُ قط!!

وأَنا بعد ذلك ـ على ما عهدْتَني ـ مرفوعُ الرأس، لا أَحنيِه إلاّ لله.. واللّهُ يفعلُ ما يشاء، واللّهُ غالبٌ على أَمره، ولكنَّ أَكثرَ الناسِ لا يعملون..»[1].

ونُؤْثِرُ أن نتركَ الرسالتيْن للقارىء، تُقَدِّمان له الكثيرَ من الدلالات والإِيحاءاتِ والعبر والعظات، وتُتَرجمان عن الحالةِ الإِيمانيةِ العظيمة، التي كان يعيشُها سيد قطب، قبيلَ تنفيذ حكم الإِعدام فيه!!

صدور الأحكام على سيد قطب وإخوانه:

وبعد أربعةِ أشهرٍ من محاكمةِ سيد قطب وإِخوانه، وفي يومِ الأَحد ٢١/٨/١٩٦٦ أَصدرَ الفريق أَول محمد فؤاد الدجوي الأَحكامَ، في قضيةِ التنظيمِ الإِخواني، على المتهمين الثلاثة والأربعين.

---

(١) مجلة كلمة الحق، السنة الأولى، العدد الثاني، مايو ١٩٦٧، ص ٤.

وكانت الأَحكامُ قاسيةً جائزةً عنيفة، وهي التي أَوحى له بها عبدُ الناصر، الذي تلقّاها بدوره أَوامرَ من أَعداءِ الإسلام من الصليبيين واليهودِ والملحدين!

حُكِمَ على سبعةٍ منهم بالإِعدام، وعلى خمسةٍ وعشرين بالمؤبد، وعلى أَحَدَ عشر بالسجن من خمس عشرة إلى عشر سنوات! ولم يُبَرَّىءْ أَحداً منهم!

السبعةُ الذين حُكِمَ عليهم بالاعدام هم قادةُ التنظيم الإخواني: سيد قطب، ومحمد يوسف هواش، وعبد الفتاح إسماعيل، وأحمد عبد المجيد، وصبري عرفة، ومجدي عبد العزيز، وعلي عشماوي.

أَمّا أَحمد وصبري ومجدي فقد خُفِّفَ الحكمُ فيهم من الإِعدام إلى المؤبَّد، ونُفِّذَ الحكمُ في سيد وهواش وعبد الفتاح.. بينما أُخرجَ عن الشخصيةِ الغريبة المشبوهة علي عشماوي، بعدَ فترةٍ قصيرة من الحكم عليه، وتَمَّ تسفيرُه إلى أَمريكا ليعملَ فيها[1].

وقد عادَ علي عشماوي أَخيراً من أمريكا إلى مصر، حيث كتبَ مذكَّراتِه عن أَحداثِ تلك الفترة، وهي مذكَّراتٌ مملوءة

---

(١) الموتى يتكلمون لسامي جوهر، ص ١٩٤ ـ ١٩٥.

بالتحريفِ والدسِّ والاتهام. بينما أَصدرَ الأَخُ أَحمد عبد المجيد مذكَّراته عن تلك الفترة بأمانةٍ ونزاهةٍ وصدقٍ وحياد!!

سيد قطب يفسر معنى «شهيد»:

وأَخبرَ الأَخُ أَحمد عبد المجيد خبرَ تلقّي سيد قطب الحكمَ بالإِعدام، وكان هو ضمنَ السبعةِ المحكومِ عليهم بالإِعدام، فيقول: «وعند ركوبِ السبعةِ السيارةَ كان بادياً على الجميع الشكر والرضا، خاصة الأُستاذ سيد قطب، الذي كانت السعادةُ باديةً على كلِّ تقاسيمِ وجهه، باستثناءِ علي عشماوي، الذي كان ملحوظاً عليه الانهيارُ والاضطرابُ الشديدان!

ولما جلسَ الجميعُ في السيارة، سأَل أَحَدُ الضباط أَحَدَنا عن الحكم؟ فأَجابه بأَنه الإِعدام!

فقالَ له الشهيد سيد: لا تَقُلْ لهم إِعدام. بل قل شهادةً في سبيل الله! دَعْهُم يَسمعونَ ما يَكرهون!!

وسارتِ السيارةُ بنا طريقَ صلاح سالم، فقالَ الشهيد سيد قطب معتبراً: صلاح سالم! أينَ هو صلاح سالم الآن؟ وأَين فاروق؟ إِنَّ هؤلاء الناسِ لا يعتبرون!!

ثم سكتَ سيد قطب برهة، قال بعدها: الحمدُ لله ـ قالَها بملءِ فيه ـ الحمدُ لله.. شهادةً في سبيل الله.. إِن اللّهَ سبحانه وتعالى أَرادَ أَنْ يعطينا الجزاء، ولكنَّ الجزاءَ أَكبرَ بكثيرٍ مما

نستحقّ.. شهادةً في سبيل الله! غداً نلقى الأَحبة، محمداً ﷺ وصحْبَه! وقالَ رسول الله ﷺ عن الشهداء: «أَرواحُهم في جوفِ طير خُضْرٍ، لها قناديلُ معلقةٌ بالعرش، تسرحُ في الجنة حيث شاءت، ثم تأْوي إلى تلك القناديل!»[1].

وأُعجبَ أَحدُ الضباط بفرحِ سيد قطب وسعادتِه عند سماعه نبأَ الحكمِ عليه بالإعدام ـ الشهادة ـ وتعجَّبَ لأَنه لم يحزنْ ويكتئبْ ويَنهرْ ويُحبطْ. فسأَلَه قائلاً: أَنتَ تعتقدُ أَنك ستكون شهيداً، فما معنى شهيدٍ عندك؟

أَجابه سيد قطب قائلاً: الشهيدُ هو الذي يُقَدِّمُ شهادةً من روحه ودمه، أَنَّ دينَ الله أَغلى عنده من حياته، ولذلك يبذلُ روحَه وحياتَه فداءاً لدينِ الله!![2].

(١) الإخوان وعبد الناصر لأحمد عبد المجيد، ص ١٩٣ ـ ١٩٤.

(٢) مذابح الإخوان، ص ١١٨.

(٨)

مع سيد قطب في استشهاده

سيد قطب يستعلي على المساومات:

بعد الحكمِ على سيد قطب بالإِعدام، وقبلَ تنفيذِ الحكم، سُووِمَ عدةَ مساومات ليتخلّى عن دعوته، ويسترحمَ الطاغوت، مقابلَ الإِفراجِ عنه، والإِنعامِ عليه بالدنيا، ليأخذَ ما شاءَ من المناصبِ والمراكزِ والأَموالِ والوظائف.

واستخدمَ مديرُ السجن الحربي «حمزة البسيوني» شقيقةَ سيد «حميدة» التي كانت محكومةً مع زينب الغزالي.

قالَتْ حميدة: «استدعاني حمزةُ البسيوني ـ مديرُ السجنِ الحربي ـ إلى مكتبه وأَراني حكمَ الإِعدام، والتصديقَ عليه.

ثم قال لي: إِنَّ الحكومةَ مستعدةٌ أَنْ تُخففَ هذا الحكمَ إِذا كان شقيقي يُجيبُهم إلى ما يطلبون. وإِنَّ شقيقك خسارةٌ لمصرَ كُلِّها، وليس لك وحدَك، وإِننا نريدُ أَنْ ننقذَهُ من الإِعدام بأيِّ شكل، وبأي وسيلة.

إنَّ بضعَ كلماتٍ يقولُها ستخلصُه من حكمِ الإعدام، ولا أَحدَ يستطيعُ أنْ يؤثِّرَ عليه إلاّ أَنت! أَنا مكلَّفٌ أَنْ أُبلغَه هذا، ولكن لا أحدَ أَفضلُ منكِ في تبليغه هذا الأَمر. بضعُ كلمات يقولُها، وينتهي كلُّ شيء.

نريدُ أَنْ يقول: إنَّ هذه الحركةَ كانت على صلةٍ بجهةٍ ما، وبعدَ ذلك تنتهي القضيةُ بالنسبةِ لك، أَما هو فيُفرجُ عنه بعفوٍ صحي.

قلت له: ولكنكَ تعلم - كما يعلمُ عبد الناصر - أنَّ هذه الحركةَ ليستْ على صلةٍ بأَيِّ جهةٍ من الجهات!

قال حمزة البسيوني: أَنا عارف. وكلُّنا عارفون أَنكم الجهةُ الوحيدةُ في مصر التي تعملُ من أَجل العقيدة، إنكم أَحسنُ ناسٍ في البلد، ولكننا نريدُ أَنْ نُخلِّصَ سيد قطب من الإعدام!

ونظرَ إلى صفوت الروبي، وقال: خُذْها يا صفوت إلى أَخيها.

وذهبْتُ إلى شقيقي، وسلَّمْتُ عليه، وبلَّغْتُه ما يريدون!

فنظرَ إِليَّ، ليرى أَثَرَ ذلك على وجهي، وكأَنه يقول لي: أأنتِ تطلبينَ ذلك أم هم؟ واستطعْتُ أَنْ أُفهمه بالإشارِة أَنهم هم!

فنظرَ إِليَّ وقال: واللّهِ لو كان هذا الكلام صحيحاً لقلْتُه، ولما استطاعَتْ قوةٌ على وجْهِ الأَرض أن تمنعَني مِن قولِه! ولكنه لم يَحدث! وأَنا لا أَقول كذباً أبداً؟!

فقال له صفوت الروبي: «يعني ده رأْيُك»؟

أجاب سيد: نعم!

فترَكَنا صفوت.. وأَفهمتُ أخي الحكاية مِن أَوَّلِها. فسألني: وأَنتِ ترضينَ بذلك؟

قلت: لا.

قال: إِنهم لا يستطيعون لأَنفسهم ضرراً ولا نفعاً، وإِنَّ الأَعمارَ بيدِ الله، وهم لا يستطيعونَ التحكم في حياتي، ولا يستطيعونَ إِطالة الأَعمارِ، ولا تقصيرَها، كلُّ ذلك بيدِ الله.. واللّهُ من ورائهم محيط..

وكان هذا هو اللقاءَ الأَخيرَ بين حميدة وأخيها سيد[1].

ورُويت لسيد قطب عباراتٌ بليغة في رفضِه المساوماتِ والضغوطَ والإغراءات:

عندما طُلبَ منه الاعتذارُ مقابلَ إِطلاقِ سراحه قال: لن أَعتذرَ عن العملِ مع الله!

وعندما طُلبَ منه كتابةُ كلماتٍ يَسترحمُ عبدَ الناصر، رفضَ ذلك بعزةٍ وقال: إِنَّ أصبعَ السّبّابة الذي يشهدُ لله بالوحدانية في الصلاة، ليرفضُ أن يكتبَ حرفاً يُقِرُّ به حكمَ طاغية!

---

(١) أيام من حياتي لزينب الغزالي، ص ١٨٣ ـ ١٨٤.

وقالَ رداً على ذلك الطلب: لماذا أَسترحم؟ إِنْ سجنتُ بحق فأَنا أَقْبَلُ حكمَ الحق، وإِنْ سجنْتُ بباطل فأَنا أكبرُ من أَنْ أَسترحمَ الباطل!![1].

وقد أَثارَ الحكمُ على سيد قطب وأَخَوَيهِ بالإعدام الكثيرَ من المظاهراتِ والاحتجاجات في بلاد عربية وإسلامية.

عبد الناصر يرفض وساطة الملك فيصل لعدم إعدام سيد قطب:

واتصلَ أناس من الإخوان المسلمين ببعضِ المسؤولين في البلادِ العربية ليتوسطوا لدى عبد الناصر لتخفيفِ حكمِ الإعدام.

وكان ممن توسَّطَ لدى عبد الناصر الملك فيصل بن عبد العزيز. وروى قصةَ وساطتِه الأُستاذُ أَحمد رائف نقلاً عن وزيرٍ من وزراءِ عبد الناصر كان مطّلعاً عليها.

كان ذلك الوزيرُ يجلسُ مع عبد الناصرِ للحديث في بعضِ الأُمورِ الاقتصادية، وكان يحضرُ الجلسةَ أَنور السادات وحسين الشافعي.

ودخلَ سامي شرف، وفي يدِه ورقة، وحاولَ أَنْ يهمسَ في أُذنِ عبد الناصر، ولكنَّ الأَخيرَ رفعَ صوتَه محتدّاً: «إيه؟.. في إيه؟».

---

(١) لماذا أعدم سيد قطب وإخوانه، ص ٢.

وتمتمَ سامي شرف: «يا افندم، هذه برقيةٌ من الملك فيصل، يلحُّ في الرجاءِ في عدم إعدامِ سيد قطب!».

وبدا الغيظُ والضيقُ على وجْهِ عبد الناصر. وقال: «أَنا مش عارف، أَولاد... دول مهتَمّين ليه بسيد زفت ده؟»!

ووقفَ سامي شرف مرتبكاً. وصرخَ فيه عبد الناصر: انصراف!

وأَسرعَ سامي في الانصراف، ولكنَّ عبدَ الناصر استوقَفَه. وفكَّر عبدُ الناصر قليلاً وقَدَّرَ، فقُتل كيف قَدر، ثم قُتل كيفَ قَدّر، ثم أدبر واستكبر.

وقال: «اعدموه في الفجر بُكرة! واعرضْ عليَّ البرقية بتاعةِ سي فيصل بعدَ الإِعدام! ثم أَرْسِلْ برقيةَ اعتذارٍ له.. و«ينكتب» في الأهرام: «تَمَّ الإعدام». في سطرين!!

والتفت إلى «الفردتين» ـ نائبيه ـ وقال ضاحكاً ممازحاً: «مشْ كده، وإِلا إيه»؟

وشاركاه في الضحك، وانصرفَ سامي شرف. وأُعدمَ سيد قطب مع الفجر!!

روى الحاج صالح أُوزجان لأحمد رائف أَثَرَ خبرِ تنفيذِ حكم الإعدام في سيد قطب على الملكِ فيصل، وكان في زيارةٍ له.

قال: دخلتُ على الملك فيصل رحمه الله، عندما أُعدمَ سيد قطب، ولم أَكُنْ قد عرفتُ بالخبر بعد. ووجدتُه حزيناً دامعَ العينين.

وتعجبت، ودُهشت، وسألْتُه عن ما به. فقال لي: عَظَّمَ اللّهُ أَجْرَكَ في الشهيد سيد قطب، فقد لقيَ ربَّه اليوم!

فقلت: إِنّا لله وإِنّا إِليه راجعون!

وقال الملك فيصل: أَرسلْتُ إلى عبد الناصر، وتوسَّلْتُ إليه أَنْ يطلقَه حياً، ويطلبَ فيه ما شاء، ولكنها إِرادةُ الله، ولكلِّ أجلٍ كتاب..»[1].

عبد المتعال الجبري يروي عن ليلة الإعدام:

وقد روى الأُستاذُ عبد المتعال الجبري بعضَ ما جرى ليلة إعدام سيد: «إِنَّ مَنْ يزيدُ سنُّه عن ستين سنة، يخفَّفَ عنه حكمُ الإِعدام إلى المؤبَّد.. لكن المسألةَ ليستْ مسألةَ قوانين!

.. كنّا نائمين في السجنِ في ليلةٍ من الليالي، واستجابةً لغريزةِ حبِّ الاستطلاع، كان بعضُ إِخواننا ينظرون من ثقوبِ الزنازين.. فرأوا بعضَ السّجّانين مدجَّجين بالسلاح، وقد أَحضروا الشهيدين «محمد يوسف هواش وعبد الفتاح إسماعيل» من السجنِ الصغير، الذي كانا معزولَيْن فيه، بعدَ النطقِ بالحكمِ

(١) سراديب الشيطان لأحمد رائف، ص ١٤٩ ـ ١٥٢.

عليهما، ليأخذا ملابسَهما من زنزانتيْهما اللتين كانا بها في السجنِ الحربي..

وفوجئْنا بتنفيذِ الإعدامِ بدونِ الإجراءاتِ المعتادة، وحتى بدونِ حبالٍ جديدة، وبدونِ أيِّ شيء من الإجراءات التقليدية.

فمثلاً من لوائحِ السجون قانونٌ يقضي بوزْنِ المحكومِ عليه بالإعدام، وقياسِ نبْضِه وضغْطِه، وإخطارِ أَهله، وإتاحةِ الفرصةِ له، لكتابةِ وصيته، وتحقيقِ شهواتِه في الدنيا.

كلُّ هذه الإجراءات لم تتم! لأنَّ المسألةَ مسألةُ عصابة، تريدُ أنْ تتخلَّصَ من رجال!(١).

الصحفي سامي جوهر يروي تفاصيل الإعدام:

وقد روى الصحفيُّ سامي جوهر في كتابه «الموتى يتكلمون» ما شاهدَه من أَحداثِ الليلة التي أُعدمَ فيها سيد قطب: «... تلقّى رؤساءُ التحرير في جميعِ الصحفِ مكالمةً تلفونيةً من مكتبِ سامي شرف ـ سكرتير الرئيسِ عبد الناصر للمعلومات.. وأَملى سامي شرف عليهم خبراً لنشْرِه في الصفحةِ الأُولى بالصحف التي تَصدرُ صباحَ الاثنين ٢٩/٨ ـ أي اليوم التالي ـ وبدونِ عناوينَ بارزة، وعلى عمودٍ واحد..

---

(١) لماذا اغتيل الشهيد حسن البنا لعبد المتعال الجبري، ص ١٠٩ ـ ١١٠.

وكان نصُّ الخبر: تمَّ صباحَ اليومِ تنفيذُ حكمِ الإعدام في كلٍّ من: سيد قطب، وعبد الفتاح إسماعيل، ومحمود يوسف هواش.. قادةِ التنظيمِ الإرهابي للإخوان المسلمين! وقد أَصدرَ الرئيسُ جمال عبد الناصر قراراً بتخفيفِ عقوبةِ الإعدامِ بالنسبةِ للأَربعة الآخرين، مراعاةً لصغر سنهم، واستبدالِها بالأَشغالِ الشاقَّة المؤبَّدة!

وكان إملاءُ الخبرِ على الصحف في منتصفِ الليل.. ولم تستطعْ جريدةُ «الأَخبار» أنْ تنشرَه في طبعتِها الأُولى، وكذلك جريدةُ «الجمهورية».. ولكنَّ «الأَهرامَ» تمكنتْ من نشره!

ومن المعلومِ أَنَّ الصحفَ تكونُ في أَيدي غالبيةِ القراء ابتداءً من الخامسةِ صباحاً.. ومعنى نشر الخبر هوَ أَنَّ الإعدامَ تمَّ فعلاً قبلَ الخامسةِ صباحاً.

وأَجريْتُ في الليلِ اتصالاتٍ لأَعرفَ موعدَ تنفيذِ الحكم لأَحضرَه، فدائماً يُسمحُ بحضورِ الصحفيّين والمصوّرين تنفيذَ أَحكامِ الإعدام!

ولم يكنْ لدى أَجهزةِ الأَمنِ أيُّ فكرةٍ عن الموعد.. باستثناء «شرطة النجدة».. فقد تلقَّتْ تكليفاً بأن تتوجَّهَ سيارتا نجدة في الساعةِ الواحدةِ والنصفِ بعد منتصف الليل إلى مبنى فِرَقِ الأَمن بمنطقةِ «الدَّرَّاسَة» لمهمةٍ سرية..

وتوجَّهْتُ إلى منزل «عشماوي» الذي سينفذُ حكْمَ الإِعدام، ومنازلِ مساعديه.. وكانت الإِجابةُ التي واجهتْني في كلٍّ من المنازلِ الثلاثة، أنَّ سيارةً حضرتْ عند منتصفِ الليلِ تماماً، واصطحبتْه في مهمَّة!!

وأَيقنتُ أنَّ الإِعدامَ سيتمُّ تنفيذُه قبلَ الصباح.. في الفجر.. رغمَ أنَّ العادةَ جَرَتْ أَنْ يتمَّ الإِعدامُ في الثامنةِ صباحاً!!

وتوجَّهْتُ إلى مبنى سجنِ «الاستئناف» في «باب الخَلْق»، حيث تتمُّ دائماً عملياتُ الإِعدام..

وفوجئْتُ بفرقةٍ من الصاعقةِ تُحيطُ بمبنى السجن، والأَنوارُ الكاشفةُ مسلَّطةً عليه، بينما كان ميدانُ «باب الخَلْق» في الظلام!

وطرقْتُ بابَ السجن.. وكان معي الزميلُ المصور «عبده خليل» وفَتَحَ حارسُ البوابة» الكُوَّةَ الضيقة، وطلبْتُ منه إِبلاغَ ممثلِ النيابة رغبتي في حضورِ التنفيذ!

وتركَ الحارسُ «الكُوَّةَ» الضيقةَ مفتوحة.. ومن خلالها رأيتُ مجموعةً من جنودِ الصاعقة مصطفّين في الفناء، يَحملون الرشاشات! وعادَ الحارسُ بعد دقائق، وأَغلقَ «الكُوَّةَ» ولم يُجبني على طلبي.. وسادَ صمتٌ رهيب!!

وفي تمامِ الساعةِ الرابعةِ والثلث صباحاً.. فُتِحَ بابُ السجن.. وخرجَتْ سيارةٌ سوداء، مخصصةٌ لنقل الموتى إلى المشرحة،

واندفعَتْ في طريقِ المقابر «بالإمامِ الشافعي» يتبعُها ويسبقُها مجموعةٌ من سياراتِ اللاسلكي، وراكبي الموتوسيكلات..

وقبلَ أَنْ يُغلقَ الباب، خرجَ شابٌّ طويلُ القامة. وسألَ عني.. وتقدمْتُ إِليه.. وقال بكلِّ رقة: «حضرتك كنت عايز تحضر الإعدام؟ يا خسارة.. لم يُبلغوني برغبتِك إلاّ الآن فقط.. خلاص.. كلُّ حاجة تَمَّتْ.. والعربيةُ أَخذت الجثث لدفنهم!

سألتُه: إلى أَين؟

أَجابَ بنفس الهدوء: في المقابرِ طبعاً!

وأَحسسْتُ أنه لا يريدُ أَنْ يُفصحَ عن شيءٍ آخر!..».

وهكذا.. قبلَ طلوعِ فجرِ يوم الاثنين ١٣ جماى الأولى ١٣٨٦هـ الموافق ١٩٦٦/٨/٢٩ تقدَّمَ سيد قطب وأَخواه عبد الفتاح إسماعيل ومحمد يوسف هواش إلى حبل المشنقة، بخطا وئيدةٍ ثابتة!

وتنفَّسَ الصبحُ على منظرِ الأَبطال الثلاثة، وقد علقتْ أَجسادُهم بحبلِ المشنقة، بينما حلَّقَتْ أَرواحُهم في سماء العلياء.. ونزلتْ ملائكةُ السماء، لاصطحابِ هذه الأَرواح الطاهرة، في رحلتِها إلى عالمِ الخلود.. واصطفَّ المؤمنون والشهداءُ لتحيةِ هذا الموكب الكريم.. وتزينت الحورُ العينُ لاستقبال أَزواجِها.. وأُزلفت الجنةُ للوافدين الجُدد!!

وأُسدلَ الستار على آخرِ صفحةٍ من حياةِ الرائدِ الشهيدِ سيد قطب في هذه الدنيا الفانية، ليبدأَ عندَ الله حياتَه الحقيقة في جنات الخلود ـ إنْ شاءَ الله!!

سيد قطب الشهيد الحي:

وبهذه الخاتمةِ السعيدةِ لحياةِ الشهيد سيد قطب نعرفُ فضْلَ اللّهِ عليه، حيثُ مَنَّ عليه بالشهادةِ ـ إن شاء الله ـ.

إنَّ الناسَ يعيشون ويموتون، لكن الشهداءَ يَعيشون ويعيشون! وإِنَّ الناس يعيشونَ ليموتوا، ولكنَّ الشهداءَ يموتون ليعيشوا!!

وسيد قطب ماتَ شهيداً، ليعيشَ حياةَ الشهداء إِنْ شاءَ الله! وبهذا الاعتبارِ يصحُّ أنْ نقولَ عنه: هو الشهيدُ الحيّ.

هو شهيدٌ حيٌّ بالمعنى الكبيرِ للشهادةِ والحياة.

ولْنقرأْ ما كتبَهُ بقلمِه في تفسيرِ قوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ..﴾ [آل عمران: ١٤٠].

«وهو تعبيرٌ عجيبٌ عن معنى عميق. إنَّ الشهداءَ لمختارون.. يَختارهم اللّهُ من بين المجاهدين، ويتخذهُم لنفسه ـ سبحانه ـ.

فما هي رزيةٌ إِذن ولا خسارة، أَنْ يَستشهدَ في سبيل الله مَنْ يَستشهد.. إِنما هو اختيارٌ وانتقاء وتكريمٌ واختصاص.. إنَّ هؤلاء

الذين اختصَّهم اللّهِ ورزقَهم الشهادة، ليستخلصَهم لنفسِه - سبحانه - ويخصَّهم بقربه..

ثم هم شهداءُ يتخذُهم الله، ويستشهدُهم على هذا الحقِّ الذي بعثَ به للناس، يستشهدُهم فيؤدّون الشهادة، يؤدّونها أَداءً لا شبهةَ فيه، ولا مطعنَ عليه، ولا جدالَ حوله. يؤدونَها بجهادِهم حتى الموتِ في سبيل الله، لإِحقاقِ هذا الحق، وتقريرِه في دنيا الناس»[1].

أَمّا حياةُ الشهداءِ عند ربهم، التي أَخبرَنا اللّهُ عنها في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ..﴾ [البقرة: ١٥٤].

فيقولُ عنها الشهيدُ الحي: «إنَّ هناك قتلى سيخرّون شهداءَ في معركةِ الحق. شهداءَ في سبيلِ الله. قتلى أَعزاءَ أَحباء.. قتلى كراماً أَزكياء..

هؤلاء الذين يُقتلون في سبيلِ الله ليسوا أمواتاً، إِنهم أحياء.. فلا يجوزُ أَن يُقالَ عنهم: أَموات! لا يَجوزُ أَنْ يُعتبروا أَمواتاً في الحسِّ ولا في الشعور، ولا أَنْ يُقالَ عنهم أَمواتٌ بالشفةِ واللسان، إِنهم أَحياءٌ بشهادةِ اللّهِ سبحانه. فهم لا بدَّ أَحياء..

إِنهم قُتِلوا في ظاهرِ الأمر، وحسبما تَرى العين..

---

(١) في ظلال القرآن، ١: ٤٨١.

ولكنَّ حقيقةَ الموت وحقيقةَ الحياة، لا تقرِّرُهما هذه النظرةُ السطحيةُ الظاهرة..

إن سمةَ الحياة هي: الفاعليةُ والنموُّ والامتداد، وإنَّ سمةَ الموتِ الأُولى هي: السلبية والخمودُ والانقطاع.

وهؤلاء الذي يُقْتَلون في سبيل الله، فاعليتُهم في نصرةِ الحق الذي قُتلوا من أَجله فاعليةٌ مؤثرة، والفكرةُ التي قُتِلوا مِن أَجلها تَرتوي بدمائهم وتمتدّ، وتأَثُّرُ الباقين وراءَهم باستشهادِهم يقوى ويَمتدّ.. فَهم ما يزالون عنصراً فعّالاً دافعاً مؤثراً، في تكييفِ الحياة وتوجيهِها.

وهذه هي صفةُ الحياةِ الأُولى.. فهم أَحياء بهذا الاعتبارِ الواقعيِّ في حياةِ الناس..»[1].

هذا عن حياةِ الشهيدِ المعنويةِ عند الناس. أَمَّا عن حياةِ الشهيدِ عندَ الله في الجنة ـ ونرجو أنْ يكونَ سيد قطب يحياها الآن ـ فنعتمدُ فيها على حديثٍ صحيحٍ لرسول الله ﷺ.

روى مسلمٌ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال عن الشهداء: «أَرواحُهُم في جوفِ طيرٍ خضْر. لها قناديلُ معلَّقَةٌ بالعرش، تسرحُ من الجنةِ حيثُ شاءت، ثم تَأْوي إلى تلك القناديل.

---

(١) في ظلال القرآن، ١: ١٤٣.

فاطّلعَ عليهم ربُّهم اطلاعة، فقال: هل تشتهون شيئاً؟ فقالوا: أيَّ شيء نشتهي؟ ونحنُ نسرحُ في الجنةِ حيثُ شئْنا! فَفَعَلَ ذلك بهم ثلاثَ مرات!

فلما رأوا أَنهم لن يُتركوا مِنْ أنْ يَسأَلوا، قالوا: يا رب: نريدُ أنْ تَرُدَّ أَرواحَنا في أَجسادِنا، حتى نُقتلَ في سبيلِك مرةً أُخرى!

فلما رأى أن ليس لهم حاجةٌ، تُركوا..»[1].

باستشهاده عاشت أفكاره:

وباستشهادِ سيد قطب عاشتْ أَفكارُه، لأَنه غَذّاها بدمِه، فصارتْ قويةً حية، نافعةً مؤثرة.

قالَ رحمه الله عن «قوة الكلمة» وحياتِها وحيويتها: «إِنه ليست كلُّ كلمة تَبلغُ إلى قلوبِ الآخرين، فتحركُها وتجمعُها وتدفعُها.. إِنها الكلماتُ التي تقطرُ دماء، لأَنها تقتاتُ قلبَ إِنسانٍ حي!

كلُّ كلمةٍ عاشت قد اقتاتَتْ قلبَ إِنسان!

إِنَّ أَصحابَ الأَقلامِ يستطيعون أَنْ يَصنعوا شيئاً كثيراً، ولكن بشرطٍ واحد.. أَن يموتوا هم لتعيشَ أَفكارُهم! أَنْ يُطعموا أَفكارَهم من لحومِهم ودمائِم.. أَنْ يقولوا ما يعتقدون أَنه حق، ويقدِّموا دماءَهم فداءً لكلمةِ الحق!

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ١٨٨٧.

إِنَّ أَفكارَنا وكلماتِنا تظلُّ جثثاً هامدة، حتى إِذا متْنا في سبيلِها وغَذَّيْناها بدمائنا انتفضتْ حية، وعاشتْ بين الأَحياء»[1].

في رثاء الشهيد سيد قطب:

ومن أبلغِ وأروعِ ما قيلَ في رثاءِ الشهيد سيد قطب رحمه الله قولُ الشاعر جمال فوزي رحمه الله:

بـــاعَ الـــحَـــيـــاةَ رخـــيـــصـــةً
لِـــلّـــهِ يَـــرْجـــو أَجْـــرَهـــا
حَـــتّـــى طَـــوَتْـــهُ سُـــجـــونُـــهُـــمْ
دَهْـــراً وَفـــي ظُـــلُـــمـــاتِـــهـــا
كَـــمْ ســـاوَمُـــوه لِـــكَـــيْ يَـــحـــيـــدَ
عَـــنِ الـــعُـــهُـــودِ بـــأَسْـــرِهـــا
وَلِـــكَـــيْ يَـــخـــونَ كَـــتـــائِـــبـاً
بـــاعُـــوا الـــنُّـــفـــوسَ لِـــرَبِّـــهـــا
وَلِـــكَـــي يُـــشَـــوِّهَ مـــا أَضـــاءَ
الـــكَـــوْنُ مِـــنْ صَـــفَـــحـــاتِـــهـــا
وَلِـــكَـــيْ يَـــكـــونَ صَـــنِـــيـــعَـــةَ
الـــشَّـــيْـــطـــانِ بَـــيْـــنَ صُـــفـــوفِـــهـــا
وَأَبـــى الـــكَـــريـــمُ مَـــباهِـــجَ
الـــدُّنْـــيـــا وَطَـــلَّـــقَ أَمْـــرَهـــا

---

(١) دراسات إسلامية، ص ١٣٩.

وَرأىٰ السُّجونَ مَعاقِلَ

الأَحْرارِ رَغْمَ قُيودِها

وَأَصَرَّ أَنْ يُعلي نِداءَ

الحَقِّ في جَنَباتِها

فَقَضى السِّنينَ العَشْرَ

عِمْلاقاً كَشُمِّ جِبالِها

وَطَوَتْهُ جُدْرانُ السُّجونِ

لِكَيْ يَرى أَهْوالَها

كَمْ مَزَّقَتْهُ سِياطُهُمْ

وَتَلَقَّفَتْهُ كِلابُها

حَتّى ارْتَقَتْهُ شَهادَةً

لِيَكونَ مِنْ أَبْرارِها

وَهُناك يَلْقَى رَبَّهُ

ويُطِلُّ مِنْ عَلْيائِها[1]

والأَروعُ منه قولُ شاعرٍ آخرَ عن الشهيد:

يا شهيداً رَفَع اللّهُ بِهِ

جَبْهَةَ الحَقِّ عَلى طول المَدىٰ

سَوْفَ تَبْقى في الحَنايا عَلَماً

حادِياً لِلرَّكْبِ رَمْزاً لِلْفِدىٰ

---

(١) ديوان «الصبر والثبات» لجمال فوزي، ص ٣٤ ـ ٣٦.

مـا نَـسـيـنـا أَنْـتَ قَـدْ عَـلَّـمْـتَـنـا
بَـسْـمَـةَ الـمُـؤْمِـنِ فـي وَجْـهِ الـرَّدىٰ
غـالَـكَ الـحِـقْـدُ بِـلَـيْـلٍ حـالِـكٍ
كُـنْـتَ فـيـهِ الـبَـدْرَ يَـهـدي لِـلْـهُـدىٰ
نَـسِـيَ الـفُـجّـارُ فـي نَـشْـوَتِـهِـمْ
أَنَّ نـورَ الـحَـقِّ لا لَـنْ يُـخْـمَـدا

(٩)

مع سيد قطب في شخصيته وطبيعته

صورة سيد قطب الشخصية:

نقدم فيما يلي ملامح شخصيةِ سيد قطب البدنيةِ والعقليةِ والنفسية، لنتعرَّف على هذهِ الشخصية التي قَدَّمَتْ ما قدمَتْ في الأدبِ والنقد، وفي الفكرِ والعلم، وفي الدعوةِ والجهاد.

كان سيد قطب معتدلَ الطول، لا هو بالقصيرِ ولا بالطويلِ، وكانَ أسمرَ اللون، ولا نَنسى أَنه «صَعيدي» من منطقةِ أَسيوط. ولم يكن سَميناً، كما أَنه لم يكنْ نحيفاً، وإِنما كانَ معتدلَ الجسم.

وهذه الصفاتُ البدنيةُ منحهُ الله إِياها، ولا دخلَ له بها!

والذين لم يسبقْ لهم أَنْ شاهَدوا سيد قطب، وقرأُوا مقالاتِه النقدية، وتابَعوا معاركه الأَدبيةَ الحامية، وتعرَّفوا على أُسلوبِه القويِّ في الكتابة، قد يَرسمونَ له صورةً خاصة، يتخيَّلونَه فيها ضخمَ الجثة، عريضَ ما بين المنكبين، مفتولَ العضلات، فارعَ الطول.

والذين شاهَدوه فوجئوا بالمقارنةِ بين صورتِه المتخيَّلَة

عندهم، وصورته الواقعيةِ التي خلقَهُ اللّهُ عليها!

من هؤلاء الأُستاذ علي الطنطاوي. فقد اشتبكَ مع سيد قطب في معركةٍ أَدبيةٍ حاميةٍ عاليةٍ مدوية على صفحاتِ مجلةِ الرسالة، في الثلاثينيات، حيث كان يدافعُ عن مصطفى الرافعي، وكان سيد قطب يهاجمُ الرافعي وتلاميذَه، ويُثني على العقاد.

ولما ذهبَ علي الطنطاوي إلى القاهرة، وقابلَ سيد قطب، في مكتبِ رئيسِ تحريرِ الرسالة أَحمد حسن الزيات، فوجىء به مفاجأةً كبيرة.

وقالَ عن مفاجأته ودهشتِه: «... وأُقسمُ أَني شدهت، وكنتُ أَرتقبُ أَنْ يكون هذا الشابُّ أَيَّ إِنسانٍ إِلاّ سيد قطب، وكنتُ أَستطيعُ أَنْ أَتخيَّلَ سيد قطب على أَلف صورة إِلا هذه الصورة، وازددتُ يقيناً أَنَّ من الخطأ البينِ أَنْ نحكمَ على شخصِ الكاتب من كتابتِه، أو نعرفَ الشاعرَ من شعره!».

كما فوجىءَ به علي الطنطاوي في نفسِ الجلسةِ مرة أُخرى، عندما أَهداه كتابَه القيمَ «التصوير الفني في القرآن».

وقال عن هذه المفاجأة: «لم أَتخيلْ سيد قطب إلاّ مقارعاً محارباً، ولم أَعرفْه إِلاّ كاتباً مجادلاً مناضلاً، يهاجمُ مهاجماً ومدافعاً ومحايداً»[1].

---

(١) الرسالة: السنة الثالثة عشرة، عدد ٦٤٨، ديسمبر ١٩٤٥، ص ١٣١٣.

ومـمـن فـوجـىءَ بـه عـنـدمـا رآه أَيـضـاً الأُسـتـاذُ أَبـو الـحـسـن الندوي، حيث قال: «كنتُ أَتخيلُه أَديباً في العقدِ الرابع من عمره، فارعَ القادمة، عريضَ ما بين المنكبين، قويَّ البنية..»[1].

من أمراض سيد قطب البدنية:

وقد ابتلى اللّهُ سيد قطب بأَمراضٍ عديدة، استقرتْ في جسده، وبعضُها لازمُه منذُ طفولته، واستوطنَ في معدتِه وأَمعائِه!

ومنها أَمراضٌ في رئتيْه، كانتْ تُسببُ له آلاماً حادَّة في جهازه التنفسي، وتجعلُه طريحَ الفراش أَياماً وأَسابيع، يمنعهُ الطبيبُ خلالَها من الحركة، أَو القيام بأَيِّ مجهودٍ عضلي أَو ذهني.

أَخبرنا سيد قطب نفسُه وهو في الأَربعين من عمره عن بعض أَمراضِ جهازِه التنفسي: «إلى الاسكندرية... لا بدَّ من تغييرِ الهواء في هذا العام.. فها هي ذي أَعصابي تعلنُ الثورة، وتعلنُها وتعلنُها، ثم تملُّ من هذا الإِعلان، فتضرب إِضراباً تاماً وتنام! وها هو ذا الطبيب، والطبيب، والطبيب لا يجدون في جعبتهم - بعدَ أَن أَتناولَ نصفَ ما في صيدلية حلوان من الأَدوية: حُقَناً وتَجَرُّعاً وبَلْعاً - إلاّ أَنْ يقولوا: غَيِّرِ الهواء!»[2].

---

(١) مذكرات سائح في الشرق العربي، لأبي الحسن الندوي، ص ٩٧.

(٢) الرسالة: السنة الرابعة عشرة، عدد ٦٨١، يوليو ١٩٤٦، ص ٧٩٦.

ولما اعتُقل في نهايةِ عام ١٩٥٤ عُذب تعذيباً رهيباً بشعاً، ضاعفَ من أمراضِ رئتيْه وباقي جسمه. قالَ عنها الأُستاذُ محمد قطب: «تعرَّضَ أَخي سيد في اعتقالِه الأَوَّل لتعذيبٍ شديد جداً، سَبَّبَ إِصابَتَه بنزيفٍ رئويٍّ شديد، مما اضطرَّ السلطاتِ إلى تأجيلِ محاكمته شهريْن كامليْن، وقد ذكرت الصحفُ المصرية ذلك، ثم حوكمَ محاكمةً سرية، لم يحضرها أَحد..»[1].

ومما قالَه سيد قطب نفسُه عن الأَمراضِ التي أُصيبَ بها في سجنه: «في ذلك الوقت أَنا كنتُ في «طُرَّة» معتَقَلاً، ولم يصدرْ عليَّ حُكْمٌ بعد. ولم أُحاكَمْ بسببِ «تمزُّقٍ في الرئتيْن ونزيفٍ حادٍ» اقتضى نَقْلي من السجنِ الحربيِّ في ١٩٥٥/١/٢٥ إلى مصحةِ ليمان طرة للعلاج. وفي أَبريل كانت حالتي قد تحسنَتْ نوعاً ما، فتقررَ إِعادَتي للسجن الحربي، لتقديمي للمحاكمة..»[2].

وبعدما حُكِمَ عليه بالسجنِ خمسةَ عشر عاماً قضى محكوميتَه في مستشفى سجن ليمان طرة، بسببِ أَمراضِه المزمنة.

وبعدَ حوالي خمسِ سنوات من إِقامتِه في مستشفى السجن تضاعفَتْ أَمراضُه وساءتْ حالتُه الصحية، بل تدهورتْ!

«ولم تكنْ إِمكاناتُ العلاجِ في مستشفى السجن تُناسبُ أَمراضَه، كما أَنها لم تكنْ قادرةً على وقْفِ تدهورِ صحتِه.. فالرئةُ

---

(١) الغرباء: السنة الرابعة عشرة، العدد الثالث، سبتمبر ١٩٧٥، ص ١١.

(٢) سيد قطب من القرية إلى حبل المشنقة، لعادل حمودة، ص ١٥٩ ـ ١٦٠.

تتعرضُ لحالاتٍ من النزيفِ المفاجىء.. والمعدةُ والأَمعاءُ تتعرضُ لنوباتٍ لا تتوقفُ من التقلُّصات.. والقلبُ بدأ يضاعفُ من ضرباته، إلى أَنْ وصلَ لمرحلةِ الأَزمة..

وفي نهايةِ عام ١٩٦٠ بُذلَتْ محاولاتٌ عديدة من خارجِ السجن، لنقْلِه إلى مستشفى متخصِّصٍ للعلاج.. ولكن كلُّ هذه المحاولاتِ لم يكتبْ لها النجاح.

وكان ـ بعد حَدٍّ من التدهور ـ أن قررت اللجنةُ الطبيةُ العليا لمصلحةِ السجون نقلَه إلى مستشفى «المَنْيَل» الجامعي.

وفي هذا المستشفى، كَشفت الأَجهزةُ الطبيةُ الحديثةُ أَنه يقتربُ من حالةِ «الذبحة الصدرية».

وبعد ستةِ أَشهرٍ قضاها في مستشفى المنيلِ الجامعي، أُعيدَ إلى مستشفى ليمان طرة.. وفي العام التالي تدهورَتْ صحتُه من جديد، فعادَ إلى مستشفى «المنيل» الجامعي مرةً أُخرى، لمدةِ ستةِ شهور أُخرى.. رجعَ بعدها إلى مستشفى سجن طرة.

وفي سنة ١٩٦٤ تعرَّضَ سيد قطب لانهيارٍ حادٍّ جديدٍ في صحتِه، استدعى نقْلَه مرةً ثالثة إلى مستشفى المنيل الجامعي.. ولكنه هذه المرة لم يُنْقَل، لأَنه أُفرجَ عنه إِفراجاً صحياً بعفوٍ صحي..»[١].

---

(١) المرجع السابق.

أمراضه لم تشفع له عند الجلادين:

ولما خرجَ بعفوٍ صحيٍّ عام ١٩٦٤ كان قد أُصيبَ بالذبحةِ الصدرية، وأَمراضٍ أُخرى في الكِلى والمعدةِ والأَمعاء.

وبعدَ الإِفراجِ عنه عولجَ من أَمراضِه عند أَطبّاء مختصين، ولكنه لم يَشْفَ منها.

وبعد شهورٍ من الإِفراج عنه سيقَ إلى التعذيبِ الرهيب، وتضاعفتْ أَمراضُه بمضاعفةِ تعذيبهِ وشدتِه، واستغلَّ المجرمون الجلادون أمراضه لزيادةِ تعذيبه وإِيلامه.

يَروي الأُستاذ جابر رزق رحمه الله عن تعذيبِ المجرمين بأَمراضه.. «كان قد بلغَ الستين من عمره.. ومُصاباً بالذبحةِ الصدرية.. بالإِضافةِ إلى مرضِ الكلى.. وأَمراضِ المعدة!

ولكن لم تشفعْ له سِنُّه.. ولم يشفعْ له مرضُه.. بل استغلّوا هذه الأَمراضَ جميعاً في نوعِ التعذيبِ الذي تعرضَ له.

لقد رَبطوه في كرسيٍّ لمدةِ أَربعةِ أَيام، حَرَموه فيها من الطعام والشراب، وحَرَموهُ حتى من الماء.. وكانوا يسكبونَ الماءَ أَمامَه! ومعروفٌ أَنَّ مريضَ الكِلى يحتاجُ إلى كمياتٍ كبيرةٍ من الماء.. ولقد وصلَ الأَمْرُ بالشهيدِ سيد قطب أَنهُ أَوشكَ أَنْ يفقدَ بصرَه..

وبسببِ تدهورِ حالتِه الصحية، فقد فتحوا له بابَ الزنزانةِ ليصلَ إليه الهواء، ولكنهم وضعوا على البابِ «بطانيةً» لئلا يَرى أَحداً، أَو يراهُ أَحد.

ورغمَ إصابته بالذبحةِ الصدريةِ الخطيرة، إلاّ أَنهم كانوا يأمرونَه بالجريِ في عنابرِ السجن، والسياطُ تَهوي على ظَهره..

تروي زينب الغزالي عن طَرَفٍ من ذلك فتقول: «بسبب خطورةِ مرضِ الشهيد سيد، فقد نَبَّهَ طبيبُ السجنِ الحراسَ على أَنه إِذا طُلبَ سيد إلى المكاتب للتحقيق، فعلَيهم أَنْ يتركوه يمشي «على راحته» لمرضِه! ولكنَّ الجلاّدين صفوت الروبي وحمزة البسيوني أَمَرا الحُرّاس أَنْ يُحْضِروا سيد قطب بالخطوةِ السريعة!! ودَفَعَ الحراسُ الشهيدَ أمامهم، وأَخذوا يضربونه بالكرباج، حتى يضطروه إلى الإِسراع، فجاءَتْه أَزمةٌ قلبية، وسقطَ على الأَرضِ مغمىً عليه!! واستُدعي الطبيب، وسأَل الحراس، فأَخبروهُ بأَنَّ الروبي والبسيوني أَمراهم بذلك!!»[١].

والأَمْرُ العجيبُ حَقاً هو أَنَّ أَمراضَ سيد قطب الكثيرة الخطيرةَ المزمنةَ المؤلمةَ لم تمنعْهُ من العملِ والدعوةِ والحركة، فقادَ تنظيمَ الإِخوانِ المسلمين، وخططَ له، وأَشرفَ عليه.

---

(١) مذابح الإخوان في سجون ناصر لجابر رزق رحمه الله، ص ١١٤ ـ ١١٦ باختصار.

كما أَنَّ صحةَ سيدِ المتدهورةَ لم تكنْ أَداةَ ضغطٍ عليه من قِبَلِ الجلادين، فاستعلى على آلامِه وأَمراضِه، وثبتَ ثباتَ الرجال، وواجههم بصبرٍ وصلابةٍ وشجاعة. ويصدقُ فيه قولُ الشاعر:

وإذا كانت النفوس كباراً
تعبتْ في مُرادِها الأَجسادُ

ملامح شخصية سيد قطب:

ومن أهمِّ ملامحِ شخصيةِ سيد قطب: العمق، والحيوية، والشمول، والثورية، والوضوح، والصدق، والجدية، والعزة، والعصامية، والشجاعة والحركية، والكرم، والتواضع!

ونقدمُ فيما يلي «قبضةً» من الإخبار تدلُّ على بعضِ صفاتِه وملامحِ شخصيته، وتميزِ نفسيتِه وطبيعته.

عندما زرتُ الأُستاذَ الأَديبَ أَحمد عبد الغفور عطار رحمهُ الله في بيتِه في مكة المكرمة عام ١٣٩٩ ـ ١٩٧٩ أَخبرني عن خبريْن عجيبيْن عن سيد قطب، والأُستاذُ عطار وثيقُ الصلة بسيد، عميقُ الصحبةِ له.

سيد قطب يتبرع بأثاث بيته لصديقه العريس:

قال لي: كثيراً ما كنتُ أَزورُ سيد قطب في منزلِه في «حلوان» وكان أَثاثُ غرفةِ الاستقبال متواضعاً، لأَنَّ حالةَ سيد المادية لم تكنْ تسمح له بتحسينِه!

قال: وزرتُه يوماً فوجدتُه قد غَيَّرَ ذلك الأَثاثَ القديم، واشترى أَثاثاً جديداً، فسررْتُ بذلك!

وبعد فترةٍ زرتُه فوجدتُه قد عادَ للأَثاث القديم، ولم أَجد الجديد، ففوجئْتُ واستغربْتُ. وسألتُه عن سببِ ذلك فأَبى أَنْ يُخبرني! ولكنني أَلححْتُ عليه بحكم صحبتي له.

فأَخبرني بتواضُع: أَنه باعَ الأَثاثَ الجديد، وقَدَّمَ ثمنَه مساعدةً لأحدِ إِخوانه، ليتممَ مصروفاتِ زواجه!!

وهذه قمةٌ عالية في الكرم، بحيثُ يَبيعُ أَثاثَ بيتِه ليساعِدَ أَخاهُ، ولا يفعلُ ذلك إلاّ كرامُ الرجال الكرماء.

سيد قطب يرفض أموال دولة خليجية رغم حاجته الماسة:

والخبرُ الثاني أعجب بكثيرٍ من هذا، وهو دالٌّ على عزةٍ وإِباءٍ وتجردِ سيد.

حَدَّثني الأُستاذُ أَحمد عطار قائلاً: كان هذا في الأَربعينيات... اتصلَ بي سيد قطب تلفونياً ذاتَ يوم، وطلبَ مني أَنْ آتيَ إِليه في منزله في حلوان سَريعاً، لأَنه بحاجةٍ ماسَّةٍ إليَّ! وطلبَ منّي ـ باستحياء ـ أَنْ أُحضرَ معي بضعةَ عشرَ جنيهاً قرضاً له، لأَنه مريض، وبحاجةٍ ماسة إلى الدواء، وهو لا يملكُ ثمنه، ويريدُ أَنْ يَشتريَ بها دواءً!!!

فذهبتُ إِليه في منزله سريعاً، ومعي المبلغُ المطلوب!

ولما دخلتُ غرفةَ الاستقبال، رأيتُ مشهداً عجيباً، وأُقسمُ لقد دهشتُ مما رأيت!

كان يجلسُ في غرفةِ الاستقبال، موظفٌ دبلوماسيٌّ في سفارةِ دولةٍ عربية بترولية، وأَمامَه على الطاولةِ حقيبة مليئةٌ بالأَوراقِ المالية، من مختلفِ الأَرقام والفئات!

وهو يرجو سيد قطب رجاءً حاراً، ويلحُّ عليه إلحاحاً شديداً، ويطلبُ منه أنْ يأخذَ الحقيبة، بما فيها من الأَوراقِ المالية، فهي هديةٌ من حكومةِ دولته له!! لأَنها تعرفُ منزلتَه الأَدبيةَ والفكريةَ والاجتماعية في مصر، وتَعرفُ مسؤولياتِه العديدة، وتُقدمُ له هذه الهديةَ الماليةَ ليستعين بها في تمويلِ مشروعاتِه الأَدبيةِ والفكريةِ ـ وكان سيد وقْتَها بصددِ إِصدارِ مجلةٍ أدبيةٍ فكريةٍ إِصلاحية ـ!!!

فنظرتُ إلى سيد قطب ـ الذي كان جالساً مريضاً ـ فإذا به حزين!!

ثم ردَّ سيد هديةَ الدبلوماسي بحزم، وبدا عليه الغضبُ والحدَّة، وقالَ له: إنني لا أَبيعُ نفسي وفكري بأموالِ الدنيا!! فأَعِدْ أَموالَكَ إلى حقيبتك! وأَخبرْ حكومتَكَ أَنْ لا تعودَ لهذا مرةً أُخرى!!!

ثم التفتَ سيد إليّ، وقال لي: هل أَحضرتُ ما طلبتُ منك؟

قلتُ له: نعم. وناولْتَه المبلغ وأَنا في غايةِ الدهشةِ والانفعالِ والاستغراب!!

ولما عرفَ الدبلوماسيُّ قصةَ المبلغ، وأنَّ سيد يومَها فقيرٌ مُعْدَم، لا يملكُ بضعةَ جنيهات ثمنَ الدواء، ومع ذلك استعلى على آلافِ الجنيهات، ورَدَّها مع حاجتِه الماسة لها، خرجَ محتاراً متعجباً!!

سيد قطب يتبرع ببدلته لطالب جامعي فقير:

وروى الأستاذ علي عبد العزيز حسين عن كرمِ سيد قطب، وقد أَخبره بذلك الخبرِ صهرُه، الذي كان طالباً في كليةِ دار العلوم، وكان سيد قطب أُستاذاً ـ محاضراً غيرَ متفرغ ـ في الكلية بعد عودتِه من أَمريكا سنة ١٩٥٠.

«حَدَّثني صهري أَنه عندما كان طالباً في دار العلوم، كان شهيدُنا أستاذَ الأدب العربي فيها. ولاحظ سيد أن صهري جاء للدراسةِ في الكلية في بدايةِ العامِ الدراسي ببدلتِه القديمة، على غيرِ المعهودِ من أَترابِه الطلبة، لأَنَّ كلَّ طالب يتبارى في إظهارِ الزيِّ الجديد في بدايةِ العامِ الدراسي!

وفوجىء صهري باستدعاءِ الأُستاذ سيد قطب له إلى مكتبه. وعندما دخلَ فوجىء بالأُستاذ سيد يخلعُ بدلتَه الجديدة، وهو يطلب من صهري أنْ يأخذَها ويلبسَها، ويعطيه بدلتَه القديمة!!

وبعدَ إِلحاحٍ وحوارٍ تَمَّ ما أَرادَ سيد، وعادَ صهري إلى بيته ببدلةِ أُستاذه الجديدة!![1].

كرم سيد قطب وتواضعه في سجنه:

وخبر آخر عن كَرم سيد قطب على إِخوانه وهو سجين:

يَروي أَحَدُ إِخوانه المسجونين معه في سجنِ ليمان طرة، أَنه كان في مستشفى السجن في الطابقِ الثاني، وأَن أَهلَه كانوا يزورونَه، ويُحضرونَ له في زيارتِهم دجاجةً أو «وزة» مشويةً محمرة! فكان يتناولُها بيده كما هي، لم يفتحها، ولم يَذُقْ طعمَها، ويقفُ على «شُرفة» الدورِ الثاني، ويُنادي إِخوانَه في الطابقِ الأَسفل، ويُعطيهم إِيّاها كاملة ليتقاسَموها فيما بينهم!

وشَمَل كرمُه في سجنِه الحيوانات، ويَروون أَنه كان عندُه في السجنِ قِطٌّ عجوز، وكان سيد يُطعمُه ويَعتني به! ولما سُئِلَ عن سِرِّ اهتمامه به ـ وهو عجوز ـ قال: لا يليقُ بنا أنْ نأخذَ شبابه، ثم لا نرحَمُه في شيخوختِه!

وعندما أُدخلَ سيد السجنَ عام ١٩٥٤، كان شريكُه في الزنزانة الأَخ مصطفى العالم، وقد أُصيب مصطفى العالم بانفصالٍ غضروفي في عمودِه الفقري، من شدةِ التعذيب، والوسيلةُ الوحيدةُ

---

(١) مجلة الشهاب اللبنانية، السنة السادسة، العدد التاسع، أيلول ١٩٧٢، ص ٨.

لعلاجِه أَنْ يَبقى مستلقياً على ظهره مدةً لا تقلُّ عن ستةِ أَشهر.. وفي هذه الفترةِ كان سيد يقومُ على خدمتِه، ويُطَيِّبُ خاطرَه!!![1].

سيد قطب يرفض الخروج من مصر إلى العراق:

وبعدما أُفرجَ عن سيد قطب بعفوٍ صحي، وبوساطةٍ من الرئيسِ العراقي عبد السلام عارف، كَلَّفَ الرئيسُ العراقيُّ سفيرَ العراق في القاهرة بزيارةِ سيد قطب في بيته، وإِبلاغِه تحياتِ الرئيس عارف، وفرحِه بإطلاقِ سراحِ سيد، واستعدادِه لتلبيةِ كلِّ طلباتِ سيد!

فشكرَ سيدٌ الرئيسَ العراقيَّ على مساعيه الحميدة وأَخبرَهُ أَنه ليسَ له طلبات.

وأَثناءَ انعقادِ مؤتمرِ القمة العربي في القاهرة عام ١٩٦٤ أَوفدَ الرئيسُ العراقيُّ سفيرَه في القاهرة لزيارةِ سيد، وعَرَضَ عليه الانتقالَ إلى العراق، ليعملَ مستشاراً للرئيس عارف لشؤونِ التربية والتعليم، وأَنه سيكون في العراق محلَّ حفاوةٍ وتقديرٍ وتكريم!

فاعتذرَ سيد عن قبولِ المنصبِ بلطفٍ، وقَدَّمَ هديةً للرئيس عارف، بأَنْ جَلَّدَ كتبَه تجليداً فاخراً وبعثها له![2].

---

(١) المرجع السابق.

(٢) لماذا أعدموني، ص ٧٢ ـ ٧٣.

سيد قطب يستعلي على مساومات الحكومة ويثبت على الحق:

وبعد الإفراج عنه قامت الحكومةُ ورجالُها ومخابراتُها بعدةِ مساومات مع سيد قطب، وقدمتْ له عدة إغراءات، ولكن سيد قطب كان منتبهاً لها، واعياً مدرِكاً لخلفيتِها، مستعلياً على جاذبيتها، مُؤْثِراً لدعوتِه وإخوانه!

يَروي الأَخُ أَحمد عبد المجيد عبد السميع، الذي كانَ من قادةِ تنظيم الإِخوان المسلمين المعاونين لسيد، وكان وثيقَ الصلة به فيقول:

«من المساومات التي قُدمتْ لسيد قطب بعدَ الإفراجِ عنه عام ١٩٦٤:

١ ـ بعد خروجِه من السجن طالبتْهُ الضرائبُ بمبلغِ أَربعين أَلفَ جنيه كضرائبَ مستحقة عليه، من مؤلفاتِه وكتبِه التي كان ينشرُها!

وبعد المطالبة بفترة ذهبَ إِليه أَحدُ كبارِ رجال المباحث، وعرضَ عليه العملَ كوكيلِ وزارة، مع إِعفائِه من الضرائبِ المطلوبةِ منه!! فاعتذَرَ له عن قَبولِ ذلك العرض!!

٢ ـ وبعدَ فترة أُخرى حضرَ إليه ثلاثةٌ من رجالِ المباحث، أَذكر منهم أَحمد رشدي، وبعدَ دردشةٍ من هنا وهناك، سأَله أَحدُهم: هل الفيلا التي تسكُنها مِلْكٌ لك أَمْ بالأُجرة؟

فأَجاب: إنها بالأُجرة!

فأَبدوا دهشتَهم قائلين: كيف يكونُ شخصٌ مثلُك لا يملكُ مثلَ هذه الفيلا وغيرِها؟

ثم عَرضوا عليه الكتابةَ في الصحف، ورغَّبوه في ذلك، وقالوا له: هل يعجبُكَ سيطرةُ الشيوعيين على الصحف؟ لماذا لا تخترقُ هذا المجالَ لتقليلِ سيطرةِ الشيوعيين؟

فصارحَهم بالجواب، وقالَ لهم: ومن الذي يُعيِّنُهم في الصحف؟ أَنا أَمْ أَنتم؟

ثم قالَ لهم ساخراً: ومَنْ مِنْ رؤساءِ الصحف يجرؤُ على نشرِ مَقالٍ لي؟

فقالوا له: اكتب أَيَّ مقال، وأَعطِهِ لَنا، ونحنُ نتولّى نشرَه، ولك أَنْ تحددَ الجريدةَ التي تحبُّ أن تَنْشُرَ فيها!

فقالَ لهم بإِصرار: أَنا لا أَرضى أَنْ يُنشرَ شيءٌ باسمي بإِذنِ المباحث! وأَنا لا أَعتذرُ فقط، بل أَرفضُ ذلك!

وانتهت المقابلة!

٣ ـ وبعد فترةٍ أُخرى من الزمن زارَهُ ثلاثةٌ آخرون من ثلاثِ جنسيات: أَحدُهم عالمٌ لبناني كبير، والآخر مصريٌ يعملُ في المؤتمر الإسلامي الذي كان يرأَسُه أَنور السادات، والثالث عراقي؟

وعَرَضوا على سيد قطب فكرةَ إنشاءَ مجلةٍ إسلامية، يتولّى هو رئاسةَ تحريرها! فاعتذرَ لهم كذلك.

وقال لنا بعد ذلك: إنَّ اللبنانيَّ طيبٌ، وحسنُ النية، والمصريُّ مكلفٌ يؤدي مهمة، وأَما العراقي فهو رجلُ مخابراتٍ مُدَرَّب، يعرفُ متى يتكلم، ومتى يصمت!

وعَقَّبَ على ذلك بأَنهم يريدون تلويثَ اسمه بالعملِ معهم، وهم حريصون دائماً على تلويثِ الراية، رايةِ الإخوانِ المسلمين، بمحاولةِ استدراجهم للعملِ معهم، والمشاركةِ في نشاطاتِهم، لِيُلَوِّثوهم، ويُفقدوهم التأثيرَ عند الناس![1].

أحمد عبد المجيد يقدم صورة واقعية حية لسيد قطب:

وفي ختامِ حديثنا عن شخصيةِ سيد قطب وطبيعتِه وصفاته نقدمُ هذا التعريفَ المجملَ به، الكاشفَ عن شخصيتِه وصفاته، يقدمُه الأَخُ الأُستاذُ أَحمد عبد المجيد عبد السميع، وكان من أَقربِ الناسِ إليه، لأَنه كانَ أَحدَ قادةِ تنظيمِ الإخوان المسلمين في الستينيات، الذي كان يرأسْه سيد قطب، وكان عبد المجيد كثيرَ اللقاء بسيد، وترتيب أُمورِ التنظيمِ معه!

قال: «سوفَ أَسردُ هنا بعضَ ما لمسْتُه في جوانبَ من شخصيتِه فترةَ القربِ منه، والتي بلغَتْ حوالي العام!

(١) الإخوان وعبد الناصر لأحمد عبد المجيد، ص ٩٤ ـ ٩٥.

فسيد قطب هو ذلك الكاتب، والداعيةُ الإِسلاميُّ الكبير، الذي بلغَتْ شهرتُه الآفاق، وخاصةً بعد استشهاده!

هو ذلك الإِنسان المتواضع: الذي لا يُشعرُ مَنْ يجالسُه بالفارقِ العلميِّ والفكريِّ بينه وبين الجالسِ معه، بل يأْخذُه بتواضعِه وأَدبه الجمّ، ويُحلقَ به في آفاقٍ بعيدة، بحيثُ يَشعرُ أَنه شخصٌ آخر، في عالمٍ آخر، مع أَندرِ إِنسانٍ رأيت!

فإذا تكلم.. فكلامُه مرتَّب، متسلسل، منتظم، بحيثُ تَستوعبُ كلَّ جملة بل كلُّ كلمة منه، كأنكَ أَمامَ أُستاذٍ متخصِّصٍ في فصْلٍ دراسي، متمكِّنٍ من مادته، واثقٍ من نفسه، حَضَّرَ الموضوع، وقَرأَ له المراجعَ والمؤلَّفات.. وهذا فَضْلُ اللّهِ يؤتيه مَنْ يشاء!

فالجُمَلُ في حديثِهِ منتظمة، سلسة، بأُسلوبٍ شيقٍ جَذّاب، والعباراتُ واضحة، والكلماتُ ـ بل والحروفُ ـ بارزة، بحيث يسترعي انتباهَك كلُّ ما يقول، وتخشى أَنْ تفوتَك عبارةٌ، بل كلمةٌ واحدة.. حتى إِذا خرجْتَ من عنده تشعرُ بأنكَ قد حفظتَ الموضوع، وكلَّ ما وردَ في الجلسة، عن ظهرِ قلب، وذلكَ من سلامةِ اللفظ، وجمالِ العبارة، وحلاوةِ الحديث!

وإِذا تكلم، فإِنما يتكلمُ وهو هادىء، مطمئنُّ القلب، متمكِّنٌ من الموضوع، يَسيرُ على وتيرةٍ واحدة في كلِّ الحديث.. لا يرفعُ

صوتَه بحيثُ يضايقُ سامعَه، ولا يُخَفِّفُه بحيث يُبذلُ جهداً لسماعِه، أَو تفوتُه كلمةٌ أو جملةٌ من الحديث!

فأَنتَ لا تحتاجُ لهذا العناء، وكأَنكَ ضبطتَ جهاز استقبالٍ على تردُّدٍ معين، بدرجةٍ محددَةٍ للصوت!!

وإِذا كنتَ في جلسةٍ مع الشهيد، تراهُ يوزعُ النظراتِ والاهتماماتِ على الجميع، حتى يظنُّ كلٌّ منهم أَنه موضعُ الاهتمامِ والتقدير!

وإِذا سألْتَ أَو ناقشْتَ يستمعُ إِليك، حتى تنتهيَ من كلامِك تماماً، فلا يقاطعُك، ولا يُعَرِّضُ برأْيك، ولو خالفْتَه الرأي، ولا يرفَعُ صوتَه حتى ولو رفعْتَ صوتَك، ولا ينفعلُ حتى لو انفعلْتَ!!

إِذا تَعَرَّفْتَ عليه، وجلسْتَ معه، يُسعدُهُ أن يعرفَ أَخبارَك وأَحوالَك وعملَك وحياتَك الاجتماعية، وخَطَّكَ في الدعوة، إلى غيرِ ذلك من الموضوعاتِ العامةِ الشخصية! كلُّ ذلك بأُسلوبٍ لبقٍ مهذَّبٍ محبَّبٍ للنفس.

فإِذا قابلكَ مرةً أُخرى، سأل عن أَخبارِك التي سبقَ معرفتُها منك، وهمومِك ومشكلاتِك، ويشاركُك الاهتمامَ بها، والحلَّ لها، كأَنه صاحبُ المشكلة، من شدةِ الاهتمامِ بها، بحيثُ تشعرُ عند لقائِك به أَنَكَ موضعُ تقديرٍ واهتمامٍ منه، ويشملُك بعطفِه وحنانِه، ويرْبت عليك، ويأخذُ بيدك!

وبعدَ تعرُّفِه على جوانبَ من شخصيتك ـ كما ذكرت ـ في أَولِ لقاء، يبدأُ الحديثَ معك، بما يناسبُك، ويناسبُ شخصيتَك، وثقافتَك وبيئتَك ومهنتَك! وقد يكونُ الموضوعُ الذي معكَ ومع غيرك واحداً، ولكن طريقةَ العرضِ تختلفُ من شخصٍ لآخر بما يناسبُه، فيدخلُ إليه المدخلَ الملائم...

لم يكن مجردَ كاتبٍ ومفكر، بل هو مع ذلك مُرَبٍّ فاضل، وأَبٌ حنون، فتحَ اللّهُ عليه بمعرفةِ النفسِ الإِنسانية، والغورِ في أَعماقِها، وَوَضَعَ يَدَهُ على الداء، وَوَصَفَ الدواء!

كان رحمه اللّهُ رحيماً، لا يَغضبُ إلاّ للحق، وما رأيته مرةً واحدة غاضباً، عفُّ اللسان، حتى عند ذكْرِ أَسماءِ أَعداءِ الله، لطيفُ المجلس، حلوُ المعشر، لا تفارقُه الابتسامةُ الوقور، ذو دُعابة مؤدَّبةٍ في مناسبتها، رقيقُ المشاعر، مرهفُ الحسن.

ولا يسرحُ في الخيال، بل يغوصُ في أَعماقِ الأُمور نظرةَ عمق، وملاحظةَ دراسة، بمجهرِ العينِ والعقلِ والقلب.

ومع هذا فهو في الحقِّ صلبُ المواقف، رابطُ الجأش، لا يتزعزع، ولا يتلعثَم ولا يخافُ في اللّهِ لومةَ لائم!

ينظرَ إلى أَعداءِ الله كأَنهم حشراتٌ صغيرة، لا حولَ لها ولا قوة، رغمَ ما يملكون من أَجهزةٍ وأَنظمةٍ وجبروت!

كان كلُّ همِّه وشغلِه الشاغل هو أَمْرُ هذا الدين، دائمَ التفكيرِ في ذلك، دائمَ التعبيرِ عما يجيشُ في نفسه بالكتابةِ تارة، وبالتربيةِ والقدوةِ الطيبة تارةً أُخرى..

لم يكفَّ عن الدعوةِ داخلَ السجن، وقد أَلَّفَ معظمَ كتبِه الإِسلاميةِ في السجن.. وبعدَ خروجه من السجن استمرَّ في مواصلةِ الدعوة لتوصيلِ ما فتحَ اللّهُ به عليه، حتى حالَ الطغاةُ بينه وبين ذلك في السجن الحربي، بعد اعتقالِه عام ١٩٦٥. حيثُ وضعوه طوالَ المدةِ بالمستشفى في زنزانةٍ انفرادية، لا يكلمهُ أَحد، ولا يرى أو يكلمُ أَحداً.

ورغمَ أَنه كان ينتظرُ ما سيفعلونَه به، إلاَّ أَنَّ انشغالَه واهتمامَه ـ حتى آخر لحظة من عمره ـ بالحق، وتأديةِ دورِه بأية وسيلة، دفعهُ لحسنِ التصرفِ للحصولِ على قلم، وهو من المحظوراتِ الشديدة، ثم التصرفِ في الورق، والكتابةِ على ظهرِ الادعاءِ المسلَّمِ إليه!!

وكان ذلك استكمالاً للقسمِ الأَخير من كتاب «مقومات التصور الإسلامي» وقَدَّرَ اللّهُ لهذه الصفحات أنْ تخرجَ من السجنِ الحربيِّ العنيد..

وهو ذو ثقةٍ وطمأنينةٍ بالله، وذو رضا وتسليمٍ لله، وفي يقينٍ جازمٍ بقدرِ الله ووعدِه ونصرِه، ولعلَّ موقفَه بعدَ سماعِ الحكم خيرُ شاهدٍ على ذلك.

هذا هو الشهيدُ سيد قطب، وهذا بعضُ ما لمستُه في شخصيتِه، وما استطعتُ أَنْ أُعَبِّرَ عنه... حتى تعلَّقْتُ به تعلُّقاً شديداً، وأَحببتُه حُباً لم أُحِبَّهُ لأَحدٍ من خلقِ الله ممن رأَيتُهم في حياتي مثلُ ما أَحببته، لا قبلَه ولا بعدَه[1]!!

(١) الإخوان وعبد الناصر لأحمد عبد المجيد، ص ٢٩٣ ـ ٢٩٨.

الفصل الثالث

مع سيد قطب في مسيرته العلمية الفكرية



(١)

تراث سيد قطب الأدبي والفكري

تراث سيد قطب أدبي وإسلامي:

كان سيد قطب منهوماً نَهَماً عجيباً للبحثِ والدراسة، والمطالعةِ والثقافة، منذُ طفولتِه إلى شيخوخته.

كان توجُّهه في أَولِ الأَمْرِ للأَلوانِ الأَدبية والنقدية، في عالمِ الأَدبِ والنقدِ والشعر، عن طريقِ المقالةِ والقصيدة، والقصةِ والكتاب والمحاضرةَ، فكانَ نَتاجه في هذه الفترةِ نتاجاً أَدبياً نقدياً، كما بَيّنّا في الفصلِ الأَول. وامتدَّ نتاجُه الأَدبيُّ الغزيرُ حوالي عشرين عاماً: ١٩٢٥ ـ ١٩٤٥. وكان معظمُه على صورةِ مقالاتٍ في الصحفِ والمجلات.

ثم وجَّهه اللّهُ إلى الإسلام والدعوة، فأَبدعَ في عالم الفكرِ الإسلامي، وكان المفكرَ الرائد، في عالمِ التفسيرِ والدعوة، والحركةِ والتربية، والجهادِ المواجهة. وامتدَّ نتاجُه الفكريُّ الإسلاميُّ حوالي عشرين عاماً: ١٩٤٥ ـ ١٩٦٥.

كان بعضُ نتاجِه الإِسلاميِّ مقالاتٍ إسلامية، نشرَها في صحفٍ عديدةٍ قبلَ سجنه عام ١٩٥٤، كصحفٍ ومجلات: الرسالة والثقافة والدعوة واللواء والاشتراكيةِ والمسلمون، ومعظمُ نتاجه الإِسلامي كتبٌ ومؤلَّفات، كتبَ اللّهُ لها القبول والانتشارَ بين الناس!

استمرَّ عطاؤُه الثقافيُّ أَربعين عاماً: عشرون عاماً للأَدبِ والنقدِ والثقافةِ العامة. وعشرون عاماً للفكرِ الإِسلامي!

قالَ عن قراءاته في حياته: «.. إِنه إِنسانٌ عاشَ يقرأُ أَربعينَ سنة كاملة، كان عملُه الأَول فيها هو القراءة والاطلاع في مختلفِ حقولِ المعرفة الإِنسانية، ما هو مِن تخصُّصِه، وما هو من هواياته!... ثم عادَ إلى مصادرِ عقيدته وتصوُّره، فإذا هو يجدُ كلَّ ما قرأَه ضئيلاً، إلى جانبِ ذلك الرصيدِ الضخم.. وما هو بنادمٍ على ما قضى فيه أَربعينَ سنة من عمره، فإنما عرفَ الجاهليةَ على حقيقتها، وعلى انحرافِها، وعلى ضآلَتِها، وعلى قزامتِها، وعلى جعجعتِها وانتفاشِها، وعلى غُرورِها وادّعائِها كذلك!»[1].

وكان يُمضي عدةَ ساعاتٍ يومياً في القراءةِ والمطالعة، وحَدُّها الأَدنى عشرُ ساعات يومياً!

---

(١) معالم في الطريق، ص ١٧٥ ـ ١٧٦.

تأنيه في أبحاثه ودراساته:

وكان متأنياً في أبحاثه ودراساته، الأَدبية منها والإِسلامية، لم يتعجَّلْ إتمامَها، ولم يسلُقْها سَلقاً، وإِنما كانَ يضعُها على نارٍ هادئة لتنضجَ عليها ـ كما يُقال ـ!

نشرَ عام ١٩٣٤ بحثاً له على ستٍّ حلقاتٍ في مجلة «الأُسبوع» بعنوان «المرأةُ لغزٌ بسيط»، وقال عن طريقتِه المتأنيةِ في بحثه: «لقد عنيتُ منذُ عشرِ سنوات تقريباً، في أَن أدرسَ هذا الموضوع، بمقدارِ ما تهيىءُ الظروفُ لشابّ، وحاولْتُ أنْ أَجدَ اللغزَ فيمن عرفتُهن، أَو عرفهنَّ أَصدقائي، وفيمنْ قرأْتُ عنهن، أو قرأْتُ لهن.. فكان بحثي عن اللغزِ هو اللغزَ نفسَه!»[1].

وعندما نشرَ مقالاتٍ نقدية عن كبارِ الأُدباءِ قال: «لقد صنعْتُها حينما كتبتُ في الرسالةِ منذ عام أَربعةَ فصول: عن الدكتور طه حسين ومدرسةِ الأُسلوب التصويري، والأُستاذِ توفيق الحكيم ومدرسةِ التنسيق الفني، والأُستاذِ المازني وطريقةِ الحركة الحيوية، والأُستاذِ العقاد ومدرسةِ المنطق الحيوي...

ولقد كلَّفَتْني كلُّ مقالة، قراءةَ كلِّ كتابٍ لهؤلاء الأربعة، ومعظمَ ما كتبوه من مقالات!!..»[2].

---

(١) مجلة الأسبوع، المجلد الثاني، عدد ٤٥، تاريخ ٣/ ١٠/ ١٩٣٤، ص ٩.

(٢) مجلة الرسالة، السنة الثانية عشرة، المجلد الثاني، عدد ٥٩٥، تاريخ ٢٧/ ١١/ ١٩٤٤، ص ١٠٤٥.

وعندما أَعَدَّ بحثَه عن «المدارسِ الأَدبية المعاصرة» اعتذرَ عن الوقتِ الطويلِ الذي استغرقَه هذا البحث، فقال: «ومنذُ عامين لديَّ كتابٌ عن «المدارسِ الأَدبية المعاصرة»، وما يؤخِّرُني عن كتابته إلا استيفاءُ بعضِ الدراساتِ الشخصية عن أَبطاله، وقد استطعْتُ أن أَجمعَ عن كتب معظمَ ما أَريدُ جمعَه عن العقادِ وتوفيق الحكيم، وشيئاً مما أُريدُ جمعَه عن طه حسين والمازني، وقليلاً عن المنفلوطي والزيات، ومتفرقاتٍ عن تيمور وحقي ولاشين!

وعندما أَستوفي هذه الدراسات ـ لاقبلَه ـ سآخذُ في الحديثِ عن المدارسِ الأَدبيةِ المعاصرة، ولو صرفْتُ عامَيْن آخرين!.. فأَنا أُقَدِّرُ قيمةَ هذا العمل، وأَعرفُ ما هو مطلوبٌ مني إزاءَه!..»[1].

ومن مظاهرِ تأَنِّيه في أَبحاثِه أَنه عندما كان يُعِدُّ بحثاً أَدبياً عن شعرِ الشبابِ والقصةِ الحديثة، أَخذَ يجمعُ ما وجده من شعرِ الشباب وقصصِهم، ولكنَّ هذا لم يكْفِه، فنشرَ إعلاناً طريفاً في مجلةِ الرسالة، قال فيه:

«إلى أُدباءِ البلادِ العربية... لم تبقَ إلاّ هذه الوسيلة!

---

(١) مجلة الرسالة، السنة الثالثة عشرة، المجلد الأول، عدد ٥٩٧، تاريخ ١١/ ١٢/ ١٩٤٤، ص ١٠٨٨.

إِنَّ لديَّ بحثيْن معطَّلين عن «شعرِ الشباب» وعن «القصة الحديثة» لأَنني لا أستطيعُ الحصولَ على أعمالِ المعاصرين من الشعراء والقُصّاص في البلادِ العربية.. ولا أُحِبُّ أَنْ أَقْصر بحثي على أَعمال الأُدباءِ المصريين..

فرجائي إلى كلِّ شاعر وكلِّ قاصٍّ في البلادِ العربية، أنْ يتفضلَ فيرسلَ إِليَّ بأَعماله في هذيْن البابيْن، مُحَوِّلاً بثمنِهما على البريد..»[1].

وبسببِ تَأَنّيه في البحث، تأَخَّرَ في نشرِ الكتب، لأنه كان يريدُ أن يقدِّمَ للناس الجديدَ المفيد. قال: «.. ثم جاء دوري.. جاءَ دوري في أنْ أَنشرَ كتباً، بعد أَنْ كنتُ أُنشرُ بحوثاً وقصائدَ ومقالات..

لقد جاءَ دوري في نشر الكتب متأخِّراً كثيراً، لأَنني آثرتُ ألاّ أَطْلَعَ المئذنةَ من غيرِ سُلَّم، وأنْ أَتريَّثَ في نشرِ كتبٍ مسجَّلَة، حتى أُحِسَّ شيئاً من النضجِ الحقيقي، يسمحُ لي أَنْ أَظهرَ في أسواقِ النّاشرين!»[2].

ولما توجَّهَ إلى البحوثِ والدراساتِ القرآنية والإِسلامية، بقيَ على طريقتِه المتأنيةِ الواعيةِ في البحث.

---

(١) مجلة الرسالة، السنة الرابعة عشرة، المجلد الثاني، عدد ٦٧٧، تاريخ ٢١٤/٦/١٩٤٦، ص ١٧٠٥.

(٢) مجلة الثقافة، السنة الثالثة عشرة، عدد ٦٦٣، تاريخ ١٠/١٢/١٩٥١، ص ٨.

وقد عاشَ مع القرآن حوالي ربع قرن ـ ١٩٤٠ ـ ١٩٦٥ ـ متأمِّلاً متدبِّراً، باحثاً مطَّلعاً. قال: «إنَّ الذي يكتبُ هذه الكلمات، قضى ـ ولله الحمدُ والمنة ـ في الصحبةِ الواعيةِ الدارسةِ لهذا الكتاب، خمسةً وعشرين عاماً.. يجولُ في جنباتِ الحقائق الموضوعيةِ لهذا الكتاب، في شتّى حقولِ المعرفة الإنسانية ـ ما طرقَتْهُ معارفُ البشر وما لم تطرقْه ـ ويقرأُ في الوقتِ ذاتِه ما يحاولُه البشرُ من بعض هذه الجوانب.. ويرى.. يرى ذلك الفيضَ الغامرَ المنفسحَ الواسعَ في هذا القرآن، وإلى جانبه تلك البحيراتُ المنعزلة، وتلك النُّقَرُ الصغيرة!!..»[1].

ومن الأدلةِ على تأنّيه في بحوثِه ودراساتِه الإسلامية، الفترةُ الطويلةُ التي أمضاها في إعدادِ بحثه «خصائص التصور الإسلامي»، حيث أمضى فيه أكثرَ من عشرِ سنوات. إذ بدأَ البحثَ فيه في مطلعِ الخمسينيات، ولم يُصدرهُ إلاّ عام ١٩٦٢.

أمّا كتابُ «نحو مجتمع إسلامي، فقد بدأَ إعدادَه في مطلعِ الخمسينيات، واستُشهدَ عام ١٩٦٦ ولم يتمّه!

الكتبُ التي أصدَرَها سيد قطب ستةٌ وعشرون كتاباً، ما بين أدبيةٍ وإسلامية. وكان يريدُ أَنْ يُصدرَ بعضَ الكتبِ والدراساتِ الأُخرى.

---

(١) في ظلال القرآن، ٣: ١٤٢٢.

ويمكنُ أنْ نقسمَ تراثَه الأَدبيَّ والفكريَّ إلى ثلاثةِ أَقسام:

مقالاته في الصحف والمجلات:

القسم الأول: مقالاتُه في الصحفِ والمجلات:

كان سيد قطب مُكْثِراً في المقالاتِ التي ينشرُها في الصحفِ والمجلات، وهو لم ينتجْ في فَنٍّ أَدبي أَكثر مما أَنتجَ في فَنِّ المقالة!

واستغرقَتْ مقالاتُه في الصحفِ والمجلات حوالي ثلاثين سنةً من عمره: ١٩٢٤ ـ ١٩٥٤. وكانت تلك المقالاتُ منوَّعَة، منها مقالاتٌ أَدبيةٌ نقدية، ومنها مقالاتٌ اجتماعية وفنية وإِصلاحية وسياسية وإِسلامية!

وقد جمعَ سيد قطب بعضَ مقالاتِه الأَدبية النقديةِ في كتابه: «كتب وشخصيات»، وكان يَنوي إِصدارَ حلقةٍ ثانية من هذا الكتاب!

وجمعَ بعض خواطره في كتاب «الأَطياف الأربعة» بالاشتراك مع إِخوتِه.

وجمعَ بعضَ مقالاتِه الإِسلامية في كتاب «دراسات إسلامية». وكَأَنه بهذا يدعو الباحثين إلى تصنيفِ مقالاته، وإِخراجِها في كُتُب!

وقد قُمت بجمعِ مقالاتِ سيد قطب التي كتبها عن أَمريكا، ونَسَّقْتُ بينها، ونشرْتُها قبلَ سنوات في كتاب «أَمريكا من الداخل بمنظار سيد قطب» ولله الحمد!

وقد أَعَدَّ الدكتور عبد الله الخباص قائمةً بما وقفَ عليه من مقالات سيد الأَدبية وقصائدِه الشعرية. فبلغت القصائدُ التي جمعَ أَسماءَها ثمانياً وثمانين قصيدة، وبلغت المقالاتُ ثلاثمائة وأَربعَ عشرة مقالة![1].

وأَعَدَّ الباحثُ المصري عبدُ الباقي محمد حسين قائمةً أُخرى. بما وقفَ عليه من مقالاتِ وقصائدِ سيد قطب، وكان مجموعُها أَربعمائَة وخمساً وخمسين مقالة وقصيدة[2].

ولم يَستوعب الدكتور الخباص والباحث عبد الباقي جميعَ عناوين مقالاتِ وقصائدِ سيد، وإِنَّما ذَكَرا ما وقَفَا عليه، وهناكَ الكثيرُ من المقالات لم يقفا عليه.

وقد وعدَ كلٌّ منهما التنسيقَ بين مقالاتِ سيد ونشرِها، ولكنهما لم يفعلا شيئاً حتى الآن، رغمَ مرورِ أَكثرَ من خمسةَ عشر عاماً على ذلك الوعد!

---

(١) انظر قائمة الدكتور عبد الله الخباص في كتابه: سيد قطب الأديب الناقد، ص ٣٥١ ـ ٤٣٧.

(٢) انظر قائمة عبد الباقي محمد حسين في كتابه: سيد قطب حياته وأدبه، ص ٤٠١ ـ ٤٤٤.

ونرى أنَّ الكثيرَ من مقالاتِ سيد يصلحُ للنشر، بعدَ جمعِ المقالات المتفقة في الموضوعِ العام، والتنسيقِ بينها، ونتمنّى لو تولّى بعضُ الباحثين هذه المهمة!

كتبه المطبوعة بين أدبية وإسلامية:

القسم الثاني: كتبه المطبوعة:

بلغَتْ كتبُ سيد قطب المطبوعة ستةً وعشرين كتاباً. منها ثلاثةَ عشر كتاباً أَدبياً، وثلاثةَ عشر كتاباً فكرياً إسلامياً.

وأولُ كتابٍ نشره هو رسالةُ «مهمة الشاعر في الحياة»، عام ١٩٣٣. وآخرُ كتاب أَصدره سيد في حياته هو «معالم في الطريق» عام ١٩٦٤. أَيْ أَنه استمرَّ ينشرُ الكتب حوالي ثلاثين سنة، رغم ما مَرَّ به من ابتلاءاتٍ ومحن. أي نصفَ عمره..

وسنُعَرِّفُ بكتبه المطبوعة في المباحثِ القادمةِ إنْ شاءَ الله! وقد تأخَّر سيد قطب في نشرِ الكتب، حيثُ أَمضى حوالي عشرين سنة من حياته الأَدبية، يكتبُ المقالات وينظمُ القصائد، ويُعَرِّفُ بكتبِ الآخرين.

وقررَ سيد أنْ ينشرَ الكتب وهو في الأَربعين من عمره، فأولُ كتابٍ فكريٍّ أَلَّفه كان «التصوير الفني في القرآن» عام ١٩٤٥. ومعلومٌ أَنَّ سنَّ الأَربعين هو سنُّ النضجِ والرشدِ والأَشد.

والكتبُ الثلاثةُ التي أَصدرها قبلَ عام ١٩٤٥ لم تكن كتباً في الحقيقة، فالأولُ هو «مهمةُ الشاعر في الحياة» في أَصْلِه محاضرةٌ نقديةٌ أَلقاها في كليةِ دارِ العلوم، وهو طالبٌ فيها. والثاني «الشاطىء المجهول» وهو ديوانُ شعرِه الوحيدِ المنشور. والثالث هو «نقدُ كتاب مستقبل الثقافة في مصر» هو مقالةٌ نقدية مطوَّلة نشرَها في صحيفةِ دارِ العلوم.

إِذنْ قَرَّرَ سيد دخولَ عالمِ التأليفِ والنشرِ وهو في الأَربعين من عمره. وخلالَ خمس سنوات: ١٩٤٥ ـ ١٩٥٠ أَصدرَ ثلاثةَ عشر كتاباً، منها الأَدبي، ومنها الاجتماعي، ومنها الإِسلامي. وهذا يدلُّ على غزارةِ في نَتاجِه، وسيولة قلمه!

ومع أَنَّ القراءَ والدراسين والمثقفين أُعجبوا بكتبه، وأَقبلوا عليها، إِلاَّ أَنَّ كبارَ الأُدباء «نَفَسُوا» عليه مؤلَّفاتِه، وحسدوه، فلم يُقَرِّظوه، ولم يَكتبوا عن مؤلفاته.

قالَ سيد قطب لصديقه الأَديب أَحمد أَمين: «وَدَعُوني الآن أُصارحكم بتجربتي الخاصة، التي تَركَتْ في نفسي ذاتَ يوم مرارة، ومن أَجلِ هذه المرارة لم أَكتبْ عنها من قبل، حتى صَفَتْ روحي منها، وذهبَتْ عني مرارتُها، وأَصبحتْ مجردَ ذكرى، قد تنفعُ وتعظ..

لقد كنتُ «مريداً» بكلِّ معنى كلمةِ المريدِ لرجل من جيلكم، تعرفونَه عن يقين [يعني العقاد] ولقد كنتُ صديقاً أو ودوداً مع

الآخرين من جيلِكم كذلك.. لقد كتبتُ عنكم جميعاً بلا استثناء، شرحْتُ آراءكم، وعرضْتُ كتبكم، وحلَّلتُ أَعمالَكم، بقدر ما كنتُ أَستطيع..

ثم جاءَ دَوْري..

جاءَ دَوْري في أَنْ أَنشرَ كُتُباً، بعد أَن كنتُ أَنشرَ بحوثاً ومقالاتٍ وقصائد..

لقد جاءَ دوري في نشرِ الكتبِ متأخِّراً كثيراً، لأَنني آثرتُ أَلاّ أَطْلَعَ المئذنةَ من غيرِ سُلَّم، وأَنْ أَتريثَ في نشرِ كتبٍ مسجَّلة، حتى أَحسَّ شيئاً من النضج الحقيقي، يسمحُ لي أَنْ أَظهرَ في أَسواقِ الناشرين!

وكان أولُ كتابٍ نشرتُه هو ذلك الكتابُ الذي نالَ إِعجابَ صديقِكم الراحلِ في رسالةٍ منكم إِليّ، وأَنا مريض، لعلَّ ذلك أن يكونَ له أثرٌ طيب في صحتي ـ كما قررتُم ـ ذلك هو كتابُ «التصوير الفني في القرآن».

وكان كتاباً موفقاً حقاً. أقولها الآن مطمئناً، بعد أن أصبحتْ حقيقةً أدبيةً، منفصلةً عن شخصيتي!

فماذا كان موقفُ أُستاذي؟ [العقاد] وماذا كان موقف جيلِكم كلِّه؟ ماذا كان موقفُ جيلِ الشيوخ ـ لا من هذا الكتابِ وحْدَه، ولكن من الكتبِ العشرةِ التي نشرتُها حتى الآن؟ ـ

أُراجعُ كلَّ ما خطَّته أَقلامُ هذا الجيل كلِّه عن عشرةِ كتب، فلا أَعثرُ إلاَّ على حديثٍ في الإِذاعةِ لفقيدِ الأَدب، المرحومِ الأُستاذِ المازني، وإلاّ إِشارةٍ كريمةٍ للأُستاذِ توفيق الحكيم في أَخبارِ اليوم.

هذا كلُّ ما خطَّتْهُ أَقلامُ جيلِ الأَساتذةِ عن عشرةِ كتب، لمريدٍ جيد، درسَ كلَّ آثارِهم، واستوعَبَها، ونَوَّهَ بها، وشرحَها، وحَلَّلَها، في خلالِ عشرين عاماً!!

وأَنا اليومَ أَحمدُ الله، على أَنني خططتُ طريقي بنفسي مستقلاً، وبجهْدي خالِصاً.. لم يأخذْ بيدي عظيم، ولم يُقَدِّمني إلى الناسِ أُستاذ!!

ولكنَّ كلمةً طيبةً من جيلِ الأَساتذة، كانت قبلَ خمس سنوات فقط، تُعَدُّ في نفسي شيئاً عظيماً، وتتركُ في روحي أَثَراً طيباً.. غيرَ أَنها ـ مع الأسف ـ لم تكن!..»[1].

بحوث له لم تنشر:

القسم الثالث: بحوثٌ له لم تنشر:

كان سيد قطب ينتقلُ من بحثٍ إلى بحث، فما يكادُ يقطعُ مرحلةً طويلة من البحث، ويقتربُ من نهايته، حتى يتولَّدَ في ذهنه بحثٌ جديد، يراهُ أَولى بالإِعداد والإِنجازِ من البحثِ الذي بين

---

(١) مجلة الثقافة، السنة الثالثة عشرة، عدد ٦٦٣، تاريخ ١٠/ ٩/ ١٩٥١، ص ٨.

يديه، فيتركُ البحثَ الأَوَّلَ الذي قاربَ على الانتهاء، ويبدأُ سيراً جديداً مع البحثِ الجديد.

ولا أَدري هل هذه حسنةٌ تسجَّلُ له أَمْ مأخذٌ يُؤْخَذُ عليه؟

والذي يطَّلعُ على مقالاتِ وبحوثِ وكتبِ سيد قطب يجدُ فيها إِشاراتٍ إلى بحوثٍ له كان ينوي تأليفَها ونشرَها.

وقد اطلعْتُ على إِشاراتٍ لسيد إلى أَكثرَ من ثلاثين بحثاً كان ينوي إِعدادَها، وهذه البحوثُ هي:

١ ـ مهمةُ الشاعر في الحياة: بحثٌ ضخمٌ كان ينوي إِعدادَه، وجعلَ كتابَه المنشورَ «مهمة الشاعر في الحياة» مقدمةً له.

٢ ـ دراسةٌ عن شوقي: كان يَنوي إِعدادَ دراسةٍ عن شعر أَحمد شوقي، لتكونَ أَحكامُه عليه مقرونةً لأَدلةِ من شعره.

٣ ـ المراهقةُ أَخطارُها وعلاجُها: كتابٌ في التربية ومشكلاتِ الشباب، قال عنه: «أَنا على وشك إِخراجِ كتابٍ في التربية عن «المراهقة: أَخطارِها وعلاجِها».

٤ ـ المرأةُ لغز بسيط: استغرقَ إِعدادُ هذا البحث عشرَ سنوات، ونَشَرَ خلاصةً له في عدةِ حلقات في مجلةِ الأُسبوع عام ١٩٣٤.

٥ ـ المرأةُ في قصصِ توفيق الحكيم: وَعَدَ أَنْ يكتبَ هذا البحث، وأَعلنَ عن ذلك في مجلةِ الأُسبوع، عام ١٩٣٤.

٦ ـ أَصداءُ الزمن:

هو ديوانُه الشعريُّ الثاني بعدَ «الشاطىء المجهول»، وقد قدمَ الديوانَ للمطبعةِ عام ١٩٣٧، وعدلَ عن ذلك في آخرِ لحظة.

٧ ـ الكأسُ المسمومة: هو ديوانُه الشعريُّ الثالث. وأَعلنَ عنه على غلافِ كتابه «كتب وشخصيات»، الذي أَصدره عام ١٩٤٦.

٨ ـ قافلةُ الرقيق: هو ديوانُه الشعريُّ الرابع، وأَعلنَ عنه على غلاف كتابه «كتب وشخصيات».

٩ ـ حلمُ الفجر: هو ديوانُه الشعريُّ الخامس، وقد أَعلنَ عنه على غلافِ كتاب «معركة الإسلام والرأسمالية» الذي أَصدره عام ١٩٥١.

١٠ ـ القططُ الضالة: قصة مصورة، أَعلنَ أَنه فرغَ من كتابتها، وأَنها تحتَ الطبع، وجاءَ الإعلانُ عنها على غلافِ «كتب وشخصيات».

١١ ـ من أَعماقِ الوادي: قصةٌ أُخرى، أَعلنَ أَنها قيد التحرير. وكان الإعلانُ عنها على غلافِ «كتب وشخصيات» أَيضاً.

١٢ ـ المذاهبُ الفنيةُ المعاصرة: بحثٌ نقديٌّ له، من سلسلةِ بحوثه النقدية، أَعلنَ عنه على غلافِ «كتب وشخصيات» أَنه تحت الطبع، أَي أَنه فرغَ منه قبلَ سنة ١٩٤٦م. وأَشارَ له في موطنٍ آخرَ باسم «المدارس الأَدبية المعاصرة»، ويبدو أَنه كان سيتحدثُ فيه

عن المدارسِ الأَدبية لكبارِ الأُدباء، مثل طه حسين والعقاد والحكيم!

١٣ ـ الصورُ والظلالُ في الشعر العربي: بحثٌ أَدبيٌّ نقديّ، أَعلنَ عنه عام ١٩٤٦ على غلاف «كتب وشخصيات».

١٤ ـ القصةُ في الأَدب العربي: بحثٌ نقديٌّ عن القصة، وأَعلنَ عنه في نفسِ الموضعِ السابق.

١٥ ـ شعراءُ الشباب: وأَشارَ له في موطن آخَر باسم «الشعر المعاصر»، وقد طلبَ من الشعراء العرب من خارجِ مصر إِرسالَ دواوينهم له بالثمن، لينقدَها. وجاءَ الطلبُ على صفحاتِ مجلة الرسالة.

١٦ ـ القصةُ الحديثة: بحثٌ نقديٌّ عن القصة الحديثة عند القاصّين العرب من مصرَ وخارجها، أَعلنَ عنه عام ١٩٤٦، على غلاف «كتب وشخصيات».

١٧ ـ عُرابي المفترى عليه: بحثٌ تاريخيٌّ أَعده عن «أَحمد عرابي» قائدِ الثورة العربية ضدَّ الخديوي، التي فشلت، وقُبِضَ على زعمائِها كعرابي والبارودي.

١٨ ـ الشريف الرضي: بحثٌ تاريخيٌّ أَدبي، أَعَدَّه لدراسةِ أَحدِ كبارِ الشعراء والأَدباءِ في العصر العباسي، وهو الشريفُ الرضي.

١٩ ـ القصةُ بين التوراةِ والقرآن: بحثٌ قرآنيٌّ بياني، خصَّصَهُ لدراسةٍ مقارنة بين عرضِ أَحداثِ القصة في التوراةِ وعرضِ أَحداثها في القرآن. وكان ينوي جعْلَه حلقةً من سلسلةِ مكتبة «القرآن الجديدة» التي أَعلن عنها.

٢٠ ـ النماذجُ الإنسانية في القرآن: أَرادَ أن يجعلَه حلقةً من سلسلة مكتبةِ القرآن الجديدة، ليُحَلِّلَ فيه النماذجَ الإنسانيةَ المعروضةَ في القرآن.

٢١ ـ المنطقُ الوجداني في القرآن: حلقةٌ ثالثةٌ ضمنَ سلسلةِ مكتبةِ القرآن الجديدة. والحديثُ فيه عن تأثيرِ القرآن في وجدانِ الإنسان، ومخاطبتِه له.

٢٢ ـ أَساليبُ العرضِ الفنيِّ في القرآن: حلقةٌ رابعةٌ في نفس السلسلة، والحديثُ فيه عن أَساليبِ عرضِ القرآن لموضوعاته، على أَساسِ التصويرِ الفني.

وقد أَشارَ سيدِ إلى تلك الكتبِ القرآنية الأَربعة على غلافِ «كتب وشخصيات» ومقدمةِ كتاب «مشاهد القيامة في القرآن».

٢٣ ـ لحظاتٌ مع الخالدين: بحثٌ كان يَنوي إِعدادَه، وأَخبرَ عنه الأُستاذَ أَبا الحسن الندوي لَمّا قابلَه عام ١٩٥١. ويتحدثُ فيه عن أَعلامٍ من المسلمين، منهم محمد إِقبال.

٢٤ ـ أَمريكا التي رأيت سَجَّلَ في هذا البحث دراستَه العميقةَ الناقدةَ الفاصحةَ لحياةِ الأَمريكيين، خلالَ السنتين اللتين

قضاهما في أَمريكا: ١٩٤٨ ـ ١٩٥٠. وكان يَنوي إِصدارَه عن دارِ المعارف، ضمنَ سلسلة «إقرأ».

ولما وقعَتْ محنةُ سيد قطب عامَ ١٩٥٤، وقُبيلَ اعتقالِه، خشيَ أَنْ يُتلفَ الطغاةُ أُصولَ هذا البحث، فعهدَ بتلك الأُصول إلى أَحدِ معارفه، الذي كان في أَمان، لأَنه لم يكنْ من الإِخوان المسلمين، وطَلَبَ منه أَنْ يحتفظَ به إلى أَنْ تنتهيَ الأَزمة وتزولَ المحنة، ولما اشتدّت المحنة وحُكمَ على سيد بالسجن، خشيَ ذلك الشخصُ على نفسه، فقامَ بإِتلافِ تلك الأُصول، مع أَنها أَمانةٌ عنده! ـ وهو الآن يحملُ شهادة الدكتوراه في الشريعة الإسلامية!! ـ.

وكان سيد قطب قد نشرَ ثلاثَ حلقاتٍ مركَّزة عن أَمريكا في مجلة الرسالة، بعنوان: في ميزان القيم الإنسانية: أَمريكا التي رأيت! كما أَورد بعضَ الكلامَ عن أَمريكا في بعض كتبه الإسلامية، مثل: الإسلام ومشكلات الحضارة، وفي ظلال القرآن.

وقد جمعْتُ مقالاتِ وإِشاراتِ سيد قطب عن أَمريكا، ونشرتُها في كتاب: «أَمريكا من الداخل: بمناظر سيد قطب» وطُبعَ الكتابُ عدةَ طبعات، ولله الحمد!

وآخرُ كتابٍ طُبعَ لسيد قطب في حياتِه هو الجزءُ الثالث عشر من الطبعةِ المنقحة من تفسيره «في ظلال القرآن»، الذي صدر عن دارِ إِحياءِ الكتب العربية عام ١٩٦٤.

وأَعلنَ في نهايةِ هذا الجزء عن سبعةِ كتبٍ إِسلامية ينوي إِعدادَها وطبعَها:

٢٥ ـ معالم في الطريق: المجموعة الثانية.

٢٦ ـ في ظلال السيرة.

٢٧ ـ في موكب الإيمان.

٢٨ ـ أوليات في هذا الدين.

٢٩ ـ تصويبات في الفكر الإسلامي المعاصر.

٣٠ ـ نحو مجتمع إسلامي.

٣١ ـ هذا القرآن.

ولكنَّ الطغاةَ المجرمين أَتلفوا أُصولَ هذه الكتب السبعة، وأَبادوا ما كتبه سيد قطب من فصولِها، ولذلك فُقدتْ نهائياً، ولم يبقَ منها أَيُّ شيء.

هذه هي الأَبحاثُ والكتبُ التي أَعلنَ أَنه سينشرُها أَو يُعدُّها، وهي واحدٌ وثلاثون كتاباً، وهي الآن مفقودة، لأَنَّه لم يُطْبَعْ منها شيء!!

(٢)

تعريف بكتب سيد قطب الأدبية والنقدية

بدأَ سيد قطب بإِصدارِ كتبه الأَدبيةِ والنقدية، في الشعرِ والنقد الأَدبي والقصة. وهذه الكتب هي: مهمةُ الشاعر في الحياة، وديوانُ الشاطىء المجهول، ونقد كتاب مستقبل الثقافة في مصر، والأطياف الأربعة، وطفل من القرية، والمدينةُ المسحورة، وكتبٌ وشخصيات، وأَشواك، وروضةُ الطفل، والقصصُ الديني للأَطفال، والجديدَ في اللغة العربية، والجديدُ في المحفوظات، والنقدُ الأَدبي أُصوله ومناهجُه.

إِنها ثلاثةَ عشر كتاباً، نصفُ كتبه المطبوعة الستة والعشرون! وهذا هو تَرتيبُها حسبَ صدورِ طبعاتها الأُولى.

طُبع كتابُ «مهمة الشاعر في الحياة» عام ١٩٣٣، وطُبعَ كتابُ «النقد الأَدبي» آخر كتبه الأدبية عام ١٩٤٨.

وفيما يلي تعريفٌ موجزٌ بهذه الكتبِ الأَدبية:

١ ـ مهمة الشاعر في الحياة وشعر الجيل الحاضر:

هذا الكتابُ في أَصله محاضرةٌ نقدية، أَلقاها سيد قطب في مدرجِ كليةِ دارِ العلوم في الثامنِ والعشرين من شهر شباط عام ١٩٣٢، عندما كان طالباً في السنةِ النهائية في الكلية.

وقَدَّمَ الطالبَ سيد قطب إلى الحضور أُستاذُه محمد مهدي عَلاّم. ولما أَنهى محاضرتَه عَقَّبَ أُستاذُه عَلاّم عليها، وقد مَدحه وأَثنى عليه، وسَجَّلَ إِعجابَه بذكائِه ونُبوغه.

وبعد ذلك طَبع سيد قطب هذه المحاضرة عام ١٩٣٣، وقَدَّمَ للكتاب أُستاذُه محمد مهدي علاّم. وهو أولُ كتابٍ يُطبع له. وكان عمرُه عامَ ذاك سبعاً وعشرين سنة!

ومما قالَه أُستاذُه في تقديمه: «يُعجبني في كاتبِ هذه المحاضرة جرأَتُه الحازمة، التي لم تسفهْ فتصبحَ تهوراً، ولم تذلّ فتغدو جبناً.. وإنَّ هذه الجرأَةَ الرشيدة التي دَعَتْه إلى الاستقلال بالرأي في بحثه ـ حتى ولو خالَفَنا في بعضِ ما نعتقدُ من الآراءِ الأَدبية لهي التي تجعلُه أَقربُ إلى قلوبنا..».

واعتبرَه مفخرةً من مفاخرِ كليةِ دارِ العلوم، دارِ العلم والأدب[1]!

---

(١) انظر تقديم الدكتور محمد مهدي علام للكتاب، ٩ ـ ١٠.

وقد اهتمَّ سيد قطب في محاضرتِه ـ رسالتِه ـ بتبيانِ الخلافِ بين فهمِ الشعراءِ الشباب والشعراءِ الشيوخ للشعرِ والشعراء، وفهمِ مهمةِ الشاعر في الحياة، ومعظمُ الرسالةِ تفصيلٌ لذلك الخلاف!

ولما كان يختارُ أمثلتَه الشعريةَ كان يختارُها من شعر الشباب، ومن الشعراءِ الشبابِ الذين استشهد بأَشعارهم: علي عبد العظيم، ومحمد الهواري، ومحمود قراعة، والشاعر السوري فؤاد الخطيب.

واستشهدَ ببعضِ أَبياتٍ شعريةٍ له، وواري نفسه خلفَ تعبيرِ «شاعر ناشىء».

وبَرَّرَ اختيارَه لنماذِجه من شعرِ الشباب بأَنه فعلَ ذلك للتعريف بهم، وليس لحقْدِه على الشعراءِ الشيوخ.

ولم يستشهدْ إلاّ بأَبياتٍ شعرية لشاعرٍ من الشعراءِ الشيوخ، هو أُستاذه عباس العقاد.

أَمّا أَميرُ الشعراء أَحمد شوقي فقد قسا عليه سيد قطب قسوةً شديدةً في محاضرتِه، تَفوقُ قسوةَ أُستاذه العقاد عليه.

وقد أَثارتْ هذه القسوةُ أُستاذَه محمد مهدي علاّم، وأَنكرَ ذلك عليه! وردَّ سيد على إنكار أُستاذه بأَنه لم يَقْسُ على أَحمد شوقي الشخص، وإِنما قَسا على أَحمد شوقي الشاعر، وهي قسوةٌ في محلِّها. ووعدَ بإِصدارِ بحثٍ خاصٍّ يدرسُ فيه شعرَ شوقي دراسةً متكاملة، ويُقدمُ فيه الأَدلةَ من شعره على ما أَخذَه عليه!

ولكنَّ هذا البحثَ لم يصدَر، ويبدو أَنَّ سيد قطب عدلَ عن ذلك فيما بعد.

والكتابُ مطبوعٌ في حوالي مائةِ صفحةٍ من القطع الصغير[1].

٢ ـ ديوان «الشاطىء المجهول»:

هو ديوانُ الشعرِ الوحيدُ المطبوعُ لسيد قطب، رغم أَنه أَعلنَ عن بعضِ الدواوين الشعرية تحتَ الطبع، مثل «الكأس المسمومة» و«أَصداء الزمن» و«حلم الفجر» و«قافلة الرقيق»، ولكنه لم ينشرْ واحداً منها.

وقد طَبعَ سيد ديوانَه في مطبعةِ الصادق بالمنيا، وصدرَ في اليومِ الأَول من شهر كانون الثاني عام ١٩٣٥.

وقد أَعلن سيد قطب عن ديوانِه قبلَ صدوره، وجاءَ إِعلانُه في الصحفِ والمجلات التي كان يكتبُ فيها، مثل: الرسالة، والأسبوع، والمقتطف. وكان يَنوي إِصدارَه في مائةٍ وستين صفحة، ثم أَضافَ له قصائدَ أُخرى، وجاءَ في مائتين وثماني صفحات. وطَبعَ منه أَلفاً وخمسمائة نسخة!

---

(١) انظر: «سيد قطب الأديب الناقد» للدكتور عبد الله الخباص، ص ٢٣٢ ـ ٢٣٤. وانظر كتابنا «سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد»، ص ٥٢٣ ـ ٥٢٤.

وصفحاتُ الديوان موزعةٌ على إهداء، ومقدمة، وأَربعةِ فصول.

أَمَّا الإِهداء، فقد أَهدى ديوانَه إلى شقيقِه محمد قطب، الذي كان عام ١٩٣٥ في الخامسة عشرة من عمره.

ومما جاءَ في إِهدائه قوله:

أَخي ذلِكَ اللَّفْظُ الذي في حُروفِهِ
رُموزٌ وأَلْغازٌ لِشَتّى العَواطِفِ

أَخي ذلِكَ اللَّحْنُ الذي في رَنينِه
تَرانيمُ إِخْلاصٍ وَرَيّا تَآلُفِ

أَخي أَنْتَ نَفْسي حينَما أَنْت صورَةٌ
لِآمالِيَ القُصْوىٰ التي لَمْ تُشارِفِ

تَمَنَّيْتُ ما أَعيا المَقاديرَ إِنَّما
وَجَدْتُكَ رَمْزاً لِلأَماني الصَّوادِفِ

فَأَنْتَ عَزائي في حَياةٍ قَصيرَةٍ
وَأَنْتَ امْتِدادي في الحَياةِ وَخالِفي

تَخَذْتُكَ لِي ابْناً ثُمَّ خِدْناً فيا تُرىٰ
أَعيشُ لِأَلْقىٰ مِنْكَ إِحْساسَ عاطِفِ[1]

---

(١) الشاطىء المجهول، ص ٢.

وسجلَ سيد في هذه الأَبيات «نبوءةً» أَو فراسة، تحققتْ بعد ذلك، فهو يرجو أن يكونَ شقيقُه امتداداً له وخالِفاً، يخلُفُه في حياتِه القصيرة:

فأَنت عزائي في حياة قصيرة
وأَنت امتدادي في الحَياةِ وخالِفي

وهذا ما تحققَ فيما بعد، حيث نُرى أَنَّ الأُستاذَ محمد امتدادٌ وخالِفٌ لشقيقه الشهيد في الفكرِ الإسلامي، وفي الحياةِ الدنيا، فاستُشهد سيد عام ١٩٦٦ رحمه الله، وما زالَ الأُستاذُ محمد حياً ـ أَطالَ اللّهُ عمره ـ وهو في هذا العام (١٩٩٩) قد بلغَ الثمانين من عمره المديد إنْ شاء الله ـ لأَنه مولودٌ سنة ١٩١٩ ـ.

وأَما مقدمةُ الديوان، فهي مقدمةٌ نقديةٌ لقصائده، كتبها «الناقدُ سيد قطب» ـ أي: هو الذي كتبَ مقدمةَ ديوانِه، ونقده ـ.

إِنَّ سيد قطب الناقد هو الذي نقدَ سيدَ قطب الشاعر. ومما جاء في مقدمتِه قولُه عن نفسِه: «أَعرفُ مؤلِّفَ هذا الديوان معرفةً وثيقةً عميقة! قد لا يتأَتّى لأَيّ سوايَ أن يعرفَها! ولقد صاحبْتُه زهاءَ سنواتٍ عشر، أو أَكثر قليلاً وراقبْتُ خوالجَه وسرائرَه وسرائرَه، وخبرتُ اتجاهاته وميولَه، وكَوَّنْتُ لي رأْياً عنه، أَقرب ما يكونُ إلى حقيقته!»[1].

---

(١) انظر كتاب الدكتور عبد الله الخباص «سيد قطب الأديب الناقد»، ص ١٣٠ ـ ١٣٣.

فصول الديوان الأربعة:

وفصول الديوان أَربعة، هي:

الفصلُ الأَول: عنوانُه: ظِلالٌ ورموز. ويضمُّ ستَ عشرةَ قصيدة، هي: إلى الشاطىء المجهول، والشعاعُ الخابي، وخراب، وفي الصحراء، والإِنسانُ الأَخير، وخريف الحياة، وخيبَةُ نفسي، والنفسُ الضائعة، والغدُ المجهول، وغريب، وبين الظلال، وعودةُ الحياة، والبعث، والسّرّ: أَو الشاعرُ في وادي الموتى، وسخريةُ الأَقدار، والتجارب.

الفصلُ الثاني: عنوانُه: صورٌ وتأَمُّلات. ويتكوَّنُ من ثلاثَ عشرةَ قصيدة، هي: ليلاتٌ في الريف، والعودةُ إلى الريف، والليلاتُ المبعوثة، والجبارُ العاجز، وناحِتُ الصخر: أَو الفاعل، وبريشة الشعر، وابتسامة، ووردةٌ ذابلة، والعود، وعبثُ الجمال، ويومُ خريف، ومَرَّ يوم، والدنيا.

الفصل الثالث: عنوانُه: غزلٌ ومناجاة. ويتكوَّنُ من سبعٍ وعشرين قصيدة، هي: هي أنت، وأُحبك، والظامئة، ولماذا أُحبك، ورسولُ الحياة، وتواردُ خواطر، وسرُّ انتصارِ الحياة، والمعجزة: أَو السهم الأخير، واللحنُ الحزين، والغيرة، وداعي الحياة، وتحيةُ الحياة، والخطر، ويقظة، ورُقْية الحبِّ، والحياةُ الغالية، والكونُ الجديد. وحُبُّ الشكور، وعصمةُ الحب، والانتظارُ الخالد، والحبُّ المكروه، ونكسة، وعلى أَطلال الحب.

الفصلُ الرابع: عنوانُه: وطنيات، وضمَّ ستَّ قصائد، هي: البطل، وإلى البلادِ الشقيقة، وصوتُ الوطنية، وذكرى سعد، ومأْساةُ البداري، وطليعةُ الضحايا.

فمجموعُ قصائدِ الديوان اثنتان وستون قصيدة. والفترةُ الزمنية التي نظمَ فيها قصائدَ الديوان تسعُ سنوات [١٩٢٥ ـ ١٩٣٤]، ومعظمُ القصائدِ نظمَها في العامِ الأَخير ١٩٣٤، وهي سبعٌ وثلاثون قصيدة، أَكثر من نصفِ قصائدِ الديوان[١]!

لماذا أسماه «الشاطىء المجهول»؟:

واختارَ سيد قطب لديوانِه اسمَ «الشاطىء المجهول»، وهذا الاسمُ مأخوذٌ من عنوانِ قصيدتِه الأُولى: إلى الشاطىء المجهول»، وقد نظمَها سيد عام ١٩٣٤.

وقد حَلَّقَ في قصيدتِه في العالمِ المجهول، لِوَلَعِه به، ولحرصِه على معرفةِ أَسراره، ومما قالَه في هذه القصيدة:

إلى الشّاطىء المَجْهولِ والعالَم الذي
حَنَنْتُ لِمَرْآهُ إلى الضِّفَّةِ الأُخْرى
إلى حَيْثُ لا تَدري إلى حَيْثُ لا تَرىٰ
مَعالِمَ لِلْأَزْمانِ والكَوْنِ تُسْتَقْرا

(١) المرجع السابق.

إلــى حَـيْـثُ لا حَـيْـثٌ تَـمـيـزُ حُـدودَهُ

إلى حَيْثُ تَنْسى النَّاسَ وَالكَوْنَ والدَّهْرا

وكأَنه في ديوانِه يريدُ أَنْ يتعرَّفَ على أَسرارِ شاطىء الحياة المجهول، فالحياةُ لها شاطئان: شاطىءٌ معلوم، وهو حياتُه المادية المحسوسة التي يحياها، وهذا الشاطىءُ لا شيءَ فيه يحجبُه عن أَصحابه، لأَنهم يعيشونَه واقعاً! والشاطىءُ المجهول، وهو الشاطىءُ الخفيُّ المليءُ بالأَسرارِ والأَلغاز. وكان سيد قطب مولَعاً بالوقوفِ على أَسرارِ هذا الشاطىء الخفيِّ المجهول، ولهذا جعلَه عنواناً لديوانه الشعريِّ الوحيدِ المطبوع![1].

وهذا الديوانُ مفقود، لأَنه لم يُطْبَعْ إلاّ الطبعةَ الأُولى سنة ١٩٣٥، ولم تُعِدْ دورَ النشرِ طباعتَه ضمنَ ما أَعادَتْ من طباعةِ كتبِ سيد قطب بعد استشهاده.

وعندما بحثَ عنه الدكتورُ عبد الله الخباص لم يجدْ إلاّ نسخةً في جامعة لندن. وعندما بحثَ عنه السيد عبد الباقي حسين لم يجدْ إلاّ نسخةً منه في مكتبةِ الجامعة الأمريكية في القاهرة.

وجمعَ السيدُ عبدُ الباقي محمد حسين قصائدَ سيد قطب التي وقفَ عليها، في مختلفِ الصحفِ والمجلات، وأَضافَها إلى ديوانه «الشاطىء المجهول»، ونشرَها جميعاً في كتابٍ أَسماه «ديوان سيد قطب»، ونشرتْهُ دارُ الوفاءِ في مصر.

---

(١) انظر «سيد قطب الأديب الناقد» للدكتور عبد الله الخباص، ص ١٧٠ ـ ١٧١.

٣ ـ نقد كتاب «مستقبل الثقافة في مصر»:

في عام ١٩٣٨ أصدرَ الدكتور طه حسين كتابَه الخَطير: «مستقبل الثقافة في مصر». وقد أَثارَ الكتابُ ضجةً كبيرة في مختلفِ الأَوساطِ الفكريةِ والأَدبيةِ والإِسلامية.

لقد دعا طه حسين في كتابه المذكورِ إلى أن تكونَ مصرُ جزءاً من العالم الغربي، وقطعةً من أوروبا، ودَعا إلى الأَخذِ بالحضارة الغربية، والثقافة الأوروبية، بكلِّ ما فيها، من حلوٍ ومُرّ، وخير وشرّ، وأنْ تنسلخَ مصرُ عن الشرق نهائياً!!

وقامَ الأُدباءُ والمفكِّرون بنقْدِ هذا الكتاب، فمنهم مَنْ قبلَه وتَبَنّاه، ومنهم مَنْ هاجَمَه ورفَضَه، ومنهم مَنْ توسَّطَ ووقفَ بينَ بين، فقبلَ ما فيه من حق، ورفضَ ما فيه من باطل، وكان سيد قطب من النوعِ الثالث!

كتبَ سيد قطب نَقْدَه لكتابِ طه حسين، ونشرَهُ في العددِ الرابع من السنة الخامسة من صحيفةِ دار العلوم عام ١٩٣٩. وجعلَ عنوانه: «في النقد الأدبي: مستقبل الثقافة في مصر لطه حسين»، وكان في حوالي خمسين صفحةً من صفحات الصحيفة: [٢٨ ـ ٧٩].

وفي نفسِ السنة التي نَشَرَ فيها النقدَ في صحيفةِ دار العلوم، أَصدرهُ في كتابٍ مستقل، وكانَ في حوالي خمسين صفحة.

وقد أُعيدَ نشرُ الكتابِ بعدَ استشهاد سيد قطب، حيث طبعَتْه الدارُ السعوديةُ للنشرِ الطبعة الثانية عام ١٩٦٩.

وقد بدأَ سيد قطب نقْدَه للكتاب بقوله: «وفي هذا الكتاب ما نوافقُ الدكتورَ فيه أَشدَّ الموافقة، وفيه ما نخالفُه فيه أَشَدَّ المخالفة، وفيه ما يحتملُ الأَخْذَ والرّدّ، والزيادةَ والنقصان»[١].

ولم يَفْصِلْ سيد الأُمورَ التي وافقَ فيها طه حسين عن الأُمورِ التي خالَفَه فيها، وإِنما جاءَتْ جوانبُ الموافقةِ والمخالفة في صفحاتِ الكتاب، حيث رَتَّبَ سيد نقْدَه وفقَ ترتيبِ كتاب طه حسين المنقود.

وكان نقدُ سيد قطب لكتابِ طه حسين نقداً هادئاً، ومناقشتُه لطه حسين مناقشةً منطقية، لم يخرجْ عن قواعدِ الأَدب في النقاش، ولم يستعملْ أَلْفاظَ التهجم!

وكان سيد قطب صريحاً في رَفْضِ دعوةِ طه حسين إلى التقليدِ والتبعيةِ للغرب، وجعْلِ مصر قطعةً أوروبية، وأَخْذِ كلِّ ما عند الغربيين من خيرٍ أو شرّ!

---

(١) «سيد قطب الأديب الناقد» للخباص، ص ٢٣٤ ـ ٢٣٦. وكتابنا «سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد» ص ٥٢٥ ـ ٥٢٧.

٤ ـ الأطياف الأربعة:

صدر هذا الكتابُ عن «لجنةِ النشر للجامعيين»، وطبعَتْهُ مكتبةُ مصر عام ١٩٤٥.

وقد اشترك في تحرير الكتاب، مع إخوتِه الثلاثة: أَمينة ومحمد وحميدة.

وسُمِّيَ الكتابُ «الأَطياف الأربعة» والمرادُ بهم الإِخوةُ الأَربعة.

وقد أَهدى الأَطيافُ الأَربعة كتابَهم المشترك إلى أُمهم، التي توفيتْ عام ١٩٤٠، وَرَثَوْها جميعاً رثاءً حارّاً باكياً.

ومما جاءَ في إهدائِهم لأُمهم قولُهم: «إليكِ يا أُمّاه، نتوجَّهُ بهذا الكتاب. لقد عشنا ـ وأَنتِ مَعَنا ـ غرباءَ في القاهرة، بعدما فَقَدْنا الوالد، ونزحْنا من الوطنِ الصغير، فلما مضيتِ عنا تغرَّبنا في هذا الكونِ والحياة.. لقد مَضيْنا في ذلك الكونِ العريض، نبتاتٍ ضالة، ليسَ لها جذور، وأَطيافاً هائمةً ليس لها قرار..»[1].

ابتدأَت الكتابَ حميدةُ ـ الطيفُ الأول ـ بمجموعةٍ من خواطرها وتأملاتها.

وكتبت أُمينةُ ـ الطيفُ الثاني ـ مجموعةً من القصصِ القصيرة.

---

(١) الأطياف الأربعة، ص ٣.

ثم كتب الطيفُ الثالثُ ـ محمد ـ بعضَ التأملاتِ النفسية والخواطر الشعرية.

وختمَ الكتابَ الطيفُ الرابعُ ـ سيد ـ ببعض تأملاتِه وخواطره، ورثائِه الحارِّ لأُمه.

قال الأُستاذُ «وديع فلسطين» في تعريفِه بالكتاب: «إِنَّ كتابَ الأَطيافِ الأَربعة ممتع، يلتذُّ القارىءُ بقراءته، حتى ليكاد يستعيدُ بعضَ فصولِه مَرّات ومرات، فإنَّ الصورَ الخاطفةَ التي ساقَها مؤلِّفوه، والمشاعرَ السامية التي أَودعوها صفحاتِه، دلَّتْ على قدرةٍ مشاعةٍ بين إِخوةٍ أَربعة، وفطنة مشتركة بينهم، ولباقة أَدبيةٍ يتميَّزون بها»[1].

فالكتابُ أَدبيٌّ نفسيٌّ وجداني، فيه الخواطرُ والمشاعرُ والتأملات، للإِخوةِ الأَربعة[2].

٥ ـ طفل من القرية:

أَصدرَ سيد قطب هذا الكتابِ عن «لجنة النشر للجامعيين» عام ١٩٤٦.

---

(١) الرسالة، السنة الثالثة عشرة، المجلد الأول، عدد ٦١٨، تاريخ ٧/ ٥/ ١٩٤٥، ص٤٩.

(٢) انظر كتابنا «سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد»، ص ٥٢٨.

وكان الدكتور طه حسين قد أَصدرَ من قبلُ كتابَ «الأيام»، الذي تحدثَ فيه عن حياتِه وأَيامه، وسجلَ فيه سيرتَه الذاتية. وكان سيد قطب معجباً بكتابِ طه حسين.

ولذلك أَهدى سيد كتابَه إلى طه حسين، ومما جاءَ في الإهداءِ قولُه:

«إلى صاحب كتابِ الأَيام.. الدكتور طه حسين بك.

إِنها يا سيدي أَيامٌ كأيامك، عاشَها طفلٌ في القرية. في بعضِها من أَيامك مُشابِهٌ، وفي سائرِها عنها اختلافٌ بمقدار ما يكونُ بين جيل وجيل، وقريةٍ وقرية، وحياةٍ وحياة، بل بمقدار ما يكونُ بين طبيعةٍ وطبيعة، واتجاهٍ واتجاه.. ولكنها ـ بعد ذلك كلِّه ـ أَيام من الأَيام..»[1].

ويقعُ «طفل من القرية» في مائتين وعشرين صفحة من القطع المتوسط، موزعة على اثنيْ عشر فصلاً، عدا الإهداء والمقدمة. هي: المجذوب، وضابطُ الجمباز، والمدرسةُ المقدسة، وبعثةٌ طبية، وسيدُ الحكيم، والعفاريت، وحركةٌ ثقافية، وقانونُ اللصوص، وجمعُ الأسلحة، والحصاد، وأَحزانُ الريف، والرحيل.

وحَدَّثَنا سيد في فصولِ كتابه عن نشأتِه في قريته، وعَرَّفَنا على وضعِ أُسرته، ورسمَ لنا صورةً لوالده، وأَخبرَنا عن دراستِه في

(١) طفل من القرية، ص ٤.

القرية، وعن حفظِه للقرآن، وعن صِلاتِه الاجتماعية مع الآخرين، وهو الطفلُ الصغير، وعن اهتمامِه بالكتب وشرائِها أو استعارتِها وقراءتها، وعن دورِه في تثقيفِ القادمين إلى بيت والده، وقراءتِه جريدةَ الحزب الوطني لهم، ودورِه في القرية في ثورة ١٩١٩.

وهذه المعلوماتُ الشخصيةُ تدخلُ ضمنَ الترجمة والسيرة الذاتية، ينتفعُ بها الذين يريدونَ أَنْ يتعرَّفوا على أُسرتِه وطبيعةِ والده، ونشأَتِه الأولى.

كما حَدَّثَنا عن وضعِ قريته، وحياةِ الناسِ فيها، وأَوضاعِهم الاجتماعية والمعيشية، وقريتُه نموذجٌ لقرى الريف الأُخرى. فله من حديثه عن أَوضاعِ القرية هدفٌ إِصلاحي، إِضافةً إلى الهدف الإِخباريِّ الروائي.

وقال سيد في مقدمةِ كتابه: «هذه صورٌ من حياةِ القرية، عاصرتْ طفولَتي منذُ ربعِ قرنٍ من الزمان، لم أُنَمِّقْ فيها شيئاً، ولم أَصنعْ أَكثرَ من نقلِها من صفحةِ الذاكرة إلى صفحةِ القرطاس»[1].

إنَّ كتاب «طفل من القرية» أَقربُ إلى السيرةِ الذاتية منه إلى اليومياتِ والمذكرات.

---

(١) المرجع السابق، ص ٥.

وقد وقفَ بنا سيد عند مغادرتِه القريةَ إلى القاهرةِ للدراسة فيها، كما بدا في فصْل «الرحيل» آخرِ فصولِ الكتاب. حيث غادرَ قريتَه عام ١٩٢٠ إلى القاهرة عند خاله «أَحمد حسين عثمان».

وأَكثرُ فصولِ الكتاب تسجيلاً لحياته في القرية هي: المدرسة المقدسة، والعفاريت، وحركةٌ ثقافية، وأَحزانُ الريف.

ولا يَستغني عن هذا الكتابِ أَيُّ باحث، يريدُ أنْ يتعرَّفَ على نشأةِ سيد قطب وطفولتِه في قريته..[1].

٦ ـ المدينة المسحورة:

«المدينة المسحورة» روايةٌ أُسطوريةٌ خيالية. استوحاها سيد قطب من قَصص «أَلف ليلة وليلة»، التي قصَّتْها «شهرزاد» على الملكِ «شهريار».

وأَصدرَتْ روايةَ «المدينة المسحورة» دارُ المعارف بمصر عام ١٩٤٦، ضمنَ سلسلةِ «إقرأ» المشهورة.

وجاءتْ روايةُ المدينة المسحورة في إِحدى وثمانين صفحة من القطعِ المتوسط.

حَدَّثَنا سيد قطب في روايتِه الأُسطورية الخيالية عن أَرَقِ الملكِ شهريار في الليلةِ المائةِ بعدَ الأَلف، بعد أن ضاقَ بأَحاديثِ

---

(١) انظر حديث الدكتور عبد الله الخباص عن الكتاب، في كتابه «سيد قطب الأديب الناقد»، ص ٢٨١ ـ ٢٨٦.

زوجتِه شهرزاد، التي أَحَسَّتْ منه ذلك، فاستأْذَنَتْ منه إيقافَ الحديث، مما جعلَهُ يشعرُ بالراحة.. وانقطعَتْ عنه شهرزاد تسعاً وتسعينَ ليلة، لا تقصُّ عليه.. مما جَعَلَه يأْرَقُ، فيذهبُ إلى مخدعها طالباً منها مواصلةَ الحديث! وطلعَ الصباح، فسكتت عن الكلامِ المباح! ووعدَتْه الحديثَ في الليل.

وقصَّتْ عليه قصةَ «المدينة المسحورة» في عشرِ ليالٍ متتابعة.

خلاصة أحداث الرواية:

وخلاصةُ أَحداث القصة كما تخيَّلَها سيد قطب ورواها:

كان ملكٌ اسْمُه «نفريت» يحكمُ مدينةً عظيمةً في مصر القديمة، ولم تكن زوجتُه وزوجةُ الأَمير تحملان، حتى جاءَ طبيبٌ من الشمال فعالجهما، وأَنجبتْ زوجةُ الملك طفلاً اسمه «تاسو» وأَنجبتْ زوجةُ أَخيه أُنثى اسمها «تيتي».. واتُّفِقَ على أنْ يتزوجَ ابنَ الملك ابنةَ عمِّه الأَمير.. ولما بلغَ الشابانِ العشرين من العمر اجتاحَ المدينةَ مرضٌ وبائي، قضى على الملكِ وأَخيه وزوجتيْهما، وصارَ «تاسو» ملكاً.. وأَشاروا عليه بالزواجِ من ابنةِ عمه «تيتي» فوافق!!

وخرجَ ذات يومٍ إلى الغابة، فرأى فتاةً ترعى الغنم اسمُها «ساسو» فأَحَبَّها وأَلقى بين يديها صرةً من الذهب، فعادَتْ بالذهبِ

مبكرةً إلى والديْها الشيخين.. فقرَّرَ الوالدان الرحيلَ نحو الشمال، وعدمَ عودةِ الفتاةِ إلى الرعي، مما أَحزنَها وأَحزنَ الملك..

عادَ الملكُ الشابُّ إلى الغابةِ يبحثُ عن فتاتِه، فلم يجدْها.. فتركَ مملكتَه، وخرجَ في رحلةٍ تجاريةٍ لمدة ستةِ شهور، لكن دونَ جدوى.. فعادَ إلى مملكته خائباً.. وعادَ إلى الغابة يبحثُ عن فتاته، فوجَدَها أَمامه، قد قَطعت المسافاتِ الطويلةَ تبحثُ عنه!!

عادَ الملك «تاسو» بفتاتِه الراعية «ساسو» إلى القصر، وأَمر بإِعلانِ الزواجِ منها.. فدبَّ الرعبُ في قلبِ الأَميرة «تيتي»، وحاولتْ إِيقاف الزواج، واستعانَتْ بساحرةٍ لمنع الزواج، فأَخبرتْها أنَّ الأمرَ بيدِ الساحرة الكبيرة، التي تسكنُ وادي «الغيلان»، ولما قابلَتْها أَخبرتْها أَنَّ الوقت قد فات، وأَنه لا يَمنعُ أَحدٌ من السحرة زواجِ الملك من فتاتِه! فيئست الأَميرة «تيتي» وتحولَتْ إلى ساحرةٍ شريرة، وامتلأ قلبُها بالرغبةِ في الانتقام!

وتَمَّ زواجَ الملك، وأَنجبتْ فتاةُ الغابةِ منه طفلةً جميلة، ولما كبرت الطفلةُ مرضَتْ مرضاً شديداً، وجاءَ طبيبٌ من الشمال، ولما رآها قال: إِنها لن تشفى إلاّ إِذا أَقامَتْ في قصرٍ في الغابة، لتستنشقَ الهواءَ الطلق... وبنى الملكُ لابنتِه قصراً، وكانت تتحركُ في الغابةِ بزيٍّ فارس!

وكان في الغابةِ فتى راعٍ، ومعهُ ابنةُ عَمِّه خطيبته، وكان يعزفُ لها الأَلحان! وتنشأُ قصةُ حبٍّ بين الأَميرة والفتى الراعي! وبعدما تبرأُ الأميرةُ من مرضها، يعيدُها والدُها إلى المدينة!

وبعد ذلك أَغارَ الأَعداءُ على المدينة، وعجزَ جنودُ الملك عن صَدِّه، فأَعلنَ الملكُ أَنَّ مَنْ ينجحُ في صَدِّ الأَعداء فسيزوجُه الملكُ ابنتَه! فيتقدمُ الفتى الراعي، وينجحُ في صَدِّ هجومِ الأَعداء، ويعلنُ الملكُ الوفاءَ بالعهد، ويزوجُه من ابنته!

وقبلَ دخولِ الفتى المدينة للزواجِ من الأَميرة، تذهبُ خطيبتُه إلى الساحرة «تيتي» الأَميرة السابقة ـ لمنعِ الزواج. وتسنحُ فرصةُ الأَميرةِ الساحرةِ بالانتقام، فتقومُ بسحرِ المدينة بكلِّ من فيها، ويتحوَّلُ الملك، وابنتُه الأَميرة، وكلُّ أهلِ المدينة إلى تماثيلَ مجسَّمة محنَّطة مسحورة!!

وبعدَ أَلْفِ عامٍ من سحرِ «المدينة المسحورة» سمعَ الناسُ بها، فتوافَدوا لزيارتها، والاستمتاعِ برؤيةِ التماثيلِ البشرية المسحورة، ومن بينهم نَحّاتٌ بارع، فرأَى النحاتُ تمثالَ الأَميرة المسحورة فأُعجبَ به، وتمنّى لو دَبَّتْ فيه الحياة!.. وتتحققُ أُمنيتُه، وتدبُّ الحياةُ فيه، وفي جميعِ أَهل المدينة، فيتحركون مندهشين، وبعد ساعات يموتون جميعاً ويتهاوون جثثاً هامدة!!

إِنَّ «المدينةَ المسحورة» روايةٌ أُسطوريةٌ خياليةٌ فنيةٌ رائعة، تجلَّتْ فيها موهبةُ سيد قطب الفنية في السردِ والتحليل والرواية.

وقامت الروايةُ على السحرِ والكهنةِ والحبِّ والزواجِ والانتقامِ والحقد.

وكان سيد قطب الراوي يتدخلُ أَثناءَ السردِ أحياناً ليقررَ بعضَ آرائه، ويجعلَ أَبطالَ الروايةِ يَنطقونَ بها.

من ذلك قولُه: «كم يفقدُ الإنسانُ حينما يفقدُ الأَحلام! إنَّ هذا العالَم ضيقٌ، تافهٌ تافه، حقيرٌ حقير.. إنَّ ما تبلُغُه الحواسُّ لهو أَمَدٌ قصير، وإِنَّ ما يبلُغُه الوعيُ لهو أُفُقٌ قريب.. وإنَّ الخيالَ والأَحلامَ ليبلُغانِ بهذا المخلوقِ الإنسانيِّ المحدود، أَبلغَ الآمادِ وأَوسَعَ الحدود.. أَلا ما أَشقى الإنسان الذي لا يَملكُ من هذا العالم إلاّ ما تبصرُه عيناه!»[1].

٧ ـ كتب وشخصيات:

في عام ١٩٤٢ بدأَ سيد قطب يكتبُ في مجلةِ الرسالة بعضَ مقالاتِه النقدية، تحتَ عنوان «كتب وشخصيات».

نَقَدَ فيها أَعمالاً أَدبيةً لبعضِ كبارِ الأُدباء كطه حسين والعقاد، وتوفيق الحكيم. وبعد أَنْ نشرَ ثلاثَ مقالاتٍ تحتَ هذا العنوان توقَّفَ عن ذلك، فتساءَلَ أَحدُ القراءِ في مجلةِ الثقافة عن

---

(١) المدينة المسحور، ص ٧. وانظر كلام الدكتور الخباص عن الرواية: «سيد قطب الأديب الناقد»، ص ٢٨٧ ـ ٢٩٢.

سببِ توقُّفِه، فردَّ عليه بأنَّ السببَ هو الجفوةُ التي وقعتْ بين توفيقِ الحكيم وبين مجلةِ الرسالة.

وبعد فترةٍ قصيرةٍ عادَ لينشرَ مجموعةً من المقالاتِ النقدية تحتَ نفسِ العنوان «كتب وشخصيات» في مجلات: الرسالة والثقافة والمقتطف والكتاب والكاتب المصري.

وفي عام ١٩٤٦ أَصدرَ كتابَه «كتب وشخصيات» وطبَعَتْهُ مطبعةُ الرسالة في القاهرة. وفيه معظمُ مقالاتِه النقدية التي نشرَها في الصحفِ والمجلات تحتَ عنوان «كتب وشخصيات» في الفترةِ بين: ١٩٤٢ ـ ١٩٤٦.

والكتابُ في ثلاثمائة وست وثلاثين صفحة.

طبيعة الكتاب وهدفه منه:

أهدى سيد كتابَه إلى الأُدباءِ المنقودين. وقالَ في الإهداء: «إلى هذا الملأ من الأُدباءِ والشعراء والقَصّاصين والباحثين، اللذين أَوحوا إِليَّ بهذه الفصولِ، نقداً لأَعمالِهم الأَدبية.. أُهدي هذا الكتاب.. ردّاً للفضل، واعترافاً بالجميل..

فإذا غضبَ منهم مَن غضب، ورضيَ منهم مَن رضي، فعُذري إلى أولئك، وعُذري إلى هؤلاء. أَنني لم أَقصدْ إلى إغضابٍ أو إلى إِرضاء. وإِنما هي المرآةُ، أَرفعُها لهم، ليروا فيها

صفحتي الوجه، الذي لم يَروا منه من قبلُ إلاّ الصفحة الجميلة.. ولكلٍّ وجهٍ صفحتان!!!..»[1].

وافتتح كتابَه ـ بعد الإهداء ـ بموضوع «وظيفة النقد»، تحدثَ فيه عن النقدِ الأَدبي عند السابقين، وفي العصرِ الحديث، وأَشارَ إلى النقدِ الأَدبيِّ الهدّام، والنقدِ الأَدبيِّ البَنّاء، في العصرِ الحديث، وأَوردَ نماذجَ وأمثلةً لكلٍّ منهما.

وتحدثَ بعد ذلك عن وظيفةِ النقد، وعَمَلِ الناقدِ الأَدبي:

عَمَلُ الناقدِ الأَدبيِّ في الجو العام هو: «التوجيهُ والتقويم، ووضعُ الأُسس، وتشخيصُ المذاهب، وتصويرُ أَطوارها ومناهجها.

وعَمَلُ الناقدِ الأَدبيِّ مع كلِّ مؤلِّف على حدة هو: وضعُ «مفتاحه» في أَيدي قُرّائِه، ليدركوا طبيعتَه الفنية، وشخصيتَه المتميزة، التي هي وراء أَعمالِه الأَدبية!!

ويَرى سيد قطب أَنَّ هذا «المفتاح» ضروريٌّ للتعريفِ بالأَديب وبشخصيته. ضروريٌّ لقراءِ المؤلِّف ليَعرفوه، وضروريٌّ للمؤلفِ نفسِه، فكثيرٌ من المؤلفين لا يَعرفون أَنفسهم، ولا يلتفتونَ إلى خصائصهم، فيحتاجون إلى ناقدٍ يضعُ المرآةَ أَمام وُجوهِهم، ليتعرفوا على طبيعتِهم وملامحِهم.

---

(١) كتب وشخصيات، ص ٣.

والناقدُ لا يُغَيِّرُ «طبيعةَ المؤلف»، ولكنه يُعَرِّفُ بهذه الطبيعة الخاصة، ويَقيسُ أَعمالَه بهما! وبعد ذلك يصبحَ المؤلف «معرفةً» عند القراء! لا من حيثُ الشهرةُ والبروز، ولكن من حيثُ تميزُ الملامح، ووضوحُ الخصائص...

ثم قال عن عملِه في كتابه: «على هذه الأُسس سِرتُ في هذه الفصول، وأَسميتُها: «كتب وشخصيات» لأَنني حاولْتُ أَنْ أُصورَ «شخصيةَ» كلِّ أديب، تناولْتُ أَحَدَ «كتبه» بالنقد. فالكتابُ وصاحبه في هذا الكتاب موصوفان مرسومان مميزان!

ولم يكن من همّي هنا أَنْ أَقومَ بدراساتٍ مطوَّلة عن «الشخصيات» التي تناوْلتُها بالحديث. فقد كانَ حسبي أَنْ أَضعَ «مفتاح» كُلِّ شخصية في أَيدي القراء!! ومَنْ أَرادَ الدراسةَ المطولةَ قامَ بها لنفسه، ومعه هذا «المفتاح!»[1].

أقسام الكتاب الستة:

وقسَّم سيد قطب كتابَه إلى ستةِ أَقسام:

الأَول: في أُصولِ النقد: تحدثَ فيه عن ثلاثِ موضوعات حول: النقدِ والفن، وطريقةِ الأَداء في الفن،، والصورِ والظلالِ في الفن.

---

(١) انظر كتب وشخصيات، ص ٤ ـ ٨.

الثاني: في عالم الشعر: تحدثَ فيه عن: الوعيِ في الشعر، والنفسِ الإنسانية في الشعرِ العربي، والطبيعةِ في الشعر العربي، ونقد ديوان «أَغاني شيراز» لحافظ الشيرازي، كما تحدثَ عن العقاد الشاعر وعن ديوانه «أَعاصير مغرب».

الثالث: في عالمِ القصة والرواية: نقدَ فيه أَربعَ عشرةَ قصة ورواية لأُدباء معاصرين، هم: الدكتورُ طه حسين الذي نقد له ثلاثةَ كتب، وتوفيقُ الحكيم الذي نقدَ له كتابين، وعزيز أَباظة الذي نقد له كتابين، وإبراهيم المازني، وخليل هنداوي، ونجيب محفوظ، وعادل كامل، ومحمود تيمور، ويحيى حقي، وعبد الحميد جودة السحار.

الرابع: في النفسِ والعالم تحدثَ فيه عن أربعةِ كتبٍ في هذا الجانب، لأَربعةِ مؤلفينَ هم: ميخائيل نعيمة، وعبد المنعم خلاف، وحسين فوزي، وشفيق جبري.

الخامس: في البحوثِ والدراساتِ: تحدثَ عن أَربعةِ كتب لأَربعةِ مؤلفين من هذا الجانب هم: عبد القادر حمزة، وأَنطون الجميل، وأَحمد حسن الزيات، وعلي أدهم.

السادس: في التراجم والتاريخ: تحدثَ عن دراسةِ الشخصيات بين العقاد ومحمد حسين هيكل وطه حسين، ثم تحدثَ عن ستةِ كتب لستةِ مؤلفين هم: شفيق غربال، وإبراهيم

المازني، وعبد الرحمن صدقي، وعبد الحليم عباس الأردني، ومحمد كردعلي السوري، وطه الراوي العراقي!

وكانَ ينوي إِصدارَ جزءِ آخر من هذا الكتاب ـ كتب وشخصيات ـ ينشرُ فيه بعضَ مقالاته النقدية الأُخرى التي نشرَها في الصحف والمجلات، ولكنه لم يفعلْ ذلك.

ونشرَ على الغلافِ الأَخيرِ لكتابه قائمةً بكتبه التي أَصدرها حتى عام ١٩٤٦، وقائمةً أُخرى بكتبه التي تحتَ الطبع، وكتبه التي قيدَ التحرير، وكتبه التي قيدَ الإعداد، واشتملتْ تلك القائمةُ على ثلاثة وعشرين كتاباً، وكثيرٌ من الكتب التي أَعلنَ عنها في تلك القائمةِ عدل عنها ولم يُصدرها[١].

٨ ـ أشواك:

أَصدرَ سيد قطب هذه الرواية عن دار سعد مصر بالقاهرة، في شهرِ أَيار ـ مايو ـ عام ١٩٤٧. وتقعُ في مائةٍ وأَربعٍ وثلاثين صفحة من القطع المتوسط، وتضمُّ أَربعةَ عشر فصلاً، هي: أشواك، وكان صباح، وصراع، وسخريات، والعاصفة، وأُنثى، والعذراء الأُم، والماضي الحي، والقطيعة، والترام المسحور، والصورة الهاربة، والأُسطورةُ الخالدة، وعارية، وأَحلام.

---

(١) انظر: «سيد قطب الأديب الناقد» للخباص، ص ٢٣٦ ـ ٢٣٨. وكتابنا عن سيد قطب، ص ٥٣١ ـ ٥٣٢.

والروايةُ في أَصلها تسجيلٌ لقصةِ حبٍّ حقيقية شخصية، عاشَها سيد قطب نفسُه مع خطيبته القاهرية التي خَطبها، ثم تركَها بعدَ أَنْ عرفَ أَنها كانتْ تحبُّ شخصاً قبلَه.

وقد أَسمى نفسه في الرواية «سامي»، وأَسمى خطيبتَه «سميرة».

وأَهدى الرواية لتلك الخطيبة. وقالَ في الإهداء: «إلى التي خاضَتْ معي في الأَشواك، فدُميتْ ودُميتُ، وشَقيتْ وشَقيتُ.. ثم سارتْ في طريق، وسرتُ في طريق، جريحيْن بعد المعركة، لا نفسُها إلى قرار، ولا نفسي إلى استقرار!»[1].

فأَساسُ الرواية واقعيٌّ، ولكنه أَضافَ إليه ما أَوحاهُ إليه به خياله من تفصيلات، وعرضَها بأُسلوبٍ أَدبيٍّ تصويريّ رفيع!

والدليلُ على أَنَّ أَساسَ الروايةِ قصةُ حبٍّ حقيقيةٍ واقعيةٍ لسيد قطب نفسه، الإِشارات التي سجلَها فيها، والتي تنطبقُ عليه تماماً، فهو يتحدثُ عن نفسه فيها.

فالبطلُ سامي نشأَ نشأَتَه الأُولى في الريف، وعاشَ في بيئةٍ محافظة متطهرة، وهو يعيشُ في القاهرة، مع شقيقتيه الفتاتيْن، وهو ملحوظُ المكانةِ في الأَوساط الأَدبية والسياسية، يكتبُ في

(١) أشواك، ص ٥.

الصحف، ويعرفُه الناس بذلك، يحبُّ الكتب، ومغرمٌ بالقراءة والمطالعة، أَديبٌ شاعرٌ ينظمُ القصائد، ويكتبُ القصص!

فهذه الصفاتُ تنطبقُ على سيد قطب تماماً!

ويبدو أَنَّ أَحداثَ هذه الرواية الواقعية بين سيد قطب ومحبوبته قد وقعت في مطلعِ الأَربعينيات، أَثناء الحربِ العالمية الثانية.

وتبدأُ أَحداثُ الرواية ليلة خطوبةِ الشابِّ الأَديب سامي للفتاةِ القاهرية سميرة، حيث أَمسكَ بيدها ليلبسَها خاتمَ الخطوبة، ولكن يَدها ترتعش. وتتقلصُ من يده، وتندُّ دمعةٌ من عينيها، فيشعرُ أَنَّ شوكةً تنغرزُ في فؤاده، ويسألُها عن سببِ ذلك، فتخبرُهُ أَنها كانت تحبُّ قبلَه ضابطاً يدعى «ضياء» وأَنَّ علاقَتَها بضياء قد انتهت، وأَنها الآنَ له هو!!

ويعزمُ سامي منذ تلك اللحظة على فراقِها، وبعد معاناةٍ شديدة يتفقانِ على الافتراق، ويفترقان، ولكنه لا يهدأ ولا يرتاح، ويبقى في صراعٍ وحيرةٍ وشك.

وفي نهايةِ الرواية تتزوجُ سميرةُ من رجلٍ آخر، ويَراها سامي يوماً في الشارع وهي تسيرُ مع طفلها الذي أَسْمته «سمير» فيسيرُ معها وبينهما الطفل، ويتصورُ نفسَه والداً للطفل، ولا يشكُّ أَحدٌ ممن يراهم أَنهم طفلٌ ووالدان!

ويأْتي الترام فتركبُه سميرةُ مع طفلها، وتُفارقُ سامي إلى الأَبد! وهكذا تنتهي أَحداثُ هذه الروايةِ الشخصية.

وقد عَرَّفَ الأُستاذُ «وديع فلسطين» بروايةِ أَشواك في مجلة المقتطف عام ١٩٤٧. وأَشارَ إلى التشابهِ بين «أَشواك» سيد قطب ورواية «سارة» لعباس العقاد. وقال: «فالقصَّتان على ما يتضحُ من سياقِهما مستمدَّتان من حياةِ كاتبيْهما، وموضوعُ كلٍّ منهما يكادُ يكون واحداً. محورُه أَنَّ شاباً يحبُّ فتاة، فتُبدي له الفتاةُ من التدلُّهِ والصَّدِّ ما يقطعُ الصلةَ بين العاشقين!

ولا أُريدُ أنْ يؤخَذَ كلامي على أَنَّ الأُستاذُ قطب نقلَ من الأُستاذِ العقاد، فلكلٍّ منهما طريقتُه الخاصةُ في الكتابة، وفي معالجةِ تجربةِ الحياةِ التي عرضَتْ له»(١).

٩ ـ روضة الطفل:

اشتركَ سيد قطب في الأَربعينيات في تأليفِ سلسلةِ قصصٍ مسليةٍ للأَطفال، وشاركَه في التأليفِ أَمينة السعيد ويوسف مراد.

وعملتْ أَمينةُ السعيد بعد ذلك في العملِ الصحفي، أَمّا يوسف مراد فقد تخصَّصَ بالدراساتِ النفسيةِ التحليلية.

أَطلقوا على سلسلتِهم القصصية اسم «روضة الطفل».

---

(١) «سيد قطب الأديب الناقد» للخباص، ص ٢٧٩.

وفي مطلعِ عام ١٩٤٧ أَصدروا عن دارِ المعارف بمصر حلقتيْن من هذه السلسلة: الأُولى بعنوان: «أَرنبو والكنز»، والثانية بعنوان: «كتكت المدهش».

وذَكرتْ مجلة «الكاتب المصري» في عدد شهر آذار ١٩٤٧ أنَّ الحلقتيْن نالتا إِعجابَ الأَطفال[١].

والحلقتان القصصيتان مفقودتان، ولم تُعَدْ طباعتُهما، ولا نَدري هل أَصْدَرَ سيد قطب مع شريكيه حلقاتٍ أُخرى من «روضة الطفل» أَمْ لا؟

١٠ ـ القصص الديني للأطفال:

اتفقَ سيد قطب مع الأَديبِ القاصّ عبد الحميد جودة السحار على أَنْ يشتركا بتأليفِ سلسلةٍ من «القصص الديني» للأَطفال.

وأَصدر الحلقةَ الأُولى بعنوان «قصص الأَنبياء» عام ١٩٤٧، عن مكتبةِ سعد مصر بالفجالة بالقاهرة.

وضمَّتْ هذه الحلقةُ ثمانيَ عشرةَ قصة من قصص القرآن، هي: آدم، وسفينة نوح، وإرم ذات العماد، وناقة صالح، وإبراهيم يبحث عن الله، وفداء إسماعيل، وحلم يوسف، ويوسف الصديق، ومدين وشعيب، وموسى والعصا، وموسى والألواح، وموسى

---

(١) المرجع السابق.

والرجل الصالح، وداود، وسليمان، وبلقيس، وعيسى ابن مريم، وأهل الكهف، وقدرة الله.

وتتكوَّنُ كلٌّ قصة من هذه القصص من ستّ عشرة إلى عشرين صفحة، وظهرتْ كلٌّ قصةٍ في رسالةٍ خاصة.

ولعلَّ سيد قطب شاركَ عبدَ الحميد السحار في تأليفِ هذه القصص الثماني عشرة كلها.

واستقلَّ السحارُ بعد ذلك في إِكمالِ سلسلة «القصص الديني»، حيثُ أَصدر «قصص السيرة»، ثم أَصدر «قصص الخلفاء الراشدين»، ثم أَصدر قصص «العرب في أوروبا».

وبيَّن سيد والسحار في مقدمةِ الحلقةِ الأُولى من «القصص الديني» منهجَهما في كتابةِ هذه القصص، وهدفَهما منها.

ذكرا أَنهما راعيا في كتابةِ القصص الديني اعتبارين اثنين:

«الأول: أن تكونَ النصوصُ القرآنية هي المصدرَ الأَولَ لما نكتب، لأَننا نعتقدُ أَنَّ للقرآن في هذه الناحية فكرةً تهذيبية معينة.

الثانية: أنْ نُحققَ السردَ الفنيَّ للقصص، بما يربِّي في الطفلِ الشعورَ الديني، ويقوّي الحاسةَ الفنية، وينمّي الذوقَ الأَدبي»[1].

وفاء عبد الحميد السحار لسيد قطب:

وفي عام ١٩٦٥ نفدت نسخُ الطبعةِ الثانية من القصص

---

(١) «سيد قطب الأديب الناقد» للخباص، ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠.

الديني، وكان سيد قطب وقتَها في السجن، في محنتِه الثانية القاسية.

وأَراد عبدُ الحميد جودة السحار أَنْ يُعيدَ إِصدارَ السلسلة، ولكنَّ دائرةَ المطبوعات حَوَّلَتْه إلى مديرِ مكتب المشير عبد الحكيم عامر ـ شمس بدران ـ ليأخذَ منه إِذناً بإعادةِ الطبع. ولما قابلَ السحارُ شمسَ بدران قال له الأَخير: نعطيكَ الإِذنَ بإِعادة الطبع على شرطِ أَنْ تُسقطَ اسمَ سيد قطب من السلسلة!

فقال له السحار: لكنَّ سيد قطب اشتركَ معي في تأليفِها قبلَ حوالي عشرين سنة، فكيف أُسقطُ اسمَه عن الغلاف؟

قال له بدران: إِنْ لم تسقط اسمه فلن نُعطيك الإِذن!

فاستغرب السحار من ذلك وقال لبدران: كأنكم حريصون على محوِ اسمِ سيد قطب وفكرِه؟

فما كان من بدران إلاّ أَنْ قال: نعم، نحن حريصون على ذلك، وجادّون في تحقيقِه!!

فخرج السحار، ولم يأخذْ إذناً بإعادةِ طبع الكتاب، لأَنه كان وفياً لشريكه سيد قطب، وموقفُه موقفٌ رجوليٌّ عظيمٌ أَمام بدران، يسجل له[1].

---

(١) سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد، ص ٥١٢ ـ ٥١٣.

١١ ـــ الجديد في اللغة العربية:

١٢ ـــ الجديد في المحفوظات:

هذان كتابان منهجيان، أَلَّفَهما سيد قطب مع آخرين من رجالِ المناهج في وزارةِ المعارف، وكان تأليفُه لهما في نهاية الأربعينيات. وصدرا عن دارِ المعارف بمصر.

ولا نعرفُ السنةَ التي أَلَّفَ فيها هذيْن الكتابيْن المنهجييْن، لأنَّ الكتابيْن مفقودان، وصودِرا بعدَ محنة سيد قطب الثانية عام ١٩٦٥، ولم تُعَدْ طباعتُهما بعد ذلك، فلم نعرف محتوياتهما، سوى أَنهما كتابان لطلبة مدارس الوزارة.

وكان سيد قطب من كبارِ موظفي وزارة المعارف، قبلَ استقالتِه من عمله عام ١٩٥٣، وآخرُ وظيفةٍ له كانت: «مراقب بحوث فنية» في الوزارة.

الكتاب الأول: «الجديد في اللغة العربية» أَلَّفه سيد مع زملائه وفقَ منهاجِ اللغة العربية في الوزارة.

والكتاب الثاني: «الجديد في المحفوظات» أَلَّفه وفقَ منهاجِ المحفوظات.

وكان الكتابان مقرَّريْن على طلبةِ المدارس حتى بعد محنةِ سيد قطب الأُولى عام ١٩٥٤.

وأُلغيَ الكتابان المنهجيان عند محنته الثانية عام ١٩٦٥.

يقول عادل حمودة: «في ذلك الوقت ـ بعدَ قيامِ الثورة ـ كانت كتابات سيد ومؤلَّفاته توزَّعُ على المدارسِ التابعة للوزارة.. كما أَنَّ أَناشيدَه الوطنية كانت تُدَرَّسُ للتلاميذِ في دروس المطالعة.

ولذلك قالَ عبد الحكيم عامر عام ١٩٦٥ لكمال الدين حسين ـ عندما لامه عبدُ الناصر بسببِ موقفه من سيد ـ «أَيريدُ سيد قطب، الذي كنتَ توزعُ كتبَه، أنْ يصنعَ من نفسه نبياً، ينزلُ عليه الوحي؟!».

وقد ظلتْ مؤلفاتُ وأَناشيدُ سيد قطب في المدارسِ الحكومية حتى بعد القبضِ عليه سنة ١٩٥٤.. ولم يبدأ التخلصُ منها إلاَّ بعد عشر سنوات، بعد أحداث ١٩٦٥.

وقد قامَتْ دارُ المعارف ـ التي كانت تنشرُ كتبَ سيد ـ بجمعِ ما في مخازنها ومكتباتِها من نسخٍ لمؤلفات سيد.. وأَحرقَتْها.. وكان تصرفُها هذا شاذاً وغريباً»[١].

والكتابان مفقودان، ولا نعرفُ عن محتوياتهما شيئاً[٢]!

---

(١) سيد قطب من القرية إلى حبل المنشقة لعادل حمودة، ص ١١١ بتصرف واختصار.

(٢) كتابنا: «سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد»، ص ٥٣٦ ـ ٥٣٧.

١٣ ـــ النقد الأدبي: أصوله ومناهجه:

أَصدر سيد قطب كتابَه «النقدُ الأَدبي أصوله ومناهجه» في شهرِ يونيو ـ حزيران ـ ١٩٤٨، ونشرَتْه له دارُ الفكر العربي في القاهرة، ثم طُبِعَ الكتابُ طبعةً ثانية في دار الفكر العربي عام ١٩٥٤، قبيلَ محنتِه الأُولى.

وهو آخرُ كتابٍ نقديٍّ له، حيث توقَّفَ سيد قطب بعد عام ١٩٤٨ عن مسيرتِه الأَدبية النقدية، وبدأَ مسيرتَه الفكريةَ الإسلاميةَ الدعوية، التي أَبدعَ فيها ما أبدع، ووصلَ إلى الريادة!

ويقعُ الكتاب في مائتين وسبعين صفحة من القطع الكبير، ويضمُّ خمسةَ فصول، إِضافةً إلى الإِهداء والمقدمة.

أَهدى سيد كتابَه إلى الإمامِ عبد القاهر الجرجاني، وقال في الإِهداء: «إلى روح الإِمام عبد القاهر: أَولِ ناقدٍ عربيٍّ أَقامَ النقدَ الأَدبيَّ على أُسسٍ علمية نظرية، ولم يطمسْ بذلك روحَه الأَدبية الفنية، وكان له من ذوقِه النافذ، وذهنِه الواعي، ما يوفقُ به بين هذا وذاك، في وقتٍ مبكِّرٍ شديدِ التبكير..»[1].

تحدَّثَ في مقدمةِ الكتاب عن وظيفةِ النقد الأَدبي وغايتِه، وهي تتلخصُ في: تقويمِ العملِ الأَدبي من الناحيةِ الفنية، وبيانِ

---

(١) النقد الأدبي أصوله ومناهجه، ص ٣.

قيمتِه الموضوعية، وقيمه التعبيرية والشعورية، وتعيين مكانه في خطِّ سيرِ الأَدب...

وأَشارَ في المقدمة إلى أَنه قَسَّمَ كتابَه إلى قسمين:

الأَول: أُصولُ النقد الأَدبي: وَضَعَ تلك الأُصولَ لئلا يكونَ الذوقُ الخاصُّ هو وحده المحكَّم.

الثاني: مناهجُ النقد الأدبي: وصفَ فيه مناهجَ النقد الأَدبي في القديم والحديث.

فصول الكتاب الخمسة:

وفصول الكتاب الخمسةُ هي:

الأَول: العملُ الأدبي: تحدَّثَ فيه عن تعريفِ العملِ الأَدبي، وعَرَّفَه بأَنه: التعبيرُ عن تجربةٍ عمليةٍ في صورةٍ موحية.

وأَوردَ نماذجَ شعريةً عاليةً مؤثرة، تُعتبر أَعمالاً أَدبيةً رفيعة، نماذجَ لابن الرومي والبحتري والخيام، وطاغور وتوماس هاردي.

الثاني: القيمُ الشعوريةُ والقيم التعبيرية في العمل الأدبي: أَشارَ فيه إلى أَنَّ العملَ الأَدبيَّ مكوَّنٌ من مرحلتيْن متعاقبتيْن: الأُولى: القيمُ الشعورية التي يَشعرُ بها الأديب. والثانية: القيمُ التعبيرية التي يُترجمُ فيها الأَديبُ عن قيمهِ الشعورية. واعتبرَ المرحلتيْن متلازمتيْن لا تنفصلان.

والقيمُ الشعورية التي أَشارَ لها هي: الخصوصيةُ في الشعور، ومدى العمقِ والشمولِ في الاتصال بالكون والحياة، وصحةُ الشعور، وصدقُ الاتصال.

أَما القيمُ التعبيريةُ فقد تحدَّثَ فيها عن عناصرِ الدلالة الأدبية، وبَيَّنَ كيف تدلُّ الأَلفاظُ على معانيها، وركَّزَ على دلالتِها التصويريةِ القائمةِ على الصور والظلال، ثم تحدثَ عن كيفيةِ استخدامِ الأَديبِ الموهوب للألفاظِ للدلالةِ على قيمه الشعورية، وكيفيةِ إِتمامِ العملِ الأَدبي وإِخراجه بعد ذلك[1].

وبعد حديثِه عن دلالةِ اللفظ انتقلَ للحديثِ عن دلالةِ العبارة المكونة من مجموعةِ أَلفاظ، واعتبر عناصرَ دلالةِ العبارة هي: الدلالاتُ اللغوية للألفاظ، والدلالةُ المعنوية الناشئة عن اجتماع الألفاظ وترتيبها في نسقٍ معين، والإِيقاعُ الموسيقيُّ الناشىءُ من مجموعة إِيقاعاتِ الأَلفاظ متناغماً بعضُها مع بعض، ثم من الصورِ والظلال التي تشعُّها الأَلفاظُ متناسقةً في العبارة[2]..

وأَوردَ في حديثه عن القيمِ التعبيرية نماذجَ تصويرية رائعةً من كتابه «التصوير الفني في القرآن» أَظهرَ فيها عظمةَ التعبيرِ القرآني المصوِّر.

الثالث: تحدثَ فيه عن فنونِ العمل الأدبي. وفنونُه التي

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٤١.

أَشارَ لها هي: الشعر، والقصة أَو الأُقصوصة، والتمثيلية، والترجمة أو السيرة، والخاطرة، والمقالة، والبحث.

الرابع: تحدَّثَ فيه عن قواعدِ النقد الأدبي بين الفلسفة والعلم. وبَيَّن أَنَّ العملَ الأَدبي لا يخضعُ للفلسفة وقواعدِها، ولا للعلم وتحليلاته، وإِنما هو تعبيرٌ عن تجربةٍ شعوريةٍ في صورة موحية.

الخامس: تحدَّثَ فيه عن مناهج العمل الأدبي. بدأه بالحديثِ عن أَربعةِ أَغراض أَساسية للنقد الأَدبي. ثم عرَضَ أَربعةَ مناهج للنقد الأدبي هي: المنهجُ الفني، والمنهجُ التاريخي، والمنهجُ النفسي، والمنهجُ المتكامل.

عَرَّفَ كلَّ منهجٍ من هذه المناهج الأَربعة، وذَكَرَ عليه أَمثلةً ونماذج عديدة، وكادَ يميلُ إلى ترجيحِ المنهج الفني في النقد الأَدبي لمزاياه العديدة، ولكنه رجَّحَ المنهجَ المتكامل، الذي يجمعُ بين المناهج السابقة، ويأخذُ كلَّ جانبٍ حسنٍ منها.

قال في المقدمة: «وقد يرى القارىءُ بادىءَ ذي بدء أَنني آثَرْتُ المنهجَ الفني على المنهجيْن التاريخي والنفسي، ولكنَّه حينَ ينتهي من قراءةِ الكتاب سيرى أَنَّ المنهجَ المختارَ هو المنهجُ المتكامل، الذي ينتفعُ بهذه المناهج الثلاثة جميعاً، ولا يَحصُرُ نفسَه داخلَ قالبٍ جامد أو منهجٍ واحد»[1].

---

(١) المرجع السابق، ص ٦.

وبَشَّرَ في كتابه بنظرية «الصور والظلال في العمل الأدبي» وهي التي أَدارَ عليها كتبَه القرآنية الجمالية، وبَدَتْ بارزةً في تفسيره «الظلال»[1].

---

(١) انظر: «سيد قطب الأديب الناقد» للخباص، ص ٢٣٨ ـ ٢٤١. وكتابنا عن سيد قطب، ص ٥٣٧ ـ ٥٣٨.

(٣)

المفتاح الجمالي ومكتبة القرآن الجديدة

بعدَ حديثِنا عن كتبِ سيد قطب الأَدبية والنقدية ـ التي بلغتْ ثلاثةَ عشر كتاباً ـ ننتقلُ للحديث عن كتبه الإِسلامية، وهي ثلاثةَ عشر كتاباً أيضاً.

كتب سيد قطب الإسلامية خمسة أقسام:

ويمكن أن نقسمَ كتبه الإِسلامية إلى خمسةِ أَقسام:

القسمُ الأَول: كتبُه القرآنيةُ الجمالية، التي حلَّلَ فيها التعبيرَ القرآنيَّ تحليلاً فنياً بيانياً جمالياً، وأَساسُ هذه الكتب كتابُه «التصوير الفني في القرآن»، وكتبه الأُخرى في مشروعِ «مكتبة القرآن الجديدة» الذي كان يَنوي إخراجَه. ويمثلُ هذا القسم كتابان: التصوير الفني في القرآن، ومشاهد القيامة في القرآن!

القسمُ الثاني: كتبُه الفكريةُ الإسلامية التي أَلَّفَها قبلَ إِدخاله السجن عام ١٩٥٤، والتي بدأَها بكتابه «العدالة الاجتماعية في الإِسلام». وهي أَربعةُ كتب: العدالةُ الاجتماعية في الإِسلام،

ومعركةُ الإسلام والرأسمالية، والسلامُ العالمي والإسلام، ودراساتٌ إسلامية.

القسمُ الثالث: كتبه الفكريةُ الإسلاميةُ التي أَلَّفَها في سجنه، وتُعتبرُ تَحَوُّلاً كبيراً في فهمِهِ للإسلام والقرآن والدعوة والمواجهة والجهاد، وهي أَربعةُ كتب: هذا الدين، والمستقبلُ لهذا الدين، والإسلامُ ومشكلات الحضارة، وخصائصُ التصور الإسلامي.

القسم الرابع: كتبه القرآنية الدعوية الحركية: حيث فسَّرَ القرآن تفسيراً حركياً تربوياً، وهما كتابان: في ظلال القرآن، ومعالم في الطريق.

القسمُ الخامس: كتابُه الخاتم الذي ختمَ به كتبه، وأَلَّفه بعدَ سجنه الثاني عام ١٩٦٥، وقبيلَ استشهاده، وجاءَ نشيداً بيانياً عالياً، وهو كتاب «مقومات التصور الإسلامي» الذي طُبعَ بعد عشرين سنة من استشهاد صاحبه.

المفتاح الجمالي والمفتاح الحركي في فهمه القرآن:

إننا نعتقد أن الله قد تفضل على سيد قطب، وخصَّه بمفتاحيْن، فتحَ بهما كنوزَ القرآن المذخورةَ فيه، وتفرَّدَ بهما، وصارَ مفكِّراً إسلامياً، ومفسِّراً قرآنياً، ومحلِّلاً بلاغياً بيانياً:

الأَول: مفتاحٌ جمالي: فتحَ به كنوزَ القرآنِ الجماليةَ البيانية الفنية، وهو الذي بيَّنَه في كتاب «التصوير الفني في القرآن».

الثاني: مفتاحٌ حركيّ تربوي: فتحَ به كنوزَ القرآنِ الحركيةِ والدعوية والتربوية، وقدَّم للدعاةِ منهجاً في التفسيرِ وفهم القرآن يقومُ على الدعوةِ والحركة والجهاد والمواجهة، وتمثلَ هذا المفتاحُ في تفسيرِه الرائد «في ظلال القرآن» وفي فرعِه المتفرع عنه «معالم في الطريق»[1].

وسنعرِّفُ بكتبه الإسلامية الثلاثة عشر على أَساسِ هذا التصنيفِ الموضوعيِّ بعون الله، ونخصصُ لكلِّ قسمٍ من هذه الأَقسامِ الخمسة مبحثاً مستقلاً إِنْ شاء الله!

المفتاح الجمالي والتصوير الفني في القرآن:

كلامُنا الآن عن المفتاح الجمالي الذي فتحَ سيد قطب كنوزَ القرآنِ الجمالية، ووضَّحه في كتابه «التصوير الفني في القرآن» وجعلَه أَساسَ مكتبةِ القرآن الجديدة.

معنى «التصوير في القرآن»: أنَّ القرآن استخدمَ طريقةَ التصويرِ في عرضِ مختلفِ موضوعاته، حيث جاءتْ عباراتُه مصوَّرة متخيَّلة، والقارئُ اليقظُ البصيرُ للقرآن، عندما يقرأُ آياته فإنه يتخيلُ في خيالِه صورةً حيةً متحركة مؤثِّرة، يستمتعُ بتأمُّلِها في خيالِه ومشاعره!

---

(١) انظر مبحث «المفتاح الجمالي والمفتاح الحركي» في بداية كتابنا «سيد قطب والتصوير الفني في القرآن»، ص ١١ ـ ١٦.

وبما أنَّ سيد قطب أَديبٌ يُحسنُ التذوقَ والتخيل، فقد كانَ يتخيلُ صورةً فنيةً خيالية في خياله، عندما يقرأُ آياتِ القرآن، ويستمتعُ بذلك استمتاعاً عالياً!

وبقيتْ علاقةُ سيد قطب مع الصورِ الفنية في الآياتِ القرآنية سرية، لم يكتبْ عنها شيئاً، حتى مطلع عام ١٩٣٩.

في شهرِ شباط ـ فبراير ـ عام ١٩٣٩ نشر مقالاً في مجلة «المقتطف» بعنوان «التصوير الفني في القرآن الكريم»، نشره في حلقتيْن، من عدديْن متتابعيْن من أَعدادِ المجلة.

تحدَّثَ في ذلك المقال عن معنى «التصوير في القرآن»، ودعا إلى دراسةِ التعبيرِ القرانيِّ دراسةً فنيةً بيانية مصوَّرة، وأَوردَ أَمثلةً ونماذج من الآيات، وأَشارَ إلى ما فيها من تصويرٍ بيانيٍّ متخيَّل!

وقال في نهايةِ المقال: «لم يكن قصدي مما قدمْتُ إلاّ ضربَ الأمثلة، ولفتَ النظر، فلم أَكنْ أَنوي الاستقصاء، وما يزالُ وراءَ ما ذكرت ما لم أَذكر. والموضوعُ خصبٌ وصالحٌ للدراساتِ المستفيضة، والمنتبهون في دراسةِ الآداب بالجامعة والأَزهر ودار العلوم، يستطيعونَ أَنْ يُضَمِّنوا هذا البحث رسالةً قيمةً للنقاش والدراسة.

.... تلك عجالةٌ في هذا البحثِ البكر الخصيب، ولعلَّها تكونُ مقدمةً لبحثٍ شاملٍ كبير إن شاء الله..»[١].

كتابه «التصوير الفني في القرآن» عام ١٩٤٥:

ومرَّ أكثر من ستة أعوام على هذا البحث في مجلة المقتطف، وفي شهر نيسان ـ أبريل ـ عام ١٩٤٥ أَصدرَتْ دارُ المعارف بمصر الكتابَ القرآنيَّ الأَولَ لسيد قطب: «التصوير الفني في القرآن».

وشرحَ سيد في كتابِه نظريةَ التصوير الفني في القرآن، وبيَّنَ خصائصَها، ووضَّحَ آفاقَها، وعَرَضَ عليها الأمثلةَ الكثيرة من كتاب الله، وبَيَّنَ ما فيها من جمالِ التعبيرِ بالتصوير.

وقد مَنَّ اللّهُ عليَّ ـ أَنا العبدُ الفقير ـ بالتخصصِ في دراسةِ التصويرِ الفنيِّ في القرآن، حيثُ شاءَ اللّهُ الحكيم أَنْ يكونَ موضوعُ رسالتي لنيلِ درجةِ الماجستير في التفسير وعلوم القرآن هو: «سيد قطب ونظريةُ التصوير الفني في القرآن»، وكان المشرفُ عليَّ فضيلةَ الأُستاذ الدكتور أحمد حسن فرحات، وكانت مناقشةُ الرسالةِ في كلية أصول الدين ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض عام ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م، وناقشني في الرسالة الأُستاذُ محمد قطب، والأُستاذُ الدكتور محمد الراوي.

---

(١) مجلة المقتطف، مجلد ٩٤، الجزء الثالث، مارس ١٩٣٩، ص ٣١٧ ـ ٣١٨.

ثم نشرتُ القسمَ الثاني من الرسالة بعنوان «نظرية التصوير الفني عند سيد قطب» والحمدُ لله على فضله وتوفيقه!

ذَكَرَ سيد قطب في كتابه قصتَه مع الصورِ الفنية في القرآن، بعد أَنْ أَهداهُ إلى أُمه، التي توفيت عام ١٩٤٠.

وبدأَ الكتابَ بعنوانٍ مثير هو: «لقد وجدتُ القرآن». ذكرَ فيه قصتَه مع التصويرِ الفني في القرآن.

قالَ فيه: «لهذا الكتاب في نفسي قصة.

ولقد كان من حقّي أَنْ أحتفظَ بهذه القصةِ لنفسي، ما ظلَّ هذا الكتابُ خاطراً في ضميري.. أَما وقد أَخذَ طريقَه إلى المطبعة، فإنَّ قصتَه لم تَعُدْ ملكاً لي، ولا خاصةً بي!

لقد قرأتُ القرآنَ وأَنا طفلٌ صغير، لا ترقى مداركي إلى آفاقِ معانيه، ولا يحيطُ فهمي بجليلِ أَغراضه، ولكنني كنت أَجدُ في نفسي منه شيئاً..

لقد كان خيالي الساذجُ الصغير، يُجَسِّمُ لي بعضَ الصورِ من خلالِ تعبير القرآن، وإِنها لصورٌ ساذجة، ولكنها كانت تشوقُ نفسي، وتلذُّ حسي...

من الصورِ الساذجة التي كانت ترتسمُ في خيالي إذ ذاك، صورةٌ كانت تتمثلُ لي كلَّما قرأتُ هذه الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَۚ﴾ [الحج: ١١].

ولا يضحك أحد، حينما أُطلعَه على هذه الصورة في خيالي:

لقد كان يشخصُ في مخيلتي رجلٌ قائمٌ على حافةِ مكانٍ مرتفع.. وهو قائمٌ يصلّي، ولكنه لا يملكُ موقفَه، فهو يتأرجحُ في كلِّ حركة، ويهمُّ بالسقوط، وأَنا بإزائه، أَتبعُ حركاتِه، في لذةٍ وشغفٍ عجيبين!...

... وصورٌ من هذه شتى، كانت ترتسمُ لخيالي الصغير، وكنتُ أَلتذُّ التأملَ فيها، وأَشتاقُ قراءةَ القرآن من أجلها، وأَبحثُ عنها ـ كلما قرأت ـ في ثناياه!

تلك أيام... ولقد مضَتْ بذكرياتِها الحلوة، وبخيالاتها الساذجة.. ثم تَلَتْها أيام.. ودخلْتُ المعاهدَ العلمية، فقرأتُ تفسيرَ القرآن في كتبِ التفسير، وسمعْتُ تفسيرَه من الأَساتذة، ولكنني لم أجد فيما أَقرأُ أو أَسمعُ ذلك القرآنَ اللذيذَ الجميلَ، الذي كنتُ أَجده في الطفولةِ والصِّبا!!

واأَسفاه! لقد طُمستْ كلُّ معالمِ الجمال فيه، وخَلا من اللذةِ والتشويق..

.... وعدْتُ إلى القرآن، أَقرؤُه في المصحف، لا في كتبِ التفسير. وعدتُ أَجدُ قرآني الجميلَ الحبيب، وأَجدُ صوري المشوقةَ اللذيذة.. إِنها ليستْ في سذاجتها التي كانت هناك.. لقد

تغيَّرَ فَهمي لها، فعدتُ الآن أَجِدُ مراميها وأَغراضَها، وأَعرفُ أَنها مَثَلٌ يُضْرَب، لا حادثٌ يَقَع..

ولكنَّ سحرَها ما يزال. وجاذبيتَها ما تزال.. الحمدُ لله.. لقد وجدتُ القرآن!..

وخطرَ لي أَن أَعرضَ للناس بعضَ النماذج مما أَجده في القرآنِ من صور، ففعلْت.. ونشرتُ بحثاً في مجلةِ «المقتطف» عام ١٩٣٩، تحت عنوان «التصوير الفني في القرآن» تناولتُ فيه عدةَ صورٍ فأَثبَتُّها، وكشفتُ عما فيها من جمالٍ فني، وبينتُ القدرةَ القادرةَ التي تصوِّرُ بالأَلفاظِ المجردة، ما تعجزُ عن تصويرِه الريشةُ الملوَّنة، والعدسةُ المشخِّصة.. وقلت: إِنَّ هذا البحثَ يصلحُ أن يكونَ موضوعاً لرسالةٍ جامعية!!

ومَرَّت السنوات.. وصُوَرُ القرآنِ تخايلُ لي، وتتراءى فيها آثارُ الإِعجاز الفني.. وكلما عدتُ إِليها قَوِيَ في نفسي أَنْ أَتولّى البحثَ الذي تركْتُه فلم يحاولْه أَحد، وأَنْ أُكملَه وأَتوسَّعَ فيه..

وظللتُ أَعكفُ على القرآن بين الحينِ والآخر، أَتملّى صوره الفريدة، فتزدادُ فكرةُ البحثِ في نفسي رسوخاً، ثم تُشغلُني عنه الشواغل، فيرتدُّ أُمنيةً في الضمير، ورغبةً في الشعور..

إلى أَنْ شاء الله أنْ أَتوفَّرَ عليه في هذا العام..

لقد بدأْتُ البحث، ومرجعي الأَولُ فيه هو المصحف، لأَجمعَ الصورَ الفنية في القرآن، وأَستعرضَها، وأُبينَ طريقةَ التصويرِ فيها، والتناسقَ الفني في إِخراجها.. إِذ كان همي كلُّه موجَّهاً إلى الجانبِ الفني الخالص، دون التعرضِ للمباحثِ اللغوية أو الكلامية أو الفقهية، أَو سواها من مباحثِ القرآن المطروقة!

ولكن ماذا أَرى؟

إِنَّ حقيقةً جديدةً تبرزُ لي: إِن الصورَ في القرآن ليستْ جزءاً منه يختلفُ عن سائره، إِنَّ التصويرَ هو قاعدةُ التعبيرِ في هذا الكتابِ الجميل، القاعدةُ الأساسيةُ المتبعةُ في جميعِ الأَغراض ـ فيما عدا غرض التشريع بطبيعة الحال ـ فليس البحثُ إِذنْ عن صورٍ تُجمَعُ وتُرَتَّب، ولكن عن قاعدةٍ تُكْشَفُ وتُبْرَز!

ذلك توفيق، لم أَكن أَتطلع إِليه، حتى التقيتُ به!

وعلى هذا الأَساس قامَ البحث، وكلُّ ما فيه إِنما هو عرضٌ لهذه القاعدة، وتشريحٌ لظواهرها، وكشفٌ عن هذه الخاصيةِ التي لم يُتَعَرَّضْ من قبلُ لها!

وحين انتهيتُ من التحضيرِ للبحث، وجدتني أَشهدُ في نفسي مولدَ القرآن من جديد.. لقد وجدْتُه كما لم أَعهدْه من قبلُ أَبداً. لقد كان القرآنُ جميلاً في نفسي، نعم، ولكنَّ جمالَه كان أَجزاءَ وتفاريق، أَمّا اليوم فهو عندي جملةٌ موحدة، تقومُ على

قاعدةٍ خاصة، قاعدةٍ فيها من التناسق العجيب، ما لم أَكنْ أَحلمْ من قبلُ به، وما لا أَظنُّ أَحداً تصوَّره!!»[1].

وبعدما كشفَ سيد قطب للقراءِ قصةَ مفتاحِه الجماليِّ في «التصوير الفني في القرآن» تحدَّثَ عن تأثيرِ القرآنِ في الناس، وسَمّاه «سحرُ القرآن». ثم تحدثَ في مبحثٍ لاحقٍ عن أَسبابِ تأثيرِ القرآنِ في الناس، وسماه «منبع السحر في القرآن». ووقف في مبحث ثالث يتساءل عن: كيف فهم القرآن؟ نابع فيه المراحلَ التي مَرَّ بها تدوقُ الجمالِ الفني في التعبير القرآني، ووضعَ كتابَه التصوير الفني في موضعِه الصحيحِ المرموق بين تلك المراحل»[2].

ثلاث مراحل لتذوق الجمال القرآني:

وقبل كلامِنا عن معنى «التصوير الفني في القرآن» نلخصُ مراحلَ تذوقِ الجمالِ القرآني.

ويجبُ أن نفرقَ بين الدراساتِ البيانية للقرآن، وبينَ تذوق الجمال في التعبير القرآني، فالدراساتُ البيانيةُ للقرآن كثيرة، منذُ عهدِ التابعين إلى الوقت الحاضر، حيث نظرَ المفسِّرون والبيانيّون والأُدباءُ والبلاغيّون كثيراً في التعبيرِ القرآني، وقدَّموا تحليلاتٍ

(١) التصوير الفني في القرآن، ص ٦ ـ ٨ باختصار.

(٢) انظر هذه المباحث في المرجع السابق، ص ٩ ـ ٣١.

بيانيةً عديدة، وأَلَّفوا كتباً كثيرةً على مدارِ التاريخ الإسلامي، وأَبدعَ المبدعون إِبداعاتٍ رائدةً رفيعة!

أَما الجمالُ في التعبيرِ القرآني فهو جزءٌ من البيانِ القرآنيِّ العام، لأنَّ تذوقَ الجمالِ في التعبير القرآني يقومُ على تصوُّرِه وملاحظتِه وإِدراكِه باعتباره «جمالاً قرآنياً، خاصاً، وليس بياناً قرآنياً عاماً»!

مَرّ تدوقُ الجمالِ في التعبيرِ القرآني بثلاثِ مراحل:

الأُولى: مرحلةُ التذوقِ الفطري: كان فيها المسلمون يتذوَّقون الجمالَ في التعبير القرآني بفطرتِهم السليمة، وملكتِهم البيانية القوية، وسليقتِهم العربية الأَصلية، ويستمتعون بذلك، ويُعجبون به، لكن لا يُعَبِّرون عما يتذوقون ويستشعرون بألفاظٍ وكلمات، ولا يعلِّلون ما يجدونَ منه تعليلاً مباشراً.

وهذه المرحلةُ كانت زمنَ الصحابةِ والتابعين، حيث استمتعوا بالجمالِ القرآني وتذوَّقوه وتفاعَلوا به، لكنهم لم يُعللوا ذلك ولم يتكلَّموا عنه.

الثانية: مرحلةُ إِدراكِ مواضعِ الجمالِ المتفرقة: وهذه المرحلةُ تمتْ على أَدي المفسِّرين والبلاغيين منذُ عصرِ التابعين حتى العصرِ الحاضر، حيث كانوا يدركونَ بعضَ مواضعِ الجمالِ المتفرقة في التعبير القرآن، أَثناءَ تحليلاتِهم البيانية للآيات. ولكنها كانتْ مواضعَ متفرقة هنا وهناك، ويجدونَها في بعضِ الآيات.

ومن المفسرين الذين أَدركوا بعضَ تلك المواضع الزمخشري، ومن البلاغيين الذين أَدركوا ذلك عبدُ القاهر الجرجاني.

الثالثة: مرحلة إِدراك الخصائص العامةِ للجمالِ الفني القرآني: وهذه المرحلةُ الناضجة تَمَّتْ على يدِ سيد قطب، حيث وَفَّقَهُ اللّهُ لإِدراكِ الخصائصِ العامة للجمال القرآني، وهي المتمثلةُ في «نظرية التصوير الفني» التي عرضَها في كتابه الذي نحنُ بصدده، وهذه النظريةُ هي المفتاحُ الجمالي للتعبيرِ القرآني، كما سبقَ أَنْ قَرَّرْنا.

ولهذا يُعتبرَ سيد قطب رائدَ هذه المرحلة، وما قدمه في كتابه ودراساته القرآنية هو تفصيلٌ وتحليلٌ للخصائصِ العامة للجمال القرآني[١].

وهذا المفتاحُ الجماليُّ المتمثلُ بالتصوير في التعبير القرآني جعلَه أَساسَ «مكتبةِ القرآن الجديدة» التي كان ينوي أَنْ يجعلَها دراسةً بيانية جمالية للتعبير القرآني.

قالَ الأُستاذُ علي الطنطاوي بعد أَنْ قرأَ كتاب التصوير في القرآن، الذي أَهداهُ له سيد قطب عام ١٩٤٥: «وذهبتُ فقرأْتُ الكتاب، فوجدتُه فتحاً واللّهِ جديداً، ووجدْتُه قد وقعَ على كنز،

---

(١) انظر «مراحل تذوق الجمال القرآني» من كتابنا: نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، ص ١٩ ـ ٢٣.

كأنَّ اللّهَ ادَّخره له، فلم يُعطِ مفتاحَه لأحدٍ قبله، حتى جاءَ هو ففتحَه..»[1].

معنى «التصوير الفني في القرآن»:

ما معنى «التصوير الفني في القرآن»؟:

يقولُ سيد قطب مجيباً على ذلك: «التصوير: هو الأَداةُ المفضَّلةُ في أُسلوبِ القرآن، فهو يعبِّرُ بالصورةِ المُحَسَّة المتخيَّلَة عن المعنى الذهني، والحالةِ النفسية، وعن الحادثِ المحسوس، والمشهدِ المنظور، عن النموذجِ الإنساني، والطبيعةِ البشرية.

ثم يرتقي بالصورةِ التي يرسمها، فيمنحُها الحياةَ الشاخصة، أو الحركةَ المتجددة، فإذا المعنى الذهنيُّ هيئةٌ أو حركة، وإذا الحالةُ النفسيةُ لوحةٌ أو مشهد، وإذا النموذجُ الإنسانيُّ شاخصٌ حيّ، وإذا الطبيعةُ البشريةُ مجسَّمةٌ مرئية، فأَمّا الحوادثُ والمشاهد، والقصصُ والمناظر، فيردُّها شاخصةً حاضرة، فيها الحياة، وفيها الحركة، فإذا أَضافَ إليها الحوار فقد استوتْ لها كلُّ عناصرِ التخييل.

فما يكادُ يبدأُ العرض حتى يُحيل المستمعين نَظّارة، وحتى ينقلَهم نقلاً إلى مسرحِ الحوادث الأَول، الذي وقعَتْ فيه أَو

(١) الرسالة، السنة الثالثة عشرة، المجلد الثاني، عدد ٦٤٨، تاريخ ٣/ ٢/ ١٩٤٥، ص١٣١٣.

ستقع.. حيث تتوالى المناظر، وتتجددُ الحركات، وينسى المستمعُ أنَّ هذا كلامٌ يُتلى، ومَثَلٌ يُضْرَب، ويتخيَّلُ أَنه منظرٌ يُعرض، وحادثٌ يقع!

فهذه شخوصٌ تروح على المسرح وتغدو، وهذه سماتُ الانفصالِ بشتّى الوجدانات، المنبعثةُ من الموقف، المتساومةُ مع الحوادث، وهذه كلما تتحركُ بها الألسنة، فتنمُّ عن الأَحاسيسِ المضمرة..

إِنها الحياةُ هنا، وليستْ حكايةَ الحياة!

فإذا ما أَدرْكنا أَنَّ الأَداةَ التي تصوِّرُ المعنى الذهني والحالةَ النفسية، وتُشَخِّصُ النموذجَ الإنساني أو الحادثَ المرويّ، إنما هي أَلفاظٌ جامدة، لا أَلوانٌ تُصَوِّر، ولا شخوصٌ تُعَبِّر، أَدركْنا بعضَ أَسرارِ الإِعجاز في هذا اللون من تعبيرِ القرآن..»[١].

خصائص التصوير القرآني وآفاقه:

ووضَّح سيد قطب في كتابه أَنَّ «التصوير في القرآن» يقومُ على خمسِ خصائص، هي: التخييلُ الحسي، والتجسيمُ الفني، والتناسقُ الفني، والحياةُ الشاخصة، والحركةُ المتجددة!

أَمّا آفاقُ التصويرِ في التعبير القرآني التي عرضَها سيد قطب فهي: تصويرُ المعاني الذهنية، وتصويرُ الحالاتِ النفسية، وتصويرُ

---

(١) التصوير الفني في القرآن، ص ٣٢.

الحوادثِ الواقعية، والأَمثالُ المصوَّرة، ومشاهدُ الطبيعة المصوَّرة، ومشاهدُ القيامة المصوَّرة، والنماذجُ الإنسانية المصوَّرة، والجدلُ التصويري، والتصويرُ في القصة.

وكان يقدِّمُ لنا العديدَ من الأَمثلةِ والنماذج المصورة عند حديثه عن خصائص التصوير وآفاقه، ويحللُ الآياتِ في تلك النماذج تحليلاً جمالياً عالياً[1].

وبما أنَّ القرآنَ استخدم طريقةَ التصوير في التعبير عن مختلفِ موضوعاته: فقد كانَ التصويرُ هو الأَداةَ المفضَّلَةَ في التعبيرِ القرآني.

قال سيد قطب في مقدمةِ الطبعةِ الثالثة من كتاب «التصوير الفني في القرآن»: «طريقةُ التصوير في التعبير هي القاعدةُ الأُولى في أُسلوبِ القرآن.

وهذه القضيةُ لديَّ كلُّ ما يؤكِّدُها من الإِحصاءِ الدقيق لنصوص القرآن: فالقصةُ، ومشاهدُ القيامة، والنماذجُ الإنسانية، والمنطقُ الوجداني في القرآن، مُضافاً إِليها تصويرُ الحالات النفسية، وتشخيصُ المعاني الذهنية، وتمثيلُ الوقائع التي عاصرت الدعوةَ المحمدية..

---

(١) انظر شرحنا لهذه الخصائص، والآفاق في كتابنا «نظرية التصوير الفني عند سيد قطب»، ص ١٤١ ـ ٢٥٨.

تؤلِّفُ على التقريبِ أَكثرَ من ثلاثةِ أَرباع من ناحيةِ الكم، وكلُّها تستخدمُ طريقةَ التصوير في التعبير.. فلا يُستثنى من هذه الطريقةِ إلاّ مواضعُ التشريع، وبعضُ مواضع الجدل، وقليلٌ من الأَغراضِ، التي تقتضي طريقة التقريرِ الذهني المجرد.. وهي على كلِّ حال محصورةٌ فيما يوازي ربعَ القرآن..»[1].

التصوير القرآني ومكتبة القرآن الجديدة:

لقد جعل سيد قطب كتابه «التصوير الفني في القرآن» أَساسَ «مكتبة القرآن الجديدة» التي كان يَنوي إِصدارَها. ويريدُ أَنْ يُخَصصَها لدراسةِ التعبيرِ القرآنيِّ دراسةً بيانيةً جماليةً بلاغيةً فنيةً تصويرية، يبحثُ فيها مظاهرَ التصويرِ والجمالِ والفنِّ في التعبير القرآني.

ومن الكتبِ التي كان يَنوي إِصدارَها حلقاتٍ في «مكتبةِ القرآن الجديدة» مبنيةً على «التصوير الفني في القرآن»: «مشاهد القيامة في القرآن» و«القصة بين التوراة والقرآن» و«النماذج الإنسانية في القرآن» و«المنطق الوجداني في القرآن» و«أساليب العرض الفني في القرآن».

ولكنه لم يُصدِرْ من هذه الكتبِ الخمسة إلا كتاباً واحداً هو: «مشاهد القيامة في القرآن».

---

(١) التصوير الفني في القرآن، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

كتابه «مشاهد القيامة في القرآن»:

أصدرَ سيد قطب كتابَه «مشاهد القيامة في القرآن» في شهرِ نيسان ـ أبريل ـ عام ١٩٤٧ عن دارِ سعد مصر بالفجالة في القاهرة، بعد سنتيْن كاملتيْن من طبعِ كتابه الأَول «التصوير الفني في القرآن».

وإِذا كانَ قد أَهدى كتابَه «التصوير الفني» لأمه التي كانتْ تستمتعُ بسماعِ القرآن، فقد أَهدى كتابَه الثاني «مشاهد القيامة في القرآن» إلى أَبيه المتديّن، الذي طَبَعَ في حسِّه مخافةَ اليومِ الآخر!

وخصَّصَ كتابَه للحديث عن أُفقٍ من آفاقِ التصوير الفني وهو مشاهدُ القيامة، فمشاهدُ القيامة أَكثرُ المشاهدِ تصويراً في القرآن.

بدأَ كتابَه بفصلٍ مطوَّلٍ عن «العالم الآخر في الضمير البشري»، عرضَ فيه لأمثلةٍ ونماذج من مختلفِ الأَديان والمذاهب والأفكار البشرية، يظهرُ منها نظرةُ أَصحابِها لليوم الآخر، وما فيه من مشاهد وأَحداث.

ثم عقدَ فصلاً آخر أَجملَ فيه القولَ حول «مشاهد القيامة في القرآن» وتحدَّثَ فيه عن «العالم الآخر في القرآن»، وعن طريقةِ القرآن المصوَّرة في عرضِ أَحداثِ يوم القيامة. قالَ في بدايته: «مشاهد القيامة في القرآن» من أَبرزِ مواضعِ التصوير فيه،

وهي التي تنطبقُ عليها ـ بصفةٍ خاصة ـ جميعُ السمات التي تحدثْتُ عنها في كتابِ «التصوير»[1].

استعرضَ في كتابه مشاهد القيامة السورَ على حسبِ ترتيبِ النزول، وليس على حسبِ ترتيب المصحف.

وقال في مقدمة الكتاب عن هذه المشاهد: «تتوزَّعُ مشاهدُ القيادة في معظم سورِ القرآن، وإِنْ كانت كثرتُها بالسورِ المكية، وقد تحتوي السورةُ الواحدةُ على أكثر من مشهدٍ واحد، يَطولُ أو يقصرُ تبعاً للغرضِ الديني في السياق، وتمشياً مع أُصولِ العرضِ الفنية، وقد استعرضْنا في هذا الكتاب خمسين ومائة مشهد، موزعةً في ثمانين سورة، من أَربع عشرة ومائة سورة..

والذي استعرضْتُه هنا هو ما اصطلَحْنا على تسميتِه «مشاهد»، وهو الذي تتوافرُ فيه الصورةُ والحركةُ والإيقاع..

.. وكانت أَمامي عدةُ طرقٍ لعرضِ هذه المشاهد وتبويبها.. ولكنني اخترتُ الطريق الاستعراضي، مراعياً الترتيبَ التاريخي ـ على قدر الإمكان ـ لورودها، فعرضتُها بترتيب السور التي وردتْ فيها.. ورتبتُ هذه السورَ حسبَ نزولها، وذلك عملٌ تقريبيٌّ لا جزمَ فيه..»[2].

---

(١) مشاهد القيامة في القرآن، ص ٣٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٨ ـ ٩ باختصار.

وكتابُ «مشاهد القيامة» مرتبطٌ ارتباطاً وثيقاً بكتاب «التصوير الفني» وصرحَ سيد نفسهُ بذلك في آخرِ صفحة «مشاهد القيامة» في طبعةِ دار المعارف التي أَصدرتْها من الكتاب عام ١٩٦١: إِن قارىءَ كتابِ «مشاهد القيامة» لا بُدَّ أَنْ تسبقَ له قراءةُ كتاب «التصوير الفني».

سيد قطب يعرِّف بكتابه:

وقد بدأ سيد قطب كتاب «مشاهد القيامة» ببيان، قال فيه: «هذا هو الكتابُ الثاني في «مكتبةِ القرآن الجديدة» التي صحَّ عزمي على إِنشائها ـ بعونِ الله ـ.. كان الكتابُ الأَول هو كتاب «التصوير الفني في القرآن» الذي صدرَ في مثل هذا اليوم منذُ عاميْن. وكانتْ وظيفتُه هي «بيانَ طريقةِ التعبير الفني في القرآن» بصفةٍ عامة، وبَسْطَ خصائصِ هذه الطريقة وسماتِها..

... ليس هناك من شططٍ حين أَقول: إِنَّ التصويرَ هو الأَداةُ المفضلة في أُسلوبِ القرآن.

وإِذا وفَّقني الله، فأَصدرتُ الحلقاتِ التالية من هذه المكتبة، وهي: «القصةُ بين التوراة والقرآن» و«النماذجُ الإنسانية في القرآن» و«المنطقُ الوجداني في القرآن» و«أَساليبُ العرض الفني في القرآن» فسيجدُ الناسُ مصداقَ هذه القضية بين أَيديهم، وتستريحُ إِليها ضمائرهم كما استراحَ إِليها ضميري..

.. وفي اعتقادي أَنني لم أَصنعْ بهذا الكتاب وبسابقِه، ولنْ أَصنعَ بلواحقه، إلاّ أَنْ أَرُدَّ القرآنَ في إِحساسنا جديداً، كما تلقّاه العربُ أَولَ مرة!!..

.. والقرآن: هذا الكتابُ المعجزُ الجميل، هو أَنْفَسُ ما تحويه المكتبةُ العربية على الإِطلاق، فلا أَقَلَّ مِنْ أَنْ يُعادَ عرضُه، وأنْ تُرَدَّ إِليه جِدَّتُه، وأنْ يُستنقذ من ركامِ التفسيراتِ اللغويةِ والنحوية والفقهية والتاريخية والأسطورية أيضاً!

وأَن تُبرزُ فيه الناحيةُ الفنية، وتُستخلصَ خصائصُه الأَدبية، وتُنبهَ المشاعرُ إِلى مكامنِ الجمالِ فيه...

وذلك هو عملي الأَساسي في «مكتبة القرآن»..

وقد تناولْتُ هذه المشاهدَ كما يُصوِّرُها ظاهرُ اللفظِ الواضحِ المشرقِ البسيط، لم أُحاولْ أَنْ أُعَقِّدَها بالتأويلاتِ البعيدة، ولا أنْ أُدخلَ عليها مباحث لغوية ودينية، لا يقتضيها العرضُ الفنيُّ الجميل..

وفي اعتقادي أَنَّ العربَ الأَوَّلين قد تلقوا الجمالَ الفنيَّ في القرآن هذا التلقي، فتعمَّقَ في إِحساسِهم وهَزَّ نفوسَهم، قبلَ أنْ يُعَقِّدَهُ المفسرون والمؤولون...

.. وبعد: فإني لأَرجو أنْ أكونَ قد وُفِّقْتُ في هدفي القريب من هذا الكتاب، كما أَتمنى أَنْ أُوَفَّقَ في الهدفِ البعيد، الذي أَرجوهُ من لواحقه. ذلك الهدفُ البعيد هو: إِعادةُ عرضِ القرآن،

واستحياءُ الجمالِ الفنيِّ فيه، واستنقاذُه من رُكامِ التأويل والتعقيد، وفرزْزُه من سائرِ الأَغراضِ التي جاءَ لها القرآن!!»[1].

مشروعُ «مكتبة القرآن الجديدة» لم يُصْدِرْ منه سيد قطب إلاّ كتابيْن، وهما أَوْلَيَا كتابيْن قرآنييْن إِسلامييْن له: التصويرُ الفني في القرآن، ومشاهدُ القيامة في القرآن، وهما دراسةٌ جماليةٌ تصويريةٌ فنيةٌ للتعبيرِ القرآني، وتحليلٌ له على هدي «المفتاحِ الجمالي التصويري» الذي كانَ سيد قطب به رائداً في فهمِ الجمالِ الفنيِّ في القرآن!

(١) المرجع السابق، ص ٦ ـ ١٠ مقتطفات.

(٤)

كتب سيد قطب الفكرية الإسلامية قبل سجنه

بدأَتْ صلةُ سيد قطب بالقرآنِ بدايةً أدبيةً جمالية، حيثُ كان ينظرُ في التعبيرِ القرآني نظراتٍ أَدبية، يُحللُ ما فيه من جمالِ التعبيرِ البياني، تحليلاً بيانياً فنياً جمالياً. وتجلّى هذا في مشروعِ «مكتبة القرآن الجديدة» القائمِ على المفتاحِ الجمالي، المتمثلِ بالتصويرِ القرآنيِّ الجميل. ولم يَصدرْ من هذا المشروعِ البيانيّ إلا كتابان: التصويرُ الفني في القرآن، ومشاهدُ القيامة في القرآن.

وقد وضَّحْنا هذا في المبحث السابق.

ونظراتُ سيد قطب الأَدبية البيانية في التعبير القرآني قادَتْهُ إلى مضمونِ ذلك التعبير، فصارَ يلاحظُ المعانيَ والحقائقَ والموضوعات التي يقررُها القرآن. ويتفاعلُ معها، فتحوَّلَ من مجردِ محللٍ أَدبي، وناظرٍ فَنّي، ومتذوقٍ بيانيٍّ جمالي، إلى متأمِّلٍ نظريّ، ومتدبِّرٍ فكريّ، وصارَ يجيلُ فكرَه في موضوعاتِ القرآن

العديدة، ويدركُ أَبعادَها وأَهدافَها، ويقفُ على أهميتها للمسلمين...

توجه سيد قطب للفكر الإسلامي والحالة العامة للمجتمع المصري:

وفي نفسِ الوقتِ الذي كان يقف فيه على هذه الحقائقِ القرآنيةِ الإِصلاحية كان المجتمعُ المصريُّ والعربيُّ يعيشُ ظروفاً حرجةً في مختلفِ الجوانب: الاجتماعيةِ والفكريةِ والسياسيةِ والاقتصادية. وهي نتائجُ ما بعدَ الحربِ العالميةِ الثانية، والاستعمارِ البريطانيٍّ لمصر والعالم العربي، وإِنشاءِ الكيانِ اليهوديٍّ على أَرضِ فلسطين.

ظهرت الفوارقُ بين فئاتِ المجتمعِ المصريِّ بصورةٍ واضحة، وظهرَ أَغنياءُ الحربِ المستغلّون والمنتفعون، وزادتْ أَغلبيةُ الشعبِ المصري فقراً وجوعاً.

وفي هذه الظروفِ السيئة نشطَ الشيوعيون في الدعايةِ لمذهبهم الشيوعي، وانتشروا في أَوساطِ المحرومين والمعدمين.

وفي المقابلِ نشطَ الإِخوانُ المسلمون في الدعوةِ الإِسلامية، وربْطِ الناسِ بالإسلام، والوقوفِ أَمامَ الشيوعيين، وغيرِهم من المحتكرين والمستغلّين، والوقوفِ أَمامَ الاستعمارِ البريطاني، وأَمامَ فسادِ القصرِ والمسؤولين.

وصارَ كثيرٌ من الأدباء والمثقفين يُقبلون على الإسلام، ويتدبَّرون القرآن، ويبشِّرون به، ويَدعون إليه.. وكان الأَديبُ الناقدُ سيد قطب في مقدمةِ هؤلاء.

كان سيد قطب يعيشُ همومَ الأمة، ويدركُ حاجاتِها، فلم يشأْ أَنْ يبقى مع تحليلاتِه البيانية البلاغية الجمالية للقرآن ـ على أَهميتِها وريادتِه فيها ـ وإِنما سار مع ما هداه اللّهُ إِليه من مضامينِ القرآن وحقائقِه.

وكان هذا توجُّهاً منه إلى الفكرِ الإسلامي، وإِعدادِ كتبٍ ومؤلفاتٍ إِسلامية، ودعوةِ الناسِ إلى الإسلام والالتزامِ به!

وفي هذه الفترةِ أَنشأَ مجلةَ «الفكر الجديد»، وهي مجلةٌ إسلاميةٌ إِصلاحيةٌ إِجتماعية، ومَوَّلَ المجلةَ محمد حلمي المنياوي صاحبُ دارِ الكتاب العربي، ومن أَعضاءِ الإِخوان المسلمين.

ومن الذين شاركوا سيد قطب في هذه المجلة: محمد الصادق عرجون، ومحمد الغزالي، وفايد العمروسي، وعبد الحميد جودة السحار، وعبد المنعم شميس، وغيرهم.

ولكنَّ المجلةَ لم تَدُمْ طويلاً، إِذْ سرعانَ ما أَغلقَتْها الحكومة، لجرأَتِها وحِدَّتِها وصراحتِها الزائدة في مهاجمة الفساد ورموزه.

١ ـ كتاب «العدالة الاجتماعية في الإسلام»:

أَنتجتْ نظراتُ سيد قطب في الإسلام، وتدبُّرُه للقرآن أَوَّلَ كتابٍ فكريٍّ إسلاميٍّ له هو «العدالة الاجتماعية في الإسلام». ويبدو أَنه أَعَدَّه بعد كتابه الأَدبي القرآني «مشاهد القيامة في القرآن»، الذي أَصدره عام ١٩٤٧.

وهو أَولُ مَنْ أَطلقَ مصطلح «العدالة الاجتماعية»، واعتبرَه بديلاً عن المصطلح الذي يستعملُه الشيوعيون واليساريون «الاشتراكية»، ويعتبرونَه أَساسَ الإِصلاح الاجتماعي والاقتصادي للمجتمع!

أَعَدَّ سيد قطب كتابَه «العدالة الاجتماعية» قبلَ سفره إلى أَمريكا عام ١٩٤٨، وصدرَ الكتابُ بينما كان سيد قطب في أَمريكا، وكان صدورُه عن دارِ الكتاب العربي في شهر نيسان ـ أبريل ـ عام ١٩٤٩، حيث كان قد عَهِدَ إلى شقيقهِ الأُستاذ محمد قطب بالإِشرافِ على طبعِ الكتاب وإِصدارِه، ففعل.

وفي هذه الفترةِ كانت الحكومةُ ـ بتوجيهاتٍ من الإِنجليز وغيرهم ـ قد حَلَّتْ جماعةَ الإِخوانِ المسلمين، وأَوقفَتْ نشاطَها، واعتقلت العديدَ من أَفرادِها، وحاربتْ أَفكارَها، وختمتْ ذلك باغتيالِ مؤسِّسِها الإِمام حسن البنا، في شباط ١٩٤٩، قبيلَ نشر كتاب «العدالة الاجتماعية».

لمن أهدى سيد قطب كتابه؟:

وقد صدَّرَ كتابَه بإهداءٍ مثير. حيث قال فيه: «إلى الفتيةِ الذي أَلمحُهم في خيالي قادمين، يَرُدّون هذا الدين، جديداً كما بدأ.. يقاتِلون في سبيلِ الله، فيَقْتُلون ويُقْتَلون، مؤمنين في قرارةِ أَنفسهم أنَّ العزةَ لله ولرسوله وللمؤمنين.

إلى أُولئك الفتية، الذين لا أَشُكُّ لحظةً أَنَّ روحَ الإِسلام القوية، ستبعثُهم من ماضي الأَجيال، إلى مقبلِ الأَجيال، في يومٍ قريب.. جدّ قريب!»[1].

وقد فهِمَ كثيرون أَنَّ سيد قطب يقصدُ بإهدائه هذا شبابَ الإِخوان المسلمين، الذين كانوا خلفَ السجون والمعتقلات.

يقولُ الأُستاذُ يوسف العظم: «فهِمَ الذين اطَّلعوا على الإِهداءِ أَنَّ الكاتبَ يقصدُ بذلك شبابَ الإِخوان المسلمين. فبادرت الحكومةُ المصريةُ يومئذ لمصادرةِ الكتاب وسحْبِه من الأَسواق. وبادرَ «الإِخوان المسلمون» خارجَ المعتقلات وداخلَها باقتناءِ الكتاب وتدارُسِه، والانتفاعِ بمحتواه...

ولستُ هنا مع الذين يقولون إِنَّ الشهيدَ لم يقصدْ بمقدمتِه تلك شبابَ الإِخوان ولا حركتَهم..

ولكنّي أَرى أَنه لم ينتظمْ بعدُ في صفوفهم...

---

(١) الشهيد سيد قطب ليوسف العظم، ص ١٥٤.

ومن هنا كان تعليقُ الإمامِ الشهيد على الكتاب عندما قرأَهُ واطَّلع عليه: «هذه أفكارُنا، وكان ينبغي أَنْ يكونَ صاحبُها واحداً منّا..»[1].

ولَسْنا مع الأُستاذ يوسف العظم في أنَّ سيد قطب كان يقصدُ بهذا الإهداءِ شبابَ الإخوان المسلمين، ولا أَنَّ الإمام الشهيدَ حسن البنا رحمه الله قرأَ الكتاب وأُعجبَ به، وقال: هذه أَفكارُنا، ويَنبغي أَن يكونَ صاحبُها واحداً منّا!

فمن المعلومِ أَنَّ الإمامَ البنا استشهد في ١٢ شباط ١٩٤٩، وأَنَّ كتاب «العدالة الاجتماعية في الإسلام» صدرَ في شهر نيسان ١٩٤٩، أَيْ بعد حوالي شهريْن من استشهادِ البنا! فكيف قرأَ البنا الكتابَ وعَلَّقَ عليه بما ادَّعاه الأُستاذُ العظم؟ مع أَنَّ الكتابَ لم يكنْ قد صَدَر؟

وعندما قابلْتُ الأُستاذَ محمد قطب وسأَلْتُه عن الإهداء، نفى أَنْ يكونَ قصدَ به شبابَ الإخوان المعتقلين، وإنما قصدَ به أَنَّ الإسلامَ سيوجِدُ فتيةً ربانيين، وهو ما رآه سيد متحققاً في شباب الإخوانِ بعد ذلك.

وما لنا نذهبُ بعيداً في التفسير؟ وعندنا تصريحٌ من سيد قطب نفسه أَنه لم يقصدْ به شبابَ الإخوان، وهو أَبلغُ ردٍّ على جزمِ الأُستاذ يوسف العظم!!

---

(١) المرجع السابق، ص ١٥٥.

قال: «في الوقتِ ذاتِه صدرَ لي كتابُ «العدالة الاجتماعية في الإسلام» سنة ١٩٤٩، مصدَّراً بإهداءِ هذه الجملة: «إلى الفتية، الذين أَلمحُهم في خيالي قادمين، يَرُدّونَ هذا الدينَ جديداً كما بدأ، يُجاهدون في سبيلِ الله، لا يَخافون لومةَ لائم...».

ففهم الإخوانُ في مصر أَنني أَعنيهم بهذا الإِهداء، ولم يكن الأَمرُ كذلك! ولكنهم من جانبِهم تبنّوا الكتاب، واعتبروا صاحبَه صديقاً.. وبدأُوا يهتمّون بأمره.. فلما عدتُ في نهايةِ عام ١٩٥٠ بدأَ بعضُ شبابهم يزورني، ويتحدثُ معي عن الكتاب..»[(١)].

أُعجبَ الإِخوانُ المسلمون بكتابِ العدالة الاجتماعية في الإسلام، كما أُعجبَ به الشبابُ الإِسلاميُّ المثقَّفُ من غيرهم. وقد كان الشيخ محمد الغزالي ـ رحمه الله ـ في هذه الفترة هو المفكرَ الإِسلاميَّ البارز، وكان أَحدَ قادةِ الإِخوان المسلمين. فلما ظهرَ كتابُ «العدالة الاجتماعية» عُرِفَ سيد قطب في أَوساطِ الإِخوان المسلمين وغيرهم مفكراً إِسلامياً!

تعريف بكتاب «العدالة الاجتماعية في الإسلام»:

تحدث في كتابه عن «الدين والمجتمع بين المسيحية والإسلام»، حيثُ بَيَّنَ نظرةَ المسيحيةِ إلى الدينِ والمجتمعِ والإِصلاح، كما بَيَّنَ نظرةَ الإِسلام إلى ذلك بالمقابل، وتَمَيُّزَ وتَفَرُّدَ

---

(١) لماذا أعدموني، ص ١٠ ـ ١١.

الأُسلامُ بنظرتِه الإِيجابية الحية، النظرةِ التي ينتجُ عنها إِقامةُ نظامٍ إِسلاميٍّ واقعيٍّ حي!

ثم تحدَّثَ في الفصلِ الثاني عن «طبيعةِ العدالة الاجتماعية في الإسلام»، وربطَها مع أَصلِها في التصورِ الإسلامي، ونظرةِ الإِسلام إِلى الكونِ والحياةِ والإِنسان!

وبَيَّنَ أَنَّ الإِسلام يحققُ العدالةَ الاجتماعية على خطيْن كبيرَيْن هما: الوحدةُ المطلقةُ المتعادلةُ المتناسقة، والتكافلُ العامُّ بين الأَفرادِ والجماعاتِ، مراعياً العناصرَ الأَساسيةَ في فطرةِ الإنسانية، غير متجاهلٍ للطاقة البشرية!

ثم انتقلَ للحديثِ عن «أُسسِ العدالة الاجتماعية في الإسلام»، وقررَ أَنه أَقامَها على ثلاثةِ أُسس:

١ ـ التحررُ الوجداني المطلق.

٢ ـ المساواةُ الإنسانية الكاملة.

٣ ـ التكافلُ الاجتماعي الوثيق.

وخصصَ لكلِّ أَساسٍ من هذه الأسس الثلاثة حديثاً خاصّاً في الكتاب، تحدَّثَ فيه عنه بالتفصيل، وذكرَ دورَ كلِّ واحدٍ منها في تحقيقِ العدالةِ الاجتماعية، وأَثره في حياةِ المسلمين ومجتمعهم.

وتحدَّثَ بعدَ ذلك عن: «وسائل العدالة الاجتماعية في الإسلام». وعرضَ وسيلتين لذلك، هما:

١ ـ التشريعُ: المتمثلُ في التشريعاتِ والأَحكام التي قررها، والمتعلقةُ بالجانبِ الاقتصادي والاجتماعي.

٢ ـ التوجيهُ: المتمثلُ في الآدابِ والفضائلِ والتوجهات الأخلاقية، التي يُحيي فيها ضميرَ المسلم وقلْبَه وروحَه، ويجعلُه حارساً على التشريعات، ملتزماً بها، حريصاً على تنفيذها!

وانتقلَ بعد ذلك للحديث عن «سياسةِ الحكم في الإِسلام» لأنَّ العدالةَ الاجتماعية في الإسلام تتناولُ جميعَ الحياة الإسلامية. ولأنَّ الإسلامَ كلٌّ متماسك: العباداتُ والمعاملات،والحكمُ والمال،والتشريعاتُ والتوجيهات، والعقيدةُ والسلوك، والدنيا والآخرة.

قرَّرَ أَن نظامَ الحكم في الإسلام يقومُ على قاعدةٍ أَساسية متفردة، وهي أنَّ الحاكمية لله وحده، فهو المشرِّعُ والحاكم، ونظامُ الحكم ِفي الإِسلام منفذٌ لأَحكام ِالله.

وبعدَ التسليم ِبتلك القاعدةِ الأَساسية تقومُ سياسةُ الحكم ِفي الإِسلام على: العدلِ من الحكام، والطاعةِ من المحكومين، والشورى بين الحكام ِوالمحكومين. وبهذه الأُمورِ الثلاثة تَمَيَّزَ الإِسلامُ في سياستِه في الحكم عن كلِّ المذاهب الأُخرى.

ثم تكلمَ بعدَ ذلك عن «سياسة المال في الإِسلام»، وبَيَّنَ ارتباطَ هذه السياسةِ الماليةِ بالجوانبِ الإِسلاميةِ الأُخرى، واتفاقَها

مع فكرةِ الإسلام الشاملة. وقد نَفَّذَ الإسلامُ عدالتَه الاجتماعيةَ الماليةَ عن طريق: التشريع والتوجيه.

بعد ذلك فَصَّلَ القولَ في سياسةِ المال في الإسلام عن طريقِ التشريع: تحدَّثَ عن الملكيةِ الفردية في الإسلام: حقِّ الملكية الفردية، وطبيعتِها، ووسائلِ التملكِ الفردي، وهي عشرُ وسائل، وطرقِ تنميةِ الملكيةِ الفردية، وطرقِ الإنفاقِ المباحة.

وتحدَّثَ عن «فريضة الزكاة» باعتبارِها الركنَ الإسلاميَّ الاجتماعيَّ المرتبطَ بسياسةِ المالِ في الإسلام، ثم تحدَّثَ عن فرائضَ غيرِ الزكاة. وختم هذا الفصلَ بذكْرِ خمسِ قواعدَ أَساسية للنظامِ الاقتصاديِّ الإسلامي..

وانتقلَ بعدَ ذلك إلى الحديثِ عن الواقع التاريخي للمسلمين، في فصل: «من الواقعِ التاريخي في الإسلام»، تحدَّثَ فيه عن «روحِ الإسلام» القويةِ الحيةِ المؤثرة، القادرةِ على تحريكِ همم المسلمين، وتوجيهِهم لتطبيقِ مبادئه في واقعِهم وحياتهم!

وعرضَ في هذا الفصلِ نماذجَ من الواقعِ التاريخي زمن الصحابة، التي نجحَ فيها الإسلامُ في يقظةِ الضميرِ عند المسلمين، وحساسيتِه المرهفة التي تقودُ إلى تركِ المعاصي، وتُوَجِّهه إلى الله. ذكرَ نموذجَ ماعزِ بن مالك رضي الله عنه، وإقرارَه على نفسِه بالزنا، ومطالبتَه بإقامةِ الحدِّ عليه وتطهيرِه. وذكرَ نموذجَ عزلِ عمرَ لخالدِ بن الوليد رضي الله عنهما، ووجَّهَه توجيهاً طيباً، وأَخذَ على

آخرين ـ كالدكتور محمد حسين هيكل ـ سوءَ تفسيرِهم لهذه الحادثة. كما ذكَرَ فيه عدةَ نماذجَ تاريخيةٍ أُخرى عالية على مدارِ التاريخ الإسلامي، حتى العصر الحاضر.

ثم تكلمَ عن سياسةِ الحكم وسياسةِ المال في الإسلام من الوجهةِ الرسمية في الدولة، وافتراقِ تصرفاتِ الحكامِ المسلمين الأُمويين والعباسيين عن توجيهاتِ ومبادىء الإسلام في هاتَيْن السياستَيْن قليلاً أَو كثيراً، وأَنهم يتحملونَ مسؤوليةَ تلك المفارقة والمخالفة، والإِسلامُ لا يتحملُها.

وتكلمَ في هذا الفصلِ بكلامٍ عن عثمان ومعاوية رضي الله عنهما، وعن بني أُمية، لم يقبلْه كثيرٌ من المسلمين ـ مثلُ محمود شاكر رحمه الله ـ واعتبروه أَساءَ القولَ في الصحابة.

وانتقلَ للحديثِ عن «حاضرِ الإسلام ومستقبله» أَشارَ فيه إلى مكائدِ الأعداء ضدَّ هذا الدين، ومكرِهم ضدَّ المسلمين، وقَرَّرَ أَنَّ الإِسلام قويٌّ قادرٌ على مواجهتهم، وذكرَ بدءَ المدِّ الإسلامي في بلادِ المسلمين، ولَخَّصَ أَهدافَ الحركةِ الإسلامية، وبَشَّرَ بأَنَّ الإِسلامَ سيعودُ ليحكمَ حياةَ المسلمين من جديد، لكنَّ الطريقَ إلى ذلك طويلةٌ وشاقةٌ جداً!!

وختمَ كتابَه بخاتمةٍ جعلَ عنوانَها «في مفترق الطرق» ذكرَ فيها إِفلاسَ جميعِ المذاهب في تحقيقِ العدالة الاجتماعية، وعجْزَها عن تحقيقِ الإِصلاحِ الاجتماعي، ولم يبقَ إِلاّ الإِسلامُ

قادراً على تحقيقِ ذلك. ولذلك سيتركَّزُ الصراعُ في المستقبل بين المادية الكافرة وبين الإسلام، الذي يحملُ الرؤيا المتكاملة للإصلاح والعدالةِ الاجتماعية، ولذلك سيحاربُ الكفارُ حركاتِ البعثِ الإسلامي، كي لا تنجَح في تطبيقِ مبادىء الإسلامِ الإصلاحية. ودعا هذه الحركاتِ إلى الالتزامِ بالإسلام، والثباتِ على الحق، والصبر والاحتمالِ وتحمُّلِ الأَذى، لأَنها ستنجحُ بإذنِ الله، طالما هي ملتزمةٌ بدين الله!!

هذا تلخيصٌ مجملٌ جدّاً لفصولِ كتابِ سيد الفكريِّ الإسلامي الأَول: «العدالة الاجتماعية في الإسلام».

أثر الكتاب في أوساط الإخوان وغيرهم:

قلنا: إن الإخوان المسلمين قد أَقبلوا على كتابِ «العدالة الاجتماعية في الإسلام» بعدَ عام ١٩٤٩، وتدارسوه، واعتبروا صاحبَه صديقاً لهم وقريباً منهم!

لذلك قالَ الأُستاذُ حسن الهضيبي رحمه الله لسيد قطب في مطلع عام ١٩٥٢ ـ في مساجلةٍ صحفيةٍ بينهما ـ: «... ويعرفُ الكاتبُ الجليلُ الأُستاذُ سيد قطب أَنَّ هذا مبسوطٌ في كتابه «العدالة الاجتماعية في الإسلام»، الذي يدرسُه الإخوانُ فيما يدرسون من كتب، بدقةٍ وعناية..»[١].

(١) كتابنا سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد، ص ٣٢٩.

ولما كانَ سيد قطب في أَمريكا أُعجبَ بعضُ المثقفين الأَمريكيّين بكتابه «العدالة الاجتماعية في الإسلام» وعرضَ عليه المستشرف «جون هيوورث دن» ترجمتَه للغةِ الإِنجليزية مقابلَ عشرةِ آلاف دينار. ولكنّ سيد رفضَ ذلك. وأَعطى الكتابَ إلى المستشرق «هاردي» في جامعة «هاليفكس» في كندا، ليترجمه مجاناً!»[1].

وانتشرَ كتابُ «العدالة الاجتماعية في الإسلام» انتشاراً كبيراً، حيث صدرتْ طبعتُه الأُولى عام ١٩٤٩، والثانية عام ١٩٥١، عن دار الكتاب العربي» والثالثة عام ١٩٥٢ عن شركةِ الطباعة والصحافة للإِخوان المسلمين، والرابعة عام ١٩٥٤ عن دارِ الإِخوان المسلمين أيضاً.

وعَدَّلَ من الطبعةِ الرابعة الإِهداء، فأَهداه إلى شبابِ الإِخوان، بعد أَن انضمَّ إلى صفوفِ الجماعة عملياً.

وقالَ في إِهدائِه الجديد: «إلى الفتية الذين كنتُ أَلمحُهم بعينِ الخيال قادمين، فوجدتُهم في واقعِ الحياةِ قائمين.. يُجاهدون في سبيلِ الله بأَموالهم وأَنفسهم، مؤمنين في قرارةِ أَنفسهم أَنَّ العزةَ لله ولرسوله وللمؤمنين..

---

(١) المرجع السابق، ص ٣١٩.

إلى هؤلاء الفتية، الذين كانوا في خيالي أُمنيةً وحلماً، فإذا هم حقيقةٌ وواقع، حقيقةٌ أَعظمُ من الخيال، وواقعٌ أَكبرُ من الآمال!

إلى هؤلاءِ الفتية الذين انبثَقوا من ضمير الغيب، كما تنبثقُ الحياةُ من ضميرِ العَدَم، وكما ينبثقُ النورُ من خلال الظلمات..

إلى هؤلاء الفتيةِ الذين يُجاهدون باسمِ الله، في سبيل الله، على بركةِ الله، أُهدي هذا الكتاب.. رجب ١٣٧٣ ـ مارس ١٩٥٤...»[1].

طبعة الكتاب المنقحة عام ١٩٦٤:

وكانت الطبعة الأخيرةُ من الكتاب قد أَصدرها سيد قطب عام ١٩٦٤، وصدرتْ عن دارِ إِحياءِ الكتب العربية في القاهرة، وهي طبعةٌ منقحة، حيث حذفَ ما فيها من عباراتٍ أَخذها عليه الآخرون، مما فيه كلامٌ عن عثمان ومعاوية وغيرهما، ودَعا إلى استئنافِ حياةٍ إِسلامية، وإِنشاءِ مجتمعٍ إِسلامي.

وأَضافَ إلى الكتاب نقولاً من تفسيره «في ظلال القرآن»، ومن رسالتِه «في التاريخ: فكرة ومنهاج». التي هي مقالاتٌ مجموعة. كما أَضاف له فصلَ «التصور الإسلامي والثقافة» أَحَدَ فصولِ «معالم في الطريق»، الذي صدرَ عام ١٩٦٤.

---

(١) العدالة الاجتماعية في الإسلام، ص ١.

وعن هذهِ الطبعةِ السادسةِ المنقَّحة أَصدرتْ دارُ الشروق طبعتَها القانونية الشرعية، وهي الطبعةُ المتداوَلَةُ بين أَيدي القراء.

وبهذا نعرفُ أَنَّ كتابَ «العدالة الاجتماعية في الإسلام» هو أولُ كتابٍ فكريٍّ إسلامي له، وأَنه أَضافَ له في طبعتِه الأَخيرة آخرَ أَفكارِه الإسلامية الدعوية الحركية، وتخلّى عن بعضِ ما تبيَّن له خطؤُه فيه، من مسائلَ فرعية، وأُمورٍ ثانوية!

٢ ـ كتاب «معركة الإسلام والرأسمالية»:

أَثناءَ وجودِ سيد في أَمريكا لمدة سنتين تقريباً [١٩٤٨ ـ ١٩٥٠] انقطعَ عن الكتابةِ والتأليف. ولمَّا عادَ إلى مصر وجدَ الأَوضاعَ الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فيها تزدادُ سوءاً، ووجدَ أَنَّ الرأسماليين والمستغلّين والقصرَ والمفسدين هم المسؤولون عن تردّي الأَوضاعِ العامةِ في البلاد.

أَلَّفَ كتابَهُ: «معركة الإسلام والرأسمالية» في هذه الأَجواء، وصدرَ عن دارِ الكتابِ العربي بمصر، في شهرِ شباط ـ فبراير ـ عام ١٩٥١[١].

وبما أَنه يتحدثُ فيه عن المعركةِ بين الإسلام والرأسمالية فقد كتبُه بلهجةِ المحاربِ في المعركة، وكان أُسلوبُه يتصفُ بالقوةِ والحِدَّة والثورة، وكأَنه يُصْدِرُ فيه بلاغاتٍ عن سيرِ تلك المعركة!!

---

(١) «سيد قطب الأديب الناقد» للخباص، ص ٣١٨.

وكان الكتابُ صيحةً قويةً عالية، جريئةً صادقة، أَطلقَها سيد في وجْهِ المسؤولين عن الأَوضاعِ الشائهة في البلاد.

بدأَ كتابَه بمقدمة «صيحة النذير»، أَطلقَ فيه صيحةَ النذير في وجوه المتحكِّمين، وأَخبرهم أنَّ الوضعَ السيءَ في البلاد لا بدَّ أنْ يتغيَّر، مهما حاولوا أَنْ يَمنعوا تغييره!

وفي فصل «إنّي أَتَّهِم» وجَّهَ أَصابعَ الاتهامِ إلى المسؤولينِ القائمين على الأَوضاع الاجتماعية والسياسية، وحَمَّلَهم مسؤوليةَ إِفسادِ الأُمة، والقضاءَ على خيراتها، وتجويعَ وإِذلالَ أَفرادها، وجَرَّهم نحو الانحراف والانحلال! ودَفْعَهم إلى الارتماءِ في أَحضانِ الشيوعية. وحَكَمَ على هذه الأَوضاعِ الاجتماعية الشائهة بأنها مخالفةٌ لروحِ الإِسلام!

ووضعَ الأُمةَ في الفصلِ الثاني: «في مفارق الطريق» على مفترقِ طرق، لأنَّ الأَوضاعَ الاجتماعيةَ السيئة ستتغيَّرُ حتماً، من الناس مَنْ ينادي بالاشتراكية، ومنهم مَنْ ينادي بالشيوعية، ومنهم مَنْ ينادي بالإسلام، فَمَن الذي سيرث؟

وذكرَ في هذا الفصل عداوةَ الأَعداءِ من رأسماليين غربيين وشيوعيين سوفيات لهذه الأُمة، واستعمارَهم لها، ونهبَهم لخيراتِها.

وانتقلَ إلى الفصلِ التالي ليقررَ أَنَّ «في الإِسلام خلاص»، فالحلُّ ليسَ في الشيوعية ولا في الرأسمالية، وإِنما في الإِسلام.

وسَجَّلَ فيه أهم أَربعِ مشكلاتٍ اجتماعية حادَّة، وبَيَّنَ كيف أَنَّ الإسلامَ هو الكفيلُ بحلِّها: مشكلةَ سوءِ توزيع الملكياتِ والثروات، ومشكلةَ العملِ والأُجور، ومشكلةَ عدم تكافؤ الفرص، ومشكلةَ فسادِ جهازِ العمل وضعفَ الإنتاج!

ثم قرَّرَ في الفصلِ التالي أَنه «لا بدَّ للإسلام أَنْ يحكم»، لأنَّ الإسلامَ ليس مجردَ دينٍ ينظمُ العلاقةَ بين العبدِ وربه، وإنما هو دينٌ شامل كامل، يوجِّهُ كلَّ نظمِ الحياة ومجالاتها.

وقادَه هذا في الفصلِ التالي «شبهات حول حكم الإسلام» إلى نقْضِ بعضِ الشبهات التي يثيرُها الأَعداءُ حولَ حكمِ الإسلام: بدائيةُ الحكمِ الإسلامي، والحكمُ الإسلامي هو حكمُ المشايخ والدراويش، والحكمُ الإسلامي حكمٌ استبدادي قائمٌ على الطغيان، والنصوصُ في الحكمِ الإسلامي غامضةٌ غيرُ صالحةٍ للحياة الحاضرة، والحكمُ الإسلاميُّ يضطهدُ النساء، والحكمُ الإسلامي يَظلمُ الأَقليات غير المسلمة.

وتحدَّثَ في الفصلِ الأَخير في الكتاب «عداواتٍ حولَ حكم الإسلام» عن الأَعداءِ الذين يحاربون حكمَ الإسلام، عَرَّفَ بهم، وذكرَ سبب عداوتِهم للإسلام: عداواتِ الصليبيين، وعداواتِ المستعمرين، وعداواتِ المستغلّين والطغاة، وعداواتِ المحترفين من رجال الدين، وعداواتِ المستهترين والمنحلّين، وعداواتِ الشيوعية والشيوعيين.

وختمَ معركتَه الإسلامية ضدَّ الرأسمالية بخاتمةٍ جعلَ عنوانَها «والآن أيتها الجماهير» توجَّهَ فيها إلى الجماهير، وطلبَ منها أَنْ تحاربَ الرأسمالية، وتقفَ أَمام الأَعداءِ والظالمين، وترفضَ المظاهرَ الاجتماعية الشائهة، وتُطالبَ بحكمِ الإسلام.

وقد صَدَّرَ سيد قطب كتابَه «معركة الإسلام والرأسمالية» بقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].وصَدَرَ الكتابُ في مائة واثنتين وعشرين صفحة.

وانتشرَ الكتاب انتشاراً واسعاً في مصر فورَ صدوره، فطُبِعَ في دارِ الكتاب العربي عام ١٩٥١، وطبعَتْهُ دارُ الإخوان للصحافة الطبعة الثانية عام ١٩٥٢، وطُبِعَ عدةَ طبعاتٍ بعد ذلك.

٣ ـ كتاب «السلام العالمي والإسلام»:

بعد ثمانيةِ شهورٍ من ظهورِ كتابِ سيد قطب السابق «معركة الإسلام والرأسمالية» ظهرَ على الناس بكتابٍ ثوريٍّ إصلاحيٍّ آخر، هو «السلام العالمي والإسلام» حيث صدرَ عن دارِ الكتاب العربي بمصر في شهرِ تشرين أَول ـ أكتوبر ـ عام ١٩٥١[1].

كانت الأَوضاعُ التي نتجتْ عن الحرب العالمية الثانية مضطربةً في مختلفِ دولِ العالم، كان العالمُ يعيشُ فترةَ اضطرابٍ

---

(١) «سيد قطب الأديب الناقد» للخباص، ص ٣١٩.

في مختلف أَوضاعه، حيثُ تغيرتْ مراكزُ القوى والثقلِ فيه، وظهرتْ أَمريكا قوةً جديدة، وارثةً للقوى الأَوروبيةِ الاستعمارية الإنجليزية والفرنسية، وظهرت الأَسلحةُ الذريةُ النووية، التي هددت السلامَ العالمي بالرعبِ النووي، وعاشَ الناسُ في العالم في قلقٍ وهلعٍ ورعبٍ بسبب ذلك!

ولاحظَ سيد أنَّ ما نتجَ عن الحربِ العالمية الثانية من قوى جديدة وأَسلحةٍ جديدة لم يُحقق السلامَ السياسيَّ والاجتماعيَّ والاقتصاديَّ والنفسيَّ، بل قادَ إلى عكسِ ذلك. ووازَنَ بين هذا الاضطرابِ العالمي وبينَ السلامِ العالمي الذي يقرِّرُهُ الإسلام ويدعو إليه، ويحققُه عندما يتولّى القيادةَ والتوجيه..

قدَّمَ في كتابه ملامحَ هذا السلام العالمي الإسلامي، وبَيَّنَ كيفَ أَنَّ الإسلامَ يحققُ السلامَ العالميَّ المنشود.

افتتحَ كتابَه بآياتٍ قرآنيةٍ كريمة، من سورتي الأَنفال والتوبة. ثم تحدَّثَ في مقدمةِ الكتاب عن «العقيدة والحياة» وبَيَّنَ أَثَرَ العقيدةِ الإسلامية في حياةِ الأَفراد والجماعات، وشمولَها لكلِّ جوانبِ الحياة، وتوجيهَها لها، وقرَّرَ أَنَّ هذه العقيدةَ الإسلامية هي الكفيلةُ بحلِّ كلِّ مشكلات الحياة التي يعيشُها المسلمون، ويعيشُها الناسُ من حولهم.

وختَمَ المقدمةَ بقوله: «وأَمامنا اليوم مشكلةُ السلام العالمي التي تواجهُها البشريةُ جميعاً، ونواجهُها ضمناً. فهلْ للإِسلام فيها رأي؟ ولها عنده حلّ؟

هذا الكتاب كله هو الإجابة التفصيلية على هذا السؤال!!».

تعريف بالكتاب:

تحدث في الفصلِ الأَوَّل عن «طبيعةِ السلام في الإسلام» حيثُ ربطَه بالعقيدة، ونظرةِ الإِسلام إِلى الكون والحياة والإنسان، واعتبرَ طبيعةَ السلام في الإسلام مستمدةً من التناسقِ بين طبيعةِ الكون وناموس الحياة وأَصْلِ الإنسان، والسلامُ هو الأَصل، والحربُ في الإسلام استثناء، لتصويب الأَوضاعِ الشاذة، ومنعِ الخروج على شرعِ الله، والحربُ في الإِسلام لهدفٍ واحد، وهو رفعُ رايةِ الإسلام، ولا تجوزُ لأيِّ هدفٍ دنيوي، كالهدفِ القومي أو المصلحي أو العنصري أو الاستعماري.

إِنَّ السلمَ هو القاعدة، والحربَ ضرورة، لتقريرِ سلطانِ الله في الأرض، وليتحررَ الناسُ من العبوديةِ لغيرِ الله، وتحقيقِ الخيرِ لهم.

وبَيَّنَ أنَّ السلامَ في الإسلام شامل، إنه يبدأُ في ضميرِ الفرد، ثم في محيطِ الأُسرة، ثم في علاقةِ الفردِ بالجماعة، ثم في علاقةِ الجماعة بالحكومة، ثم في علاقةِ الحكومةِ بالدول الأُخرى.

وتحدثَ عن هذه المجالات التي يتحققُ فيها السلام الذي يَدعو إلِيه الإِسلام: سلامُ الضمير. وسلامُ البيت. وسلامُ المجتمع. وسلامُ العالم.

وبهذا الشرح والبيانِ لهذه المجالات والجوانب يَظهرُ لنا أَنَّ السلامَ العالميَّ الشاملَ المنشودَ لن يتحققَ إلاّ بالإسلام. عندما يتسلمُ الأُمور، ويوجهُ حياةَ الناس!

خاتمة الكتاب وفضح أمريكا:

ذكرَ الأستاذ يوسف العظم أَنَّ سيد قطب ختمَ كتابَه «السلام العالمي والإسلام» بفصلٍ عنوانُه «والآن». وأَثبتَ الفصلَ الأَخيرَ في الطبعةِ الأُولى في الكتاب، لكنَّ حكومةَ الثورةِ في مصر أَمرتْ بحذفِهِ من الطبعةِ الثانية، التي ظهرتْ بعد الثورة! «بقيَ أَمرٌ هامٌّ لا بد من الإِشارةِ إِليه، وهو أَنَّ السلطاتِ المصرية في الثورة المتحررة أَمرتْ بحذفِ فصلٍ كاملٍ من الكتاب، عنوانه: «والآن» لأَنه يفضحُ السياسةَ الاستعماريةَ الأَمريكية في المنطقة، ويكشفُ زيفَ الادعاءاتِ الأَمريكية بتقديمِ المعوناتِ الماليةِ والاقتصادية للدول النامية..»[1].

ولخصَ الأُستاذُ العظم في موضعٍ آخرَ من كتابه فصل «والآن» الذي أَمرتْ حكومة الثورةِ في مصرِ بحذفِهِ، لأَنه تناولَ

(١) سيد قطب ليوسف العظم، ص ١٦٢.

السياسةَ الأمريكيةَ الجديدةَ بالتحليل، واعتبرها قائمةً على الاستعلاءِ والظلمِ والتسلطِ والتزييف، كما كشفَ حقيقةَ المشاريعِ الأَمريكية في المنطقة،وارتباطَها بالاستغلالِ التجاري وتسويقِ السلاح وتجارةِ الحروب.

ذكرَ سيد قطب في ذلكِ الفصلِ المصادَرِ أنَّ أمريكا ترغبُ دائماً في الحرب، ولو طاوَعَتْها أَوروبا لشنَّتْ حرباً عالميةً ثالثة، لأنَّ رؤوسَ الأَموالِ الأمريكية في حاجةٍ ملحةٍ إلى حربٍ جديدة، والصناعاتُ الأَمريكيةُ المتقدمة بحاجةٍ إلى أَسواق استهلاكية جديدة!

وكشفَ سيد قطب النقابَ عنْ أَنَّ «مشروع مارشال الاقتصادي الأمريكي» لتنميةِ دولِ العالم الثالث، له غاياتٌ ثلاثة:

- تصريفُ الإِنتاج الأَمريكي الفائض.
- واتقاءُ حالةِ التبطلِ بين عمُالِ أَمريكا.
- وإِعادةُ تعمير أَوروبا وتقويتُها، لئلا تقعَ فريسةً للشيوعية.

ولذلكَ يعتبرُ الأَمريكييون الوزيرَ «مارشال» صاحبَ هذا المشروعِ الاقتصاديِّ الاستعماريِّ الأمريكي أَحَدَ رجالِ التاريخ الأَمريكيين، وهو في مقدمة العشرين الذين صاغوا القرنَ العشرينَ في العالم كلِّه(١).

---

(١) سيد قطب ليوسف العظم، ص ٢٠٨ ـ ٢١٤.

إن كتابَ «السلام العالمي والإسلام» يقرِّرُ أنَّ المذاهبَ والأَنظمةَ الجاهلية لا تحققُ السلام، ولا تقدمُ إلاّ مزيداً من الحربِ والقلق والاضطراب، ولا يحققُ السلام العالميَّ المنشودَ إلا الإِسلام، بما يقدمُه من حقائقَ وتوجيهات، ولذلك يدعو سيد قطب المسلمين إلى الالتزامِ بالإِسلام، وتطبيقِه في حياتهم، وتقديمِه إلى الآخرين المعذَّبين الباحثين عن سرابِ وأَوهامِ السلام!!

٤ ـ كتاب «دراسات إِسلامية»:

في عام ١٩٥٣ أَصدرَ سيد قطب كتابَه «دراسات إسلامية»، ونشرتْه له مكتبةُ لجنةِ الشبابِ المسلم.

وهو لم يؤلف كتاباً بهذا العنوان، وإِنما هو مجموعةُ مقالات، نشرَها في أَوقاتٍ متباعدة، قبلَ قيامِ الثورة وبعدَه، في صحف عديدة، مثل: الرسالة، والدعوة، والاشتراكية، والكتاب، والأزهر، واللواء الجديد، والمسلمون.

وضمَّ الكتابُ خمساً وثلاثين مقالةً إِسلامية مختلفة، لا يجمعُ بينها إِلاّ أَنها مقالاتٌ ودراساتٌ إِسلامية، ولذلك سَمّاه سيد قطب: «دراسات إِسلامية»[1].

---

(١) كتابنا «سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد»، ص ٥٤٩.

وصاغَ سيد تلك المقالاتِ بأُسلوبٍ قويٍّ جريءٍ صريحٍ حادّ، كعادتِه في مقالاتِه وكتبه.

ومقالاتُ الكتاب هي: محطم الطواغيت، وانتصارُ محمد ابن عبد الله ﷺ، والإسلامُ يكافح، وطبيعةُ الفتح الإسلامي، والتربيةُ الخلقية كوسيلةٍ لتحقيقِ التكافل الاجتماعي، وكيفَ ندعو الناسَ إلى الإسلام، ونظامُ التكافل الاجتماعي في الإسلام، ونحنُ ندعو إلى عالم أَفضل، وخذوا الإسلامَ جملةً أو دعوه، وتحتَ راية الإسلام، وطريقٌ واحد، ومصرُ أَوَّلاً.. نعم، ولكن!، وإلى النائمين في العالم الإسلامي، وإِسلام أَمريكاني، وضريبةُ الذل، والعبيد، وقوةُ الكلمة، وإِنها العقيدةُ في الله، وأَدبُ الانحلال، ومواكبُ الفارغات، ومبادىءُ العالم الحر! ومشكلاتُنا في ضوء الإسلام، والإسلامُ والاستعمار، وفرنسا أُمُّ الحرية، ويا لجراحاتِ الوطنِ الإسلامي، والمسلمون متعصبون: خمسُ حلقات، وكلمةُ الإسلام في الحربِ والسلام، وحسن البنا وعبقرية البناء، وعدالةُ الأَرض ودمُ الشهيدِ حسن البنا، ودعوتُنا، وعقيدةٌ وكفاح، ويا شباب!![1].

وقدَّمَ الكتاب ـ في طبيعته الأُولى ـ السيدُ محبُّ الدين الخطيب، رئيسُ تحريرِ مجلةِ الأَزهر في ذلك الوقت، وأَطلقَ على

(١) انظر فهرس كتاب «دراسات إسلامية».

سيد قطب لقبَ «لسان الدين»، واعتبرَ أَنَّ أَهمَّ مميزات أَدب سيد هي القوة، وأَطلقَ على أدبه لقبَ «أَدب القوة»، وبَيَّن في المقدمة كيفَ أنَّ قوةَ كلماتِ سيد كانت تزعجُ قوى الظلم والطغيان في البلاد. وتمنّى السيدُ الخطيبُ على سيد لو يُصدرُ كتاباً قبلَ هذا الكتاب كلَّ عام، يُتحفُ به المثقفين الإسلاميين!

وقد حُذفَتْ مقدمةُ السيد محب الدين الخطيب للكتابِ فيما بعد.. وأَثبتها السيد محمد علي قطب في كتابه «سيد قطب أو ثورة الفكر الإسلامي»[1].

وكانت المقالاتُ الخمسُ الأخيرة في الكتاب صريحةً في الحديث عن الإمام الشهيد حسن البنا، وعن محاكمةِ قتلته، وعن عبقريةِ البناءِ عنده، حيث أَسسَ وبنى جماعةَ الإخوان المسلمين، لأَنَّ سيد قطب كان عام ١٩٥٣ قد انضمَّ إلى الجماعةِ فعلاً!

وكلُّ فصولِ الكتاب جيدة قوية، ومن أَجودها: إسلامٌ أَمريكاني، وضريبةُ الذل، والعبيد، وقوةُ الكلمة، وحسن البنا وعبقرية البناء.

والملاحَظُ أَنَّ كتبَه الإسلاميةَ الفكريةَ الأربعة التي كتبَها قبلَ سجنه عام ١٩٥٤ كتبٌ صريحةٌ عنيفةٌ قوية، شديدةٌ للهجة، حادةُ الأسلوب، لأَنه كانَ عاملاً على إصلاحِ المجتمع، ومقاومةِ الفسادِ

---

(١) سيد قطب أو ثورة الفكر الإسلامي لمحمد علي قطب، ص ١١٢ ـ ١١٥.

والطغيان، وحريصاً على إِزالةِ المظاهرِ الاجتماعية والسياسية السيئة.

كما يلاحَظُ أَنه بعد عودته من أَمريكا عام ١٩٥٠ قد هجرَ الاهتماماتِ الأَدبية والنقدية نهائياً، وأَقبلَ على الفكرِ الإسلامي والدعوةِ الإسلامية، فأَبدعَ في هذا الطريق!

(٥)

كتب سيد قطب الفكرية الإسلامية في السجن

لم يتوقَّف سيد قطب في سجنِه عن النظرِ والتأمل، والبحثِ والتفكيرِ، والتصنيف والتأليف، وجعلَ محنةَ السجنِ والتعذيبِ والظلمِ والاضطهادَ وقوداً له للبحث، وزاداً له للتأليف! ولم يستسلمْ لليأسِ والإِحباطِ، ولم تتحطَّمْ عزيمتُه وهمته وإِرادتُه، ولم يتعلَّلْ بالأَجواءِ الشديدة القاسية. إنه لظاهرةٌ عجيبةٌ حقاً.

رحمة الله بسيد قطب في سجنه:

والسبب الذي لم يجعل جوَّ السجن ومرارةَ المحنة يؤثرْ عليه هو قوةُ إِيمانِهِ بالله، وحسنُ يقينه بِه، وتوكُّلِه عليه، ومصاحبتُه للقرآن الذي أَسعدَ حياتَه، وشعورُه بوجوبِ أَداءِ المهمةِ والقيامِ بالواجب، ويقينُه بأَنَّ ما يلاقيه هو ضريبةٌ لازمةٌ لمن يسيرُ في الطريقِ إلى الله، ومواجهةُ ذلك باستعلاءِ الإِيمان، والصبرِ والاحتمالِ والاحتساب!

فإذا علمْنا الأَمراضَ الشديدةَ المزمنةَ التي صاحبتْه، والتي زادَتْها محنةُ السجن شدةً وأَلماً، وأَثَرَ ذلك على صحتِه المتدهورة، علْمنا أيَّ رجلٍ كان! عليه رحمة الله.

ولنقرأْ هذه الفقرةَ الكاشفةَ عن حالتِه الإِيمانية في السجن، التي سجَّلَها في تفسيره لقوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ..﴾ [فاطر: ٢].

قال: «... ويَبقى أنْ أتوجَّهَ أَنا بالحمدِ لله، على رحمةٍ منه خاصة، عرفْتُها منه في هذه الآية..

لقد واجهَتْني هذه اللحظة، وأَنا في عسرٍ وجهد، وضيقٍ ومشقة، واجهَتْني في لحظةِ جفافٍ روحي، وشقاءٍ نفسي، وضيقٍ بضائقة، وعسرٍ من مشقة.. واجهَتْني في ذاتِ اللحظة. ويَسَّرَ اللّهُ لي أَنْ أَطَّلِعَ منها على حقيقتِها. وأَنْ تسكبَ حقيقتَها في روحي، كأَنما هي رحيقٌ أَرشفُه، وأَحسُّ سريانَه ودبيبَه في كياني.. حقيقةً أَذوقُها، لا معنى أُدركُه. فكانتْ رحمةً بذاتها، تقدِّمُ نفسَها لي، تفسيراً واقعياً لحقيقةِ الآية، التي تفتحتْ لي تفتُّحَها هذا. وقد قرأْتُها من قبلُ كثيراً، ومررتْ بها من قبلُ كثيراً، ولكنها اللحظةَ تسكبُ رحيقَها، وتحققُ معناها، وتَنزلُ بحقيقتِها المجردة، وتقول: ها أَنذا.. نموذجاً من رحمةِ اللّهِ حين يفتحُها، فانظر كيف تكون!

إنه لم يتغير شيءٌ مما حولي، ولكن لقد تغيَّر شيءٌ في حسي! إنها نعمةٌ ضخمة...»[1].

وكلُّ كتبه التي أَلَّفَها بعدَ عام ١٩٥٤ أَلَّفها في السجن، وعلى رأسِها موسوعتُه الحركيةُ التربويةُ التفسيرية «في ظلال القرآن». ووقفتُنا هنا مع كتبه الفكريةِ الإسلامية الأَربعة التي أَلَّفَها في السجن.

١ ـ كتاب «هذا الدين»:

بدأَ سيد قطب بتأليفِ «هذا الدين» بعدَ الحكمِ عليه بالسجنِ خمسةَ عشر عاماً عامَ ١٩٥٥، واستقرارِه في مستشفى السجن لتنفيذ الحكم.

وأَصدرَ الكتاب عام ١٩٦٠، نشرتْه له دارُ القلم بالقاهرة ـ صاحبُها محمد المعلِّم ـ.

وسببُ تأليفِ سيد قطب لهذا الكتاب هو ما لاحظَهُ على وجوهِ بعضِ إخوانِه من شباب الإِخوان المسلمين، بعدَ أَنْ ذاقوا مرارةَ السجنِ والاضطهاد والتعذيب، وفُجعوا في آمالِهم في إيجادِ المجتمعِ الإِسلامي، وتزعزعَتْ ثقةُ بعضِهم بنفسِه وبدعوتِه، وبقدرةِ هذا الدينِ على مواجهةِ الجاهلية، وإِمكانيةِ تحقيق أَهدافِ الحركة الإِسلامية العملية!

---

(١) في ظلال القرآن، ٥: ٢٩٢٤.

فكَّرَ سيد قطب في ما يعيشُه إِخوانُه.. وفكَّرَ في تعليلِ ما مَرَّ به وبالإِخوان من أَحداثٍ قاسية، وفكَّرَ في طبيعةِ هذا الدين، وفي منهجِه في العملِ والدعوة. وأَصدرَ كتابَه «هذا الدين «للإِجابة على تلك التساؤلات، ورفعِ تِلك المعنويات[1]..

تعريف بفصول الكتاب:

ضمَّ «هذا الدين» ثمانيةَ فصول:

الأول: منهجٌ للبشر: بيَّنَ فيه أنَّ الإسلامَ منهجٌ للبشر، وأنَّ اللّهَ أَنزلَه لينظمَ حياةَ البشر، وأنَّ من سُنَّةِ الله أَنَّ هذا الدين يعملُ في حياةِ الناس بجهودِهم وحركتِهم وسعيِهم وأَخذهم بالأَسباب، ولا يعملُ بخوارقَ بينما أَصحابُه نائمون! وحتى ينتصرَ هذا الدين لا بدَّ لأَصحابه أَنْ يُغيروا ما بأنفسِهم، ويرتقوا إلى مستوى هذا الدين، ويتحركُوا به في عالم الواقع! عند ذلك يحققُ اللّهُ بهم قَدَرَه، وينصرُ بهم دينَه!!

الثاني: منهجٌ متفرد: بَيَّنَ فيه أنَّ «هذا الدين» متفرِّدٌ متميِّزٌ عن سائرِ المناهجِ البشرية والسماوية المنسوخة، وأَنه لا يشبهه أَيُّ منهجٍ آخر، في طبيعتِه، وفي أَبعادِه، وفي خطتِه العمليةِ الحركيةِ التغييرية!

(١) كتابنا «سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد»، ص ٥٥٠.

وحتى يتحققَ منهجُ هذا الدين المتفردِ في عالم الواقع، لا بدَّ أن نحققَه في نفوسِنا أَوَّلاً!

ثم بَيَّنَ الأَسبابَ والدوافعَ التي تدعونا إلى وجوبِ تحقيقِ هذا الدين في واقع الناس وحياتِهم، هذه الأَسبابُ والدوافعُ هي المميزاتُ التي توفرتْ لهذا الدين، وجعلَتْه من ثَمَّ منهجاً متفرداً، لا يحققُ ما فيه أَيُّ منهجٍ آخر! والبشريةُ في حاجةٍ ماسةٍ لهذا الدين، لا تُغنيها عنه جميعُ المكاسبِ المادية التي حققَتْها!!

الثالث: منهجٌ ميسَّر: بيَّنَ فيه أَنَّ منهجَ هذا الدين منهجٌ عمليٌّ واقعي، وليس منهجاً نظرياً مثالياً غيرَ قابلٍ للتطبيق في عالم الواقع، فتكاليفُه وأحكامُه ضمنَ الطاقةِ البشرية، ولا يكلفُ اللّهُ نفساً إلاّ وسعَها. ولا يحققُ الإنسانُ سعادتَه إلاّ في ظلالِ هذا المنهج الميسر. وقد عاشَتْ به البشريةُ المسلمةُ فترةً من الزمن، وبقيَ هذا الدينُ يوجِّهُ حياةَ المسلمين بشكلٍ أو بآخر! وما زالَ قادراً على توجيهها في المستقبلِ لأَنه منهجٌ ميسَّر!

الرابع: منهجٌ مؤثِّر: بَيَّنَ فيه أَنه لمَّا طُبِّقَ منهجُ هذا الدين الميسَّر في حياةِ المسلمين، تركَ آثاراً كبيرةً ضخمةً استقرَّتْ في حياةِ البشرية، وهذه الآثارُ لا يمكنُ أَنْ تُمحَى أو تُزال! وتحققَ منهجُ هذا الدين في حياةِ أَفرادٍ كثيرين، من الصحابةِ ومَنْ بعدهم، وصارَ هؤلاء نماذجَ إيمانيةً عالية، تسعى البشريةُ للاقترابِ منها، والاقتداءِ بأَصحابها!

الخامس: رصيد الفطرة: بَيَّنَ فيه نجاحَ منهجِ هذا الدين في إزالةِ الواقعِ الجاهلي وإحلالِ واقعِه الإسلامي، وذلكَ في حياةِ الصحابة الكرام، رغمَ رسوخِ وضغطِ الواقعِ الجاهلي. وسِرُّ نجاحِه في ذلك أنه تعامَلَ مع الفطرةِ الإنسانيةِ السوية، بعد أَنْ نَفَضَ عنها رُكام الجاهلية، فأعادَ لها تألُّقَها وحيويتَها وطاقتها.

ولَخَّص الواقعَ الجاهليَّ القائمَ عند الروم والفرس والهنود والعرب، وكيف تمكَّن الإسلامُ من إزالتِه، وإحلالِ واقعِه مكانَه، لأنه تعاملَ مع رصيدِ الفطرة!

السادس: رصيدُ التجربة: بَيَّنَ فيه أنَّ رصيدَ منهجِ هذا الدينِ العمليِّ التطبيقيِّ ليس رصيدَ الفطرة فقط، وإنما يضافُ له رصيدُ التجربة. فله تجربةٌ عمليةٌ في حياة الناس، نجحَ فيها نجاحاً ملحوظاً، وهذه التجربةُ الناجحةُ تجعلُه مؤهَّلاً لأَنْ يُؤَدّيها بنجاحٍ مرةً أُخرى، فما طُبقَ مرة يمكنُ تطبيقُه مرةً أُخرى.

بل إنَّ البشريةَ التي لم تحسن التعاملَ مع منهج «هذا الدين» في الماضي، نظراً لتأخُّرِ تصوُّرِها واستيعابِها، فإنَّها الآنَ مؤهلةٌ أكثر لحسنِ التعاملِ مع هذا المنهج، بسببِ مكاسبها التصورية والحضاريةِ والماديةِ والحياتية!

السابع: خطوطٌ مستقرة: سَجَّلَ فيه خطوطاً مستقرَّةً خَطَّها «هذا الدين» في حياةِ البشرية، عَبْرَ مسيرتِه التاريخية التي امتدتْ أَربعةَ عشر قرناً، فرغمَ أنه أُقصيَ عن واقعِ حياةِ المسلمين إقصاءً،

وتراجَعَ عن توجيه الأُمورِ لدى المسلمين، وحاربَه أَعداؤُه حرباً شرسة، إِلاّ أَنه بقيَ موجوداً قوياً، وتركَ خطوطاً أَساسية، ومكاسبَ ثمينةً راسخة، التقت البشريةُ على قبولِها والإِقرارِ بها. وهذه مكاسبُ إِنسانيةٌ عالميةٌ لهذا الدين.

والخطوطُ المستقرةُ في حياةِ البشرية، التي خَطَّها فيها هذا الدين هي: الإنسانيةُ الواحدة. والإِنسانيةُ الكريمة. والأُمةُ الواحدة. والذمةُ والخلق.

الثامن: أَسماه «وبعد»: بنى فيه على البشرى التي ساقَها للدعاةِ في الفصولِ السابقة، وقررَ أَنَّ «هذا الدين» قويٌّ مؤثرٌ متحرك، قادرٌ على تحقيقِ منهجه مرةً أُخرى في المستقبل، وبَيَّنَ للدعاةِ أَنَّ البشريةِ اليومَ أَبعدُ عن اللّهِ من أيِّ وقتٍ مضى، وهي تحاربُ هذا الدين حَرباً شعواء، وذكرَ للدعاةِ أنَّ عقباتٍ ومعوقاتٍ كثيرة تواجُههم، وليسَ إِقرارُ منهجِ هذا الدين في الواقع أَمراً ميسوراً، إِنه شاقٌّ وصعبٌ وطويل، ولكنه آتٍ لا محالة بإِذنِ الله، وعليهم أَنْ يتزوَّدوا بالزادِ العظيم، ويُحسنوا الاتصال بالله، وتحقيقَ العبوديةِ له، لينالوا نَصره!

لقد جاءَ كتابُ «هذا الدين» رسالةَ بشرى وتطمينٍ من سيد قطب للدعاة، كما جاءَ كتابَ توجيه وتبصيرٍ لهم، ليعرفوا ملامحَ دينِهم، وواقعَ الناسِ من حولهم، ويُحسنوا القيامَ بالواجبِ عليهم!

وهو من بداياتِ الفهمِ الحركيِّ الإسلاميِّ الذي استقرَّ في فكرِ سيد قطب، في نهايةِ الخمسينيات من هذا القرن!

٢ ـ كتاب «المستقبل لهذا الدين»:

أَصدره سيد قطب بعدَ كتاب «هذا الدين» مباشرة، ونشرتْه له مكتبةُ وهبة في القاهرة عامِ ١٩٦٠. وهو مُكَمِّلٌ ومُتَمِّمٌ لكتابِ «هذا الدين» في دوافعِه وفي أَهدافِه، وفي مهمتِه الحركية التربوية للدعاة[١].

تعريف بفصول الكتاب:

ضمَّ كتابُ «المستقبل لهذا الدين» سبعَ فصول.

الأَول: الإسلامُ منهج حياة: بَيَّنَ فيه كيفَ أَنَّ الإِسلامَ منهجُ حياةٍ شامل، لأَنه دينُ اللّهِ لإِصلاحِ حياة الناس، فلا بدَّ أنْ يكونَ شاملاً كاملاً، ولذلك له مهمةٌ يؤدّيها في حياةِ البشرية، والمستقبلُ له بهذا الاعتبار. ورغمَ الجهودِ الكبيرةِ لمحاربتِه والقضاءِ على دعاتِه إِلاّ أَنها ستفشل، وسينتصرُ الإِسلامُ ويعودُ لحكمِ الحياة.

الثاني: كلُّ دين منهج حياة: ذكرَ فيه أَنَّ كلَّ دين أَنزلَه اللّهُ كان منهجَ حياةٍ للناس الذينَ شرعه اللّهُ لهم، وكان يلبّي حاجاتِهم المتواضعة، وينظمُ حياتَهم البدائية. ولم تكن الأَديانُ السابقةُ بسعةِ

---

(١) كتابنا: «سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد»، ص ٥٥١.

وشمولِ الإِسلام، الذي جعلُه اللّهُ خاتمَ الأَديان، ومستمراً حتى قيام الساعة!

الثالث: الفصامُ النكد: بَيَّنَ فيه أَنه ليس من طبيعةِ أَيِّ دين الانعزالَ عن حياةِ المجتمع، وأَنَّ النصرانية لم تتركْ حياةَ الغربيّين باختيارِها، رغمَ تحريفِها، وإِنما أُقصيتْ إِقصاءً عن حياتهم، بسببِ «الفصام النكد» الذي فَصَلَ بين النصرانيةِ وبين حياتِهم وأنظمتِهم وتشريعاتهم!

ورصدَ في هذا الفصلِ خطواتِ الصراع بين النصرانية المحرَّفة وبين العلمِ التجريبي، وبينها وبين الأَباطرةِ والحكامِ والملوك وحياةِ الناس، مما أَدّى بها إلى الانزواءِ في الكنائس، والتخلّي عن حياةِ الناس ومرافقِ المجتمعات، فنشأَتْ تلك المجتمعاتُ بعيدةً عن الدين!

وبَيَّنَ أنَّ تلك الملابسات التي أَدَّتْ إلى الفصامِ النكدِ بين النصرانية وحياة الناس، هي أَوروبية غربية، ولا تُعَمَّم لتشملَ الإِسلام، لأَنه يختلفُ بطبيعتِه عن النصرانية.

الرابع: انتهى دورُ الرجل الأَبيض: سجلَ في بدايتِه نبوة أَطلقَها الفيلسوف الانجليزي «برتراند رسل» عام ١٩٥٠، وخلاصتُها أَنه انتهى دورُ الرجلُ الأُوروبي الأَبيض في حكمِ الناس.

واستخرجَ سيد من ذلك أَنه انتهى دورُ الحضارةِ الأَوروبية المادية، وأَن قيمَها وتصوراتِها قد استُهلكَتْ، وأَنها لم تَعُدْ تقدِّمُ للبشرية شيئاً، وأَنَّ البشريةَ ستبحثُ عن تصوراتٍ ونظمٍ وحضارةٍ بديلة. انتهت الحضارةُ الأوروبية لأَنها أَبعدت الإِنسانَ عن الله، ولأَنها نشأَتْ بعيدةً عن الروحِ والإيمانِ والفطرةِ والدين، ولا بدَّ من حضارةٍ تحققُ هٰذه المجالات، وتربطُ الإِنسانَ بالله.

الخامس: صيحات الخطر: سَجَّلَ فيه بعضَ صيحاتِ الخطر التي أَطلقَها مفكِّرون وعلماءُ غربيون، لاحَظوا فيها النهايةَ البائسة، التي تقودُ الحضارةُ الغربية الناسَ إِليها، والتي ستؤدي إلى تحطيمِهم وتدميرِهم والقضاءِ عليهم، كما سجَّلَ بعضَ الاقتراحاتِ التي قدمَها هؤلاء للخلاص والإِنقاذ، وأخذ على تلك الاقتراحاتِ والحلول أَنها ليست ناجعة، لأَنها لم تُقدم الحلَّ الصحيحَ القائمَ على الإِيمانِ والخلق والسعادة.

الصيحةُ الأُولى: أَطلقَها أَكبرُ علماءِ الغرب في القرن العشرين، الدكتور «الكسيس كاريل» في كتابِه القيم «الإِنسانُ ذلك المجهول»، وقد نقلَ منه حوالي عشر صفحات، لخَّصَ فيه تصوُّرَه للخطر، وانتقدَ ما يقدمُه من علاج.

الصيحةُ الثانية: أَطلقها مستر «دالاس» وزيرُ خارجيةِ أَمريكا في ذلك الوقت، وسجَّلَها في كتابه «حرب أَم سلام»، وقد نقلَ منه حوالي ثماني صفحات. وانتقدَ ما قدَّمَه من حلٍّ أَيضاً.

السادس: المُخَلِّص: تحدَّثَ فيه عن حقيقةٍ قاطعة، وهي أَنه لن ينتهيَ الفصامُ النكدُ بينَ الدينِ والحياة، ولن يزولَ الخطرُ عن الناس، ولن تنالَ البشريةُ سعادتَها، إلاّ إذا جاءَ المخلِّص، والمخلِّصُ والمنقذُ للبشرية هو «هذا الدين».

وسجَّلَ سيد في هذا الفصل المواصفاتِ الضروريةَ التي لا بدَّ من وجودِها وتوفرها في «الدين» المطلوب، ليتمَّ على يديه خلاصُ البشرية، وإِنقاذُها مما هي فيه من خطر.

وهذه الشروطُ والمواصفاتُ لن تتوفَّرَ إِلا في الإِسلام، ولذلك لن يكونَ الخلاصُ والإِنقاذُ إلاّ عندَ عودةِ الإِسلام لتوجيهِ البشريةِ من جديد!

السابع: المستقبل لهذا الدين: جعلَ هذا الفصلَ الأَخيرَ عنوانَ الكتاب، وهو ثمرةُ الفصولِ الستةِ السابقة، وقدَّمَ فيه البشرى لشبابِ الإِخوان وغيرهم من الدعاةِ أَنَّ المستقبلَ العالميَّ هو لإِسلامِهم ودعوتِهم.. ولذلك يحاربُه كلُّ الأَعداء من الصليبيين والشيوعيين واليهود وغيرِهم، ليحولوا بينَه وبين الانتصار! ولكنَّه سينتصر، والمستقبلُ له.

لقد اجتازَ هذا الإسلامُ الأَخطارَ التاريخيةَ السابقة بنجاح، وخرجَ منها منتصراً وهو يجتازُ هذه الأَخطارَ المعاصرة، ويخرجُ منها بنجاحٍ أَيضاً. ولكنَّ الطريقَ إلى إِقرارِه طويل، والكفاحَ فيها

مرير، والجهادَ طويل، والنصرَ مضمونٌ بإذنِ الله، لأنَّ «المستقبلَ لهذا الدين».

إن كتابَيْ «هذا الدين» و«المستقبلَ لهذا الدين» يتكاملان في تحقيقِ ما أَراده سيد للدعاة، المتحركين بهذا الدين، وهو تبصيرُهم وفتحُ عيونِهم على ما حولهم، وتعريفُهم بطبيعةِ دينهم الحية، وإِرشادُهم إلى مهمتِه القادمة، وتبشيرُهم بأَنه هو المنتصرُ وأَنَّ المستقبلَ له، ولذلك لا بدَّ أَنْ يَعرفوا المطلوبَ منهم، وأَنْ يؤدّوهُ كما أَمَرَ الله، ومع أنَّ الطريقَ طويلةٌ شاقةٌ مرهقة، لكنها مضمونة، والنصرُ في نهايتِها متحققٌ بإِذنِ الله!!

٣ ـ كتاب «الإسلام ومشكلات الحضارة»:

أَصدرَ سيد كتابَه «الإِسلام ومشكلاتُ الحضارة» عام ١٩٦٢، ونشرتْه له دارُ إِحياءِ الكتبِ العربية بالقاهرة، وأَصدره بعدَ سنتيْن من كتابيه «هذا الدين» و«المستقبل لهذا الدين»[1].

وهو مكمِّلٌ لكتاب «المستقبل لهذا الدين» في حديثِه عن الفسادِ الناتج عن قيادةِ الجاهليةِ الغربية للبشرية، حيثُ ذكرَ هناك الفصامَ النكدَ بين الدين والحياة عند الغربيين، وقررَ انتهاءَ دورِ الرجلِ الأَبيض في قيادةِ البشرية، وسجَّلَ صحياتِ الخطرِ والتحذير التي أَطلقَها المفكرُ كاريل، والسياسي دالاس، وأَعلنَ

(١) كتابنا: «سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد»، ص ٥٥٣.

بَحْثَ البشريةِ عن مخلِّص، وحَصَرَ المخلِّصَ بالإِسلام، ولذلك فإنَّ المستقبلَ له.

أَمّا في كتاب «الإِسلام ومشكلات الحضارة» فقد عالجَ هذه الموضوعاتِ الحضارية الإِنسانية من زاويةٍ أُخرى.

قرَّرَ أَنَّ قيادةَ الجاهليةِ الغربية للبشرية أَنتجتْ مشكلاتٍ حضاريةً عديدة، والحلولُ التي يقدمُها الغربيون لهذه المشكلات لا خيرَ فيها، ولا تزيدُ المشكلاتِ إلاّ تعقيداً، ولا حلَّ لهذه المشكلاتِ الحضاريةِ إِلا بالإِسلام! فلا بدَّ من إِعادةِ قيادةِ البشرية إِلى الإِسلام، ليتكفلَ بحلِّ تلك المشكلات!

تعريف بفصول الكتاب:

وقد ضمَ الكتاب سبعة فصول:

الأَول: تدميرُ الإِنسان: قرَّرَ فيه أَنَّ الحياةَ الإِنسانيةَ في النصفِ الثاني من القرن العشرين لا بدَّ أن تغيِّرَ طريقَها، وأَنْ يُعَدَّلَ مسارُها، لأَنَّها إِنْ لم تُعَدَّلْ وتُصَحَّحْ فسوف تقودُ إلى تدمير الإنسانِ المعاصر. وخَطُّ الحياةِ الحالي ـ الذي تسيرُه الحضارةُ الغربيةُ يمضي يوماً بعدَ يومٍ في تدميرِ خصائصِ الإِنسان، وتحويلِه إلى آلةٍ من ناحية، وإلى حيوانٍ من ناحيةٍ أُخرى، وهذا ما ينطبقُ على الإِنسان في العالمِ الغربي!

والذي يقدرُ على تصحيح مسارِ حياةِ الإِنسان المعاصرِ هو الإِسلام، بما يقدِّمُه من تصوُّرٍ ومنهجٍ وقيمٍ وحقائق.

وسجَّلَ في ختامِ الفصلِ الأَول أَربعةَ عناصر أَساسيةً جذريةً لمأساةِ الإِنسانِ المعاصر، التي تهددُ إِنسانيتَه، وتؤَدّي إلى دمارِه، وخصَّصَ لكلِّ عنصرٍ من هذه العناصرِ الأَربعة فصلاً من فصولِ الكتابِ اللاحقة.

الثاني: الإنسان ذلك المجهول: بَيَّنَ فيه العنصرَ الأَول من عناصرِ مأْساةِ الإِنسانِ المعاصر، وهو: جهلُ الحضارةِ الغربية بالإِنسان، وعجزُها عن وضعِ نظامٍ شاملٍ لمختلفِ جوانبِ حياتِه، ويتناسبُ مع طبيعتِه وخصائصِه!

واعتمدَ في هذا الفصل على كتابِ «الإِنسان ذلك المجهول» للدكتور «أَلكسيس كاريل» الأَوروبيِّ الأَمريكي، الحائزِ على جائزةِ نوبل في الطب. ونقلَ عدةَ نقولٍ من الكتابِ تدلُّ على أَنَّ الحضارةَ الأَوروبيةَ الأَمريكية ما زالتْ تجهلُ الكثيرَ عن هذا الإِنسان، وأَنَّ ما عرفَتْه عنه لا يُساوي شيئاً أَمامَ ما جهلَتْه!

وبعدَ أَنْ نقلَ حوالي خمسَ عشرةَ صفحة مختارةً من كلامِ كاريل، عَلَّقَ عليها بذكْرِهِ نظرَ الإِسلامِ إلى الإِنسان، وجعْلِه خليفةً في الأرض، وسيداً للكون، وأَوردَ مجموعاتٍ من الآياتِ التي تقررُ هذه النظرة.

الثالث: تخبط واضطراب: بَيَّنَ فيه أنه ترتَّبَ على جهلِ الحضارةِ الغربية المطبقِ بالإنسان وإنسانيتِه، وقوعُها في «تخبط واضطراب» في تقويمِها له، ونظرتِها إليه، وسَنِّها القوانينَ والأنظمة لتنظيمِ حياته، وهذا ما جعلَها عاجزةً عن وضعِ نظامٍ شاملٍ مضبوطٍ صحيحٍ لحياتِه!

ونتجَ عن تخبُّطِ واضطرابِ الحضارةِ الغربيةِ في نظرتِها للإنسان، وقوعُ هذا الإنسانِ المعاصرِ في قلقٍ وحيرةٍ وشقاءٍ وتلفٍ وفساد.

ورصدَ سيد قطب مظاهرَ التخبطِ والخطأ والفسادِ في أهمِّ ثلاثِ مسائل تتعلقُ بحياةِ هذا الإنسان: النظرةِ إلى فطرةِ الإنسان واستعداداتِه. والنظرةِ إلى المرأةِ والعلاقاتِ بين الجنسين، والنظرةِ إلى النظمِ الاقتصاديةِ والاجتماعية.

عرضَ نماذجَ من كلامِ علماءِ الغرب يظهرُ فيها تخبطُهم واضطرابُهم في النظرةِ إلى فطرةِ الإنسانِ واستعداداتِه، وقارَنَها بإيرادِ آياتٍ قرآنية تقررُ نظرةَ القرآنِ إليه من هذه الناحية. وبَيَّنَ أَنَّ الحضارةَ الغربية ستدمِّرُ الفطرةَ الإنسانية، ما لم يتقدم الإسلامُ لإنقاذِ هذا الإنسان.

وعندما انتقلَ للحديثِ عن النظرةِ إلى المرأَةِ والعلاقاتِ بين الجنسين، بدأَ ذلك بذكْرِ نظرةِ الإسلامِ الأَصيلةِ الصحيحةِ للمرأة،

وتنظيمِه لعلاقة الزوجِ بزوجتِه، وعلاقةِ الذكورِ بالإناث، وأَوردَ آياتٍ قرآنيةً عديدةً في تقريرِ ذلك.

ثم انتقلَ إلى الجانبِ الآخر، وعرضَ أَمثلةً ونماذجَ من نظرةِ الأُممِ الكافرة إلى المرأة، ابتداءً من الرومان واليونان في الماضي، ومروراً بنظرةِ الكنيسةِ إلى المرأةِ باعتبارِها رجساً ودنساً، وانتهاءً بنظرةِ الجاهلية الغربية إلى المرأة، القائمةِ على الإباحية والشهوات، وأَوردَ نماذج معاصرةً من عالم الغرب.

ولا ينسى أن يسجِّلَ في هذا المبحث نماذجَ لما شاهدَه أو سمعَ عنه، عندما كان في أمريكا: ١٩٤٨ ـ ١٩٥٠، تشيرُ إلى الإباحيةِ الشهوانيةِ المطلقةِ في الحياةِ الأَمريكية، في النظرةِ إلى المرأة، والتعاملِ بين الجنسين، وهذه النماذجُ سجلَها في بحثه «أَمريكا التي رأيت» وأَعلنَ أَنه تحت الطبع.

وسبقَ أَنْ قرَّرْنا أنَّ كتابَه المذكورَ قد فُقدتْ أُصولُه، ولم تتمّ طباعتُه، وقد جمعنا كلامَه عن أَمريكا في كتاب «أَمريكا من الداخل بمنظارِ سيد قطب».

كذلك بَيَّنَ تخبُّطَ واضطرابَ الحضارةِ الأَوروبية في نظرتِها إلى النظم الاجتماعية والاقتصادية التي تنظمُ حياةَ الإنسان، وأَوردَ على ذلك عدةَ نماذجَ من عالمِ الغرب!

الفصل الرابع: حضارةٌ لا تلائمُ الإنسان: بَيَّنَ فيه أَنَّ الحضارةَ الغربيةَ الجاهليةَ حضارةٌ لا تلائمُ الإنسان، ولا تتفقُ مع إنسانيته،

ولا تُلبي أَشواقَ فطرته، ومن ثمَّ لا تصلحُ له، رغمَ ما تقدمُه له من رقيٍّ مادي، وتقدُّمٍ علميٍّ وتكنولوجي، لأنَّ المادةَ والرفاهيةَ ليستْ كلَّ شيء في حياةِ الإنسان. وعادَ لاقتباسِ كلامٍ مطوَّلٍ للدكتورِ ألكسيس كاريل في تقريرِ هذه الحقيقة!

الفصل الخامس: عقوبة الفطرة: بيَّنَ فيه تحقُّقَ سُنَّةِ اللّهِ على الناسِ في العصر الحديث، حيثُ أَوقعَ اللّهُ بهم عقابَه بسببِ تمرُّدِهم عليه. فبما أنَّ الحضارةَ الماديةَ عطلتْ خصائصَ الإنسانِ وقضَتْ على «إنسانيته»، وحوَّلَتْه إلى حيوانٍ شهواني، فقد عاقبهم اللّهُ عقوبةَ الفطرة، حيثُ أَدى الإنسانُ المعاصرُ ضريبةَ المخالفةِ لمنهج الله الفادحة، أَدّاها من نفسِه وأَعصابِه، ومن بدنِه وعافيته، ومن سعادتِه وطمأنينتِه، ومن مواهبِه وخصائصِه، ومن دنياه وآخرتِه..

وأَوردَ عدةَ آياتٍ قرآنية تؤكِّدُ هذه السُّنَّة الربانيةَ المطردة.

ثم انتقلَ إلى تسجيلِ شهاداتِ الشهودِ من العلماءِ الغربيين أَنفسِهم وغيرهم، يسجِّلونَ فيها أَمثلةً ونماذجَ لعقوبة الفطرة التي أَوقعَها اللّهُ بالغربيين، وأَطالَ في هذه الأَمثلةِ والشهادات. سجلَ شهادةً مطولةً للدكتور ألكسيس كاريل في كتابه «الإنسان ذلك المجهول» ـ الذي سبقَ أَنْ نَقَلَ منه نقولاتٍ شاهدة سابقة ـ ثم سَجَّلَ شهادةً للفيلسوف الأَمريكي «ول ديورانت» في كتابه «مباهج الفلسفة». وبعدَ ذلك نقلَ شهادَةَ السيد أَبي الأعلى المودودي في

كتابه «الحجاب». وشهادةَ الدكتورة عائشة عبد الرحمن ـ بنت الشاطىء ـ على مشاهداتِها في بلاد الغرب، وحديثها مع الغربياتِ هناك. وشهادةً لموسى صبري عن مشاهداتِه في السويد!!

الفصل السادس: كيف الخلاص؟: تحدَّثَ فيه عن طريقِ الخلاص، للخروجِ من الأَخطارِ التي توقعُها الحضارةُ المعاصرةُ بالإنسان، وسجَّلَ الحلَّ الذي يراهُ الدكتور كاريل، بأَنْ يُقبلَ الإنسانُ المعاصرُ على مزيدٍ من العلمِ بالإنسانِ وإنسانيته، وانتقدَ ذلك الحلَّ بأَنه لا يكفي، ولكن «كاريل» لا يملكُ غيرَه، لأَنه لا يملُك منهجاً متكاملاً للحياة.

وقرَّرَ بعدَ ذلك أنَّ الخلاص عندنا نحن المسلمين، لأننا نملكُ المنهجَ الإسلامي الذي يقدِّمُ تصوراً كاملاً للحياةِ والإنسان، منهجاً نظرياً، وتطبيقاً عملياً، فهو الوحيدُ القادرُ على إنقاذِ الإنسانِ من أَخطارِ الحضارةِ الغربية الجاهلية. وبَيَّنَ ما الذي يقبلهُ الإسلامُ من مكاسبِ الحضارة المادية، وأَنه هو المتعلقُ بالأُمورِ الماديةِ الصناعية التكنولوجية.

الفصل السابع: طريق الخلاص: بَيَّنَ فيه الطريقَ العمليَّ الذي يتقدمُ فيه الإسلام لتخليصِ الإنسان من أَخطارِ وشرورِ ومشكلاتِ الحضارة، وهو تحويلُ الإسلامِ من كلامٍ مقروءٍ أو مسموع، إلى منهجٍ حيٍّ متحركٍ مجسَّم، متمثِّلٍ في مجتمعٍ إسلاميٍّ رباني.

فالطريقُ الوحيدُ للخلاصِ العمليِّ هو في إيجادِ المجتمعِ الإسلاميِّ المنبثقِ من الإسلام، الملتزمِ به.

وإنَّ الأَعداءَ يعلمون هذا، ويُدركونَ خطورةَ إيجادِ المجتمعِ الإسلامي عليهم، ولذلك هم حريصون على عدم إيجادِه، وعلى محاربةِ كلِّ مَنْ يدعو إليه..

ومع ذلك فإنَّ المجتمعَ الإسلاميَّ سيقوم، اليومَ أو غداً أو بعد غد! سيقومُ هنا أو هناك!! لأنَّ قيامَه ضرورةٌ إنسانية، وحتميةٌ تاريخية، وهذه هي إرادةُ الله!

ولكنَّ الطريقَ إلى قيامه وإيجاده طويلةٌ شاقة، مليئةٌ بالأَشواكِ والأَخطار، وحتميةُ الميلاد لا تُغْني عن آلامِ المخاض!! وبَيَّنَ أنَّ الجهودَ يجبُ أنْ توجَّهَ إلى إيجادِ المجتمعِ الإسلامي المأمول، وليسَ إلى الدراساتِ النظريةِ الثقافيةِ للفقه الإسلامي النظري، والانشغالِ بوضْعِ القوانين والأَنظمةِ والتشريعات لهذا المجتمع قبلَ قيامه.

فحلُّ الإسلامِ لمشكلات الحضارة بقيامِ المجتمعِ الإسلامي العملي، وهذا قادمٌ لا محالةَ بإذْنِ الله، والطريقُ إليه طويلةٌ وشاقة، لكنها مضمونة النائج. بهذا ختمَ كتابَه «الإسلام ومشكلات الحضارة»!

٤ ـ كتاب «خصائص التصور الإسلامي»:

أَصدرَ كتابَه في نفسِ السنةِ التي أَصدرَ فيها كتابَه السابق «الإسلام ومشكلات الحضارة»، حيث نشرتْه له «دار إِحياء الكتب العربية» لعيسى الحلبي، عام ١٩٦٢.

وعنوانُ الكتابِ هو «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته»، وقد جعلَه قسمين:

الأَول: يتحدثُ عن خصائصِ التصور الإسلامي، وهو الذي أَصدره عام ١٩٦٢ في مائتين وست وثلاثين صفحة.

الثاني: يتحدثُ عن مقوِّمات التصور الإسلامي، ووعدَ بإِصداره بعد ذلك، وقد صَدَرَ بعد عشرين سنة من استشهاده! كما سنوضحُ فيما بعد إِن شاءَ الله[١]!

وقد أَعلنَ عن الكتابِ سابقاً تحت عنوان «فكرة الإِسلام عن: الله والكون والحياة والإنسان». أَعلنَ عنه في كتابيه «معركة الإسلام والرأسمالية» و«السلام العالمي والإسلام» اللذيْن أَصدرها عام ١٩٥١.

واستغرقَ إِعدادُ هذا الكتاب أَكثرَ من عشر سنوات: ١٩٥٠ ـ ١٩٦٢.

---

(١) كتابنا: «سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد»، ص ٥٥٢.

وهو من أَعمقِ كتبه، وأَكثرِها تأصيلاً ومنهجيةً وعلميةً وموضوعية. يتحدثُ فيه عن التصورِ الإِسلامي العام، ويَعرضُ فيه أُصولَ النظرةِ الإسلامية الشاملة، فهو كتابٌ في العقيدة، وفي الفكر، وفي المنهجية العامة الشاملة!

تعريف بفصول الكتاب:

جعل كتابه في عشرة فصول: كلمةٌ في المنهج، وتيهٌ وركام، وخصائصُ التصور الإسلامي، والربانية، والثبات، والشمول، والتوازن، والايجابية، والواقعية، والتوحيد.

الفصلُ الأَول: كلمةٌ في المنهج: هو تمهيدٌ ضروريٌّ لفصولِ الكتابِ اللاحقة، بَيَّنَ المنهجَ المأمونَ السليمَ الصحيحَ في معرفةِ خصائصِ التصور الإسلامي، هذا المنهجُ محصورٌ في القرآنِ والسُّنَّة.

تحدَّثَ في هذا الفصلِ عن أَهميةِ معرفةِ وتحديدِ خصائصِ التصورِ الإِسلامي، وذكَرَ أَنَّ الصحابةَ أَدركوا هذه الخصائصَ من القرآن، لما أَحسنوا الحياةَ به، ولكنَّ الناسَ في هذا العصر بَعُدوا عن الحياةِ بالقرآن، وعن الحياةِ في الجو القرآني، وعن حسنِ فهمِ القرآن وتفسيرِه، فأَصبحوا بحاجةٍ ماسَّةٍ لتحديدِ وبيانِ خصائصِ التصورِ الإِسلامي.

وذكَرَ أَنَّ هدفَه من هذا الكتاب هدفٌ حركيٌّ دعوي، فهو لا يريدُ بيانَ خصائصِ التصور الإسلامي للناس لمجردِ المعرفةِ الثقافيةِ النظرية الباردة، وإنما يهدفُ إلى المعرفةِ المنشأَةِ للعمل، والباعثةِ على الحركة، ليتحركَ الدعاةُ بهذا الإسلام، ويَعملوا على إيجاده وتطبيقِه في عالم الواقع!!

ثم تحدَّثَ في تحديدِ المنهج عن ما يسمّى بالفلسفةِ الإسلامية، ونشأَتِها في بلاد المسلمين، وانتقدَها انتقاداً علمياً منهجياً موضوعياً، ودَعا إلى رَفْضِها وترْكِها، وأَخْذِ العقيدةِ من الكتابِ والسُّنَّة. وركَّز على أنَّ المنهجَ الصحيحَ في استلهامِ القرآنِ وفهمِه هو عدمُ دخولِ عالمِ القرآن بمقرراتٍ فكريةٍ مسبقة، وإنما تلقّي مقرراتِ القرآن وحقائقِه مباشرة.

الفصلُ الثاني: تيه وركام: استعرضَ فيه الركامَ الثقيلَ من الأَفكارِ والتصورات والعقائدِ الجاهلية الباطلة التي كانت عليها الأُممُ الجاهليةُ الكافرة، قبلَ الإسلام وبعده، من يونانٍ ورومانٍ وفرس وهنود، وكيف جاءَ الإسلامُ ليزيلَ ذلك الركامَ الباطل، ويقرر مكانه الحق الأَصيلَ الذي جاء به!

وذكرَ في هذا الفصل تيهَ وضلالَ اليهود، وتدسُّسَ الأَفكارِ الجاهلية إلى عقيدتهم، مع أَنهم أَهلُ كتاب ـ كما ذكرَ تيهَ وضلال النصارى أَيضاً: وذكرَ وصولَ الأَفكارِ الوثنية إليهم. وَعَرَضَ بعضَ التصوراتِ الوثنيةِ للعربِ الجاهليين.

وذكَرَ دلالةَ هذا الركام الجاهليِّ الثقيلِ عند أَهل الكتابِ والعرب وغيرهم على حرصِ الإسلام على بيان العقيدة وتوضيحِها والبدءِ بها، والتأكيدِ على صفائِها وخلوصِها من جميع الأَفكارِ والتصوراتِ الوثنية والجاهلية.

الفصل الثالث: خصائصُ التصور الإسلامي: ذكَرَ فيه أنَّ الإسلام متميزٌ متفردٌ عن جميعِ الأَفكارِ والتصوراتِ الأُخرى، لا يشاركُه في خصائصِه أيٌّ منها. ثم أَجملَ القولَ في خصائصِ التصور الإِسلامي السبعة: الربانية، والثبات، والشمول، والتوازن، والإيجابية، والواقعية، والتوحيد. وربط بين هذه الخصائصِ السبعة. وذكَرَ أَنها كلَّها تقومُ على «الربانية» التي هي أَهمُّ هذه الخصائص!

ثم انتقلَ لتفصيلِ القولِ في هذه الخصائص بعدَ ذلك، حيث خصَّصَ لكلٍّ واحدةً فصلاً من فصول الكتاب!

الفصل الرابع: الربانية: تحدَّثَ فيه عن أُولى خصائصِ التصور الإسلامي، وهي الربانية، وهي أَساسُ ما بعدَها من الخصائص ومصدرُها. والربانيةُ نسبةٌ إلى ربِّ العالمين سبحانه وتعالى. والتصورُ الإسلامي هو التصورُ الدينيُّ الوحيد الباقي بأَصله الرباني وحقيقتِه الربانية.

إنَّ التصورَ الإِسلامي نعمةٌ ورحمةٌ من اللّهِ للإنسان، لينظِّمَ له حياتَه، ومن ثَمَّ هو تصوُّر صائبٌ لا خَطأَ فيه.. ودورُ الفكرِ

البشريِّ في التصورِ الإسلامي ليس في إيجادِه وصياغته، وإنما في حسنِ فهمِه وإدراكِه واستيعابِه! ولا يتلقّاهُ العقلُ فقط، وإنما يتلقاه الكيانُ الإنساني كلُّه! والغيبياتُ في التصور الإسلامي يتلقاها الكيانُ الإنسانيُّ من القرآن، ويفهمُها حقَّ الفهم، وعقلُه عاجزٌ عن تشكيلِ عوالم الغيب بمعزلٍ عن القرآن.

وقارنَ في هذا الفصل بين التصورِ الإسلاميِّ الربانيِّ الصحيح، وبين التصوراتِ الغربيةِ الماديةِ الجاهليةِ البشرية. ولَخَّصَ نظرةَ تلك التصوراتِ للعقلِ البشري، وتأليهَ بعضِها له. ولَخَّصَ آراءَ هيجل ونيتشه وفيشته وماركس. ونقلَ نقولاتٍ عديدةً عن الدكتور ألكسيس كاريل في كتابه «الإنسان ذلك المجهول». والدكتور محمد البهي في كتابه «الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الأوروبي».

الفصل الخامس: الثبات: تحدَّثَ فيه عن ثانيةِ خصائصِ التصورِ الإسلامي. وخلاصةُ الثباتِ فيه أَنه يقومُ على خاصيةِ: «الحركة داخلَ إطارٍ ثابت، وحولَ محورٍ ثابت!» وعرضَ فيه نماذجَ للمظاهرِ الثابتة والمظاهر المتحركة في الكون، والمظاهرُ الثابتةُ التي ذكرها أَحدَ عشر نموذجاً، لا تتغيَّرُ مهما تغيَّرَ وضْعُ الإنسان المادي والعلمي والحضاري.

وذكرَ آثارَ الثباتِ وأَهميتَه في حياةِ البشر، كما ذكرَ آثارَ عدم الثبات في التصور والحياة. وعرضَ صورةً ساخرةً لآثارِ الانفلاتِ

والضياع الذي تعيشُه البشريةُ المنفلتةُ في هذا العصر! وناقشَ الدعاوى الباطلةَ لدعاةِ التطورِ المطلق في التصورِ والحياة وفَنَّدَها. وبَيَّنَ تناقضَ الدعاوى الماركسية في زعمِ التطور المطلق. ثم أَشارَ إلى آثارِ الثباتِ في التصورِ الإسلامي والحياة الإسلامية! ودورِه في المحافظةِ على المجتمع الإسلامي عندَ الهزاتِ العنيفة الطارئة.

الفصل السادس: الشمول: تحدَّثَ فيه عن مفهومِ الشمولِ في التصور الإسلامي، مقابلَ النقصِ والخطأ والمحدوديةِ في التصورِ البشري. ثم عرضَ مجموعةَ مظاهرَ للشمولِ في هذا التصور: الشمولُ في ردِّ كلِّ الوجود وما فيه إلى إلهٍ واحد. والشمولُ في تقريرِ أُلوهيةِ اللّهِ وحده، وعبوديةِ كلِّ ما سواه له. والشمولُ في خطابِ التصورِ الإسلاميِّ للكيانِ الإنساني كلِّه: روحاً وعقلاً وجسماً! والشمولُ في عرضِ حقائقِ الإسلام كلِّها: عبادات ومعاملات وتشريعات!

الفصل السابع: التوازن: التوازنُ هو الخصيصةُ الرابعة من الخصائصِ السبعة. ذكرَ فيه أَنَّ التوازنَ كان صمامَ أَمان، صانَ التصورَ الإسلامي عن الاندفاع نحو الإفراطِ أو التفريط، وأَبقاهُ في الخطِّ الوسطيِّ المتوازن!

ثم تحدَّثَ في هذا الفصل عن عدةِ مظاهرَ للتوازن، تُعتبرُ موازناتٍ مأمونةً بين خطوطٍ متقابلة: التوازنُ بين ما لا يدركُه العقلُ البشري من الغيبيات، وما يدركُه من المادياتِ والمحسوسات!

والتوازنُ بين المشيئةِ الإلهية والمشيئةِ الإنسانية، أَو ما يسمّى بالجبرِ والاختيار في علمِ الكلام! والتوازنُ بين عبوديةِ الإنسان لله وسيادتِه على الكون بأَمْرِ الله! والتوازنُ بين الخوفِ والأَمن، خوفِ المؤمن من عذابِ الله، ورجائِه في رحمةِ الله وجنتِه. والتوازنُ في مصادرِ المعرفةِ الإسلامية بين الوحي والعقل. والتوازنُ بين فاعليةِ الإنسانِ في الكون وفاعليةِ الكون في الإنسان!

الفصل الثامن: الإيجابية: أَثارَ فيه إلى أَنَّ الايجابيةَ في التصورِ الإسلامي عكسُ السلبيةِ والانعزالية، فالإسلامُ دينٌ إيجابيٌّ في مقابلِ السلبيةِ النصرانية، وإِيجابيةُ المسلمِ الملتزمِ بالإسلام في مقابلِ سلبيةِ الرهبان النصارى!

وعرضَ لمظهريْن من مظاهِر الإيجابية في التصور الإسلامي: المظهر الأول: الإيجابيةُ الفاعلةُ المؤثرةُ في صفاتِ الله، بينما صفاتُ اللّهِ في التصوراتِ البشرية صفاتٌ سلبية، لا ارتباطَ لها بالحياةِ الإنسانية، ولا دخلَ لها بالكون، وأَشارَ إلى أَثرِ الايجابية في صفاتِ اللّهِ على حياةِ الإنسان!

والمظهرُ الثاني هو: إِيجابيةُ المؤمن في الكونِ والحياة: إِيجابيةُ المؤمن في إِيمانِه، وإِيجابيتُه في العملِ الصالح، وإِيجابيتُه في حركتِه العملية لإِيجادِ الإسلام في الواقع، واللّهُ يُعينُ هذا المؤمنَ على أَداءِ واجباتِه الايجابية.

الفصل التاسع: الواقعية: أَرادَ بالواقعيةِ في التصورِ الإِسلامي أنَّ الإِسلامَ قابلٌ للتحقيقِ والتطبيقِ في عالم الواقع، وليس ديناً مثالياً نظرياً خيالياً.

بينما الواقعيةُ عند الآخرين هي: الرضا بالواقع والقبولُ به وإِنْ خالفَ ما عليه الإِنسانُ من فكرٍ واعتقاد، أو التخلي عن ما يخالفُ الواقعَ القائمَ وإِنْ كان حقاً في نفسِه. وهذا مرفوضٌ في التصورِ الإِسلامي!

من مظاهرِ الواقعيةِ في التصورِ الإسلامي: تعامُلُه الواقعيُّ مع الوجود الحقيقيِّ القائم، وحقائقِه الموضوعيةِ القائمة: الله، والكون، والإنسان. فاللّهُ سبحانه موجود، موصوفٌ بصفاتِ الجمالِ والجلالِ والكمال، وصفاتُه لها آثارٌ إِيجابيةٌ فاعليةٌ مؤثرة.. والكونُ واقعٌ قائمٌ بذاته، مخلوقٌ موجودٌ محسوس، له بدايةٌ وله نهاية.. والوجودُ الإنساني وجودٌ واقعيٌّ قائم. نظَّمه الإِسلامُ تنظيماً محدداً.

ومن مظاهرِ الواقعية: الواقعيةُ في تحقيقِ المنهج الإسلامي، فالتكاليفُ الإسلاميةُ واقعية، لأنَّ الله لم يكلفْ نفساً إِلاّ وسْعَها، والمؤمنُ باستطاعتِه أن يُنَفِّذَها بعد أَنْ يستعينَ بالله. فالإسلامُ دينٌ للواقعِ وللحياةِ وللحركة، وقد سبقَ أَنْ طُبقَ الإِسلامُ تطبيقاً واقعياً ناجحاً عالياً!

الفصل العاشر: ختمَ كتابَه بالفصلِ الأَخير، وعرضَ فيه آخرَ خصائصِ التصور الإِسلامي، وهو «التوحيد». واعتبرَ «التوحيد»

خاتمةَ الخصائص، وأُولى «مقومات التصور»، فهو مشتركٌ بين الخصائصِ والمقومات!

ذكَرَ أَنَّ «التوحيد» هو السمةُ البارزةُ لكلِّ دينٍ جاءَ به الرسلُ من عند الله، ولكنَّ أَصحابَ الأَديانِ السابقة ـ كاليهود والنصارى ـ حَرَّفوا أَديانَهم، وطَمسوا التوحيد، وأَحَلّوا محلَّه الشرك..

أَساسُ التوحيدِ في التصورِ الإسلامي يقومُ على أَنَّ الوجودَ يقومُ على «أُلوهيةٍ وعبودية». اللّهُ وحده هو الإِله الخالق، وكلُّ ما سواه مخلوقٌ عبدٌ خاضعٌ له سبحانه! وهما وجودان متميِّزان منفصلان. وهذا ردٌّ على وحدةِ الوجود والحلولِ والاتحاد وغيرهما! ثم تحدَّثَ عن مقتضياتِ وآثارِ ونتائج التوحيدِ في حياة البشر، وهي نتائجُ وآثارٌ إِيجابية! توحِّدُ حياةَ المسلم وتضبطُ حركَتَه، وتنسقُ بين عقْلِه وقلبه. وهذا التوحيدُ ينشىءُ في كيانِ المسلم الاستقامةَ في التعامل، وعدمَ الانحرافِ أو الغلو.. ويجمعُ قدراتِ وطاقاتِ الشخصيةِ الإِسلامية على هدفِ العبوديةِ لله. ويُعلنُ تحريرَ المؤمن من خضوعه لكلِّ ما سوى الله، ويمنحُه الشعورَ بالعزةِ والكرامة، وعدمِ الخضوعِ أو الذلِّ لغير الله. والتلقّي من الله وحده! وهذا هو الميلادُ الحقيقيُّ للإِنسان!!

وبهذا الفصلِ ختمَ سيد قطب كتابَه القيمَ العميقَ «خصائص التصور الإسلامي».

والكتابُ رغم أَنه يصلحُ أَنْ يكونَ كتاباً في العقيدة الإِسلامية، إلاّ أَنه يصلحُ أَن يكونَ كتاباً قرآنياً، لأنه دراسةٌ قرآنيةٌ متكاملة عن خصائص التصور الإسلامي السبعة التي عرضَها. فهو في كلِّ مسألةٍ كان يعرضُها، وفي كلِّ موضوع كان يتناوله، كانَ يقدمُ مجموعاتٍ عديدة من الآياتِ القرآنية.. وهو في إيرادِه لها لم يوردْها شواهدَ لما يقول، وإِنما أَوردَها أَساساً للبحثِ والموضوع، ثم أَشارَ إلى بعضِ ما فيها من دلالاتٍ وإِشارات!

والحقيقةُ أَنَّ هذا الكتابَ هو تأصيلٌ منهجيٌّ للعقيدة الإسلامية، وتعريفٌ جذريٌّ بدينِ الإِسلام، لا يستغني عنه دارسٌ للعقيدة، أو باحثٌ في الفكرِ الإِسلامي!

(٦)

«في ظلال القرآن»:
تفسر حركي دعوي تربوي

نقفُ في هذا المبحثِ وقفةً مع تفسير «في ظلال القرآن» أَجَلُّ وأَعظمُ وأَهمُّ كتبِ سيد قطب رحمه الله، الذي سدَّ ثغرةً كبيرةً في المكتبة التفسيرية، والذي أَقبلَ عليه المسلمون في كلِّ مكانٍ إِقبالاً خاصاً، والذي تبوأَ به سيد قطب مركزَ الريادةِ في عالمِ التفسير، وأَسَّس به مدرسةً تفسيريةً أَصيلة، هي: مدرسةُ التفسير الحركي الدعوي التربوي.

قصة تأليف «الظلال»:

ما هي قصة «الظلال»؟ وما هي المراحلُ التي مَرَّ بها؟ وما هو هدفُ سيد قطب منه؟ وما هو منهجُه فيه؟

لما تحدَّثنا عن مشروعِ سيد قطب القرآني «مكتبة القرآن الجديدة» قلنا: إنَّ اللّهَ وهبَ سيد قطب مفتاحيْن، فتحَ بهما كنوزَ القرآنِ المذخورةِ فيه:

الأَول: المفتاح الجمالي: المتمثلُ بنظريةِ «التصوير الفني في

القرآن». وقد أَصدرَ من هذه المكتبةِ كتابيْن: التصويرُ الفني في القرآن، ومشاهدُ القيامةِ في القرآن.

الثاني: المفتاحُ الحركي: الذي تعرَّفَ فيه على طبيعةِ القرآن ومهمتِه ومقاصدِه الأَساسية، وأَبعادِه الجهادية والدعوية، وهو متحققٌ في الظلال، و«معالم في الطريق».

فلما فرِغَ سيد قطب من كتاب «التصوير الفني في القرآن» كانتْ إِحدى أُمنياتِه أنْ يفسِّرَ القرآنَ تفسيراً جماليّاً بيانيّاً على أَساسِ التصويرِ الفني، ولكنَّ الشواغلَ كانت تشغلُه بأَعمالٍ أُخرى. وبقيَ على هذا حوالي سبع سنوات: ١٩٤٥ ـ ١٩٥٢.

وأَخيراً هيأَ اللّهُ له الأَسبابَ لتحقيقِ أُمنيته، وإِذا أَرادَ اللّهُ شيئاً هيأَ له أَسبابَه.

«الظلال»: مقالات في مجلة «المسلمون»:

في نهايةِ عام ١٩٥١ أَصدرَ سعيد رمضان ـ أَحدُ قادةِ الإِخوانِ المسلمين ـ مجلةً شهيرة إِسلامية جامعة، واستكتَبَ قادةَ الفكرِ والرأيِ فيها، وكان في مقدمةِ هؤلاء سيد قطب، وطلبَ سعيد رمضان من سيد قطب أنْ تكونَ مقالاتُه تحت عنوانٍ دائم.

فشرحَ اللّهُ صدرَ سيد قطب أن يكتبَ في المجلةِ مقالاتٍ في تفسيرِ القرآن، وأنْ تكونَ حلقاتٍ مسلسلةً متتابعة. واختارَ عنواناً مثيراً لهذه الحلقات هو «في ظلال القرآن».

ظهرت الحلقةُ الأُولى «في ظلال القرآن» في العددِ الثالثِ من مجلة «المسلمون» الذي صدر في شهر شباط ـ فبراير ـ ١٩٥٢.

واستمرت المجلةُ بنشرِ حلقاتِ الظلال في أَعدادِها اللاحقة، حيث نشرتْ سبعَ حلقاتٍ في سبعةِ أعداد. وانتهت الحلقةُ السابعةُ عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٣].

طبع الأجزاء الأولى من الظلال قبل سجن صاحبه:

ثم بدا لسيد قطب أن يجعل «الظلال» تفسيراً للقرآن، وأَنْ يُصدره في كتابٍ مستقل، وليس حلقاتٍ في مجلة! فأَعلنَ في نهايةِ الحلقة السابعة في المجلة عن توقُّفِ نشرِ الظلال في مجلةِ «المسلمون» ابتداءً من عددها العاشر، في أَيلول ١٩٥٢ ـ حيث سيشرعُ في الكتابةِ في بحثٍ جديد، هو «نحو مجتمع إسلامي».

وجاءَ في الإعلان قولُه «بهذا الدرس ينتهي ما قُدِّرَ له أَنْ يُنشرَ من هذه السلسلة في «المسلمون». وذلك أَنَّ «في ظلال القرآن» ستُنشر مستقلةً في ثلاثينَ جزءاً على التتابع، تظهرُ كلُّ حلقة على رأسِ كلِّ شهرين، ابتداءً من شهر سبتمبر القادم بإِذن الله، تنشرُها دارُ إِحياءِ الكتب العربية، لعيسى الحلبي وشركاه، أَما

«المسلمون» فتأخذُ في نشرِ بحثٍ آخر تحت عنوان «نحو مجتمع إسلامي»[1].

وفعلاً ظهرَ الجزءُ الأَول من «في ظلال القرآن» في شهر تشرين أول ـ أكتوبر ـ ١٩٥٢.

ووفّى سيد قطب بتعهُّدِه مع القراء. فصارَ يُصدرُ كلَّ شهرين جزءاً من الظلال، فيه تفسيرُ جزءٍ من القرآن، وكان يزيدُ على هذا أَحياناً، ففي الفترةِ ما بين تشرين أول ١٩٥٢ وكانون الثاني ١٩٥٤ أَصدرَ ستة عشر جزءاً من الظلال[2].

ولا ننسى أَنه كانَ في هذه الفترة كثيرَ النشاطِ السياسيِّ والاجتماعي والدعوي والعلمي والتأليفي، فقد كانَ مشغولاً بالاتصالِ برجالِ الثورة، وكان عضواً عاملاً فاعلاً نشيطاً مع جماعةِ الإِخوان المسلمين. ويُلقي العديدَ من المحاضرات، ويكتبُ في العديدِ من الصحفِ والمجلاتِ!

سيد قطب يكمل الظلال في السجن:

وبعدما أَصدرَ ستةَ عشر جزءاً من الظلال وقعتْ محنتُه الأُولى حيث أُودعَ السجنَ في نهاية عام ١٩٥٤، مع الآلاف من

(١) المسلمون، المجلد الأول، العدد التاسع، يوليو ١٩٥٢، ص ١٥.
(٢) كتابنا: مدخل «في ظلال القرآن»، ص ٤١ ـ ٤٢.

أَعضاءِ الإِخوان المسلمين، وعُذِّب تعذيباً رهيباً، وتوقَّفَ عن الكتابةِ بسببِ ذلك، ولم يُصدرُ شيئاً من الظلال في هذه الفترة!!

ويَسَّرَ اللّهُ لسيد قطب الكتابةَ في السجن، وإِكمالَ تفسيرِ الظلالِ فيه، بطريقةٍ عجيبة!

كان سيد قطب قبلَ إِدخالِه السجنَ قد تعاقدَ مع دارِ إِحياءِ الكتب العربية ـ لعيسى البابي الحلبي وشركاه ـ على كتابةِ تفسيرٍ كاملٍ للقرآن، اسمه «في ظلال القرآن». فلما أُدخلَ السجن منعَتْهُ الحكومةُ من الكتابة، لأَنَّ لوائحَ السجن تمنعُ السجينَ من الكتابةِ واقتناءِ أَدواتِ الكتابة.

فرفعت الدارُ الناشرةُ دعوى ضدَّ الحكومة، تطالبُها بدفْعِ تعويضٍ ماليٍّ كبيرٍ لها، يقدَّرُ بعدةِ آلافٍ من الجنيهات، لأَنها تضررتْ من منعِ سيد من الكتابة! واختارت الحكومةُ أنْ تأذنَ لسيد بالكتابة بدلَ أن تدفع التعويضَ الماليَّ الكبير!!

واستغلت الحكومةُ سماحَها لسيد بالكتابة وإِكمالِ الظلال لإِبطالِ دعاوى الإخوان المسلمين عن الاضطهادِ والتعذيب الذي يلاقونَه، وزعمت الحكومةُ أَنَّ سيد في بيته يتمتعُ بحريتهِ، وليس مسجوناً!!

وأَخبرني الأُستاذُ محمد قطب ـ عند أَولِ مقابلةٍ معه عام ١٩٧٩ ـ أَنَّ جمالَ عبد الناصر زارَ باكستان في نهاية الخمسينيات فاجتمع به مجموعة من علماء باكستان، وأنكروا عليه اعتقال سيد

وسجْنَه، فزعمَ لهم أنَّ سيد في بيته، يتمتعُ بحريته! بدليلِ تأليفِه لكتبِه، ومنها «الظلال»، ولو كانَ سجيناً لما أَصدرَ كتباً من السجن!!

وتشكَّكَ أَحدُ علماءِ باكستان، ولم يصدق الرئيسَ المصري، فبعثَ برقيةً للأُستاذ محمد قطب، يستفسرُ فيها عن سيد! وأَخبرني الأستاذ محمد أَنه استلمَ البرقيةَ لكنه عجزَ عن الردِّ عليها!!

وعينت الحكومةُ الشيخَ محمد الغزالي ـ أَحدَ كبارِ موظفي وزارة الأوقاف في ذلك الوقت ـ رقيباً دينياً، تُعرضُ عليه أُصولُ الظلال قبلَ نشرِه! وقد أَخبرني الأُستاذُ محمد قطب أنَّ الشيخَ الغزالي أَجازَ الظلالَ كلَّه، ولم يَمنعْ منه إلاّ صفحاتٍ معدودة، عَقَّبَ فيها سيد على قصةِ أَصحابِ الأُخدود من سورة البروج، أَشارَ فيه سيد إلى التعذيبِ الذي كان يلاقيه هو وإِخوانُه في السجن، فنشرَ سيد هذا التعقيب في آخرِ فصولِ كتاب «معالم في الطريق».

وأكملَ سيد قطب تأليفَ الظلال في نهايةِ الخمسينيات!

أسباب الطبعة المنقحة من الظلال:

أنضجت محنة السجن فكرَ سيد قطب وتصوُّره، وتعمقتْ تجربتُه الدعوية، ووفَّقَهُ اللّهُ إلى الوقوفِ على المنهجِ الحركيِّ للقرآن، والتعرفِ على مهمتِه الجهادية، والإِدراك العميقِ لحقائقِ

الدعوةِ والحركةِ والجهادِ والمواجهة، واكتشافِ «المفتاح الحركي» الذي سبقتْ إشارَتُنا له!

فدعت الحاجةُ إلى إعادةِ تفسيرِ القرآن، وإعادةِ كتابةِ «في ظلال القرآن» على أساس المفتاحِ الحركيِّ الجديد، ووفْقَ مكتسباتِه الدعويةِ والحركيةِ والجهادية.

بدأَ يكتبُ الظلال عام ١٩٦٠، ويُصدرُ أَجزاءَ الطبعةِ المنقحة تباعاً. وخيرُ ما يمثلُ فهمَه الحركيَّ الدعويَّ التربويَّ الجهادي الأَجزاءُ العشرةُ الأُولى من الظلال في طبعته المنقحة، حيث كان يُسهبُ القولَ فيها، ويُطيلُ النَّفَس، ويركزُ على الأُسسِ الأساسيةِ في العقيدة والدعوة والجهاد، ويحددُ الأَمْرَ في مسائلَ ثقافيةٍ مطروحة، ومصطلحاتٍ فكريةٍ متداولة، ويركزُ على مصطلحاتٍ بعينها، مثل: الحاكمية، والجاهلية، وفقه الحركة، وطريق الدعوة، والتميز، والمفاصلة، والعزلة، وغير ذلك!

وكان تفسيرُه لسورة الأَنعام أكثرَ الأَجزاءِ تركيزاً حولَ هذه المسائلِ الدعوية الحركية الجهادية.

وقد وصلَ في الطبعةِ المنقَّحة إلى نهايةِ الجزءِ الثالث عشر، الذي انتهى فيه من تفسيرِ سورةِ إبراهيم، وقد أَصدره قبيلَ اعتقاله الأَخير عام ١٩٦٥.

وكان ينوي أَنْ يُعيدَ كتابةَ الأَجزاءِ السبعة عشر الباقية، على هدي منهجه الحركيِّ الجديد، وإِنْ كان قد قال معظمَ ما يريدُ قولَه في الأَجزاءِ الثلاثةَ عشر الأُولى!

ولكنَّ الطغاةَ عَجَّلوا باعتقالهِ وتعذيبِه، ثم محاكمتِه وإِعدامِه عام ١٩٦٦، قبلَ تحقيقِ أُمنيته بإكمال الظلال في طبعتِه المنقحة!

تعريف بطبعات «الظلال»:

طبعَ الظلالُ ثلاثَ طبعاتٍ في حياةِ صاحبه، وعدةَ طبعات بعد استشهاده.

الطبعةُ الأُولى: للجزء الأول من الظلال في تشرين الأَول ١٩٥٢.

الطبعةُ الثانية: ظهرَ الجزءُ الأَولُ منها بعدَ شهورٍ من الطبعةِ الأُولى، وكان صدورُه في شهرِ شباط عام ١٩٥٣. واعتبرَ سيد قطب هذه الطبعة مكملةً للطبعة الأُولى.

الطبعة الثالثة: هي الطبعةُ المنقَّحة التي بدأَ بها عام ١٩٦٠، واستُشهدَ عام ١٩٦٦، بعد أَنْ أَصدرَ الجزءَ الثالثَ عشر منها.

وبعد استشهادِ سيد تسابقَتْ دورُ النشر اللبنانية إلى إِصدارِ عدةِ طبعاتٍ غيرِ شرعيةٍ للظلال، فظهر الظلالُ في عدةِ طبعات غيرِ مشروعة، حيثُ أُخذت الأَجزاءُ الثلاثة عشر الأُولى من الطبعة

المنقحة، ثم أُكملَ التفسيرُ في أَجزائِه الأُخرى من الطبعةِ غير المنقحة.

وآخرُ طبعاتِ الظلال وأَجودُها هي طبعةُ دارِ الشروق، التي أَصدرَتْها في ستةِ مجلدات كبيرة، وكانتْ طبعةً شرعيةً بإذنٍ من الأُستاذ محمد قطب.

وقَدَّمَ الأُستاذُ محمد قطب لها بكلمةٍ قال فيها: «في ظلال القرآن: الكتابُ الذي عاشَه صاحبُه بروحِه وفكرِه وشعورِه وكيانِه كلِّه.. وعاشَه لحظةً لحظة، وفكرةً فكرة، ولفظةً لفظة، وأَودعه خلاصة تجربتِه الحية في عالمِ الإيمان.

لقد حانَ له أَنْ يأْخذَ وضْعَه الطبيعي، في يدِ ناشرٍ أَمين، يُقَدِّرُ أَنه ناشرُ فكرٍ قبلَ أَنْ يكونَ جامعَ مال.. وأَنَّ نشرَ الفكرِ رسالةٌ عليا وليس انتهازيةً طامعة. فلْتَكنْ هذه الطبعةُ المشروعةُ الصادرةُ عن دارِ الشروق ـ بعد طول التطواف في طبعاتِ غير مشروعة ـ فلتكُنْ في ثوبها هذا تحيةً منا في رحلتِنا العابرةِ على الأَرض.. إلى المؤلف الشهيد..»[1].

واختلف منهج سيد قطب في تفسيرِ القرآن في الطبعةِ المنقَّحة عنه في الطبعةِ الأُولى. فهو في الطبعةِ الأُولى منهجٌ بيانيٌّ فكريٌّ نظري، لكنه في الطبعةِ المنقَّحة منهجٌ حركيٌّ دعويٌّ تربوي.

---

(١) في ظلال القرآن، ١: ٩.

مقدمة الطبعة الأولى من الظلال:

قال في مقدمةِ الطبعة الأُولى: «في ظلال القرآن: عنوانٌ لم أَتكَلَّفْه. فهو حقيقةٌ عشتُها في الحياة.. فبينَ الحينِ والحينُ كنتُ أَجدُ في نفسي رغبةً خفيةً في أَنْ أعيشَ في ظلٍّ القرآن فترة، أَستروحُ فيها ما لا أَستروحُه في ظلٍّ سواه. فترةً تصلُني بالسماء، وتفتح لي فيها نوافذَ مضيئة وكوى مشعة، وهي في الوقت ذاته تُثَبِّتُ قدميَّ في الأَرض، وتُشعرني أَنني أَقفُ على أَرضٍ صلبة، لا تدنِّسها الأَوحالُ، ولا تزلُّ فيها الأَقدام!

وكانت تعنُّ لي في هذه الجولات خواطرُ متناثرة: خواطرُ في العقيدة، وخواطرُ في النفس، وخواطرُ في الحياة، وخواطُر في الناس.. كنتُ أَكتفي بأَنْ أَعيشَها ولا أُسجلُها، فقد كان حسبي أَنْ أَعيشَ هذه اللحظاتِ في تلك الظلال!

فلّما أَنْ صَدرت «المسلمون» وكان عليَّ أَنْ أَشتركَ في تحريرِها بمقالٍ شهري، وودَّ صاحبُها الصديقُ [سعيد رمضان] أَنْ لو كانَ هذا المقالُ في موضوعٍ مسلسل، أو تحتَ عنوانٍ دائم.. قفزَ إلى ذهني هذا العنوان: «في ظلال القرآن»! ووَدْدتُ لو سجلْتُ هذه الخواطرَ التي تتواردُ عليَّ أَحياناً، وأَنا أَحيا في ظلٍّ القرآن.

ذلك كان مبدأَ القصة...

ثم طَمحت الرغبة، وامتدَّ الأُفقُ إلى محاولةٍ أُخرى.. ماذا لو عشتُ في ظلٍّ هذا القرآن كلِّه، فسجلْتُ كلَّ ما يخالجُ نفسي، وأَنا

أستروحُ هذا الجوِّ العلويَّ الطليق؟ إنه ليكونُ كسباً لا يعدلُه كسب، لروحي أوَّلاً ولِذاتي، وربَّما شاركني فيه الناس، إذا أنا جمعْتُه لهم في كتاب.

ووفَّقَ الله، وسرتُ في هذا الشوطِ خطوات!!

تلك هي قصةُ هذا الجزء الذي يصدرُ اليوم في هذه الصورة، وقصةُ الأَجزاءِ التي تليه بإِذن الله...

وبعد.. فقد يرى فريقٌ من قراءِ هذه «الظلال» أَنها لونٌ من تفسيرِ القرآن.. وقد يَرى فريقٌ آخر أَنها عرضٌ للمبادىءِ العامة للإِسلام كما جاءَ بها القرآن.. وقد يرى فريقٌ ثالث أَنها محاولةٌ لشرحِ ذلك الدستورِ الإِلهي في الحياة والمجتمع، وبيانِ الحكمة في ذلك الدستور... أَما أَنا فلم أَتعمَّدَ شيئاً من هذا كلِّه، وما جاوزْتُ أَنْ أُسجلَ خواطري، وأَنا أَحيا في تلك الظلال!

كلُّ ما حاولْتُه أَلاّ أُغرقَ نفسي في بحوثٍ لغوية أو كلامية أو فقهية، تحجبُ القرآنَ عن روحي، وتحجبُ روحي عن القرآن. وما استطردْتُ إلى غيرِ ما يوحيه النصُّ القرآنيُّ ذاتُه، من خاطرةٍ روحية أو اجتماعية أو إِنسانية. وما أَحْفَلَ القرآن بهذه الايحاءات!!

كذلك حاولْتُ أَنْ أُعبرَ عما خالجَ نفسي من إِحساسٍ بالجمالِ الفنيِّ العجيبِ في هذا الكتاب المعجز، ومن شعورٍ بالتناسقِ في التعبير والتصوير..

ولقد كانتْ هذه إِحدى أَمانِيَّ منذُ أن فرغْتُ من كتاب «التصوير الفني في القرآن» قبلَ ثمانيةِ أَعوام [١٩٤٥]، وسجلْتُ فيه ما بدا لي واضحاً يومذاك: أَنَّ التصويرَ هو القاعدةُ الواضحةُ في التعبيرِ القرآنيِّ الجميل.. وكنتُ قد أَدرتُ الكتابَ كلَّه على هذا المحورِ لشرحِ هذه القاعدة، والتمثيلِ لها من القرآن!

كانت إِحدى أَمانيَّ أَنْ يوفِّقني اللّهُ إلى عرضِ القرآنِ في هذا الضوء.. ثم كمنتْ هذه الرغبةُ أَو توارتْ، حتى ظهرتْ مرةً أُخرى في هذه الظلال..

ولقد سرتُ في هذا العملِ الجديد على أَساسِ عرضِ كلِّ مجموعةٍ من الآيات التي يربطُ بينها سببٌ خاص، ويُظلِّلُها ظلٌّ خاص، في صورةِ درسٍ قرآني.. وقد تكونُ هذه الآياتُ «رُبعاً» من القرآن أو أَقلْ أو أكثر.. لم أتقيدْ بهذا على وجْهِ الدقة.. إِنما تقيَّدْتُ فقط بأنْ يكون كلُّ «جزء» من أَجزاءِ القرآنِ الثلاثين في جزء من هذه السلسلة، التي ستصدرُ تباعاً كلَّ شهرين، بعونِ الله.. من باب التنظيمِ الطِّباعي لهذِهِ الحلقات..»[١].

وقد سجَّلْنا مقدمةَ الطبعةِ الأُولى لأَنها مفقودة، لم يطَّلعْ عليها معظمُ مَنْ قرأوا الظلال، لأَنَّ الظلالَ المتداولَ الآن هو في طبعاتِه اللبنانية أو طبعةِ دار الشروق! وهذه المقدمةُ كاشفةٌ تبيِّنُ

(١) في ظلال القرآن ـ الطبعة الأولى، ١: ٥ ـ ٧.

قصةَ تفسيرِ الظلال، والمراحلَ التي مَرَّ بها، وهدفَ سيد منه، ومنهجَه الفكريِّ البياني فيه!

من مقدمة الطبعة المنقحة من الظلال:

أما الطبعة المنقحة من الظلال التي جاءتْ على أَساسِ المنجِ الحركيِّ الدعوي، فقد قال سيد قطب في مقدمتها:

«الحياةُ في ظلالِ القرآن نعمة، نعمةٌ لا يَعرفَها إلاّ مَنْ ذاقَها، نعمةٌ ترفعُ العمرَ وتُباركُه وتزكّيه..

والحمدُ لله.. لقد مَنَّ اللّهُ عليَّ بالحياةِ في ظلال القرآن فترةً من الزمان، ذقتُ فيها من نعمتِه ما لم أَذُقْ قطّ في حياتي. ذقْتُ فيها هذه النعمةَ التي ترفعُ العمرَ وتباركُه وتزكِّيه.

لقد عشتُ أَسمعُ اللّهَ ـ سبحانه ـ يتحدثُ إِليَّ بهذا القرآن.. أَنا العبدُ القليلُ الصغير.. أَيُّ تكريمٍ للإنسان هذا التكريمُ العلويُّ الجليل؟ أيُّ رفعةٍ للعمر يرفعُها هذا التنزيل؟ أيُّ مقامٍ كريمٍ يتفضَّلُ به على الإِنسانِ خالقُه الكريم؟

وعشتُ ـ في ظلال القرآن ـ أَنظرُ من عُلُوٍّ إلى الجاهلية التي تموجُ في الأَرض، وإلى اهتماماتِ أَهلِها الصغيرةِ الهزيلة...

عشتُ ـ أَتملّى ـ في ظلال القرآن ـ ذلكَ التصورَ الكاملَ الشاملَ الرفيعَ النظيفَ للوجود.. وأَقيسُ إليه تصوراتِ الجاهليةِ التي تعيشُ فيها البشرية...

وعشتُ ـ في ظلال القرآن ـ أُحسُّ التناسقَ الجميلَ بين حركةِ الإنسان كما يريدُها الله، وحركةِ هذا الكون كما أَبدعَه الله.. ثم أَنظر.. فأَرى التخبطَ الذي تُعانيه البشريةُ في انحرافِها عن السننِ الكونية...

وعشتُ ـ في ظلال القرآن ـ أَرى الوجودَ أكبرَ بكثيرٍ من ظاهرِهِ المشهود.. أكبرَ في حقيقته، وأكبر في تعدد جوانبه.. إنه عالم الغيب والشهادة، وإنه الدنيا والآخرة.. والنشأةُ الإنسانية ممتدةٌ في شعابِ هذا المدى المتطاول.. والموتُ ليس نهايةَ الرحلة، وإنما هو مرحلةٌ في الطريق...

وعشتُ ـ في ظلال القرآن ـ أَرى الإنسانَ أَكرمَ بكثيرٍ من كلِّ تقديرٍ عرفَتْه البشريةُ من قبلُ للإنسان ومِن بعد.. إنه إنسانٌ بنفحةٍ من روحِ الله.. وهو بهذه النفخةِ مستخلَفٌ في الأرض.. وآصرةُ التجمعِ هي العقيدة.. والمؤمنُ ذو نَسَبٍ عريقٍ ضاربٍ في شِعاب الزمان، فهو واحدٌ من ذلك الموكبِ الكريم، الذي يَقودُ خُطاهُ الأَنبياءُ الكرام...

وفي ظلالِ القرآن تعلمتُ أَنه لا مكانَ في هذا الوجودِ للمصادفة العمياء، ولا للفلتةِ العارضة، فكلُّ شيءٍ يكونُ بقدرِ الله.

.. ومن ثمَّ عِشْتُ ـ في ظلالِ القرآن ـ هادئَ النفس، مطمئنَّ السريرة، قريرَ الضمير.. أَرى يدَ اللّهِ في كلِّ حادث، وفي كلِّ أَمر.. عشتُ في كنفِ اللّهِ وفي رعايتِه.. عشتُ أَستشعرُ إِيجابية

صفاتِه تعالى وفاعليتَها.. كذلك تعلمتُ أنَّ يدَ اللّهِ تعمل، ولكنها تعملُ بطريقتها الخاصة، وليسَ لنا أَنْ نستعجلَها...

وانتهيتُ من فترةِ الحياة ـ في ظلال القرآن ـ إلى يقينٍ جازمٍ حاسم.. إنه لا صلاحَ لهذه الأَرض، ولا راحةَ لهذه البشرية، ولا طمأنينةَ لهذا الإنسان، ولا رفعةَ ولا بركةَ ولا طهارة، ولا تناسقَ مع سننِ الكون وفطرةِ الحياة.. إلاّ بالرجوع إلى الله..

والرجوعُ إلى الله ـ كما يتجلّى في ظلال القرآن ـ له صورةٌ واحدة وطريقٌ واحد.. واحدٌ لا سواه.. إنه العودةُ بالحياةِ كلِّها إلى منهجِ الله الذي رسمهُ للبشريةِ في كتابه الكريم.. إنه تحكيمُ هذا الكتابِ وحدَه في حياتها.. والتحاكمُ إليه وحدَه في شؤونها.. وإلاّ فهو الفسادُ في الأَرض، والشقاوةُ للناس، والارتكاسُ في الحمأة، والجاهليةُ التي تَعْبُدُ الهوى من دونِ الله..

إنَّ الاحتكامَ إلى منهج الله في كتابه ليس نافلةً ولا تطوُّعاً ولا موضعَ اختيار.. إنما هو الإِيمانُ.. أو.. فلا إِيمان..

ولقد كانتْ تنحيةُ الإِسلام عن قيادةِ البشريةِ حَدَثاً هائلاً في تاريخها، ونكبةً قاصمةً في حياتها، نكبةً لم تعرف لها البشريةُ نظيراً في كلِّ ما أَلَمَّ بها من نكبات!..

لقد تسلمَ الإِسلامُ القيادةِ بهذا القرآن، وبالتصورِ الجديدِ الذي جاءَ به القرآن، وبالشريعةِ المستمدةِ من هذا التصور.. فكان ذلك مولداً جديداً للإِنسان أَعظمَ في حقيقتِه من المولدِ الذي

كانت به نشأتُه.. لقد أَنشأَ هذا القرآنُ للبشرية تصوراً جديداً عن الوجودِ والحياة والقيم والنظم، كما حققَ لها واقعاً اجتماعياً فريداً، كان يعزُّ على خيالها تصوُّرُه مجردَ تصوُّر، قبلَ أَنْ يُنشئَه لها القرآنُ إِنشاء.. نعم! لقد كان هذا الواقعُ من النظافةِ والجمال.. والعظمةِ والارتفاع، والبساطةِ واليُسر، والواقعيةِ والإيجابية، والتوازنِ والتناسق.. بحيث لا يخطرُ للبشرية على بال، لولا أَنَّ اللّهَ أَرادَه لها، وحقَّقهُ في حياتها.. في ظلالِ القرآن، ومنهجِ القرآن، وشريعةِ القرآن..

هذه بعضُ الخواطرِ والانطباعات من فترةِ الحياةِ في ظلال القرآن، لعلَّ اللّهَ ينفع بها ويهدي.. وما تشاؤون إِلاّ أَنْ يشاءَ الله..»[1].

إنّ هذه المقتطفاتِ من مقدمةِ الطبعة المنقحة، تُعرفُنا على ملامحِ منهجه الحركيِّ الدعويِّ التربويِّ في التفسير، وتقدِّمُ لنا بعضَ الحقائقِ الضروريةِ اللازمةِ لفهمِ القرآن والإسلامِ والحياةِ والدعوة!

معنى «في ظلال القرآن»:

أَطلقَ سيد قطب على تفسيرِه اسماً فريداً، هو «في ظلال القرآن»، وهو عنوانٌ لم يتكلَّفْه ـ كما نصَّ على ذلك في الطبعة

(١) في ظلال القرآن، ١: ١١ ـ ١٨، مقتطفات من المقدمة.

الأُولى ـ لكنه عنوانٌ ينطبقُ على المضمون تماماً. إنه يرتبطُ ارتباطاً مباشِراً بصلتِه الحيةِ مع القرآن، باعتبارِ حياتِه في ظلالِ القرآن نعمة، رفعتْ عمرَه وباركَتْه وزكَّتْه، وذاقَ فيها ما لم يذقْ في حياتِه ـ كما صرحَ بذلك في مقدمةِ الطبعة المنقحة ـ وأَرادَ أَنْ يقدِّمَ للقراءِ بعضَ ما وجَدَه وحقَّقَه من الحياةِ في ظلال القرآن، ليعيشوا كما عاش، ويَتذوقوا كما تذوَّق، وليتحركوا بالقرآنِ كما تحرَّك.

ولذلك كان وصفُ الأُستاذ محمد قطب للظلال في غايةِ الروعةِ والصحة: «الكتابُ الذي عاشَه صاحبُه بروحِه وفكْرِه وشعورِه وكيانِه كلِّه.. وعاشَه لحظةً لحظة.. وفكرةً فكرة.. ولفظةً لفظة.. وأَودعه خلاصة تجربتِه الحيةِ في عالم الإيمان..».

مفهوم التفسير عند سيد قطب:

وللتفسيرِ فهم خاصٌّ عند سيد قطب، فليسَ هو التفسيرَ النظريَّ القائمَ على تقديمِ معلومات ثقافية نظرية في النحو واللغة والبلاغة والفقه والأحكام والحديث المأثور والتوسُّعِ في هذه المطولات. إنما هو حُسْنُ فهم وإدراكِ القرآن، وتذوُّقِ معانيه!

لِنقرأْ هذه الفقرةَ الكاشفةَ التي دلَّتْ على منهجِه الحركيِّ في فهمِ القرآنِ وتفسيره: «ولكن الناسَ بَعُدوا عن القرآن، وعن أُسلوبِه الخاص، وعن الحياةِ في ظلاله، وعن ملابسةِ الأَحداثِ والمقومات التي يشابُه جوُّها الجوَّ الذي تنزلَ فيه القرآن..

وملابسةُ هذه الأَحداثِ والمقوِّمات، وتنسُّمُ جَوِّها الواقعي، هو وحده الذي يجعلُ هذا القرآن مُدْرَكاً وموحياً كذلك.

فالقرآن لا يدركُه حقَّ أَدراكِه مَنْ يَعيشُ خاليَ البال من مكابدةِ الجهدِ والجهادِ لاستئنافِ حياةٍ إِسلامية حقيقية، ومن معاناةِ هذا الأَمْرِ العسيرِ الشاق، وجرائِره وتضحياتِه وآلامه، ومعاناةِ المشاعرِ المختلفة التي تصاحبُ تلكَ المكابدة في عالمِ الواقع، في مواجهةِ الجاهليةِ في أَيِّ زمان!

إِنَّ المسألَةَ - في إِدراك مدلولات هذا القرآن وإِيحاءاته - ليستْ هي فهمَ أَلفاظِه وعباراتِه، ليستْ هي «تفسيرَ» القرآن - كما اعتدْنا أَنْ نقول! - المسألةُ ليستْ هذه...

إِنما هي استعدادُ النفسِ برصيدٍ من المشاعرِ والمدْرَكات والتجارب، تُشابِهُ المشاعرَ والمدركاتِ والتجاربَ التي صاحبَتْ نزولَه، وصاحبَتْ حياةَ الجماعةِ المسلمة، وهي تتلقَّاهُ في خضمِّ المعترك.. معتركِ الجهاد.. جهادِ النفس وجهادِ الناس.. جهادِ الشهوات وجهادِ الأَعداء.. والبذلِ والتضحية.. والخوفِ والرجاء.. والضعفِ والقوة.. والعثرةِ والنهوض..

جوُ مكة: والدعوةُ الناشئة، والقلةُ والضعف، والغربةُ بين الناس.. جوُّ الشِّعْبِ والحصار، والجوعُ والخوف، والاضطهادُ والمطاردة، والانقطاع، إلاّ عن الله.. ثم جوُّ المدينة: جوُّ النشأَةِ الأُولى للمجتمعِ المسلم، بين الكيدِ والنفاق، والتنظيمِ والكفاح..

جوُّ بدرٍ وأُحُدٍ والخندق والحديبية، وجوُّ الفتحِ وحنين وتبوك.. وجوُّ نشأةِ الأُمة المسلمة، ونشأةِ نظامِها الاجتماعي، والاحتكاكِ الحي بين المشاعر والمصالح والمبادىء، في ثنايا النشأة، وفي خلالِ التنظيم!..

في هذا الجوِّ الذي تنزلَتْ فيه آياتُ القرآن حيةً نابضة واقعية.. كان للكلماتِ وللعباراتِ دلالاتُها وإِيحاءاتُها..

وفي مثلِ هذا الجوِّ الذي يصاحبُ محاولةَ استئنافِ الحياةِ الإسلاميةِ من جديد، يفتحُ القرآنُ كنوزَه للقلوب، ويمنحُ أَسرارَه، ويُشيعُ عطْرَه...»[1].

«الظلال» تقريب المسلمين إلى القرآن:

هذا الفهمُ الخاص لتفسير القرآن وحسنُ إِدراكِ مدلولاتِه وحقائقِه، جعلَ للظلالِ أَهدافاً خاصةً، فلم يُرِدْ سيد قطب من تفسيرِه أَنْ يكونَ مجردَ كتابٍ في التفسير، يُضافُ إلى التفاسيرِ الكثيرةِ السابقة، إنما أَرادَ أنْ يكونَ كتابَ دعوةٍ وحركةٍ وتربية، يُرَبّي المسلمُ من خلاله نفسَه على أَساسِ القرآن، ويتحركُ بعد ذلك بالقرآن، ويقفُ أَمامَ أَعداءِ القرآن.

سيد قطب أَرادَ من «الظلال» أنْ يكونَ وسيلةً يقرِّبُ بها المسلمينَ إلى القرآن، ليتعرَّفوا من خلالِه على كنوزه المذخورة،

---

(١) خصائص التصور الإسلامي، ص ٧ ـ ٨.

ويلتزموا به، ويتحركوا به في عالمِ الواقع، ويُزيلوا الفجوةَ العميقةَ بينهم وبينَ القرآن!

الظلالُ عنده ليس غايةً بحدِّ ذاتِه، إنما هو وسيلةٌ إلى غاية. يقولُ في تقديمه لسورةِ الرعد: «وإنني لأُهيب بقراءِ هذه الظلال، ألاّ تكونَ هي هدفَهم من الكتاب. إنما يَقرؤونها ليدنوا من القرآنِ ذاتِه، ثم ليتناولوه عند ذلك في حقيقتِه، ويَطرحوا عنهم هذه الظلال! وهم لن يتناوَلوهُ في حقيقتِه إلاّ إذا وقفوا حياتَهم كلَّها على تحقيقِ مدلولاتِه، وعلى خوض المعركة مع الجاهلية باسمه وتحتَ رايته..»(١).

أهم أهداف الظلال:

إن أهمَّ أهدافِ الظلال هي:

١ ـ إزالةُ الفجوةِ العميقة بين المسلمين المعاصرين، وبينَ القرآن.

٢ ـ تعريفُ المسلمين المعاصرين على المهمةِ العمليةِ الحركيةِ للقرآن.

٣ ـ تزويدُ المسلمِ المعاصرِ بدليلٍ عمليٍّ مكتوبٍ إلى سماتِ الشخصيةِ الإسلامية.

٤ ـ تربيةُ المسلمِ تربيةً قرآنيةً إسلاميةً متكاملة.

---

(١) في ظلال القرآن، ٤: ٢٠٣٩.

٥ ـ بيانُ ملامحِ وسماتِ المجتمعِ الإسلامي الذي ينشئُه القرآنُ.

٦ ـ بيانُ معالم الطريق الذي تسلكُه الجماعةُ المسلمة إلى ربها.

٧ ـ بيانُ الوحدةِ الموضوعيةِ للقرآنِ الكريم.

٨ ـ الوقوفُ في وجْهِ الماديةِ الجاهلية المعاصرة.

٩ ـ ربطُ النصوصِ القرآنيةِ بالواقعِ المعاصر.

١٠ ـ تقديمُ صورةٍ عمليةٍ واقعية لتعاملِ المؤمنين السابقين مع القرآن.

١١ ـ بيانُ أَسبابِ النزول، وتصويرُ الجوِّ العامِّ الذي نزلَ فيه النص.

١٢ ـ بيانُ حِكَمِ التشريعات، وتعليلُ الأَوامرِ والأَحكامِ والتوجيهات.

١٣ ـ تزويدُ القارىء بمنظارٍ ينظرُ به في آياتِ اللّهِ في الأَنفسِ والآفاق.

١٤ ـ ربطُ الأَحكامِ والتشريعاتِ بالعقيدةِ الحية المؤثرة.

١٥ ـ إِبرازُ التوافقِ والانسجام بين الإِنسانِ والكون.

١٦ ـ العرضُ الأَدبيُّ الحيُّ لصورِ القرآنِ الفنيةِ المعجزة.

نكتفي بمجردِ ذِكْرِ هذه الأهداف، وهي أَهدافٌ حركيةٌ دعويةٌ تربوية، والأَمثلةُ عليها عديدةٌ في الظلال، ونُحيلُ على

الظلال لملاحظةِ تلك الأمثلة، لأنَّ المجال لا يتسعُ للتمثيلِ عليها هنا[1].

وهذه الأَهدافُ تدلُّ دلالةً قاطعة على أنَّ «في ظلال القرآن» ليسَ مجردَ تفسيرٍ عاديٍّ كباقي التفاسير، وإنما هو تفسيرٌ حركيٌّ دعويٌّ تربوي.

منهج سيد قطب في التفسير ذو ثلاث مراحل:

ويقودُنا حديثُنا عن أَهدافِ الظلالِ الحركيةِ الدعوية إلى الحديثِ عن منهجِ سيد قطب في التفسير.

الذي استقرَّ عليه سيد قطب في الطبعةِ المنقحة من الظلال هو: المنهجُ الحركيُّ الدعويُّ التربويُّ في التفسير.

لقد كانَ منهجُه في التفسيرِ يتطوَّرُ حسبَ اهتماماتِ سيد. ويمكنُ أنْ نرصدَ له ثلاثَ مراحل:

المرحلةُ الأُولى: منهجٌ جمالي: وكان هذا في بدايةِ عملِه مع القرآن، عندما أَرادَ الكتابةَ في مشروع «مكتبة القرآن الجديدة»، الذي بناه على المفتاحِ الجمالي، الذي يَسَّرَهُ اللّٰهُ له، والذي أَوضحه في كتابه «التصوير الفني في القرآن». وقد تحدَّثْنا عن هذا في مبحث سابق.

---

(١) انظر حديثنا عن هذه الأهداف في كتابنا: «مدخل إلى ظلال القرآن»، ص ٩٣ - ١٢٨.

المرحلةُ الثانية: منهجٌ فكريّ: وكان هذا في بدايةِ كتابتِه تفسيرَ الظلال، في نهايةِ عام ١٩٥١، واستمرَّ يكتبُه حتى قرب نهايةِ الخمسينيات، التي أكملَ فيها كتابةَ الظلال في طبعتِه الأُولى.

وهو في منهجه الفكري لم يُلْغِ منهجَه الجماليَّ في المرحلة السابقة، وإنما تحوَّلَ المنهجُ الجمالي من منهجٍ أَساسي إلى منهجٍ ثانوي، مكملٍ للمنهجِ الفكري. ولذلك قالَ في مقدمةِ الطبعةِ الأُولى: «وكذلك حاوَلْتُ أن أُعبرَ عما خالجَ نفسي من إحساسٍ بالجمالِ الفني العجيب في هذا الكتاب المعجز، ومن شعورٍ بالتناسقِ في التعبيرِ والتصوير..»[1].

المرحلةُ الثالثة: منهج حركي. وهو المنهجُ الذي استقرَّ عليه أَخيراً، وعلى قواعدِه أَعادَ كتابَةَ الظلال من جديد، في الطبعةِ المنقحةِ من الظلال، التي بدأَها عام ١٩٦٠، وتوقَّفَ عام ١٩٦٥ عند نهاية الجزء الثالثِ عشر من القرآن!

المنهج الحركي الدعوي التربوي في الظلال:

بهذا المنهج الحركي الدعوي التربوي كان الظلالُ تفسيراً رائداً في حياةِ المسلمين المعاصرين، وكان سيد قطب مفسِّراً رائداً أَضافَ الكثيرَ الضروريَّ النافعَ إلى ما قاله المفسِّرون السابقون!

---

(١) في ظلال القرآن، الطبعة الأولى ١: ٦.

وقبلَ أَنْ نذكرَ قواعد المنهجِ الحركيِّ في الظلال نتعرفُ على جوهرِ نظريةِ سيد قطب في التفسير، بذكْرِ عباراتٍ مجملةٍ له توضِّحُ هذه النظرية!

قالَ عن البعدِ الحركيِّ لفهم القرآن: «إِنَّ المسألةَ في إِدراك هذا القرآن وإِيحاءاته ـ ليست هي فهمَ أَلفاظِه وعباراتِه. ليست هي «تفسيرَ القرآن» ـ كما اعتدْنا أنْ نقول! ـ المسألةُ ليست هذه.

إِنما هي استعدادُ النفسِ برصيدٍ من المشاعر والمدْرَكاتِ والتجارب، تُشابهُ المشاعرَ والمدركاتِ والتجاربَ التي صاحبت نزولَه، وصاحبَتْ حياةَ الجماعةِ المسلمة، وهي تتلقّاه في خضمٍّ المعترك، معترك الجهاد...»[1].

وهذا الاستعدادُ لا بدَّ أَنْ يقودَ إلى «الحياةِ في جو القرآن» لحسنِ فهمِه وتفسيرِه وإِدراكِ إِيحاءاتِه ودلالاتِه. ويشرحُ سيد هذا المعنى بقوله: «الحياةُ في جوِّ القرآن لا تعني مدارسةَ القرآن وقراءتَه والاطلاع على علومه.. إنَّ هذا ليسَ «جَوّ القرآن» الذي نَعنيه.

إنَّ الذي نَعنيه بالحياةِ في جَوِّ القرآن هو: أَنْ يعيشَ الإِنسانُ في جوٍّ، وفي ظروفٍ، وفي حركةٍ، وفي معاناةٍ، وفي صراعٍ، وفي اهتماماتٍ.. كالتي كان ينزلُ فيها هذا القرآن.. أَنْ يعيشَ الإِنسانُ

(١) خصائص التصور الإسلامي، ص ٧ ـ ٨.

في مواجهةِ هذه الجاهليةِ التي تعمُّ وَجْهَ الأَرضِ اليوم، وفي قلْبِه، وفي همِّه، وفي حركته، أَنْ يُنشِءَ الإِسلامَ في نفسه وفي نفوسِ الناس، وفي حياتِه وفي حياةِ الناس...

هذا هو الجوُّ القرآنيُّ الذي يمكنُ أَنْ يعيشَ فيه الإِنسان، فيتذوّق هذا القرآن.. فهو في مثلِ هذا الجوِّ نزل، وفي مثلِ هذا الخضمِّ عمل..

والذين لا يَعيشون في مثلِ هذا الجو، معزولونَ عن القرآن، مهما استغرقوا في مدارستِه وقراءتِه والاطلاعِ على علومه..

والمحاولةُ التي نبذلُها لإقامةِ القنطرة بينَ المخلِصين من هؤلاء وبين القرآن، ليستْ بالغةً شيئاً، إلاّ بعدَ أنْ يجتازَ هؤلاء القنطرة، ويَصِلوا إلى المنطقةِ الأُخرى، ويُحاولوا أَنْ يعيشوا في «جوِّ القرآن، حقاً، بالعملِ والحركة...»[١].

القاعدونَ عن الحركةِ بالقرآن لا يمكنُ أَنْ يتذوَّقوه وأَنْ يُحسنوا فهمه: «إِن هذا القرآنِ لا يتذوَّقُه إلاّ مَنْ يخوضُ مثلَ هذه المعركة، ويواجهُ مثْلَ تلك المواقف التي تنزَّلَ فيها ليواجهَها ويوجِّهَها...

والذين يتلمَّسون معاني القرآن ودلالاتِه وهم قاعدون. يدرسونَه دراسةً بيانية أو فنية، لا يملكونَ أَنْ يجدوا من حقيقتِه

---

(١) في ظلال القرآن، ٢: ١٠١٦ ـ ١٠١٧.

شيئاً في هذه القَعْدَةِ الباردةِ الساكنة، بعيداً عن المعركة، وبعيداً عن الحركة.. إنَّ حقيقةَ هذا القرآن لا تتكشفُ للقاعدين أَبداً، وإِنَّ سِرَّهُ لا يتجلّى لمن يُؤْثِرونَ السلامةَ والراحةَ مع العبودية لغيرِ الله...».

وقد أَكَّدَ سيد قطب في آخرِ ما كتبه من «الظلال» على نظريتِه الحركيةِ في تفسير القرآن، واعتبرها مفتاحَ فهمِ القرآن وفقْهِه، جاءَ ذلك في تفسيرِه لسورةِ الحجر، في الطبعةِ المنقحة من الظلال، والتي كتبَها عام ١٩٦٥، قُبيلَ اعتقالِه الأَخير، وطُبعَ تفسيرُه المنقَّحُ لسورةِ الحجر في طبعةِ دارِ الشروق، التي صَدَرَتْ بعدَ استشهاد سيد.

قال: «ونحنُ نؤكِّدُ على هذه السمة في هذا القرآن.. سمةِ الواقعيةِ الحركية.. لأَنها في نظرِنا مفتاحُ التعامل مع هذا الكتاب وفهمِه وفقهِه، وإِدراكِ مراميه وأَهدافه..

إِنه لا بدَّ من استصحابِ الأَحوالِ والملابساتِ والظروفِ والحاجاتِ والمقتضياتِ الواقعيةِ العملية، التي صاحبَتْ نزولَ النصِّ القرآني.. لا بدَّ من هذا لإِدراكِ وجهةِ النصِّ وأَبعادِ مدلولاتِه، ولرؤيةِ حيويته وهو يعملُ في وَسَطٍ حي، ويواجِهُ حالةً واقعة، كما يواجِهُ أَحياء يتحرَّكون مَعه أو ضدَّه..

وهذه الرؤيةُ ضروريةٌ لفقْهِ أَحكامِه وتذوُّقِها، كما هي ضروريةٌ للانتفاعِ بتوجيهاتِه، كلما تكرَّرَتْ تلك الظروفُ

والملابساتُ في فترةٍ تاريخيةٍ تالية، وعلى الأَخصِّ فيما يواجهُنا اليوم، ونحن نستأنفُ الدعوةَ الإسلامية..»[1].

قواعد هذا المنهج الحركي الدعوي التربوي:

وأهمُّ قواعد منهجه الحركي في التفسير هي:

١ ـ النظرةُ الكليةُ الشاملةُ للقرآن. باعتبارِه كتابَ حياةٍ ودعوةٍ وجهادٍ وتربية.

٢ ـ التأكيدُ على المقاصدِ الأَساسية للقرآن.

٣ ـ بيانُ المهمةِ العمليةِ الحركيةِ للقرآن.

٤ ـ المحافظةُ على جوِّ النصِّ القرآني.

٥ ـ استبعادُ المطوَّلات التي تحجبُ القرآن.

٦ ـ تسجيلُ إِيحاءاتِ النص وظلالِه ولطائِفه.

٧ ـ دخولُه عالَمَ القرآن بدونِ مقرراتٍ سابقة.

٨ ـ الثقةُ المطلقةُ بالنصِّ القرآني والتسليمُ التامُّ بمدلوله.

٩ ـ غنى النصوصِ القرآنيةِ بالمعاني والدلالات.

١٠ ـ بيانُ أُهميةِ العقيدة وأَثرِها في الحياة.

١١ ـ إِزالةُ التعارضِ الموهوم بين الآيات القرآنية.

١٢ ـ بيانُ الوحدةِ الموضوعية للقرآن.

---

(١) في ظلال القرآن ٤: ٢١٢١ ـ ٢١٢٢.

١٣ ـ الإِشارةُ إلى البُعدِ الواقعيِّ للآيات.

١٤ ـ بيانُ حكمةِ التشريعات وتعليلُ الأَحكام.

نكتفي بذكْرِ هذه القواعد المنهجية، ولا نقدِّم عليها أمثلةً من الظلال، لأنَّ المجالَ لا يتسعُ لذلك، والأَمثلةُ عليها كثيرةٌ في الظلال(١)!

مراحل طريقة سيد قطب في التفسير:

ويقودنا الحديث عن منهج سيد قطب الحركي في التفسير إلى الإِشارةِ إلى طريقتِه في التفسير.

لقد سلكَ سيد قطب طريقاً فريدةً في التفسير، وكانت طريقتُه تقومُ على أَربعِ مراحل:

المرحلةُ الأُولى: استعدادُه الخاصُّ للتفسيرِ والتلقّي عن القرآن، استعداداً مادياً ومعنوياً، بدنياً وروحياً، حيث كان قبلَ الشروعِ في التفسير يتوضَّأُ، ثم يصلّي، فلا يكتبُ شيئاً إلاَّ بعدَ الوضوءِ والصلاة.

يقولُ الأَديبُ عباس حسان خضر: «وقد أَكبرتُ سيد قطب ـ أَو أَكبرتُ ذكراه ـ كلَّ الإِكبار، عندما سمعْتُ صديقاً يقول: إِنَّ سيد قطب حدَّثَه بأَنَّه قبلَ أَنْ يكتبَ شيئاً في ظلالِ القرآن، يقفُ للصلاةِ

---

(١) انظر حديثنا عن هذه القواعد في كتابنا «المنهج الحركي في ظلال القرآن»، ص ٥١ ـ ١٨٩.

بين يدي الله، ويتلُو ما سيتعرضُ للكتابةِ عنه من آيات الكتاب، يتلوها بتذوُّقٍ وإمعان، ويتشبَّعُ بما توحي إليه من المعاني والخوالج.. ثم يَكْتب...»[1].

إنَّ هذا الاستعدادَ الإيمانيَّ والعِباديَّ للدخولِ إلى عالم القرآن يدلُّنا على عمقِ صلةِ سيد قطب بالله، وإقبالِه عليه، ويذكِّرُنا بما كان يفعلُه بعضُ علمائنا السابقين، عندما كان أَحدُهم يتوضَّأُ ويُصلِّي ثمَّ يقبلُ على العلم، كما فعل البخاريُّ أَثناءَ جمعِه وتدوينِه الحديثَ الصحيح!

المرحلة الثانية: قراءةُ السورةِ التي يَنوي تفسيرَها عدةَ مرات، ليهتديَ إلى موضوعِها الأَساسيِّ وشخصيتِها المستقلة.

كان يكيِّفُ نفسَه وما حولَه ليعيشَ في جوِّ القرآن، ويَستعلي على مصاعبِه وآلامِه، ويُخضعَ الظواهرَ المادية القاسيةَ من حوله لجوِّ القرآن، ليُحسنَ فهْمَه والتلقيَ عنه.

أَخبرَنا شريكُه في الزنزانَة ـ الشيخ مصطفى العالم ـ عن صلتِه بالقرآن في الزنزانة: «كان سيد قطب يَجوبُ الزنزانَة كلَّ يوم، يذرعُها قارئاً لسورةٍ من كتابِ الله، بصوتٍ عذبٍ رخيم، ومعه قلمُه، يُدَوِّنُ كلَّ ما يخطرُ له من خواطرَ وأَفكارٍ على هامشِ

(١) مجلة الثقافة، المجلد الثامن، السنة الرابعة، عدد ٤٧، أغسطس ١٩٧٧، ص ٥٠.

المصحف، وهو فرحٌ مسرورٌ بما يجولُ في خاطره من معانٍ جديدة...»[1].

ويقولُ الدكتور عدنان زرزور عن هذه المرحلة: «هذه المرحلةُ تقومُ على قراءتِه للسورةِ القرآنية كاملةً عدةَ مرات، وربَّما عاودَ قراءتَها والنظرَ فيها يوماً بعدَ يوم، حتى يهتديَ ـ رحمهُ الله ـ إلى موضوعِها الرئيسيِّ ومحورِها العامِّ الذي تدورُ حولَه سائرُ موضوعاتِها الفرعية الأخرى...»[2].

المرحلة الثالثة: العكوفُ على تفسيرِ السورة أَو المقطع بأَقلِّ قدرٍ ممكنٍ من الجلسات. وهذه المرحلةُ تتعلقُ بالصياغة، بعدَ مرحلةِ الإستعداد، ومرحلةِ الفهمِ والتلقي.

يقولُ الدكتور عدنان زرزور: «حتى إذا انتهى إلى موضوعِ السورةِ الرئيسي ومحورِها العام، وفتحَ اللهُ عليه به، عكفَ على تفسيرِها بأقلِّ قدرٍ ممكنٍ من الجلسات، ولو أَمكنَه أَنْ يفعلَ ذلك في مقامٍ واحد لفعل... ويتبعُ في تفسيرِه ـ بطبيعة الحال ـ ما تَهديه إليه ثقافتُه وفَهمه وشفافيةُ روحِه وحسُّه اللطيفُ المرهف..»[3].

المرحلة الرابعة: النظرُ في المصادرِ من كتب التفسير

---

(١) مجلة المجتمع، السنة السادسة، العدد التاسع، أيلول ١٩٧٢، ص ٨.

(٢) علوم القرآن للدكتور عدنان زرزور، ص ٤٣٢ ـ ٤٣٣.

(٣) المرجع السابق، ص ٤٣٣.

والحديث، للاستدراكِ أَو التوضيحِ أَو الاستشهاد أَو التصويبِ أَو الترجيح.

يقولُ الدكتور عدنان زرزور عن هذه المرحلة: «النظرُ في كتب التفسير، يستدركُ بها سبباً من أَسباب النزول، أَو يوضحُ من خلالها مسألةً من مسائل الفقه، أَو يستشهدُ منها بحديثٍ أَو روايةٍ صحيحة، وردتْ في تفسير بعضِ الآيات...»[1].

إنَّ المراجعَ عند سيد قطب ثانوية وليست أساسية، وعودتُه لها متأَخِّرة، بعدَ أنْ يكتبَ ما فهمَه من معاني الآيات وإِيحاءاتِها ودلالاتِها، وعودتُه لها بهدفِ التصويب أَو الاستدلالِ أَو الاستشهاد، وهذا بعكسِ ما قد يفعلُه بعضُ المفسرين، حيثُ يبدأُ بالقراءة في كتب تفسير سابقة، وأَخْذِ ما يريدُه منها.

أهم مراجع «الظلال»:

وقد كانت بين يديه بعضُ المراجعِ الأَساسية في مختلفِ الموضوعات وثيقةِ الصلةِ بالتفسير، ولا ننسى أَنه أَكملَ تأليفَ الظلال بأَمْرٍ من المحكمة، وهذا يَعني أَنَّ إِدارةَ السجن سمحتْ بإدخالِ المراجع الأَساسية له، ويبدو أَنَّ أَهله أَو الدارَ الناشرةَ ـ دار إحياء الكتب العربية ـ أَدخلوا له علانيةً ما يحتاجُه من مراجع.

(١) المرجع السابق، ص ٤٣٣.

ومن أَهمِّ مراجعه من التفاسير: تفسيرُ القرآن العظيم للإِمام ابن كثير. وجامعُ البيان عن تأويلِ أيِ القرآن لأَبي جعفر محمد بن جرير الطبري. والدرُّ المنثورُ في التفسير بالمأثور للسيوطي، وأَحكامُ القرآن للجصاصِ الحنفي الرازي، وأَحكامُ القرآن للقاضي أَبي بكر ابن العربي، والجامعُ لأَحكام القرآن لأَبي عبد الله محمد بن أَحمد القرطبي، والكشافُ للزمخشري، وروحُ المعاني للآلوسي، وتفسيرُ المنار لمحمد رشيد رضا، والتفسيرُ الحديثُ لمحمد عزة دروزة.

ومن أَهمِّ مراجعِه في مادة «السيرة»: السيرةُ النبوية لابن هشام، إِمتاعُ الأَسماع للمقريزي، وجوامعُ السيرة لابن حزم، وزادُ المعاد لابن قيم الجوزية، وسيرةُ الرسول ﷺ: صورٌ مقتبسةٌ من القرآنِ الكريم لمحمد عزة دروزة.

ومن أَهمِّ مراجعِه في مادةِ «الحديث»: صحيحُ البخاري، وصحيحُ مسلم، وسنن أَبي داود، وسننُ الترمذي، وسننُ النسائي، وسننُ ابن ماجة، ومسندُ أحمد، وموطأ مالك.

ومن الكتبِ التي أخذَ منها أو رجع إليها: تاريخُ الطبري، وتاريخُ ابن كثير، ومحاضراتٌ في النصرانية لمحمد أبو زهرة، وماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأَبي الحسن الندوي، وكلُّ مؤلفاته، وكلُّ مؤلفاتِ شقيقه الأُستاذ محمد قطب، ومؤلَّفات أَبي الأَعلى المودودي، الذي كان يصفُه بالمسلم العظيم!

ورجعَ إلى بعضِ الكتب العلمية، مثل: اللّهُ يتجلّى في عصر العلم، والعلمُ يدعو للإيمان، ومعَ الله في السماء، واللّهُ والعلم الحديث، والإِنسانُ ذلك المجهول[1].

وكانَ سيد قطب أَثناءَ تفسيرَه ملتزماً بأَحسنِ طرقِ التفسير التي قررها العلماءُ السابقون.

كثيراً ما كان يفسرُ القرآن بالقرآن، ويفسرُ القرآنَ بعدةِ أَحاديث لرسولِ الله ﷺ، ويفسرُ الآياتِ بأَقولِ الصحابة، ويركزُ على تفسيرِ الآياتِ بالسيرةِ النبوية وحياة الصحابة، ليستحضرَ جَوَّ نزولِ الآيات، ويُبينَ حركةَ الصحابة بالآيات، ويدعو القارىءَ إلى أَنْ يعيشَ معه جو النزول.

«الظلال» نقلة بعيدة في التفسير:

بقي أن نقررَ حقيقة تتعلقُ بتفسيرِ «في ظلال القرآن»، وهي أَنه تفسير، ولونٌ جديدٌ في التفسير، ونقلةٌ بعيدةٌ في التفسير، وأَنه لا يُغني عنه أَيُّ تفسيرٍ آخر قديمٍ أو معاصر، وأَنه لا يستغني عنه مسلمٌ معاصر.

وذهبَ بعضُهم إلى أَنَّ الظلالَ ليس تفسيراً، وأَنه مجردُ مشاعر وخواطر، وانفعالاتٍ وأَحاسيس، وتسجيلٌ لمعانٍ أَدبية،

---

(١) انظر فصل «موارد الظلال» من كتابنا مدخل إلى «في ظلال القرآن»، ص ١٢٩ـ١٧٩.

ونظراتٍ شخصية من سيد قطب في القرآن، وهذه لا تُدخلُه ضمنَ كتبِ التفسير!

وقد ناقشَ هذه المسألة الأُستاذُ الدكتور عدنان زرزور في كتابه «علوم القرآن». وقرَّرَ أنَّ العصرَ الحاضرَ بحاجةٍ إلى تفسيرٍ حديث، لا بدَّ أَنْ تتوافرَ فيه ثلاثةُ شروط:

«الأَول: انطلاقُه ـ أو ملاحظتُه ـ للغرضِ الأساسي الذي نزلَ القرآنُ الكريم من أَجله.. بما يتناسبُ ـ في هذا العصر ـ مع غيابِ المجتمع الإِسلامي والدولة المسلمة.. وبما يُذَكِّرُ بظروفِ نشأَةِ الإِسلامِ الأُولى.. وبحيث لا يكونُ الانطلاقُ من فكرةِ تقديمِ زادٍ ثقافيٍّ للمسلم، بل إِعادةُ صياغتِه ـ وفقاً لكتابِ الله من جديد..

الثاني: تسجيلُه لمعاني القرآن التي فهمَها الصحابةُ ـ رضوان الله عليهم ـ واستلْهَموها، وعاشوا تطبيقَها العمليَّ الواقعي، الذي لم يَعرف تفريقاً بين النظريةِ والتطبيق..

الثالث: محاولتُه تجاوُزَ عصرِ الخلاف، أو عصرَ المذهبيةِ الفكرية في تفسير القرآن ـ التي وقعتْ في خطأ المقرَّر الفكريِّ المسبق ـ وذلك خضوعاً للمدلولاتِ القرآنية المباشرة، على ما يحتاجُ إليه هذا الأَمر من ثقافةٍ واسعة، وحسٍّ مرهف، وتمكُّنٍ علمي، يؤهِّلُ صاحبَه لمثلِ هذا الفهم المتكامل، الذي يتخلَّصُ من التجزيء، أو من أخذِ الصورة القرآنية تفاريق...».

وبعدَ تقريرِ الدكتور زرزور لهذه الشروطِ الثلاثة قرَّرَ أَنها تنطبقُ على «الظلال» تماماً: «... وعندنا أنَّ «في ظلال القرآن» امتاز بهذه الأُمورِ الثلاثة، فلم يكنْ بذلك من أَهمِّ المعالم الرئيسية في تاريخِ التفسير ـ فحسب ـ بل كان كذلك تفسيرَ العصر، الذي لا يُغني عنه أَيُّ تفسيرٍ آخرَ من تفاسيرِ علمائنا الأَوائل...»[1].

ومن مظاهرِ اعتبارِ «الظلال» نقلةً بعيدةً في التفسير:

١ ـ ملاحظتُه الأَغراضَ الأَساسية للقرآن.

٢ ـ تسجيلُه معاني القرآنِ التي تذوَّقَها الصحابة، وتَرَبَّوا عليها، وتحركوا بها.

٣ ـ تجاوزُه عصر الخلاف المذهبي والكلامي بين المسلمين.

٤ ـ دخولُه عالمَ القرآن بدونِ مقرراتٍ فكريةٍ مسبقة.

٥ ـ التسليمُ التامُّ بمدلول النصِّ القرآني والثقةُ به.

٦ ـ العلميةُ والجديةُ والموضوعيةُ والمنهجية في البحث.

٧ ـ نجاحُه في إِبرازِ الوحدةِ الموضوعية للقرآن.

٨ ـ معايشتُه العمليةُ لنصوصِ القرآن، وحركتُه الجهاديةُ به، وحياتُه الطويلة في ظلاله..

---

(١) علوم القرآن للدكتور عدنان زرزور، ص ٤٢٥ ـ ٤٢٦.

إن «في ظلال القرآن» تفسير، وإِنه لونٌ جديدٌ في التفسر، وإِنه نقلةٌ بعيدة في التفسير، وإِنَّ سيد قطب يقفُ في طليعةِ المفسرين، ويُعتبرُ مؤسِّساً لمدرسةٍ جديدةٍ وأَصيلةٍ في التفسير، هي مدرسةُ: التفسيرِ الحركيِّ الدعويِّ التربوي!![١].

---

(١) انظر فصل «الظلال نقلة بعيدة في التفسير، في كتابنا: «مدخل إلى في ظلال القرآن»، ص ٢١٧ ـ ٢٦٣.

(٧)

«معالم في الطريق»: رائد الكتب الحركية في فقه الدعوة

«معالم في الطريق»: آخرُ كتابٍ صدرَ في حياةِ سيد قطب. وقد أَصدرَتْهُ مكتبة «وهبة» في القاهرة، عام ١٩٦٤[١].

أَلَّفَ سيد قطب كتابَه ليكون بياناً لمنهجِ الحركةِ الإِسلامية في العمل، وتوضيحاً لمعالمِ طريقِها في الدعوة!

وأَساسُ الكتاب فصولٌ كتبَها سيد قطب من سجنِه - في سجن «ليمان طُرَّة» - ثم أَوصلَها إلى التنظيمِ الإِخواني الجديد.

ويضمُّ الكتابُ ثلاثةَ عشر فصلاً، هي: معالم في الطريق، وجيل قرآني فريد، وطبيعة المنهج القرآني، ونشأة المجتمع المسلم وخصائصه، والجهاد في سبيل الله، ولا إله إلاَّ الله منهج حياة، وشريعة كونية، والإسلام هو الحضارة، والتصور الإسلامي

---

(١) كتابنا «سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد»، ص ٥٥٤.

والثقافة، وجنسية المسلم عقيدته، ونقلة بعيدة، واستعلاء الإيمان، وهذا هو الطريق..

أصل «معالم في الطريق» في السجن:

ونُذَكِّرُ هنا بالجوِّ العام الذي أَلَّف فيه سيد قطب «معالم في الطريق»، فقد كان يلتقي معَ بعضِ الإِخوان في سجن «طرة»، حيث كان مسجوناً، ويتناقشُ معهم في مسائل في الدعوةِ والتنظيمِ، والفهم والوعي، والعقيدةِ والتربية، ومنهم مَنْ يوافقُه على ما يقول، ومنهم مَنْ يخالفُه.

قالَ سيد نفسه عن هذا: «... وأَنا إلى ذلك الوقت في محيطِ الإِخوانِ المسلمين مجردُ أَخٍ مسلم..

حقيقةً إِنَّ له من نفوسِهم قيمتَه ومكانتَه الشخصية، بوصْفِه كاتباً إِسلامياً مفكِّراً، له خبرتُه وتجربتُه في المجالاتِ العامَّة، وله شهرتُه ومكانتُه في العالم الإسلامي.. ولكنه مع ذلك كلِّه ليستْ له صفةٌ إِداريةٌ في الجماعة، تُعطي له الحقَّ الشرعيَّ في رسمِ خطةٍ حركية، وتوجيهِ الإِخوان إِليها.. لأَنَّ هذا الحقُّ لمكتبِ الإِرشاد وحده، ولمن يكلِّفُه بذلك، ولستُ من أَعضاءِ المكتب، ولا مكلَّفاً منه بشيء...»[1].

(١) لماذا أعدموني، ص ١٣١.

وتطورَ الخلافُ بين الإِخوان المؤيدين لفهمِ سيد قطب والمعارضين له، في سجنِ طُرَّة وفي سجنِ القناطر، واشتكى المعارِضون سيدَ إلى بعضِ أعضاءِ مكتب الإرشاد للإِخوان المسجونين في سجن الواحات.

وأَرسلَ أَعضاءُ مكتب الإِرشاد الأخ «عبد الرؤوف أَبو الوفا» إلى سيد قطب في سجن طُرَّة، يستفسِرُ منه، لأنَّ المخالفين اتَّهموه بأَنه يكفِّرُ الناس!

وأَخبرَنا سيد عن ما قالَه لأَبي الوفا: «... وقد حضرَ من عندهم للعلاجِ في طرة الأَخ عبد الرؤوف أَبو الوفا، فأَبلَغَني خبرَ هذا الانزعاج من ناحية، واتجاهَ المجموعةِ في الواحةِ إلى عدمِ تكفيرِ الناس من ناحيةٍ أُخرى..

وقد قلتُ له: إِننا لم نكَفِّر الناس! وهذا نقْلٌ مشوَّه! إِنما نحنُ نقول: إِنهم صاروا من ناحيةِ الجهلِ بحقيقةِ العقيدة، وعدمِ تصوُّرِ مدلولِها الصحيح، والبعدِ عن الحياةِ الإِسلامية، إلى حالٍ تشبهُ حالَ المجتمعاتِ في الجاهلية.. وإِنه من أَجل هذا لا تكونُ نقطةُ البدءِ في الحركة هي قضيةَ إِقامةِ النظامِ الإسلامي، ولكن تكونُ إِعادةَ زرعِ العقيدةِ والتربية الأَخلاقية الإسلامية.. فالمسأَلةُ تتعلقُ بمنهج الحركةِ الإِسلامية أكثرَ مما تتعلقُ بالحكمِ على الناس..

ولما عادَ أَبلغهم الصورةَ الصحيحة، بقدْرِ ما فهمَ منها.. ولكن ظلَّ الآخرون في القناطرِ يُلِحّون عليهم بوجوبِ وقف ما أَسموه: الفتنة في صفوفِ الجماعة.

وظلَّ الحالُ كذلك حتى نُقِلَ إلى مستشفى طرة الأُستاذان: عبد العزيز عطية وعمر التلمساني، من أَعضاءِ مكتب الإرشاد الباقين في السجون، والْتقيا بي، وأَفهمتهُما حقيقةَ المسألة، فاستراحا لها...»[1].

كانت بدايةُ هذه الأَفكارِ والأَحداث عام ١٩٦٢، واستمرت سنتيْن لحينِ الإفراج عن سيد قطب في منتصف عام ١٩٦٤.

إيصال أصول الكتاب للتنظيم الإخواني خارج السجن:

وفي هذه الفترة كان قد نشأَ التنظيمُ الإخوانيُّ الجديد، من الإخوانِ الشبان، ووافقَ على تكوينِه المرشدُ العام للإخوان حسن الهضيبي رحمه الله!

وفي هذه الفترة كان سيد قطب قد بدأَ كتابةَ فصولِ «معالم في الطريق».

واتصلَ قادةُ التنظيمِ الجديد بسيد في سجنه، عن طريقِ عبد الفتاح إسماعيل وزينب الغزالي، وكان هذا بإذنٍ من المرشدِ الهضيبي.

(١) المرجع السابق، ص ٣٦ ـ ٣٧.

قالت زينبُ الغزالي: إنَّ قادةَ التنظيم الجديد قد استأذنوا المرشدَ العامَّ الهضيبي للاتصالِ بسيد، للاسترشادِ بتوجيهاته! فأَذن لهم بذلك. فطلبَ عبدُ الفتاح إسماعيل من زينب الغزالي ترتيبَ الأَمر، فتمَّ عن طريق شقيقة سيد «حميدة».

فأَحضرتْ لهم حميدةُ ملزمَةً من سيد، وقالت لهم: هذه ملزمةٌ من كتابٍ يُعِدُّه سيد للطبع، واسمُه «معالم في الطريق». وقالت: إذا فرغتم من قراءةِ هذه الصفحات سآتيكم بغيرها.

واستمرَّ سيد يمدُّ التنظيمَ الإِخواني من سجنه بكتاباته في الظلال والمعالم[1].

قراءة المرشد العالم الهضيبي أصول الكتاب:

وفرغ سيد من تأليف «معالم في الطريق» قُبيلَ الإِفراجِ عنه في مايو ١٩٦٤، وأَعطى أُصولَ الكتاب للمرشدِ الهضيبي لينظرَ فيه قبلَ طبعه، وقرأَ الهضيبيُّ تلك الأُصول، وأُعجبَ بكلامِ سيد، وأَثنى عليه، وأَذنَ بطبعِ الكتاب.

قالتْ زينب الغزالي: «إنَّ المرشدَ الهضيبي قد اطلعَ على ملازمِ كتاب «معالم في الطريق» وصَرَّحَ لسيد قطب بطبعه..».

وقالت: «لقد قابلْتُ المرشد، وسأَلْتُه عن سيد قطب، وعن كتابه «معالم في الطريق» فقالَ لي: على بركةِ الله.. إنَّ هذا الكتابَ

(١) أيام من حياتي لزينب الغزالي، ص ٣٥ ـ ٣٦.

قد حصرَ أَملي كلَّه في سيد ربُّنا يحفظه، لقد قرأْتُه، وأَعدتُ قراءَته، إنَّ سيد قطب هو الأَملُ المرتجى للدعوةِ الآن، إنْ شاءَ الله»!

وأَعطاني المرشدُ ملازمَ الكتاب، فقرأْتُها ـ فقد كانت عنده لأَخْذِ الإِذنِ بطبعها ـ وقد حبستُ نفسي في حجرةٍ في بيتِ المرشد، حتى فرغْتُ من قراءةِ الكتاب..»[1].

ولما أُفرجَ عن سيد قطب عام ١٩٦٤ أَصدرَ كتابه «معالم في الطريق»، وقامَ بقيادةِ التنظيم الإخواني الجديد، بإذنٍ خاصٍّ من المرشدِ العامِّ الأُستاذِ الهضيبي. وجعلَ كتاب «معالم في الطريق» مرجعاً أَساسياً لهم في فقهِ الدعوة.

يَروي الأَخُ أَحمد عبد المجيد ـ أَحدُ قادةِ التنظيم الجديد ـ عن اعتمادِ المرشد الهضيبي لكتاب المعالم، وأَنَّ سيد نفسَه أَخبرَهم بذلك: «... أَثَرْنا مع سيد قطب ما يتناقلُه البعضُ من الإِخوان في السجون عما وردَ في كتبه!

فقال: عندما كُنّا في السجن، وصلَ إلى علمِ الإِخوان بسجنِ الواحات بعضُ آرائي، فَنَقَلَ أَعضاءُ مكتب الإِرشادِ بالواحات للأُستاذِ المرشد شكواهم وشكوى الإِخوان من ذلك.

فأَجابهم: ما قالَه صاحبُ الظلال هو الحقُّ الذي لا شكَّ فيه»!!

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٦ ـ ٣٧.

وانتهى إلى هذا الحد، وبدأَ الإِخوان بعدَها يتدارسون الظلال في الواحات في صورةِ مجموعات، بإِشراف أَعضاءِ مكتبِ الإرشاد، وكذلك تَمَّ نفسُ الشيء في سجن القناطر، باستثناءِ البعض..

وبعدَها حضرَ إلى سجن ليمانِ طرة كلٌّ من الأُستاذ عمر التلمساني، والأُستاذ عبد العزيز عطية في أَوقاتٍ مختلفة، تفاهمْتُ مع كلٍّ منهما أَثناءَ حضوره،و اتفقْنا تماماً، ولم يُبديا أيَّ خلاف أو اعتراض على ما قلت...

ولما سُئلَ الأستاذُ المرشد عن كتاب المعالم قال: «إِنه كتابٌ عظيم!» وأَوصى الإِخوانَ بقراءته..

كما أرسل الأستاذُ عمر التلمساني رسالةً للأُستاذ سيد بعدَ صدورِ «معالم في الطريق»، قرأَها علينا سيد، تفيضُ رقةً وعذوبة، وأُسلوباً أَدبياً رفيعاً، مفعماً بالحبِّ والعاطفة، والثناءِ على الأُستاذ سيد، وعلى كتابِ المعالم وما وردَ به.. لدرجةِ أَنّي بكيتُ وقتها، من شدةِ التأثُّرِ مما وردَ بها!!!»[1].

المرشد العام التلمساني يشيد بالكتاب وصاحبه:

ومما يؤكد هذه الرواية ما قاله الأستاذ عمر التلمساني بعدَ ذلك، بعدَ أَنْ صارَ مرشداً عامّاً للإخوانِ المسلمين، في كتابه «ذكريات لا مذكرات».

---

(١) الإخوان وعبد الناصر لأحمد عبد المجيد، ص ٨٧ ـ ٨٨.

«... وأَذكُرْ أَنَّ الشهيدَ سيد قطب له مؤلَّفاتٌ عدةٌ وجيدة، وعلى مستوى رفيع، منها «في ظلال القرآن» و«العدالة الاجتماعية في الإسلام» و«معالم في الطريق».

وتمتازُ هذه المؤلفاتُ بالنقمةِ على الظلمِ في كلِّ مظاهره، والحرصِ على رفع المعاناةِ عن كلِّ الطبقات، وأن تسودَ مصرَ الحرية..

وليس في «معالم في الطريق» جديد في فكرِ سيد قطب، ولكن بما أنَّ الشهيدَ كتبه في السجن، بعد أَنْ ذاقَ أَلوانَ العذاب على مختلفِ قسوتها ووحشيتها، فقد بدتْ نقمتُه على مخالفةِ الشرع أَوضح وأَظهر!

وما أَراد الشهيدُ الأُستاذُ سيد قطب في يومٍ من الأَيام أَنْ يكفِّرَ مسلماً، لأَنه من أَعلم الناس بأَنَّ رسولَ الله ﷺ قال في أكثر من حديث: «إِنَّ مَنْ قالَ «لا إله إلا الله» موقناً بها قلبْه لن يخلدَ في النار.. ونحن نعلمُ أَنه لن يخلَّدَ في النارِ إلاَّ الكافرون!

هذه واحدة.. والثانية: إِن كثرةَ تردادِه «للمجتمع الجاهلي» لم يقصِدْ بها تكفيرَ المجتمع، ولكن تشديدَ النكيرِ على الظلمةِ والطغاة والمستغلِّين والمشكِّكين.. وهو أُسلوب تعرفُه اللغةُ العربية!

والذين يَعرفونَ الشهيدَ سيد قطب، ودماثةَ خلقه، وجَمَّ أَدبه، وتواضُعَه ورقةَ مشاعره، يَعرفون أَنه لا يكفِّرُ أَحداً!

إنه داعيةٌ إسلامي، من عيونِ دُعاةِ المسلمين.. ظلَمَه من أَخذَ كلامَه على غيرِ مقاصدِه، ومَن هاجموه مُتجنّين، لما رأَوهُ من عميقِ تأثيرِ كلماتِه وكتاباتِه على الشبابِ الطاهر النظيف..

هذا موجزٌ مقتضبٌ للمبادىء التي قامَ عليها كتاب «معالم في الطريق»، وقد كان لي شرفُ الاطلاعِ عليه قبلَ طبعه، ونحنُ في مستشفى «ليمان طرة».

ولما أُفرجُ عن سيد قطب، أَرسل إليَّ - وأنا في السجن - يخبرنُي أَنَّ الجمهوريةَ العراقية طلبتْه، ليعملَ في مجالاتِ التعليم والتربية هناك! واستشارَني في الرفضِ أو القبول، وكان رأْيي أَنْ يقبلَ لتخوُّفي مما كُنتُ أَتوقعُه بالنسبةِ له من رجالِ الانقلاب! ولكنه آثَرَ البقاءَ في مصر، ليدافعَ عن رأيه! وهو قَدَرُ الله...»[1].

ونكتفي بهذه الشهادةِ القيمةِ من المرشدِ العامِّ الثالث للإخوان المسلمين، لسيد قطب وكتاب «معالم في الطريق» ونضيفُها إلى شهادةِ الأُستاذ الهضيبي السابقة!!

سيد قطب ينكر على من فهم كتابه خطأً:

وقد أُثيرَ لغطٌ على كتاب «معالم في الطريق» في حياةِ سيد قطب وبعدَ استشهاده وصدرَ هذا اللغطُ في محيطِ الإخوان المسلمين وغيرِهم، وفهمَ أُناسٌ كلامَ سيد فيه فهماً خاطئاً،

---

(١) ذكريات لا مذكرات لعمر التلمساني، ص ٢٨٠ ـ ٢٨١.

واعتمدوا عليه في تكفيرِ المسلمين، وردَّ عليهم آخرون، متهمين سيد بأَنه خرجَ عن خَطِّ الإِسلام والدعوةِ وفهمِ الإِخوان، لأَنه يكفِّرُ المسلمين!!

وهذا فهمٌ خاطىء لكلام سيد في كتابه «معالم في الطريق».

وقد نفى هذه الاتهاماتِ الباطلةَ سيد قطب نفسُه قبلَ استشهاده!

أَجرتْ مجلةُ المجتمعِ الكويتية عام: ١٤٠٢ ـ ١٩٨٢ مقابلةً مع المجاهدة زينب الغزالي. وطرحَتْ عليها في المقابلةِ هذا السؤال: هل حقاً أَنَّ الفكرَ الذي كان يتبنّاهُ سيد قطب ويُدَرِّسُه للإِخوان، هو تكفيرُ أَفرادِ المجتمع؟

أَجابتْ زينب الغزالي على ذلك مقدمةً شهادةً لله، فقالت: هذا وهم، توهَّمَهُ بعضُ تلاميذ الشهيد سيد.. لقد جلسْتُ مع سيد في منزلي عندما سمعْتُ بتلك الشائعة. وقلتُ له: إِنَّ منزلتي عند «السيدات المسلمات» تجعلُهم يحترمونني احتراماً عظيماً، ولكنَّهم مستعدّون أَنْ ينسفوا كلَّ هذا الاحترام إِذا علموا أَنني أَقولُ عنهم ـ أَو عن أَحَدٍ من أَقاربهم ـ أَنهم كفار!

واستغربَ نفسَه هذا القول! وبيَّنَ أَنَّ هذا فهمٌ خاطىء لما كتبه... وبَيَّنَ أَنه سيوضِّحُ هذا في الجزءِ الثاني من «المعالم..»[1].

---

(١) مجلة المجتمع، عدد ٥٦٥، تاريخ ١٢ جمادى الآخرة ١٤٠٢، ص ٢١.

ويروي الأَخُ عبد الحليم خفاجي في كتابه «عندما غابت الشمس» أَنَّ فكرة التكفير نبتَتْ في السجون، من قِبَلَ بعضِ الشباب، وأَنهم ادّعوا نسبتَها لسيد قطب، وزَعموا أَنه يقولُ بها، وهذا في حياته، فتبرأَ من ذلك!

قال خفاجي: «وحَمَّلْنا الأَخ «إِبراهيم الطناني» المرَحَّلَ إلى سجن طرة للعلاجِ رسائل للأُستاذ سيد قطب، بتفاصيلِ تفكيرِ وسلوكِ هؤلاء الإخوة.

فأَرسلَ منكراً عليهم ذلك، وقالَ عنهم: لقد فَهموني خطأً!

وقال سيد قطب أيضاً: «لقد وضعْتُ حَملي على حِصانٍ أَعْرَج!!»[1].

«معالم في الطريق» رائد الكتب في فقه الدعوة:

إِن كتاب «معالم في الطريق» كتابٌ في فقهِ الدعوة والحركة، وهو رائدُ الكتب الدعوية والحركية، وليس فيه تكفيرٌ من سيد للمسلمين، ولا للمجتمعاتِ المسلمة، وإِنما هو عرضٌ وبيانٌ لمعالم الطريق الموصِل إلى محبةِ اللّهِ ورضوانِه وجنته.

وكان سيد قطب يَنوي أَنْ يُصدرَ حلقات ـ أَو أَجزاءً ـ أُخرى لكتاب «معالم في الطريق» يُقدمُ فيها معالمَ وحقائقَ أُخرى، للدعاةِ والمجاهدين، ويبدو أَنه كتبَ الجزءَ الثاني قبيلَ اعتقالِه الأَخير،

---

(١) عندما غابت الشمس لعبد الحليم خفاجي، ص ٤٤٦ ـ ٤٤٧.

ولكن هذا أُتلفَ من قِبَلِ الطغاةِ والظالمين، لمَّا اعتقلوه وعَذَّبوه ثم أَعدموه.. رحمه الله.

وقد اختارَ الأَخُ الأُستاذ أَحمد حسن موضوعات من «فقه الدعوة» من التفسيرِ الرائد «في ظلال القرآن»، ونَسَّقَ بينها، وأَصدرها في كتاب «فقه الدعوة» قضايا في الدعوة والحركة، على غرارِ كتاب «المعالم».

وبسببِ الأَفكارِ الدعويةِ الحركيةِ الصريحة في كتاب «معالم في الطريق» ـ وكتابه في ظلال القرآن ـ غضبَ الطغاةُ من سيد قطب، وحكمَوا عليه بالإِعدام. ولهذا أَطلقَ بعضهم على كتاب «معالم في الطريق»: ألكتاب الذي حكمَ على صاحبه بالإِعدام!!

واعتمدتْ قيادةُ جماعةِ الإِخوان المسلمين كتاب «معالم في الطريق» كتاباً في فقهِ الدعوة والحركة، وأَقَرَّتْهُ على الإِخوان المسلمين، يتدارسونَه في «أُسَرِهم» و«كتائبِهم» وجلساتِهم ولقاءاتِهم.

وبقيَ هذا الاعتمادُ لكتاب «المعالم» حتى وقْتٍ قريبٍ جداً، حيث ظهرتْ أَفهامٌ جديدة عندَ بعضِ قيادات الإِخوان في بعضِ البلدان، غريبةٌ على ما قدَّمه سيد قطب في الظلال والمعالم، مما جعلَهم ينتقدون وينتقِصون سيد وكتبَه وفكْرَه، ويُبعدونَ كتابَ المعالم عن مناهج الإِخوان!!!

وفيما يلي تعريفٌ موجز بفصول «معالم في الطريق»:

الفصل الأول: «معالم في الطريق»:

ذَكَرَ فيه طبيعةَ الكتاب، وهدَفَه الدعويَّ الحركيَّ فيه. بَيَّنَ فيه أَنَّ البشرية اليوم تقفُ على حافةِ الهاوية، بسببِ قيادةِ الجاهلية الكافرةِ لها، وأنَّ كلَّ الأَنظمةِ والمناهجِ فشلَتْ في إِسعادِ البشرية، ولذلك لا بدَّ من قيادةٍ جديدةٍ للبشرية، وهذه القيادةُ لن تكونَ إلاّ للإِسلام.

والإِسلامُ لا يؤدّي دورَه إلاّ إذا تمثَّلَ في أُمةٍ ومجتمع وحركةٍ ونظام. وقد توقَّفَ وجودُ المجتمعِ الإِسلاميِّ العمليِّ الملتزمِ حقاً بالإِسلام في هذا العصر، كما توقَّفَ وجودُ «الأُمة» الملتزمةِ حقاً بالإِسلام والمتحركةِ به!.. ولا بدَّ من «بعثٍ» لهذه الأُمة من جديد، لتتسلم القيادةَ العالمية، مع وجودِ مسافةٍ شاسعةٍ بين محاولةِ بعثِ الأُمة وبينَ تسلُّمِها القيادة. لكنَّ بعْثَ الأُمة المسلمة من جديد هو الخطوةُ الأُولى التي لا بدَّ منها!

ومؤهِّلاتُ الأُمة المسلمة لتسلُّم قيادةِ البشرية ليستْ في «الإِبداع المادي» لأَنَّ القيادةَ الغربية بلغت الذروةَ في ذلك، إِنما هي في التصورِ الإِسلامي، وقيم الإِسلامِ ومناهجِه وحقائقِه ومبادئه، التي تُنظمُ حياةَ البشرية على أَساس الإِيمان والخلق!

وقرَّرَ أنَّ العالَمَ اليومَ كلَّه يعيشُ في جاهلية، رغمَ التقدم الماديِّ والعلميِّ عند الغربيين، لأَنَّ الجاهليةَ تقومُ أَساساً على الاعتداء على سلطانِ اللّهِ في الأرض، فتجعلُ الحاكميةَ للبشر، مع

أنَّ الحاكميةَ لا تكونُ إلا لله! الإسلامُ يجعلُ الحاكميةَ لله، ويجعلُ الناسَ عبيداً لله، والجاهليةُ تجعلُ الحاكميةَ للبشر، وتجعلُ الناسَ عبيداً لبعضِهم بعضاً، وهذا هو مفرقُ الطرقِ بين الإسلامِ والجاهلية!

وتبدأُ عمليةُ البعثِ الإسلامي في الأُمة المسلمةِ بوجودِ «طليعةٍ» في هذه الأمة، تعزمُ على التغيير، وتَمضي في الطريق، وتعملُ بجدّ، وتلتزمُ بالإسلام، وتدعو إليه، وتواجهُ الآخرين، وتستنقذُ الأُمَّة.

ولا بدَّ لهذه «الطليعة» المجاهدةِ من «معالمَ في الطريق» تعرفُ منها: «طبيعةَ دورِها، وحقيقةَ وظيفتها، وصلبَ غايتها، ونقطةَ البدءِ في الرحلةِ الطويلة.. كما تعرفُ منها طبيعةَ موقفِها في الجاهلية.. أينَ تلتقي مع الناس؟ وأينَ تفترق؟ ما خصائصُها هي؟ وما خصائصُ الجاهليةِ من حولها؟ كيف تخاطبُ أهلَ هذه الجاهلية بلغةِ الإسلام؟ وفيمَ تخاطبُها؟ ثم تعرفُ من أينَ تتلقّى في هذا كلِّه؟ وكيفَ تتلقى؟

هذه المعالمُ لا بدَّ أن تُقامَ من المصدرِ الأَول... القرآن... ومن توجيهاتِه الأَساسية..

لهذه الطليعةِ المرجوةِ المرتقبة كتبْتُ «معالم في الطريق».. منها أَربعةُ فصولٍ مستخرجةٌ من كتاب «في ظلال القرآن» ـ مع تعديلاتٍ وإِضافاتٍ مناسبةٍ لموضوع كتاب المعالم ـ هي فصول:

طبيعةُ المنهج القرآني، والتصورُ الإسلامي والثقافة، والجهادُ في سبيل الله، ونشأةُ المجتمع المسلم وخصائصه ... ومنها ثمانيةُ فصول - غيرُ هذه التقدمة - مكتوبةٌ في فترات، حسبما أوحتْ به اللفتاتُ المتواليةُ إلى المنهج الرباني الممثلِ في القرآن الكريم.. وكلُّها يجمعُها - على تفرُّقها - أنها «معالم في الطريق» كما هو الشأنُ في معالمِ كلِّ طريق..

وهي في مجموعِها تمثلُ المجموعةَ الأُولى من هذه المعالم.. والتي أرجو أَنْ تتبعَهَا مجموعةٌ أُخرى أو مجموعات، كلما هداني اللّهُ إلى معالم هذا الطريق...»[1].

الفصل الثاني: جيل قرآني فريد:

توقَّفَ فيه أَمامَ ظاهرةِ جيلِ الصحابة الكرام، باعتبارِه جيلاً متميزاً فريداً، لم يتكررْ في التاريخ الإسلامي. وتساءلَ عن سببِ عدمِ تكراره، فالقرآن والسُّنَّةُ والسيرةُ النبوية موجودةٌ بين المسلمين، ولم يغبْ عنهم إلاّ شخصُ رسولِ الله ﷺ! فلماذا لم تتكررْ ظاهرةُ جيلِ الصحابة المتميِّز؟

لاحظَ سيد قطب ثلاثةَ أَسبابٍ لتميُّزِ جيلِ الصحابة، ودعا إلى ملاحظتها:

---

(١) معالم في الطريق، ص ١١ - ١٢.

الأَول: صفاءُ النبعِ الذي نشأ عليه الصحابة، وهو المتمثلُ في القرآن، حيثُ اكتفوا به وتربَّوا عليه، فكانوا جيلاً قرآنياً فريداً، بينما اختلطَت الينابيعُ في الأَجيالِ اللاحقة وتلوَّثَتْ، فأَفرزتْ أَجيالاً مشوَّهة.

الثاني: منهجُ التلقي الذي كانَ عليه الصحابة. فقد كانوا يتلقونَ القرآنَ تلقِّياً للتنفيذ، باعتبارِ التوجيهات القرآنية «أَوامرَ ميدانية» ينفِّذونَها فوراً. فكانَ القرآنُ يوجِّهُ حياتَهم، وينظمُ حركاتِهم. بينما نظرت الأَجيالُ اللاحقةُ إلى القرآنِ نظرةً ثقافيةً دراسيةً نظريةً مجردة، وليس للالتزامِ والتنفيذِ الفوري!

الثالث: البدايةُ الجادَّةُ للصحابة في التعاملِ مع القرآن: حيث كانوا يتخلَّصونَ من ماضيهم الجاهلي كلِّه، ويتركونَ للقرآن تكوينَ شخصياتِهم، وتشكيلَ تصوراتهم، ويولَدونَ به ميلاداً جديداً.. بعكس الأَجيالِ اللاحقة التي لم تتخلَّصْ من رواسبِ ثقافاتِها غيرِ القرآنية، وتأَثَّرتْ بضغوط القيم والأَعراف والثقافات غيرِ الإِسلامية.

وقرَّرَ أَنه لا بدَّ أَنْ نراعيَّ هذه الأُمورَ الثلاثة التي كانتْ سبباً في تميُّزِ الصحابة، إِذا أَردْنا أن نقتديَ بهم:

لا بدَّ أَنْ نرجعَ ابتداءً إلى النبع الخالص ـ القرآن ـ الذي استمدَّ منه أُولئكَ الرجال..

ولا بدَّ أَنْ نرجعَ إلى القرآن بشعورِ التلقّي للتنفيذِ والعمل، لا بشعورِ الدراسةِ والمتاع..

ولا بدَّ لنا من التخلُّصِ من ضغطِ المجتمعِ الجاهلي من حولِنا..

الفصل الثالث: طبيعة المنهج القرآني:

هذا الفصلُ استخرجَه سيد قطب من تفسيرِه «في ظلال القرآن»، من تعريفِه بسورة الأَنعام من الظلال.

ذكرَ فيه أنَّ القرآنَ ظلَّ طيلةَ ثلاثة عشر عاماً في العهدِ المكي يركِّزُ على موضوعٍ أَساسي هو: العقيدة، ممثلةً في قاعدتِها الرئيسية: الأُلوهية والعبودية. ولم ينتقل القرآنُ للفرعيات المتمثلةِ في التشريعِ والمنهجِ والأَحكام إلاّ في العهدِ المدني، بعدَ نشأةِ المجتع الإِسلامي وقيامِ الدولةِ المسلمة!

ووقفَ سيد قطب يعللُ سببَ هذا التركيزِ القرآنيِّ على العقيدة، طيلةَ العهدِ المكي، ويستخرجُ من ذلك دروساً للدعاةِ في هذا العصر.

لماذا لم يبدأَ رسولُ الله ﷺ دعوتَه بدعوةٍ قومية، يطالبُ فيها بتحريرِ بلادِ العرب، وتوحيدِها تحت قيادته، ثم يقدمُ لها العقيدةَ والمنهجَ فيما بعد؟

ولماذا لم يبدأْ ﷺ بالإِصلاحِ الاجتماعي في بلادِ العرب، ورفْعِ الظلمِ عن المظلومين؟ ثم يقدمُ لهم العقيدةَ بعد ذلك!

ولماذا لم يبدأ ﷺ بالإصلاح الأخلاقي في بلاد العرب، وبعد أَنْ يقضيَ على الانحرافات الأَخلاقية يقدمُ لهم العقيدة؟

لقد أَرادَ اللّهُ الحكيمُ أَنْ يبدأَ بالعقيدة، رغمَ مشقةِ هذا الأَمر، ولما أَتَمَّ هذا، وأَنشأهم على العقيدة، فكانوا رجالِ عقيدة، تحققَ كلُّ ما يريدونه، من إِصلاحٍ وسموٍّ ووحدةٍ وسعادة!!

وهذا درسٌ لأَصحابِ الدعوة، بأَنْ يبدأُوا من تقريرِ العقيدة، وتنشئةِ الناس عليها، ثم تأتي المكاسبُ الثانويةُ بعد ذلك مبنيةً عليها.

كذلك لاحظَ منهجَ القرآنِ في تقريرِ العقيدة، حيثُ بدأَ بها أَولاً، دونَ التطرقِ إلى تفصيلاتِ النظامِ الإِسلامي، حيث جاءت التشريعاتُ والأَحكامُ والتفصيلاتُ بعد ذلك!

وعلَّلَ سيد قطب حكمةَ تأخيرِ الأَحكام والتشريعات إلى المدينة، بعد أَنْ قامَ المجتمعُ الإِسلامي، وبَيَّنَ أَنَّ هذا يتفقُ مع طبيعةِ هذا الدين، الذي هو حركيٌّ جادّ، يريدُ إِيجادَ الأمة، ثم يكونُ التشريعُ لها بعد ذلك، وهذا ما ينبغي أن يعلَمَه الدعاة.. بحيثُ يركِّزون على نقطةِ البدء، وهي البدءُ بالعقيدة، وتنشئةُ الأُمةِ عليها، وبعد ذلك تأتي الأَحكامُ الفقهية التي يطبقُها المجتمعُ الإِسلامي القائمُ فعلاً.

ومنهجُ القرآن في تقريرِ العقيدة أَنه لم يعرضْها في صورةٍ نظريةٍ ثقافية، كعلمِ الكلام أو التوحيد، إِنما عَرَضَها عرضاً حياً

حيوياً مُؤَثِّراً، وخاطبَ بها فطرة الإِنسان، ولما كان يبني العقيدةَ في ضَمائرِ الجماعة المسلمة كان يخوضُ بها معركةً عمليةً ضخمةً مع الجاهليةِ من حولها. وبذلك بنى الجماعةَ بالعقيدة، وبنى العقيدةَ بالجماعةِ المتحركة، فكان وجودُ الجماعةِ المسلمة الفعليُّ هو الوجودَ المجسَّم للعقيدة..

ولا بدَّ من ملاحظةِ ذلك ومراعاتِه، وعدمِ حصرِ الإِسلامِ بنظرةٍ علميةٍ ثقافيةٍ جامدة، وإِنما تحويلُه إلى وجودٍ حي واقعي مؤثرٍ متحرك، متمثلٍ في نفوسٍ حية، وفي تنظيمٍ واقعي، وفي تجمُّعٍ عُضوي، وفي حركةٍ تتفاعلُ مع الجاهليةِ من حولها وتواجهُها، بحيثُ يتناسقُ النموُّ النظريُّ مع النموِّ الحركيِّ العمليِّ الواقعي القائم.

الفصل الرابع: نشأة المجتمع المسلم وخصائصه:

وهذا الفصلُ استخرجَه من «في ظلال القرآن»، أَثناءَ تعريفِه بسورة الأَنعام، وهو مكمِّلٌ للفصلِ السابق: «طبيعة المنهج القرآني» واستمرارٌ له، في التأكيدِ على الصورةِ العملية الواقعيةِ للمنهج الإسلامي وعدمِ الاكتفاءِ بالعرضِ النظريِّ له.

طبيعةُ الدعوةِ إلى الله ـ على مدارِ التاريخ البشري ـ هي في إِسلام الناس حقيقة، وتعبيدِهم لله وحدَه، وتلقيهم كلَّ شيء منه وحدَه وإِخراجِهم من العبودية لغيرِ الله... ثم تحويلِهم إلى تجمُّعٍ عضويٍّ حركيٍّ قائم، ليواجهَ التجمُّعَ العضويَّ الجاهليَّ القائم..

فبما أَنَّ الجاهليةَ ليستْ مجردَ نظريةٍ ثقافية تصورية، وإنما هي تجمُّعٌ عضويٌّ قائم، فلا بدَّ أَنْ يتحولَ الإسلام من تصوُّرٍ نظريٍّ إلى «مسلمين صادقين»، يُشكِّلون مجتمعاً إسلامياً قائماً حياً ملتزماً بالإسلام، ومواجِهاً للجاهليةِ القائمة!

وهذا معناهُ أَنْ يتميزَ المسلمون الصادقون في تجمُّعٍ إسلاميٍّ حركي، وأَنْ لا يَبقوا أفراداً في التجمعِ العضويِّ الجاهليِّ القائم. لأَنهم لن يَنصروا الإسلامَ حقيقة، وهم بهذا الذوبانِ في التجمعِ الجاهلي، وسيخْضَعون لضغوطاتِ التجمُّعِ الجاهلي، وبذلك يعملون على تقويته.

ومن ثَمَّ لم يكن بدٌّ أن تتمثَّلَ القاعدةُ النظريةُ للإسلام (أي العقيدة) في تجمعٍ عضويٍّ حركيٍّ منذ اللحظةِ الأُولى.. لم يكن بدٌّ أَنْ ينشأَ تجمعٌ عضويٌّ حركيٌّ آخر غير التجمعِ الجاهلي.. منفصلٌ ومستقلٌّ عن التجمعِ العضوي الحركي الجاهلي، الذي يستهدفُ الإسلامُ إلغاءَه.. وأَنْ يكونَ محورُ التجمعِ الجديد هو القيادةُ الجديدةُ الإسلامية...

هكذا وُجِدَ الإسلام، وهذه هي نشأةُ المجتمع المسلم.. أَمّا أَهَمُّ خصائصِ المجتمع المسلم فإنه مجتمعٌ قائم على العقيدة، وأَساسُ تجمُّعِ أَفرادِه هو العقيدة، وليس على أَيِّ رابطة أو آصرةٍ أُخرى، من صورِ الروابط الأَرضيةِ الجاهلية، التي قامَتْ على أَساسها تلك المجتمعاتُ غيرُ الإسلامية!

الفصل الخامس: الجهاد في سبيل الله:

استخرجَ سيد قطب هذا الفصلَ من «الظلال» أَيضاً، أثناءَ تعريفه بسورةِ الأَنفال.

بدأَ هذا الفصلَ بتلخيصِ المراحل التي مَرَّ بها الجهادُ في سبيل الله، زمَنَ رسول الله ﷺ، وأَخَذَ هذا التلخيصَ من كتاب «زاد المعاد» لابن القيم.. ثم عَقَّبَ على ذلك التلخيصِ باستخراجِ أَربعِ سماتٍ حركية لهذا الدين، ومنهجِه الجهاديِّ الحركيِّ.

ثم وضَّحَ مفهومَ الجهادِ في سبيل الله، كما هو في هذا الدين، وردَّ على بعضِ الأَفهامِ الخاطئةِ لمسلمين معاصِرين حولَ الجهاد، الذين يبحثونَ عن «مُبَرِّراتٍ» للجهاد، ويَقْصرونه على ما يسمّى بالحربِ الدفاعية، القائمةِ على ردِّ الاعتداءِ على بلاد المسلمين، فإِذا لم يَعتدِ الكفارُ على بلاد المسلمين فإن المسلمينَ لا يُجاهدونهم!

الجهادُ في الإِسلام هو إِعلانٌ عامٌّ لتحريرِ الإنسان في هذه الأَرضِ من العبوديةِ لغيرِ الله، وتعبيدهِ لله وحده، كما أَنه إِعلانٌ عامٌّ لأُلوهيةِ اللّهِ للعالمين، والخضوعِ المطلَقِ له، وتلقّي الأَحكام والشرائع منه وحده، وهذا معناه الثورةُ الشاملةُ على حاكميةِ البشر للبشر لإِزالتِها، وإِعلانِ حاكميةِ الله، وذلك بتحطيمِ النظامِ الجاهليِّ القائم، وتدميرِ جيشه، وإِزالةِ كيانه، وذلك ليختارَ الناسُ ما يريدونَ

عن قناعة، وبدونِ ضغط أو تهديد أو إكراه، وعند ذلك يكونُ عدمُ الإكراه في الدين.

وهذا معناهُ أَنَّ الإسلام لم يكتفِ بالبيانِ العامِّ النظريِّ لتقديمِ منهجه إلى الآخرين، لأنَّ الواقعَ الجاهلي المخالفَ سيمنعُ البيانَ النظري... والصحابةُ لم يكتفوا بالبيانِ والدعوة، وإنما وَجَّهوا الجيوشَ المجاهدة لفتحِ العراق والشام ومصر وغيرها..

ثم انتقلَ ليعلِّلَ أَمْرَ الصحابةَ في مكة بكفِّ أَيديهم وعدمِ قتال المشركين، وتأخُّرِ الأَمْرِ بالجهادِ إلى ما بعدَ قيامِ المجتمعِ والدولة في المدينة، وسَجَّلَ حِكَماً رائعةً في ذلك، وتحدَّثَ عن المراحلِ التي مَرَّ بها تشريعُ الجهادُ في المدينة.

وربطَ ربطاً لطيفاً بين طبيعةِ الجهادِ في سبيل الله، وبينَ طبيعةِ النظامِ الإسلامي نفسِه، القائمِ على تقريرِ أُلوهيةِ وربوبيةِ وحاكميةِ اللّهِ وحده، وجهادِ الأَنظمةِ الجاهليةِ القائمةِ على الخضوعِ لغيرِ الله! فمن حقِّ الإسلام أَنْ يُجاهدَ هذه الأَنظمةَ الباطلةَ المناقضةَ له، وأَطالَ النَّفَسَ في نقاشِ الأفكارِ الخاطئة المعاصرة، المتأثرةِ بضغْطِ الواقع المخالفِ للإسلام، والتي تحصرُ الجهادَ الإسلاميَّ بالحربِ الدفاعية وردِّ الاعتداءِ عن الوطن الإسلامي.

الفصل السادس: لا إله إلا الله منهج حياة:

تحدَّثَ فيه عن مفهوم «لا إله إلا الله» ومعناها، وطبيعتها وأَبعادِها ومضامينِها، باعتبارِها هي الأَساسَ للعقيدةِ الإسلامية.

اعتبرَها إِعلاناً إِيمانياً عن العبوديةِ الصادقةِ الشاملة لله، والتلقّي عنه وحدَه، عن طريقِ رسوله محمدٍ ﷺ.. ولذلك صارَتْ «لا إله إلا الله» قاعدةً لمنهجِ حياةٍ متكاملٍ شامل، يقيمُه الإِسلامُ في كيانِ المسلم وفي واقعِ المجتمع!

وهذا التقريرُ لأَبعادِ «لا إله إلا الله» يُفيدُ في تحديدِ قضايا أَساسية مثل: طبيعةُ المجتمع المسلم، ومنهجُ نشأة المجتمع المسلم، ومنهجُ الإِسلام في مواجهةِ الجاهلية، ومنهجُ الإِسلام في مواجهةِ واقعِ الحياة البشرية.. وتحدَّثَ عن كلٍّ واحدة من هذه المسائل بالتفصيل، وربَطَها بلا إِله إِلا الله منهج الحياة!

السمةُ الأُولى للمجتمع المسلم أَنه يقومُ على قاعدةِ العبوديةِ لله، على أَساس: لا إله إلا الله، وينشأُ هذا المجتمعُ المسلم عندما تنشأُ جماعةٌ مسلمةٌ صادقةٌ من الناس لا تَدينُ بالعبوديةِ لغيرِ الله، في الاعتقادِ والتصور، وفي العباداتِ والشعائر، وفي النظامِ والشرائع..

وعكسُ هذا المجتمع المسلم هو المجتمعُ الجاهلي، وهو المجتمعُ الذي لا يُخلِصُ عبوديتَه لله وحده، في التصور، وفي الشعائر، وفي الشرائع. وهو ينطبقُ على المجتمعاتِ الجاهلية

القائمةِ الآن في العالم، التي لا تَخضعُ لله في هذه المجالات. ومنهجُ الإسلام في مواجهةِ هذه المجتمعات الجاهلية هو عدمُ الاعترافِ بها، والسعيُ إلى تغييرها، وإيجادُ المجتمعِ الإسلامي مكانَها، الذي يُخلصُ عبوديتَه لله وحده، ويَعتبرُ «لا إله إلا الله» منهجَ حياتِه كلِّها.

الفصل السابع: شريعة كونية:

ربطَ سيد قطب في هذا الفصلِ ربطاً بديعاً بين الإسلام وبين الكون، فالإسلامُ يُقيمُ كيانَ المسلمِ على أَساس العبوديةِ لله، وينشئُ المجتمعَ الإسلاميَّ على قاعدةِ العبوديةِ لله، وهذا يتناسقُ مع الكونِ الذي خلقَه الله، وأَخضعَه لإرادته، فهذا الكونُ قائمٌ على العبوديةِ لله أَيضاً!

لقد أَوجدَ اللّهُ الحكيمُ الكونَ على سننٍ كونية مطردة، لا تتخلَّفُ ولا تتوقَّفُ إلاّ إذا أَرادَ الله. وجعلَ اللّهُ للإنسان سنناً إنسانيةً مطردة، لا تتغيَّرُ ولا تتبدَّل.. ثم جعلَ له شريعةً تنظم له الجانبَ الإرادي من حياته، وهذا التنظيمُ للجانبِ الإرادي متناسقٌ مع السننِ الإنسانية في تنظيمِ الجانبِ اللاإرادي من كيانه، ومتناسقٌ مع السننِ الكونيةِ التي تنظمُ هذا الكون.

ولهذا كانت هذه الشريعةُ الربانيةُ شريعةً كونية، بمعنى أَنها متصلةٌ بناموس الكونِ العام، ومتناسقةٌ معه.. ومن ثمَّ فإنَّ الالتزامَ بها ناشئٌ من ضرورةِ تحقيقِ التناسقِ بين حياةِ الإنسان وحركةِ

الكون الذي يَعيشُ فيه.. بل من ضرورةِ تحقيقِ التناسق بين القوانينِ التي تحكمُ فطرةَ البشرِ المضمرة والقوانين التي تحكمُ حياتَهم الظاهرة، وضرورةِ الالتئامِ بين الشخصيةِ المضمرَة والشخصيةِ الظاهرة للإنسان.

وبهذا يكونُ العملُ بشريعةِ الله واجباً لتطبيق الإِسلام، وواجباً لتحقيقِ التناسقِ المطلوب بين الإِنسان والكون، وواجباً للقضاءِ على الفسادِ الذي يعمُّ حياةَ الناس عندما لا يُطَبِّقون الشريعةَ الإسلامية الكونية، ويُطبقون مكانَها الهوى.

فالالتزامُ بشريعةِ الله ليس ضرورياً للآخرةِ فقط، ولكنه ضروريٌّ للدنيا أَيضاً! والتناسقُ مع الناموسِ الكوني يحققُ السعادةَ للبشريةِ في الدنيا، تمهيداً لتحقيقِها في الآخرة! فالإسلامُ للدنيا وللآخرة، وليس للآخرةِ فقط!

الفصل الثامن: الإسلام هو الحضارة:

بَيَّنَ أَنَّ الإِسلامَ وحده هو الحضارة، وأنَّ المجتمعَ الإسلاميَّ وحده هو المجتمعُ المتحضر، وأنَّ الإسلامَ لا يَعرفُ إلاّ نوعيْن اثنيْن من المجتمعات:

الأول: المجتمعُ الإسلامي: وهو المجتمعُ الذي يُطَبِّقُ فيه الإِسلامُ كلُّه، عقيدةً وعبادة، وشريعةً ونظاماً، وخلقاً وسلوكاً.

الثاني: المجتمعُ الجاهلي: وهو المجتمعُ الذي لا يُطَبَّقُ فيه الإِسلام، ولا تحكُمه عقيدتُه وتصوُّراته، وقيمُه وموازينُه، مهما كانت صورَتُه، ومهما كانَ نظامُه..

المجتمعُ الإِسلاميُّ وحدَه هو المجتمعُ المتحضر، والمجتمعاتُ الجاهليةُ بكلِّ صورها المتعددة مجتمعاتٌ متخلفة.

وأَخبَرَ عن حادثةٍ جَرَتْ له، تتعلقُ بهذا الأَمر، فقد أَعلنَ عن كتابٍ له تحت الطبع بعنوان «نحو مجتمع إِسلاميٍّ متحضر»، وفي إِعلانٍ تالٍ بعد ذلك حذفَ كلمةَ «متحضر» واكتفى باسم «نحو مجتمعٍ إِسلامي».

ولفتَ هذا التعديلُ في الإِعلان نظرَ الفيلسوفِ الجزائري مالك بن نبي رحمه الله، قالَ عنه سيد قطب: «ولفتَ هذا التعديلُ نظرَ كاتبٍ جزائري، يكتبُ بالفرنسية، ففسَّرَهُ على أَنه ناشىءٌ من «عمليةِ دفاعٍ نفسيةٍ عن الإِسلام» وأَسِفَ لأَنَّ هذه العمليةَ ـ غيرَ الواعية ـ تحرمُني مواجهةَ المشكلة على حقيقتِها.

أَنا أُعذرُ هذا الكاتبَ.. لقد كنتُ مثلَه من قبل.. كنتُ أُفكرُ على النحوِ الذي يفكِّرُ هو عليه الآن.. عندما فكرتُ في الكتابةِ عن هذا الموضوعِ لأَول مرة!.. كانت المشكلةُ عندي ـ كما هي عندَه اليوم ـ هي «مشكلةُ تعريفِ الحضارة».

لم أَكُنْ قد تخلَّصْتُ بعدُ من ضغطِ الرواسبِ الثقافيةِ في تكويني العقلي والنفسي. وهي رواسبُ آتيةٌ من مصادرَ أَجنبية..

غريبةٍ على حسّي الإسلامي.. وعلى الرغمِ من اتجاهي الإسلامي الواضحِ في ذلك الحين، إلاّ أَنَّ هذه الرواسب كانتْ تغبشُ تصوُّري وتطمسُه! كان تصوُّرُ «الحضارة» ـ كما هُو في الفكرِ الأَوروبي ـ يخايِلُ لي، ويغبشُ تصوُّري، ويحرمُني الرؤيةَ الواضحةَ الأَصيلة..

ثم انجلت الصورة.. المجتمعُ المسلمُ هو المجتمعُ المتحضر! فكلمةُ «المتحضر» إِذنْ لغوٌ، لا يضيف شيئاً!..»[1].

الاختلافُ بين سيد قطب ومالك بن نبي ـ رحمهما الله ـ على تعَريفِ الحضارة، ولذلك بَيَّنَ سيد قطب في هذا الفصلِ معنى الحضارة، من خلالِ بيانِ سماتِ المجتمع المتحضر، هذه السماتُ لا تتوفَّرُ إِلاّ في المجتمعِ الإِسلامي.

المجتمعُ المتحضِّرُ هو:

١ ـ المجتمعُ الذي تكون الحاكميةُ فيه للّه وحده، لأنَّ هذا تحريرٌ للإنسانِ من العبودية لغيرِ الله.. وهذا لا يكون إلا للمجتمعِ الإِسلامي.

٢ ـ المجتمعُ الذي يكون تجمعُ الأَفراد فيه على تجمعٍ وآصرةٍ تمثلُ أَعلى ما في الإِنسان من تصورٍ وروحٍ وفكر، وهي

---

(١) معالم في الطريق، ١٤٣ ـ ١٤٤.

العقيدة... وهذا لا يكون إلاّ في المجتمع الإسلامي الذي يتجمعُ أَفرادهُ على العقيدة.

٣ ـ المجتمعُ الذي تكونُ «إِنسانيةُ الإِنسان» فيه هي القيمةَ العليا، وليست المادة أو الآلة أو المال أو الإنتاج... وهذا لا يكونُ إِلاّ في المجتمعِ الإسلامي.

٤ ـ المجتمعُ الذي تكون القيمُ الإِنسانية والأَخلاقُ الإِنسانيةُ هي القيمُ والأَخلاقُ الثابتة السائدة فيه... وهذا لا يكونُ إِلاّ في المجتمع الإسلامي.

٥ ـ المجتمعُ الذي تكونَ الأُسرةُ هي قاعدتُه، والعلاقاتُ بين الجنسين منظمةٌ قائمةٌ على مراعاةِ خصائصِ كلٍّ منهما، والحرصُ على رعايةِ الأَجيالِ الناشئة... وهذا لا يكونُ إلاّ في المجتمعِ الإِسلامي..

٦ ـ هو المجتمعُ الذي يقومُ الإِنسانُ فيه بالخلافةِ عن الله، ويعمرُ الأَرضَ على منهج الله، ويحققُ هو العبوديةَ الحقيقيةَ لله... وهذا لا يكونُ إلاّ في المجتمع الإِسلامي.

هذه هي السماتُ للمجتمع المتحضر، وهذه هي المقاييسُ والمقوماتُ الحقيقيةُ للحضارة، وهذه لا تنطبقُ إلاّ على المجتمع الإِسلامي.. ولذلك يقررُ سيد قطب: الإِسلامُ هو الحضارة، والمجتمعُ الإِسلاميُّ وحدَه هو المجتمعُ المتحضر..

والإِبداعُ المادي، والتقدمُ التكنولوجي ما كان يوماً مقياساً للحضارة، حتى يُقال: المجتمعُ غيرُ المبدع مادياً متخلِّف، والمجتمعُ المتقدم مادياً هو المتحضِّر! فقد يكونُ المجتمع متقدِّماً مادياً وهو مع هذا متخلفٌ غيرُ متحضر، لأَنه فقدَ المقاييسَ الستةَ السابقة للحضارة!

الفصل التاسع: التصور الإسلامي والثقافة:

خصصَ هذا الفصلَ لتوضيحِ مدلولِ الحاكمية، وتحديدِ علاقتِه بالثقافة.

مدلولُ «الحاكمية» في التصورِ الإِسلامي ليس محصوراً في تلقّي الشرائعِ القانونيةِ من الله وحده.. إِنه يعني تلقُّي كلَّ ما شرعهُ الله لتنظيمِ الحياة، والاكتفاءَ به، وعدمَ خلطه بغيره.

وهذا معناه أَنَّ مفهومَ الحاكمية، يتمثلُ في الاعتقادِ والتصورِ ويتمثلُ في الأَوضاعِ السياسية والاجتماعية والاقتصادية.. ويتمثلُ في التشريعاتِ القانونية، ويتمثلُ في قواعد الأَخلاق والسلوكِ والقيم والموازين التي تسودُ المجتمع... ثم يتمثلُ في «المعرفة» بكلِّ جوانبها.. وفي أُصولِ النشاطِ الفكري والفني.. في هذه المجالاتِ كلِّها لا بدَّ من التلقّي عن الله وحده..

والمؤمنُ في نشاطِه الفني لا يتلقّى إِلاّ عن الله، ويربطُه بالحاكمية، لأَنَّ النشاطَ الفنيَّ تعبيرٌ إِنساني عن تصوراتِ الإِنسان وانفعالاته، وهذه مستمدةٌ من تصوُّرِه الإِسلامي.

وارتباطُ الثقافةِ الإِسلامية بالتصورِ الإِسلامي لأَنَّ المؤمنَ لا يتلقّى إلاّ عن الله في التصورِ الإسلامي للوجود، وفي العبادة، وفي الخلقِ والسلوك، وفي أُصولِ النظام السياسي والاجتماعي والاقتصادي.

ويمكنُ للمؤمن أنْ يأخذَ عن غيرِ المسلمين بعضَ الأُمورِ والمسائلِ والمباحثِ العلميةِ المادية البحتة، كالطبِّ والكيمياء والفيزياء، والأَحياء والصناعة والزراعة..

إنَّ المؤمن قد يطلعُ على الثقافةِ الجاهلية في الموضوعات الإِنسانية والفكرية والاجتماعية والأَخلاقية، لا ليكوِّنَ منها ثقافةً له، فإِنها جاهليةٌ غريبةٌ عن دينه، ولكن ليقفَ على مظاهرِ انحرافِ أَصحابها، وليعرفَ كيف يقوِّمُها.

والثقافةُ ليست تراثاً إِنسانياً عالمياً، كما يزعمُ اليهودُ والغربيون، ولكنها مرتبطةٌ بتصوُّرِ أَصحابها. والإِسلامُ لا يعرفُ إلاّ نوعيْن من الثقافات:

الأَول: ثقافةٌ جاهلية: قائمةٌ على التلقّي عن غيرِ الله.

الثاني: ثقافةٌ إِسلامية: قائمةٌ على التلقي عن الله وحده، ومرتبطةٌ بالتصور الإِسلامي، وهي شاملةٌ لجميعِ مظاهرِ النشاطِ الإِنساني.

ولا يجوزُ للمؤمن أَنْ يأخذَ شيئاً من الثقافةِ الجاهلية في ميادينها وحقولها المعروفة.

ثم أَخبرَ عن تجربتِه حولَ الثقافةِ التي تلقّاها عن المصادرِ الغربية، وقيمتِها بالقياسِ إلى الثقافةِ الإسلامية. قال: «إنَّ الذي يكتبُ هذا الكلامَ إنسانٌ عاشَ يقرأُ أَربعين سنةً كاملة.. كان عملُه الأَولُ فيها هو القراءةَ والاطلاع، في معظمِ حقولِ المعرفةِ الإنسانية.. ما هو من تخصُّصِه.. وما هو من هواياته.. ثم عادَ إلى مصادرِ عقيدتِه وتصوُّره.. فإذا هو يجدُ كلَّ ما قرأَه ضئيلاً إلى جانبِ ذلك الرصيدِ الضخم ـ وما كانَ يمكنُ أن يكونَ إلاَّ كذلك ـ وما هو بنادمٍ على ما قضى فيه أَربعينَ سنةً من عمره، فإنما عرفَ الجاهليةَ على حقيقتها، وعلى انحرافِها، وعلى ضآلتها، وعلى قزامتها.. وعلى جعجعتها وانتفاشها، وعلى غرورِها وادعائها كذلك! وعَلِمَ علْمَ اليقين أَنه لا يمكنُ أَنْ يجمعَ المسلمُ بين هذيْن المصدريْن في التلقّي...»[1].

الفصل العاشر: جنسية المسلم عقيدته:

بَيَّنَ فيه أَنَّ الرابطةَ الوحيدةَ التي تربطُ الناس، والتي يعترفُ بها الإِسلامُ هي رابطةُ العقيدة والإيمانِ بالله، والأُخوةِ في الله، فإذا انقطعتْ فلا رابطةَ ولا صلة!

العقيدةُ هي الرابطةُ بين المسلمين، وحزبُ اللّهِ هم الفائزون، وطريقٌ واحدٌ يوصِلُ إلى الله هو الإيمان، ونظامٌ واحد

(١) معالم في الطريق، ص ١٧٦.

مقبولٌ عند الله هو نظامُ الإِسلام، ودارٌ واحدةٌ معتبرةٌ عند الله هي دارُ الإِسلام.

وطنُ المسلم هو الذي تُقامُ فيه شريعةُ الله، فتقومُ الروابطُ بينه وبين سُكّانه على أَساسِ الارتباطِ في الله، ولا جنسيةَ للمسلم إلاّ عقيدتُه، التي تجعلُه عضواً في الأُمةِ المسلمة في دارِ الإِسلام، ولا قرابةَ للمسلم إلاّ تلك التي تنبثقُ من العقيدة...

هذه حقائقُ قاطعةٌ قَرَّرَتْها آياتُ القرآن، وطبَّقَها أَصحابُ رسول الله ﷺ.

لقد ارتقى الإِسلامُ بمفهومِ الوطن والجنسية. فالوطن: دارٌ تحكمُها عقيدةٌ ومنهاج حياة وشريعةٌ من الله.. هذا هو معنى الوطنِ اللائقِ بالإنسان.. والجنسية: عقيدةٌ وآصرةُ حياة، هذه هي الآصرةُ اللائقةُ بالآدميين!

وهذا التصورُ الرفيعُ للدارِ والوطنِ والجنسيةِ والقرابةِ هو الذي يَنبغي أَنْ يسيطرَ على قلوبِ أَصحابِ الدعوةِ إلى الله، والذي ينبغي أَنْ يكونَ من الوضوحِ بحيثُ لا تختلطُ به أَوشابُ التصوراتِ الجاهلية الداخلية، ولا تتسربُ إِليه صورُ الشركِ الخفية..

الفصل الحادي عشر: نقلة بعيدة:

ذكرَ أَنَّ الإِسلامَ تصوُّرٌ مستقلٌ للوجودِ والحياة، تصوُّرٌ كاملٌ ذو خصائص متميزة، ومن ثَمَّ ينبثقُ منه منهجٌ ذاتيٌّ مستقلٌّ للحياةِ

كلِّها، بكلِّ مقوماتِها وارتباطاتها، ويقومُ عليه نظامٌ وخصائصُ معينة.

وهذا التصورُ يخالفُ مخالفةً أَساسيةً سائرَ التصوراتِ الجاهليةِ قديماً وحديثاً.. ووظيفةُ الإسلام الأُولى هي أَنْ ينشِءَ حياةً إنسانية تُوافقُ هذا التصور، وتمثلُه في صورةٍ واقعية، وأَنْ يُقيمَ نظاماً يتبعُ المنهجَ الربانيَّ الذي اختاره اللّهُ للناس.. وليستْ وظيفةُ الإسلام أَنْ يصطلحَ مع التصوراتِ الجاهليةِ السائدةِ في الأَرض، فالإسلامُ لا يقبلُ أَنصافَ الحلولِ مع الجاهلية، لا من ناحيةِ التصور، ولا من ناحيةِ الأَوضاعِ المنبثقةِ من هذا التصور! فإمّا إسلامٌ وإمّا جاهلية..

وظيفةُ الإسلام إذن هي إقصاءُ الجاهليةِ من قيادة الجاهلية، وتولّي قيادةِ البشريةِ على منهجِه الخاص، ويستحيلُ التوفيقُ بين الإسلامِ والجاهلية في وضعٍ واحد، بسببِ الفارقِ الأَصيلِ بينهما..

هذه الحقيقةُ يجبُ أَنْ تكونَ واضحةً قويةً في نفوسِ الدعاة عندما يدعونَ الناسَ إلى الإسلام، ليعرفوا «النقلةَ البعيدة» التي ينقلُهم إليها الإسلام، عندما يحكمُ حياتَهم ويرفعُهم إلى المستوى العالي الكريم.

الإسلامُ إسلامٌ فقط، وليس هو أيَّ مذهبٍ من المذاهبِ الوضعية في الأرض!

ووجَّهَ سيد قطب الدعاةَ إلى أَنْ يُقَدِّموا إسلامَهم البديلَ

للناس قائلين: «لن نتدسَّسَ إِليهم بالإِسلام تدسُّساً.. ولن نربتَ على شهواتِهم وتصوراتِهم المنحرفة.. سنكونُ معهم صرحاءَ غايةَ الصراحة... هذه الجاهليةُ التي أَنتم فيها نجس، واللّهُ يريدُ أَنْ يطهرَكُم.. هذه الأَوضاعُ التي أَنتم فيها خبث، واللّهُ يريدُ أَنْ يطهركم.. هذه الحياةُ التي تحيونَها دون، واللّهُ يريدُ أَنْ يرفعكم، هذا الذي أَنتم فيه شقوةٌ وبؤسٌ ونكد، واللّهُ يريدُ أن يخففَ عنكم ويرحمَكم ويُسعدكم.. الإِسلامُ سيغيرُ تصوُّراتكم وأَوضاعَكم وقيمكم، وسيرفعُكم إلى حياةٍ أُخرى، تُنكرونَ معها هذه الحياةَ التي تعيشونَها...»[1].

هذه هي النقلةُ البعيدةُ التي ينقلُ الإِسلامُ الناسَ إليها، والتي يجبُ أَن يُبشرَ الدعاةُ الناسَ بها، ليعلموا أَنها نقلةٌ بعيدةٌ واسعة ينتقلون بها من الجاهليةِ إلى الإسلام..

الفصل الثاني عشر: استعلاء الإيمان:

وَضَّحَ فيه حالةً إِيمانيةً عالية يجبُ أن يعيشَها المؤمنُ دائماً، هي حالةُ الاستعلاء التي يجبُ أن تستقرَّ عليها نفسُه، إزاءَ كلِّ شيء، وكلِّ وضع، وكلِّ قيمة.. الاستعلاءُ بالإِيمان وقيمه على جميعِ القيمِ المنبثقةِ عن غير الإيمان.. الاستعلاءُ على قيمِ الأَرض وتقاليدِها وقوانينها وأَوضاعِها وأَشخاصها وأَنظمتها.

---

(١) معالم في الطريق، ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧.

الاستعلاءُ مع ضعفِ القوة وقلةِ العدد وفقرِ المال، كالاستعلاءِ مع القوةِ والكثرةِ والغنى على السواء.. الاستعلاءُ الذي لا يتهاوى أَمامَ قوةٍ باغية، ولا عرفٍ اجتماعي، ولا تشريعٍ باطل، ولا وضْعٍ مقبولٍ عند الناس لا سندَ له من الإيمان!

إنَّ المؤمنَ هو الأَعلى: سنداً ومصدراً.. وهو الأَعلى إدراكاً وتصوُّراً للوجود.. وهو الأَعلى تصوراً للقيم والموازين التي توزَنُ بها الحياةُ والأَحداث والأَشياء والأَشخاص.. وهو الأَعلى ضميراً وشعوراً وخُلُقاً وسلوكاً.. وهو الأَعلى شريعةً ونظاماً.

هكذا عاشَ الصحابةُ حالةَ الاستعلاءِ بإيمانهم فجاهَدوا وثَبتوا وانتصروا، وهكذا يجبُ أن يعيشَ الداعيةُ حالة الاستعلاءِ بالإيمان، ولو كان مغلوباً مجرَّداً من القوةِ المادية، فلا يفارقُه شعورُه بأَنه الأَعلى، وينظرُ إلى غالبِه مِنْ عَلٍ ما دامَ مؤمناً، ويتيقنُ أَنها فترةٌ وتمضي، وأَنَّ للإيمان كرةً لا مفرَّ منها.. وَهَبها كانت القاضية، فإنه لا يَحني لها رأساً، لأَنَّ الناسَ يموتون، أَما هو فيستشهد.. وهو يغادرُ هذه الأَرضَ إلى الجنة، وغالبُه يغادرُها إلى النار.. وشتان شتان..

الفصل الثالث عشر: هذا هو الطريق:

ختمَ سيد قطب كتابَه بهذا الفصل، وهو في أَصلِه تعقيبٌ منه على قصةِ أَصحاب الأُخدود، التي أَشارتْ لها سورةُ البروج

وكان قد ذكرَ هذا في تفسيرِ السورة في الظلال، لكنَّ الشيخَ محمد الغزالي رحمه الله لم يتمكَّنْ من إِجازتِه والإِذنِ بطبعِه ـ كما سبقَ أَنْ ذكَرْنا ـ..

حَلَّلَ في هذا الفصلِ الموقفَ الإيماني الذي وقفَه المؤمنون في قصةِ أَصحاب الأُخدود، حيث انحازوا لإِيمانهم، وثبتوا عليه، وتحمَّلوا أَلَمَ الاحتراقِ بالنار في الأَخاديد، ولقوا اللّهَ شهداء.. وسجَّلَ سيد طقب دروسَ ودلالات هذا الموقف الإِيماني للدعاة، وبَيَّنَ لهم أَنَّ هذا هو طريقُهم: الابتلاءُ والامتحان، والتعذيب والاضطهاد، وعليهم الصبرُ والثبات، وفي النهاية إِمّا النصر وإِمّا الشهادة. والثباتُ على الإِيمان والحقِّ حتى الموت نصر، والتخلّي عنه هزيمة، ولهذا كان أَصحابُ الأُخدود المؤمنون منتصرين.. وهذا ما ربّى الرسولُ ﷺ أَصحابَه عليه، وهذا ما يجبُ أَنْ يتربّى عليه الدعاةُ في هذا الزمان، ويتعلَّموه من قصةِ أَصحاب الأُخدود، ليعرفوا أَنَّ هذا هو الطريق!!!

(٨)

مقومات التصور الإسلامي... خاتمة كتب وفكر وحياة سيد قطب

كتب سيد قطب على أوراق الادعاء التي قدمت له:

«مقومات التصور الإسلامي» هو خاتمةُ كتبِ سيد قطب، أَودعَ فيه عُصارةَ تجربتِه الإيمانية، وخلاصةَ تصوُّرِه وفكرِه، وختمَ به كلامَه وكتبَه وفكْرَه حياتَه، حيثُ لقيَ وجهَ اللهِ شهيداً ـ إنْ شاءَ الله ـ بعد كتابتِه بفترةٍ قصيرة.

وصدرَ الكتابُ بعدَ عشرين سنةً من استشهادِ صاحبه، حيث نشرتْه دارُ الشروق عام:١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

وقد كتبَ سيد معظمَ فصولِ هذا الكتابِ في سجنِه الثاني، الذي كان عامَ ١٩٦٥،والذي عُذِّبَ فيه تعذيباً رهيباً، كما ذكَرْنا في الفصولِ السابقة.

واللطيفُ العجيبُ أَنه كتبه «على أَوراقِ الادِّعاءِ» التي قُدمَتْ له، ليكتبَ عليها إقرارَه واعترافَه، فوجَدَها فرصةً مناسبة ليكتبَ

عليها أُصولَ فصولِ هذا الكتاب، وهذا يدلُّ على هِمَّتِه وعزيمته، كما يدلُّ على نضجِ فكرِه وغَزارةِ علْمِه..

وكتاب «مقومات التصور الإسلامي» هو القسمُ الثاني، والقسمُ الأَول أَصدره عام ١٩٦٢ بعنوان «خصائص التصور الإسلامي».

عرضَ في «خصائص التصور الإسلامي» سبعَ خصائص هي: الربانية، الثبات، الشمول، التوازن، الإيجابية، الواقعية، التوحيد.. وقد سبقَ أنْ عَرَّفْنا بهذه الخصائص..

أَمّا الكتابُ الثاني فقد عرضَ فيه مقوماتِ التصورِ الإسلامي، وهي: أُلوهية وعبودية، وحقيقةُ الأُلوهية، وحقيقةُ الكون، وحقيقةُ الحياة، وحقيقةُ الإنسان..

مقدمة الأستاذ محمد قطب للكتاب:

كتب مقدمة الكتاب الأُستاذُ محمد قطب، لأَنه هو الذي تولىّ نشْرَه.

ومما قالَه الأُستاذ محمد في مقدمته: «تأَخَّرَ هذا الكتابُ كثيراً عن موعدِه الذي قَدَّرْناه له، والذي توقَّعه كثيرٌ من الناس، الذين عَلِموا بوجودِ مخطوطتِه.. حتى شاءَ اللهُ له أَنْ يَصدر، في اللحظةِ التي قَدَّرَها ـ سبحانه ـ لصدوره»!.

كانَ الشقيقُ الشهيدُ قد انتهى من كتابتِه في الأَيامِ الأَخيرة من وجودِه في السجن، قبلَ تنفيذِ الحكم عليه من قِبَلِ الطغاة المتربِّصين بالإسلام...

وكان كتاب «المعالم» قد بلَغَ مبلَغَه من إثارةِ حنقِ الذين لا يُطيقون «لا إله إلا الله».. ليس فقط لأنَّ الكتاب كلَّه مركَّزٌ حول المعنى الحقيقي للا إله الله، وكونِها منهجَ حياة، ولكن لأَنَّ الشهيدَ - في هذا الكتاب بالذات - أَرادَ أَنْ يردَّ لها مدلولَها الحقيقي.....ولذلك صدرَ الحكم - من أَكثَر من مكانٍ في الأرض - بقتلِ صاحب الكتاب!!.

أَمّا هذا الكتابُ الذي نقدمُه اليوم - والذي انتهى منه صاحبُه في الأَيامِ الأَخيرة في السجن قبلَ تنفيذِ الحكم، وكتبَ القسمَ الأَخيرَ منه على أَوراقِ الإدعاءِ التي أُعطيتْ له قبلَ المحاكمة - فهو الجزءُ الثاني من كتاب «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته».

وهو يحوي مقدمةً وعدداً من الفصول، أَشارَ إِليها المؤلفُ أَكثرَ من مرة في ثنايا الكتاب. المقدمةُ بعنوان «وجهة البحث». ثم فصْلٌ بعنوان «مقومات التصور الإسلامي». وفصْلٌ بعنوان «أُلوهية وعبودية». وفصْلٌ بعنوان «حقيقة الأُلوهية». وفصلٌ بعنوان «حقيقة الكون». ثم فصلان بعنوان: «حقيقة الحياة» و «حقيقة الإنسان».

ولكنَّ الذي وصلَ إلينا منه هو المقدمة والفصولُ الأَربعةُ الأُولى، أَما الفصلان الأَخيران «حقيقة الحياة» و «حقيقة الإنسان» فهما مفقودان.. ولقد ظلَلْنا فترةً طويلة امتدتْ إلى سنوات، نبحثُ عن الفصليْن الضائعيْن، أَو ننتظرُ أَن يعثرَ عليهما أَحَدُ الأَصدقاء في أَيِّ مكان، فيرسلهما إلينا، ليكتملَ الكتاب... ولكن انتظارَنا طالَ بلا جدوى.. فرأَينا آخرَ الأَمْرِ أَنْ ننشرَه في صورتِه الراهنة، بدونِ الفصليْن الأَخيرين، على أَنْ نُعيدَ نشره في صورتِه الكاملة في أَيةِ لحظة نعثرُ فيها على بقية الكتاب.. إنْ كان ذلك في قدر الله!.

وصف الأستاذ محمد قطب لأسلوب شقيقه الشهيد:

قال لي كثير من الأصدقاء ونحن في فترة الانتظار: لماذا لا تكتبُ أَنتَ الفصليْن الناقصيْن على نسقِ الفصول الأَربعة الموجودة، وتُخرجُ الكتابَ كاملاً للناس، وأَنتَ أَقربُ الناسِ إلى مؤلِّفه، وأَولى الناسِ أَنْ تقومَ بهذا العمل من بعده؟.

وكنتُ أَقولُ لهم دائماً: ـ كما أَقولُ في هذه اللحظة ـ «رحمَ اللهُ امرءاً عرفَ قدْرَ نفسه».. وإنَّ من معرفتي بقدرِ نفسي أَلاّ أَتعرضَ لهذا العمل الذي لا أُحسنُه.. فلسْتُ أُحسنُ إلاّ ما أَكتبُه لنفسي، وعلى المستوى الذي أَكتبُ به.. ولستُ أَبلغُ مستوى الشقيق، وخاصةً في هذا الكتاب بالذات، الذي أَودعه خلاصةَ تجربتِه الإِيمانية، كما بلغَ فيه قمتَه التعبيرية، التي تعبِّرُ عن قضايا

غايةٍ في العمق، في سيولةٍ متدفقة كأَنما هي «نشيد» يُنْشَد، لا «فكرةٌ» تُصاغ!

إِنَّ هذه القضايا حين تتناولُها الفلسفةُ تحيلُها تجريدات ذهنية باردة، تنطلقُ في الذهن، أَو تتعثرُ بداخله.. ولكنها تظلُّ في برودِها هناك ـ في داخلِ الذهن ـ لا تنبضُ بالحياةِ التي تُحَوِّلُها إِلى تجربةٍ نفسية متكاملة، يعيشُها الإِنسانُ بكيانه كلِّه، لا بذهنِه فقط..

وحينَ يتناولُها الوجدانُ يحيلُها رفرفاتٍ روحية طائرة، تأنسُ الروحُ لها لحظة، ولكنها تذهبُ مع إِشراقةِ الروح الموقوتة، ولا يتبقى منها شيءٌ يمسكُه الإِنسانُ بفكرِه ليعودَ إِليه فيتدبَّرُه أَو يتملاّه.. فكأنما هي تجربةُ لحظةٍ عابرة ليسَ لها استمرارٌ محسوسٌ في داخل النفس!

أَمّا تناولُ هذه القضايا في صورة، يمكنُ أَنْ يُمسكَها الفكرُ ليتدبَّرها ويتملاّها حين يُريد، في ذاتِ اللحظة التي تنطلقُ بها الروحُ في رفرفرتِها الشفيفة، فتلك قمةٌ نفسيةٌ وقمةٌ تعبيرية في ذاتِ الوقت، لا يقدرُ عليها إلاّ منْ فتحَ اللهُ عليه بنورٍ من عنده.. فبلغَ غايةَ إِشراقِه الذهني وغايةَ إِشراقِه الروحي في آنٍ واحد..

وهو فضْلُ اللهِ يؤتيه مَنْ يشاء، في الوقتِ الذي يشاء، وبالقدرِ الذي يشاء... وقد أَفاضَ اللهُ منه على الشقيق بالقدرِ الذي يَلمسُه مَنْ يقرأُ الكتاب...[١]

---

(١) مقومات التصور الإسلامي: ٥ ـ ٨.

ثم انتقلَ الأُستاذ محمد قطب في مقدمتِه لنقْضِ بعضِ الشبهات التي أَثارَها بعضُهم حولَ فكرِ سيد قطب في كتبه، وبالذاتِ في كتابيهِ: الظلال والمعالم. كاتهامِه بالقولِ بوحدةِ الوجود، واتهامِه بتفكيرِ المسلمين ومتابعةِ فكر الخوارج في ذلك. واتهامِه باستخدامِ أُسلوب الدعوة والمواجهة استخداماً يتنافى مع اللينِ والحكمةِ والموعظةِ الحسنة.

وختمَ الأُستاذُ محمد قطب مقدمتَه قائلاً: «إِنَّ فصلَ «أُلوهية وعبودية» هو في الحقيقةِ محورُ الكتابِ كلّه، المحتوي على الفكرةِ الشاملةِ فيه، وفيه الخطوطُ العريضةُ للفصولِ التالية جميعاً، كما أَشارَ الشقيق أَكثرَ من مرةٍ في ثنايا الفصل، وكما هو متحققٌ بالفعلِ في الفصلِ الموجود بعنوان «حقيقة الألوهية»، والفصلِ الآخر بعنوان «حقيقة الكون»، فهما في الحقيقةِ شرحٌ مفصَّل لما جاءَ عن موضوعهما من خطوطٍ عريضة في فصلِ «أُلوهية وعبودية».. وكذلك نستطيعُ أَنْ نتصوَّرَ محتوى الفصليْن المفقوديْن على ضوءِ ما وردَ من خطوطٍ عريضة عن موضوعِ كلّ منهما في ذلك الفصل «ألوهية وعبودية».

كذلك فإنَّ الشقيقَ كان يجمعُ قبلَ البدء في كتابةِ كلِّ فصلٍ ما يُريدُ أَنْ يَعرضَه من الآياتِ القرآنية، وكذلك النقاط الرئيسية التي يريدُ أَنْ يتناوَلَها بالحديث.. وقد فعلَ ذلك بالنسبةِ للفصليْن

المفقودَيْن، وخاصةً بالنسبةِ للفصلِ الأَخير «حقيقة الإِنسان». فقد أَوردَ فيه نقاطاً تفصيلية..

وسنثبتُ في نهايةِ الكتاب ما كانَ قدْ دَوَّنَه من الآياتِ والنقاط تحتَ عنوان «حقيقة الحياة» و«حقيقة الإنسان»، لعلَّها تُلقي ضوءاً على ما كان يُريدُ من البيان..»[1]

جعلَ سيد قطب «مقومات التصور الإسلامي» مكوَّناً من مقدمةٍ وستة فصول، والفصْلان الخامس والسادس مفقودان ـ كما قال الأستاذ محمد قطب ـ، وفيما يلي تعريفٌ مجملٌ بمحتوياتِ الكتاب:

مقدمة الكتاب: وجهة البحث:

بَيَّنَ فيه «ثبات» مقوماتِ التصور الإسلامي، وعدَم تغييرِها أَو تبديلِها. وقَرَّرَ فيه أَنَّ الهدفَ من بحثِ المقومات ليس فلسفياً ولا ثقافياً نظرياً، وإِنما هو هدفٌ واقعيٌّ عمليٌّ تطبيقي، لأَنه بحثٌ عن القاعدة، التي يقومُ عليها نظامُ الحياةِ الإِنسانية التي يرضاها الله! وأَنزلَ اللهُ الإِسلامَ للإِنسان ليكونَ نظامَ حياة، لا ليكونَ دراسةً ثقافيةً نظرية. وليغيِّرَ النظامَ الجاهلي للحياة، ويحلّ هو محلَّه، ويُقيمَ حياةَ البشريةِ على أِساسه.

وذكَرَ أَنّ مقوماتِ التصورِ الإسلامي غريبةٌ في هذا الزمان، حتى عند كثيرٍ من المسلمين، ولذلك يريدُ هو من بيانِه للمقومات

(١) المرجع السابق: ١٤.

استحياءَ هذه المقومات في نفوسِ الدعاة، لينظموا حياتَهم وأَفكارَهم على أَساسِها، ويتعرَّفوا على حقائِقها، ويتحرَّكوا من ثَمَّ في عالمِ الواقع لإِقرارها في حياةِ الناس.. يُريدُ أَنْ تتحقَق عند الدعاةِ المعرفةُ المنشأةُ للحركةِ والعمل!

ثم تطرقَ في المقدمة للحديثِ عن الجاهلية التي تعمُّ وجْهَ الأَرضِ في هذا العصر، وبَيَّنَ حقيقتَها، ومهمةَ الإِسلام في مواجهتها، ودورَ حركاتِ البعثِ الإسلامي في إِحياءِ مقوماتِ التصورِ الإِسلامي في النفوس، ومواجهةِ هذه الجاهلية. وناقش أَفكاراً خاطئة عند بعضِ المسلمين تُعيقُ العملَ الإِسلامي، وفَنَّدَ بعضَ الأَفكارِ في التعايش مع الجاهلية! ثم ناقش دعوى «التطور» المطلق في الأفكار والمذاهب والتصورات والحياة، وقررَ مجموعةً من الحقائق حول «ثبات» مقوماتِ التصورِ الإِسلامي، تعللُ ذلك الثباتَ وتوضحُه! وحَدَّدَ الصلةَ بين «الثابت» و«المتطور» في التصورِ الإِسلامي، وعرضَ نماذجَ للحقائقِ الثابتةِ والمظاهر المتطورة. وقادَهُ هذا الى الحديثِ عن الاجتهادِ والتجديدِ في الإِسلام وحياة المسلمين.

منهج سيد قطب في استلهام القرآن والتعامل معه:

وختم سيد قطب مقدمته «وجهة البحث» بأَنَّه استلهمَ مقوماتِ التصورِ الإِسلامي من القرآن. وقررَ منهجه في التعاملِ مع القرآن واستلهامِه:

«إننا لم نكتبْ هذا البحثَ إلاّ لأنَّ الناسَ قد بَعُدوا عن التعاملِ المباشرِ مع القرآن، في أُمورِ دينهم ودنياهم ـ كما كانت الجماعةُ المسلمةُ الأُولى تتعامل ـ وبَعُدوا عن الحياةِ في مثلِ هذا الجوِّ الذي نزلَ فيه هذا القرآن أَولَ مرة... ومن ثَمَّ بَعُدوا عن تذوقِ هذا القرآن، والاعتمادِ عليه مباشرةً في استقاءِ الحقائق..

وكذلكَ أَصبحَ الناسُ في حاجةٍ إِلى مَنْ يحدثُهم عن «خصائصِ التصور الإسلامي ومقوماته» بعبارةٍ بشرية، تُقربُ إِليهم هذه الخصائصَ والمقومات، كما هي في مصدرها الرباني.. في القرآنِ الكريم.

غيرَ أَننا نعلم ـ علمَ التذوق واليقين ـ أَنَّ العبارةَ البشريةَ كائنةً ما كانت، وأَنَّ المناهجَ البشريةَ في تناولِ تلكَ الحقائق كائنةً ما كانت، وأَنَّ طرائقَ العرضِ البشرية في هذا الباب كائنةً ما كانت، لنْ تبلغَ شيئاً مما تبلغُ إِليه العبارةُ القرآنيةُ والمنهجُ القرآني وطريقةُ العرضِ القرآني..

وهي ليستْ قاصرةً عنْ أَنْ تبلُغَ شيئاً مما يبلُغُه القرآن فحسب، بل ربما كانتْ مبعدةً من الحقيقة ـ كما هي في صورتِها القرآنية الفريدةِ البهيجة ـ مهما بلغَ الكاتبُ مِن تحرّي المنهجِ القرآني وإِدراكِ خصائصه!!.

هذا يقينٌ نستمدُّه من طولِ الصحبةِ لهذا القرآن، وطولِ

الصحبةِ كذلك للمحاولات البشريةِ في البيان.. وطولِ المزاولة الشخصيةِ للكتابةِ فترةً من العمر طويلة..

وهذا اليقينُ يدفعُنا دَفْعاً ـ لا نملكُ له ردّاً ـ إلى محاولةِ تركِ النصوصِ القرآنية ذاتها تتحدثُ في هذا البحث عن «مقومات التصور الإسلامي» ما كان ذلك ممكناً...

ولو كان الخيارُ لي لجمعْتُ الآيات التي تتحدثُ عن هذه الحقائق، ونَسَّقْتُها، وتركْتُها تتحدثُ ـ وحْدَها وبذاتها ـ حديثَها الفريدَ البهيج!!

ولكنَّ الناسَ ـ كما قُلْنا ـ قد بَعُدوا عن القرآن، وعن جَوِّه الذي لا تدرَكُ حقائقُه إلاّ في مثله.. جوَّ الحركةِ والكفاحِ لإقامةِ الحياةِ على أَساسِ الإسلام لله وحده.. ولم يَعُدْ بُدٌّ من مساعدتِهم على تذُّوقِ المنهجِ القرآني بشروحٍ من البيانِ البشري والعباراتِ البشرية!!

وتوفيقاً بين الرغبةِ الملحَّة، النابعةِ من التذوقِ والتجربةِ واليقين، في ترْكِ النصوصِ القرآنية وحدَها تتحدثُ بالحقائق في هذا البحث عن «مقومات التصور الإسلامي»، وبينَ الضرورةِ الملحَّة كذلك في مساعدةِ الناس على تذوقِ المنهج القرآني بشروحٍ من البيانِ البشري والعبارات البشرية...

توفيقاً بين تلك الرغبةِ وهذه الضرورةِ سلكْتُ منهجاً قد يكونُ غريباً بعضَ الشيء على القارىء الحديث، الذي تَعَوَّدَ ـ

حتى في البحوث الإسلامية الخالصة ـ أَنْ يرى الآياتِ القرآنية تُساقُ لمجردِ الاستشهاد في مواضعَ من البحث، على القضيةِ التي يُقررها الكاتبُ بعبارتِه.. ولا يتجاوزُ دورُ الآياتِ القرآنية دورَ الاستشهاد على الحقيقة التي يكونُ الكاتبُ قد قررَها بأُسلوبه البشري وعبارته البشرية!

النص القرآني هو الأصل وكلام سيد حوله عامل مساعد:

المنهجُ الذي سلكناه هنا على النقيض من هذا.. منهجُنا يحاوِلُ أَنْ يجعلَ النصَّ القرآنيَّ هو الأَصلَ الذي يتولّى تقريرَ الحقائق التي يتأَلَّفُ منها البحث، وأَنْ يجعلَ عبارتَنا البشرية مجردَ عاملٍ مساعدٍ يجعلُ النصَّ القرآني مفهوماً ـ بقدرِ الإمكان ـ للقارىء!!

إننا نريدُ أَنْ نعقدَ الأُلفةَ بين قارىءِ هذا البحث وبين القرآن ذاتِه في النهاية.. نريدُ لهذا القارىء أَنْ يتعوَّدَ التعاملَ مع القرآن ذاتِه تعامُلاً مباشراً، كلَّما أَعوزتْهُ حقيقةٌ في شأنٍ من شؤونِ الحياة كلِّها، وأَرادَ أَنْ يصلَ إِلى الحق... نريدُ له أَنْ يشعرَ ـ كما نشعر ـ أَنَّ في هذا القرآن غناءً كاملاً شاملاً، في كلِّ حقيقة من حقائِق الوجود الأَساسية.. وأَن ليس وراءَه إلاَّ البحوثُ العلميةُ البحتة، التي تتناولُ الجزئياتِ التجريبية وتطبيقاتِها العملية... أَما سائرُ ما يتعلَّقُ بتنظيمِ الحياةِ الإنسانية، من عقيدة وشريعة، ونظامِ مجتمع، وتربيةِ نفس، ومنهجِ فكرٍ وفن، وسياسةِ

حكم.. إلى آخر ما يتعلَّقُ بتصوُّرِ الحياة وتنظيمها.. فحقائقُه الكليةُ كاملةٌ في هذا القرآن..

ومن ثَمَّ فقارىءُ هذا البحث لا بُدَّ له أَنْ يدرسَ النصوصَ القرآنيةَ المطوَّلة فيه، باعتبارِها هي الأصل..

إنها لم تجىءْ هنا للاستشهاد.. إنما جاءَتْ لتتحدثَ هي بذاتِها عن الحقيقة.. وعبارتُنا حولَها هي العنصرُ الإِضافي.. ولا بدَّ أَنْ يصبرَ على تملّي هذه النصوص، كلمةً، كلمة.. فلا يتخطّاها ـ حتى ولو كانَ ممنْ يَحفظونَ القرآن من قبل! ـ إنها هنا تمثلُ شيئاً آخر.. إنها تمثلُ كيفَ يتحدثُ القرآن عن موضوعاتٍ كاملة، لا يحتاجُ القارىءُ فيها إلى شيءٍ بعدَه...»[1]

وقد تعمَّدْنا أَنْ نسجلَ كلامَ سيد قطب كاملاً في هذا الموضع، عن منهجه في التعاملِ مع القرآن، واستلهامِ آياتِه، كي نقدمَ للقارىء كلامَه بنفسه، ليتعرَّفَ منه على نظرةِ سيد قطب للقرآن، ومنهجه في فهمِ آياته، وعمْقِ صحبتِه معه، وكيفَ انتهتْ صلتُه به إلى هذا العمقِ والأَصالةِ والمنهجية والعلمية، فهو يعتبرُ القرآنَ أَساسَ كلِّ حقائق الوجود والحياة، وهو يعتبرُ آياتِه غنيةً بدلالاتها الكثيرة، ولهذا يوردُ على الموضوعِ الواحد عدةَ آيات، ويريدُ من قارئِه أنْ يجعلَ الآياتِ هي الأصل، وليستْ للاستشهاد،

---

(١) المرجع السابق: ٣٧ ـ ٣٩.

وأنَّ كلامَ سيد حول الآيات هو الفرعيُّ الإِضافيُّ الثانوي.. وهذه قمةٌ سامقة عاليةٌ، وَصَلَها سيد وهو يتعامَلُ تعاملاً حياً مع القرآن، أكثرَ من ربعِ قرنٍ من الزمان!!

الفصل الأول: مقومات التصور الإسلامي:

بَيَّنَ التكاملَ والتناسقَ والترابطَ بين هذه المقومات، وكلٌّ واحدٍ منها يُؤَدّي وظيفتَه باعتبارِه جزءاً من الكلِّ الإِسلامي المتكامل. ولذلك لا يمكنُ فصْلُه عن الكُلِّ، وتناولِه منفرداً.

لا يمكنُ الفصْلُ بين حقيقةِ الأُلوهية وحقيقةِ العبودية، ولا بَيْنَ الغيبِ والشهادة، ولا بينَ الوجودِ الكونيِّ والوجودِ الإِنساني.

وذكَرَ أنَّ مقوماتِ التصور الإسلامي ربانيةٌ من عند الله، ودورُ العقلِ البشري هو في تلَقّيها وفهمِها، وليس في صنعِها أَو التعالمِ عليها، لأنَّ هذا العقلَ عاجزٌ ضعيفٌ محدود، لا يملكُ أَنْ يقررَ الغيبَ والإيمانَ والعقيدة، والفلسفةُ البشريةُ عاجزةٌ عن ذلك.

إِنَّ الفلسفةَ والفكرَ البشريَّ لا يقدمُ المعرفةَ الحقيقيةَ والعلمَ الصحيح، لأَنه من صنعِ البشر، والتصورُ الإسلاميُّ هو الوحيدُ الذي يقدمُ الحقيقة، لأَنه من عند الله.

خصائص المنهج القرآني في عرض مقومات التصور الإسلامي:

وانتقل سيد قطب بعد ذلك للحديثِ عن خصائصِ المنهجِ القرآني في عرضِ مقوماتِ التصور الإسلامي، والخصائصُ التي عرَضها هي:

أوَلاً: إنه يَعرضُ «الحقيقة» كما هي في عالمِ الواقع، في الأُسلوبِ الذي يكشفُ كلَّ زواياها، وكلَّ جوانبها، وكلَّ ارتباطاتِها، وكلَّ مقتضياتها.. وهو مع هذا الشمولِ لا يُعَقِّدُ هذه الحقيقة، ولا يَلُفُّها بالضباب، بل يخاطبُ بها الكينونةَ البشريةَ في كلِّ مستوياتها..

ثانياً: إنه مُبَرَّأٌ من الانقطاعِ والتمزقِ الملحوظيْن في الدراسات «العلمية»، والتأملات «الفلسفية»، والوَمضات «الفنية» جميعاً، فهو لا يُفردُ كلَّ جانبٍ من جوانب «الكلِّ» الجميل المتناسق بحديثٍ مستقلّ، كما تصنعُ أَساليبُ الأَداءِ البشرية.. وإِنما هو يعرضُ هذه الجوانب في سياقٍ موصول، يرتبطُ فيه عالمُ الشهادةِ بعالم الغيب، وتتصلُ فيه حقائقُ الكونِ والحياةِ والإِنسانِ بحقيقةِ الأُلوهية، وتتصلُ فيه الدنيا بالآخرة، وحياةُ الناس في الأَرضِ بحياةِ الملأ الأعلى.. في أُسلوبٍ تتعذَّرُ مجاراتُه أَو تقليدُه...

ثالثاً: إنه ـ مع تماسكِ جوانبِ الحقيقة وتناسِقها ـ يحافظُ تماماً على إعطاءِ كلِّ جانبٍ من جوانبها ـ في الكلِّ المتناسق ـ

مساحتَه، التي تُساوي وزْنَه في ميزانِ الله ـ وهو الميزان ـ... ومن ثمَّ تبدو «حقيقةُ الأُلوهية» وخصائصُها، وقضيةُ «الألوهية والعبودية» بارزةً مسيطرةً محيطةً شاملة، حتى ليبدو أنَّ التعريفَ بتلك الحقيقة، وتجليةَ هذه القضيةِ هو موضوعُ القرآنِ الأساسي.. وتُشغلُ حقيقة عالم الغيب بما فيه القدرُ والدارُ الآخرة مساحةً بارزة، ثم تَنالُ حقيقةُ الإنسان، وحقيقةُ الكون، وحقيقةُ الحياة أَنصبةً متناسقة، تَناسقَ هذه الحقائق في عالمِ الواقع.. وهكذا لا تُدْغَمُ حقيقةٌ من الحقائق، ولا تُهْمَل، ولا تَضيعُ معالِمُها، في المشهدِ الكليِّ الذي تُعرضُ فيه هذه الحقائق...

رابعاً: إنه يتميزُ بتلك الحيويةِ الدافقةِ المؤثِّرة الموحية ـ مع الدقةِ والتقرير والتحديدِ الحاسم ـ وهي تمنحُ هذه الحقائقَ حيويةً وإيقاعاً وروعةً وجمالاً، لا يتسامى إليها المنهجُ البشريُّ في العرض، ولا الأُسلوبُ البشريُّ في التعبير.. ثم هي في الوقتِ ذاته تُعْرَضُ في دقةٍ عجيبة وتحديدٍ حاسم، ومع ذلك لا تَجورُ الدقةُ على الحيويةِ والجمال، ولا يَجورُ التحديدُ على الإِيقاع والروعة..

ولا يمكنُ أَنْ نصفَ نحن، في الأُسلوب البشري، ملامحَ المنهج القرآني، فنبلغُ من ذلك ما يبلُغُه تذوُّقُ هذا المنهج.. كما أَنه لا يمكنُ أَنْ نبلغَ بهذا البحثِ كلِّه عن «خصائص التصورِ الإسلامي ومقوماته» شيئاً مما يبلُغه القرآنُ في هذا الشأن...»[١]

---

(١) مقومات التصور الإسلامي: ٦٥ ـ ٦٨.

ثم عرضَ بعضَ النماذجِ القرآنية في عرضِ مقوِّمات التصور الإسلامي، ذَكَرَ في كلِّ نموذجٍ مجموعةً من الآيات: سورة الرعد، الآيات: ١ ـ ١٦. سورة الأنبياء، الآيات: ١٦ ـ ٣٣. وسورة النور، الآيات: ٤١ ـ ٤٥. وسورة الحجر، الآيات: ١٦ ـ ٤٨. سورة الفرقان، الآيات: ٤٥ ـ ٦٢.

الفصل الثاني: أُلوهية وعبودية:

هو أَهَمُّ فصولِ الكتاب ـ كما قالَ الأُستاذُ محمد قطب ـ لأَنه هو خلاصةُ الإِسلامِ نفسه. إنَّ الإِسلامَ يَقومُ على حقيقةِ إِفرادِ اللهِ وحدَه بالأُلوهية، وعلى حقيقةِ أَنَّ كلَّ ما سوى اللهِ مخلوقٌ عبدٌ لله سبحانه.

ولذلك افتتحَ سيد قطب هذا الفصلَ بآيةٍ محكمةٍ تقررُ هذه الحقيقة، وهي قولُ الله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

ثم قالَ بعد ذلك: «تتنوَّعُ» مقومات التصور الإسلامي.. ثم تتضامُّ بعدَ ذلك وتتجمَّع، لتكوِّن «الكُلَّ» الذي يشخِّصُ ويمثِّلُ ذلك التصور.

هذا الكلُّ هو: العبوديةُ للهِ وحْدَه بلا شريك، والدينونةُ لله وحده بلا منازع، وشمولُ هذه العبودية لكلِّ شيء، ولكلِّ حيّ في هذا الوجود، في عالَمِ الغيب وفي عالَمِ الشهادة، في الحياةِ الدنيا

وفي الحياةِ الآخرة، في نظامِ الكون وفي حياةِ الناس.. وتَفَرُّدُ هذه الأُلوهية الواحدةِ بخصائصها، وتَجَرُّدُ هذه العبوديةِ من هذه الخصائص، وقيامُ هذا الوجودِ على هذه القاعدةِ الشاملة الحاسمة...

... إنَّ التصورَ الإسلاميَّ يفْصِلُ فَصْلًا تاماً بين طبيعة الأُلوهية وطبيعة العبودية، وبينَ مقامِ الأُلوهية ومقام العبودية، وبين خصائصِ الأُلوهية وخصائصِ العبودية، فهما لا تتماثلان ولا تتداخلان..

كذلك بَيَّنَ التصورُ الإسلاميُّ بياناً حاسماً: من هو «الله» صاحبُ الأُلوهية، ومَن هم «العبيد» الذين تتمثَّلُ فيهم العبودية.

إنَّ الأُلوهية واحدة لا تتعدد.. هي أُلوهيةُ اللهِ سبحانه.. والعبوديةُ تتمثلُ في كلِّ ما وراء ذلك.. وكلُّ ما وراءَ ذلك فهو من خلقِ الله، لم يوجَدْ بذاته، كما أَنه لا يقومُ بذاته.. إنما هو مخلوقٌ أَوجَدَهُ الله، وهو مكفولٌ يكفلُه الله، وهو متأَثِّرٌ يتحركُ ويتغيَّرُ بقَدَر الله..»[١]

تعليل تركيز القرآن على الفصل بين الألوهية والعبودية:

ثم أشار سيد قطب إلى أن القرآن الكريم قد ركّزَ تركيزاً شديداً على تقريرِ هذه الحقيقة الكبرى، ليقررَ في النفسِ البشريةِ

---

(١) مقومات التصور الإسلامي: ٨١ ـ ٨٢.

حقيقةَ عبوديتِها لله وحده.. ولذلك توسَّعَ في عرضِ جوانبِ هذه الحقيقة في مختلفِ مناحي الكينونةِ الإنسانية، وفي مختلفِ جنباتِ الوجودِ كلِّه، في عالم الغيبِ وعالم الشهادة.. وَعَرَّفَ البشرَ بإلههم الواحدِ تعريفاً مؤثراً موحياً عميقاً مريحاً، لتكونَ هذه المعرفةُ موحيةً باقتضاءِ العبودية، منشئةً لمشاعرِها الخفية، ومقتضياتِها العملية..

واستخلصَ سيد قطب بعضَ الحِكَمِ من تركيزِ القرآنِ على حقيقةِ «الألوهية والعبودية».

ثم انتقلَ إلى استعراضِ هذه الحقيقة في «بُعْدِها» التاريخي، باعتبارِها قضيةَ الإعتقادِ الأُولى والحقيقة، في جميعِ الرسالات السماوية، على مدارِ العصورِ والقرون. فكلُّ الرسل جاءوا بتقريرِ هذه الحقيقة، وطلبوا من أَقوامِهم الإيمانَ باللهِ وحده، وعبادتَه وحدَه. وعَرَضَ مشاهَد من القصصِ القرآني دالةً على ذلك:

- قصةُ آدم عليه السلام: سورة الأعراف: ١٠ - ٣٦.
- قصةُ نوح عليه السلام: سورة هود: ٢٥ - ٤٨.
- قصةُ هود عليه السلام: سورة هود: ٥٠ - ٦٠.
- قصةُ صالح عليه السلام: سورة هود: ٦١ - ٦٨.
- قصةُ شعيب عليه السلام: سورة هود: ٨٤ - ٩٥.
- قصةُ إبراهيم عليه السلام: سورة الشعراء: ٦٩ - ٨٩. وسورة البقرة: ١٢٤ - ١٣٣.

ـ قصةُ يوسف عليه السلام: سورة يوسف: ٣٣ ـ ٤٠.

ـ قصةُ موسى عليه السلام: بيانُ مؤمن آل فرعون: سورة غافر: ٢٨ ـ ٤٦. مواجهةُ موسى عليه السلام وإِيمانُ السحرة به: سورة الشعراء: ١٠ ـ ٦٨.

ـ قصةُ عيسى عليه السلام: سورة آل عمران: ٤٥ ـ ٥٩.

وبعدَ هذا الإستعراضِ المقصودِ وقفَ يستخلصُ دلالات وعبراً منه، دالةً على أَنَّ وجودَ الله أمْرٌ فطريٌّ بدهي في الفطرةِ البشرية، وأَنَّ الخلافَ ليس على وجودِ الله، وإِنما الخلافُ على مَنْ هو الإِله؟ أو: الخلاف على وحدانيةِ الله!.. ومن ثم اعتَبَرَ الإِلحادَ «موضةً» لا بدَّ أنْ تنتهي، لأَنه يتصادمُ مع الفطرة!

وأَوردَ آياتٍ من القرآن تدلُّ على معرفةِ الفطرةِ بالله، وعلى لجوئِها له سبحانه عند الشدة.. كما أَوردَ آياتٍ أُخرى دالةً على كفرِ أهل الكتاب من اليهود والنصارى، لأَنهم لم يُوَحِّدوا الله وحده، ولم يَخضعوا لله وحده!

كيف عرض القرآن الألوهية والعبودية؟:

انتقل سيد قطب بعد ذلك مع المنهج القرآني ليبينَ كيفَ عالجَ هذا المنهجُ قضيةَ «الألوهية والعبودية» في كلِّ مجالاتها، وكيف سلكَ بها إِلى النفسِ البشرية كلَّ مسالكِها، وكيف أَصَّلَ عقيدةَ التوحيد في: الاعتقاد، والعبادة، والحكم، وفي كلِّ ركنٍ من

أَركانِ النفس وأَركانِ الحياة.. واستعرضَ مجموعاتٍ مختارةً من الآيات الكريمة، تدلُّ دلالةً قاطعة على ذلك: الله سبحانه هو المتفردُ بخصائصِ الأُلوهية، وكلُّ ما سواه داخلٌ في نطاقِ العبوديةِ له سبحانه بلا شريك.

عبوديةُ الكونِ الماديِّ ممثلاً في أَجرامه الفلكية الكبيرة. عبوديةُ النجومِ والكواكب والأَشياء. عبوديةُ الخلائقِ العاقلة في هذا الكون. عبوديةُ الملائكةِ خاصة. عبوديةُ الإنس عامة. عبوديةُ الأَنبياء والرسل. عبوديةُ الطائعين. عبوديةُ العصاة. عبوديةُ الآلهةِ المدعاة التي أَلَّهها أَصحابُها!

وهذا معناه استنكارُ الشرك، وإِلغاءُ الشركاء، وكفْرُ المشركينَ بالله.

وعبوديةُ هذه المخلوقاتِ لله يلزمُ منها إِفرادُ الله بالخضوع والإستعانة، فاللهُ وحده صاحبُ الحكمِ والأَمرِ والسلطان، و«الحاكميةُ» من لوازمِ الأُلوهية، والعبادُ الخاضعون لله، يَجعلونه وحدَه صاحبَ الحكم، ويتلقَّوْن حكْمَه وشرعَه، يلتزمونَه حقَّ الالتزام، ويتبعونه حق الاتباع! وقد أورد سيد قطب مجموعات من الآيات في تقرير هذه الحقيقة، من قصص الأَنبياء مع أَقوامهم..

ثم انتقلَ لاستعراضِ نماذجَ أُخرى من الآيات، تَعرضُ قضيةَ الوحيِ والرسالة، وقضيةَ الشرعِ والدين، وعلاقة ذلك بقضيةِ الأُلوهية والخلقِ والسلطان، وقضيةَ الإِيمانِ والشركِ في الحياة،

وقضية الاعتقادِ بالآخرة والحساب والجزاء... وتَرابُطُ وتَناسُقُ هذه القضايا وغيرها في السياقِ القرآني...

والنماذجُ التي استعرضَها وعَلَّقَ عليها، واستخلصَ الدلالاتِ منها هي: سورة الشورى المكية: ٣ ـ ٢١. وسورة الأنعام المكية: ١٣٦ ـ ١٥٣. وسورة التوبة المدنية: ٣٠ ـ ٣٢. وسورة النساء المدنية: ٥٩ ـ ٦٥. وسورة المائدة المدنية: ٤٤ ـ ٥٠.

وهكذا بحث سيد قطب مسألة الأُلوهية والعبودية في هذا الفصلِ من كافةِ جوانبها، واستعرضَ العديدَ من الآيات التي تقررُها وتوضِّحها، ورَبَطَها بالخضوعِ والتلقي، والحكمِ والسلطان، والعقيدةِ والعبادة، والحياةِ والحركة، والدنيا والآخرة.

وجاء هذا الفصل في أكثرَ من مائةِ صفحة، وهو ما يَزيدُ على ربعِ الكتاب!.

الفصل الثالث: حقيقة الألوهية:

حقيقةُ الأُلوهية هي الحقيقةُ الأُولى الكبرى الأَساسية، والحقيقةُ الفاعلةُ العميقة، في التصور الإسلامي.

والإِنسانُ لا يمكنُ أَنْ يكونَ شيئاً في واقعِ الأرض إلاّ إذا امتلأَ كيانُه كلُّه بحقيقةِ الأُلوهية، عند ذلك يقومُ بواجبِه في خلافةِ الأَرض، والصبرِ على عقباتِ الطريق، ومواجهةِ أَعداءِ الله، وإِنشاءِ الواقعِ الإسلامي الذي يريدُه الله.

والقرآن «يَزْحَمُ» الشعورَ الإنسانيَّ بحقيقةِ الأُلوهية، ويأخذُ على النفسِ أَقطارها وهو يتحدثُ عن ذات الله وصفاته، وأفعاله في الكون والحياة.

المنهج القرآني في التعريف بحقيقة الألوهية:

والمنهج القرآني في التعريف بحقيقةِ الأُلوهية منهجٌ فريد.. إنه يُوَقِّعُ على أَوتارِ النفسِ كلِّها، ويدخلُ عليها من منافذِها كلِّها.. ويخاطبُ الكينونةَ البشريةَ بجملتها.. لقد جلّى القرآنُ للناس حقيقةَ الأُلوهية من خلالِ آثارِ فاعليتها المتجلية في الكون والحياة.

اللهُ هو الأَولُ والآخر. وهو الظاهرُ والباطن. وهو الخالقُ والرازق. وهو المسيطرُ المدبر. وهو الرافعُ والخافض. وهو المعزُّ والمذل. وهو القابضُ والباسط. وهو المحيي والمميت. وهو الضارُّ والنافع. وهو المنتقمُ الجبار. وهو الغفورُ الودود. وهو العليُّ الكبير. وهو القريبُ المجيب... وهكذا.. وهكذا...

وقد استعرضَ سيد قطب نماذجَ من النسقِ القرآنيِّ الفريد، في تعريفِ الناسِ بحقيقةِ الأُلوهية، وفي ملء كينونتِهم بالوجودِ الإلهي، وفي ملء حياتِهم بالحضورِ الإلهي.

النموذج الأول: الآيات: ١ ـ ١٩ من سورة الأنعام.

النموذج الثاني: الآيات: ٥٦ ـ ٦٥ من سورة الأنعام.

النموذج الثالث: الآيات: ٩٥ ـ ١٠٣ من سورة الأنعام.

النموذج الرابع: الآيات: ٨ ـ ١٦ من سورة الرعد.

النموذج الخامس: الآيات: ١ ـ ٦ من سورة الحديد.

حقيقة الألوهية تتجلى في الكون والحياة والإنسان:

ولما عَرَّفَ القرآنُ الناسَ بحقيقة الألوهية فقد بدأ من نقطةٍ أَساسية، هي: نبذُ كلِّ ما تصوَّرَه الفكرُ البشري من عندِ نفسه عن ذاتِ الله وصفاتِه وأَفعاله، وكيفياتِ أَفعالِه، وكيفياتِ تعلُّقِ مشيئتِه بالحوادث، لأَنه تصوُّرٌ بشري عاجزٌ خاطئٌ تافه سخيف، وعلى المسلم أَنْ يتعَّرفَ على حقيقةِ الأُلوهية من خلالِ البيانِ القرآني الصادقِ الصحيح.

ولما عَرَّفَ القرآنُ بحقيقةِ الأُلوهية فقد جعل الكونَ والحياةَ معرضاً رائعاً تتجلّى فيه هذه الحقيقةُ بآثارِها الفاعلة.. وتملأُ بوجودِها وحضورِها جوانبَ الكينونة الإنسانية. وهو يهزُّ الفطرةَ الإِنسانية وَيستحييها ويُناديها ويوقظُها ويهتفُ بها لتشاهدَ هذه الآثارَ في الكونِ والحياة.

يدعو القرآنُ المسلمَ إِلى ملاحظةِ آثارِ المشيئةِ الإلهية في الكون، هذه الآثارُ الشاهدةُ بالوحدانيةِ والفاعلية والعلمِ والحكمة، والتدبيرِ والإِحاطة والهيمنة والكفالة، والتقديرُ في كلِّ خلق، وفي كلِّ حركة، وفي كلِّ حال. ومن الأمثلة على ذلك: الآيات: ١ ـ ١٩ من سورة الأنعام. والآيات: ٥٤ ـ ٥٧ من سورة الأعراف.

والآيات: ٢ ـ ٤ من سورة الرعد. والآيات: ٤٥ ـ ٤٩ من سورة الفرقان. والآيات: ٦ ـ ١١ من سورة ق.

كذلك عرضَ القرآنُ حقيقةَ الأُلوهيةِ متجليةً في الحياةِ الإِنسانية، فاعلةً مؤثرة، في كلِّ وضعٍ وفي كلِّ حال.. حيثُ يرى القلبُ البشريُّ يدَ الله سبحانه، تخلُقُ كلَّ حادث، وتدبر كلَّ حركة، ويَرى قدرَ الله متعلِّقاً بكلِّ ظاهرةٍ وخافيةٍ في هذه الحياة.

وتتجلّى هذه الحقيقةُ في خَلْقِ الإِنسانِ ووجودِه.. كما تتجلّى في ما أَودعَ اللهُ هذا الإنسانَ من خصائص تميزُه عن سائرِ الأَحياء.. وتتجلّى في آلاء الله التي لا تُحصى على هذا الإِنسانِ المتفرد.. وتتجلّى في نشأةِ الأُمم واندثارِها في التاريخ الإِنساني، وفقَ سُنَّةِ الله التي لا تتبدل.. وتتجلّى في إِحاطةِ اللهِ بالناس، في حركتِهم وفي سكونِهم، وفي كلِّ شأنٍ من شؤونهم.. وتتجلّى في المعركةِ بين الحقِّ والباطل، حيث ينصرُ اللهُ عبادَه المؤمنين، ويُهلكُ أَعداءَه الكافرين.. وتتجلّى في يومِ الدين، حيث يَبعثُ اللهُ المخلوقين جميعاً، ويحاسبُ المكلَّفين، فيثيبُ المؤمنين الصالحين بالجنة، ويعاقبُ الكفارَ والعصاةَ بالنار.

ومن أَروعِ المشاهد التي تتجلى فيها حقيقةُ الأُلوهية في العرض القرآني، مشهدُ تجلّيها في قلوبِ الصفوةِ المختارةِ من عبادِ الله وأَوليائه: تجلّيها في نفوسِ وقلوبِ أَنبيائه الكرام، عليهم الصلاة والسلام: آدم، ونوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، وشعيب

ويعقوب وموسى وعيسى ومحمد، عليهم الصلاة والسلام. وقد عرضَ سيد قطب آياتٍ قرآنية تمثلَتْ فيها تلك المجالاتُ والنماذج، وعرضَتْ حقيقةَ الأُلوهية من خلالها عرضاً حياً مؤثراً.

والقرآن وهو يعرضُ حقيقةَ الأُلوهية لم يكن يركزُ على وجودِ الله، لأنَّ وجودَ الله أَمْرٌ فطريٌّ بدهي، وإنما كانَ يركزُ على وحدانيةِ الله. فاللهُ سبحانه ذاتٌ واحدة، لا تتعدَّدُ ولا تتبعَّض، ولا تندمجُ معها ذواتٌ أُخرى....هذه الذاتُ الواحدة متصفةٌ بصفاتٍ تنفردُ بها، لا يشاركُها فيها أَحد.. ومن وحدانيةِ الذات، وتفرُّدِها بهذه الصفات، تتضحُ وحدانيةُ الفاعليةِ والتأثير، ووحدانيةُ الخلقِ والإِنشاء، ووحدانيةُ الملكِ والرزق والقوامة والتدبير، ووحدانيةُ الهيمنة والسلطان، في الدنيا وفي الآخرة.

تفرد الله في ذاته وصفاته وأفعاله:

وقد استعرض سيد قطب مجموعاتٍ مختارةً من الآياتِ في تقريرِ تفرُّدِ اللهِ سبحانه في ذاتِه وصفاتِه وأفعالِه.. وإِخضاعِ المخلوقاتِ له وحده.

وانتقلَ للحديثِ عن رؤيةِ الله سبحانه، واستعرضَ آياتٍ تقررُ أَنَّ الله لا يمكنُ أَنْ يُرى في الدنيا، وعَلَّلَ عدم إِمكانيةِ ذلك، أَما في الآخرةِ فإِنهم يرونَ الله سبحانه، لاختلافِ الأُسسِ والمقاييس. والبشرُ يمكُنهم في الدنيا أَنْ «يُدركوا» وجودَ الله

وربوبيتَه وآثارَ أَفعالِه في أَنفسهم وفي الكونِ من حولهم، سواءٌ في فطرتِهم، أَم في علمِهم ووعيِهم وبصيرتِهم.

وبَيَّنَ أَنه يجبُ الإِيمانُ بصفاتِ الله، كما أَخبرنا اللهُ عنها في القرآن، وردَّ على الذين أَنكروا هذه الصفات - كالمعتزلة - وبَيَّنَ الخطأَ الذي حملَهم على الإِنكار، وقررَ أَنه يستحيلُ على البشر أَنْ يَعرفوا «كيفياتِ» صفات الله، أَو «كيفيات» أَفعالِ الله، لأَنهم لم يروا ذاتَ الله..

ثم تحدثَ عن الصلةِ بين توحيدِ الأُلوهية وتوحيدِ الربوبية، واستعرضَ مجموعاتٍ من الآيات تقررُ هذه الصلة، وتَعرضُ مجالاتِ الأُلوهية والربوبية في الكون والحياة. فالارتباطُ وثيقٌ بين الأُلوهيةِ والربوبية، وبينَ خصائصِ: الخلقِ والرزقِ، والملكِ والهيمنة، والتصريفِ والتدبير، والبعث والجزاء.. ومن ثَمَّ يربطُ المنهجُ القرآنيُّ بينها ربطاً وثيقاً.

أثر حقيقة الألوهية في حياة المسلم:

ثم تحدث سيد قطب عن قيمةِ بيانِ القرآن لحقيقةِ الأُلوهية على هذا النحو الذي استعرضَها من خلاله، وأَثَرَها على المسلم: القيمةِ العقلية والقيمة النفسية، والقيمة الخلقية.

تحدثَ عن القيمةِ العقلية، حيثُ خلَّصَ القرآنُ العقلَ البشري من الأَوهامِ والخرافات، وصححَ للعقلِ منهجَ التفكير،

وعلَّمَهُ كيف يفكِرُ تفكيراً صحيحاً، وينسِّقُ بينَ تفكيرِه الصحيح وبين الوحيِ الصادق.

ثم تحدَّثَ عن القيمةِ النفسية، فرؤيةُ «حقيقة الأُلوهية» في صورتِها الكاملةِ الجميلةِ المريحة تُنشىءُ في القلب طمأنينةً إِليها، وأُنساً بها..

وتحدَّث بعد ذلك عن القيمةِ الأَخلاقية، لأَنَّه لا بدَّ من عقيدةٍ صحيحة ليقومَ عليها التزامٌ أَخلاقيٌ صحيح، والعقيدةُ الإِسلاميةُ تعلقُ الالتزامَ الأَخلاقيَّ بما يحبُّهُ اللهُ ويرضاه، على أَساسٍ من حقيقةِ الأُلوهية، التي لا مجالَ عندها للمحاباة. فمن حقيقةِ الأُلوهية يستمدُّ المؤمنُ باعثَه الأَخلاقيَّ وسندَه وسلطانَه والتزامَه، ويتوجَّه به إِلى الله، متعلِّقاً بما يحبُّه سبحانه ويَرضاه!

واستعرضَ مجموعاتٍ من الآيات تقررُ هذه القيم العقليةَ والنفسيةَ والأَخلاقية، وتُشيرُ إِلى آثارِ حقيقةِ الأُلوهية على العقلِ والنفسِ والخلق.

وختمَ سيد قطب فصْلَ «حقيقة الألوهية» بقوله: «إِنَّ حقيقةَ الأُلوهية ـ كما يجلوها المنهج القرآني ـ ذاتُ أَثرٍ إِيجابي في ضمائرِ المؤمنين وعقولِهم، وفي واقعِهم وحياتهم، بقدرِ ما هي في ذاتها حقّ، وبقدرِ ما هي ذاتُ بهاءٍ وجَمال وكَمال.

إنَّ الضميرَ البشريَّ لا يستقيمُ بغيرِ هذه الحقيقة. وإنَّ العقلَ البشريَّ لا يستقيمُ بغيرِ هذه الحقيقة. وإِنَّ الحياة البشرية لا تستقيمُ بغير هذه الحقيقة!

ولئن امتنَّ الله على عباده أَنه خلَقَهم، ورزقَهم وكفلَهم.. فإنَّ جلاءَ حقيقةِ الأُلوهية في القرآن على هذا النحو ـ وجلاءَ سائرِ الحقائقِ الأُخرى ـ لهو المنةُ الكبرى التي تَعدِلُ بل ترجحُ كلَّ تلك المنن...»[1].

توصية سيد قطب للقارىء لفهم حقيقة الألوهية:

وفصْل «حقيقة الألوهية» أطولُ فصولِ الكتاب، حيثُ جاءَ في مائةٍ وثلاثين صفحة، وكان يركِّزُ فيه على إِيرادِ الآياتِ العديدة، ويُكثرُ من الاستشهادِ فيها واستعراضِها، كما كان حريصاً على الإِيجاز لئلا يطول الكتاب... كان يُقررُ أَنه لم يستقصِ الآياتِ في الموضوع، فما ذكره ما هو إِلاّ نموذج، وهناك الكثيرُ مما لم يذكُرْه، ويُحيلُ القارىء على القرآن، للوقوفِ على آياتٍ أُخرى في الموضوع.

والآياتُ التي يوردُها كان يقولُ إِنه يكتفي بإِيرادها، مع تعليقٍ سريعٍ حولها، ويُحيلُ القارىء على «الظلال» ليقفَ على تفسيرِها فيه.

---

(١) مقومات التصور الإسلامي: ٣١٧.

إنَّ سيد قطب يرى ضرورة الوقوفِ على الآياتِ في سياقِها القرآني، وتدبُّرها في ذلك السياق، ويلحُّ على القارىء أَنْ يُحسنَ التعاملَ مع القرآن على هذا الأَساس. وما فعلَه هو محاولةٌ لتقريب الموضوع، وهذا لا يُغني عن وقفتِه المباشرة مع القرآن.

قال في فقرةٍ عجيبةٍ كاشفة: «هذه محاولةٌ لتقريبِ حقيقةِ الأُلوهية كما يصوِّرُها المنهجُ القرآني. ولكنها تظلُّ مجردَ محاولةٍ بشريةٍ قاصرة، لا تَفي وفاءَ المنهجِ القرآني، ولا تُغني غِناءَه..

ومع ما أَكْثَرْنا من إيرادِ النصوصِ القرآنيةِ، لتتحدثَ هي بذاتِها عن تلك الحقيقة، فإنه تبقى هنالك فجوةٌ كبيرة بينَ هذه المحاولةِ البشرية وبين الصورةِ الحقيقيةِ التي يَعرضُها القرآنُ الكريم.. فجوةٌ ناشئةٌ أَوَّلاً من عدمِ استيعاب هذه المحاولة لكلِّ النصوص القرآنية التي تصورُ تلك الحقيقة، إذْ لا يمكنُ استيعابُ كلِّ النصوص! فهي من الكثرة بحيث لا يمكنُ إيرادُها كلُّها، حتى لقد خَطَرَ لي أَنْ أَجمعَها بذاتها في كراسةٍ بعنوان: «مع الحقيقةِ الإلهية في القرآن الكريم»!

ثم يبقى بعدَ ذلك أَنَّ جمعَ هذه النصوص لا يفي هو كذلك وفاءَ المنهجِ القرآني، فإنَّ انتزاعَها من سياقِها وفصْلَها عما قبلَها وعما بعدَها في السياق ـ وهي مرتبطةٌ به ارتباطاً وثيقاً جميلاً ـ إنَّ هذا يفقدُها الكثيرَ من دلالتها ومن جمالِها، ومن وقعِها النفسيِّ

الذي تؤدّيه في السياقِ القرآني، فلا بدَّ من رؤيةِ تلك الحقيقةِ الكبرى كما وردَتْ في السياقِ القرآني..»[1].

الفصل الرابع: حقيقة الكون:

بعد كلامِ سيد قطب عن «حقيقة الأُلوهية» في الفصل السابق، انتقلَ للحديثِ عن «حقيقة الكون» باعتبارِه مقوِّماً أَساسياً من مقوماتِ التصور الإسلامي.

واعتبرَ الحقائقَ الثلاث: حقيقةَ الكون، وحقيقةَ الحياة، وحقيقةَ الإنسان، مرتبطةً ارتباطاً وثيقاً بحقيقةِ الأُلوهيةِ في السياقِ القرآني.

قال: «.. إنَّ المنهجَ القرآنيَّ لا يُفردُ فَصْلاً مستقلاً لتصويرِ «حقيقة الكون»، فكلُّ ما وردَ عن هذه الحقيقة إنما جاءَ في سياقِ تقرير «حقيقة الأُلوهية» ـ وكذلك الشأنُ في «حقيقة الحياة» وفي «حقيقةِ الإنسان» ـ فكلُّها جاءَتْ في سياقِ «حقيقة الأُلوهية»، وآياتُ الله في الأَنفس والآفاق، مما جعلنَا نتطرقُ إلى الإلمامِ بها في فصل «حقيقة الأُلوهية».

ولقد كانَ في الإمكان أنْ نتوسَّعَ في الإشارات التي وردَتْ في فصل «حقيقة الأُلوهية»، وفي فصل «أُلوهية وعبودية»، عن

---

(١) مقومات التصور الإسلامي: ٢٨٣ ـ ٢٨٤.

تلك الحقائقِ الأُخرى الثلاث، ونكتفي بذلك التوسُّع في بيانِ تلك الحقائق..

لولا أَننا جريْنا في هذا البحث على فصْلِها، وجعْلِها حقائق - أَو مقومات للتصورِ الإسلامي - إلى جانب «حقيقة الأُلوهية». ذلك أَنها أَخذتْ في تاريخِ المعتقدات والفلسفات والمذاهبِ والنظرياتِ البشرية مكاناً عريضاً، ووقعَ فيها الضلالُ والخطأُ والتخبطُ في التيه، كما وقعَ في حقيقة «الألوهية»، وبسببٍ من الضلالِ والخطأ والتخبطِ في التيه في «حقيقة الألوهية»، مما يجعلُ من الأَفضل إفرادَها ببيانٍ مستقلّ عن كلّ منها..»[1]

أسس قرآنية حول حقيقة الكون:

مما أخبرنا عنه القرآن حول حقيقة الكون:

١ ـ هذا الكونُ مخلوقٌ حادث، ليس قَديماً أَزلياً، ولم ينشأ من ذاتِ نفسه، فاللهُ هو الذي خلَقَه خلقاً، وأَنشأَه إِنشاءً، وأَعطى اللهُ فيه كلَّ شيء صورتَه ووظيفتَه.

وقد استعرضَ سيد قطب بعضَ النصوصِ القرآنية التي تذكُرُ بعضَ التفصيلاتِ عن تركيبِ هذا الكون، وعن مراحلِ نشأته، حيثُ ذَكرتْ خلقَ السموات والأرض في ستةِ أَيام، وأَن اللهَ خلقَ

(١) مقومات التصور الإسلامي: ٣١٩.

سبعَ سموات، وأَنها كانت دُخاناً، وأَنَّ السمواتِ والأرضِ كانتا رتقاً متصلتين، ففتقَهما اللهُ وفصلَ بينهما...

وتوقَّفَ قليلاً ليتحدثَ عن التفسيرِ العلميِّ للآياتِ العلمية في القرآن، وفَرَّقَ بينَ الحقيقةِ العلمية والنظريةِ العلمية، وبَيَّنَ خطورةَ تفسيرِ الآياتِ بالنظرياتِ العلميةِ المتقلِّبة المتبدِّلة، وأَجازَ توسيعَ معاني الآيات بالحقائقِ العلميةِ القاطعة...

٢ ـ كما أنَّ هذا الكونَ مخلوقٌ حادث فإنه هالكٌ فانٍ، إِنه مخلوقٌ لأَجلٍ مسمى، فإذا انتهى أَجلُه هلكَ وذهب. وسيكونُ هذا عند قيام الساعة.

وقد استعرضَ سيد قطب الآياتِ التي تتحدثُ عن أَحداثِ الساعة، التي يتمُّ فيها تغييرُ النجومِ والكواكبِ والسموات والأرض.

٣ ـ هذا الكونُ كونٌ مُقَدَّرٌ مُدَبَّر، ومسخَّر مسيَّر.. كلُّ شيء فيه مخلوق بمقدارٍ وبحكمةٍ ولغاية، وكلُّ شيء فيه محسوبٌ بحسابٍ ليؤدي وظيفتَه، وكلُّ حركة فيه محسوبةٌ بحسابٍ دقيق، وموزونةٌ بميزان لا يخطىء..

إِنه مسخَّرٌ مسيَّرٌ بأَمرِ اللهِ في الصغيرة والكبيرة، وكلُّ حركةٍ فيه موجِّهةٌ ومتحققةٌ بقدرٍ من الله خاص، لحكمةٍ خاصة... فهو لم ينشأْ عَبَثاً، ولم يُتركْ سُدى، وهو لا يخضعُ في حركاته وظواهِره لحتميةٍ آلية، وإِنما يخضعُ لمشيئةِ اللهِ وقدره.

٤ ـ هذا الكونُ كونٌ جميلٌ باهر، لا يقفُ التناسقُ والتوافقُ فيه عند حدودِ الدقةِ والانتظام والضبط، ولكنَّ التوافقَ والتناسقَ فيه يتَّجهانِ إلى الكمالِ والجمال والزينة.. عنصرُ الجمال مقصودٌ قصداً في بناءِ الكون، وفي ظواهرِه، وفي الحياةِ المبثوثة فيه... وإيقاظُ حاسةِ الجمال في البشر مقصودٌ قصداً في المنهج القرآني..

٥ ـ هذا الكونُ صديقٌ للحياة والأَحياء. مأنوسٌ للإنسان بوجْهٍ خاص.. وهو ليسَ عدواً للحياة وإنما هو منسجمٌ معها.. أَعدَّه اللهُ لاستقبالِ الحياة وحضانتِها وكفالتِها وإقاتَتِها، وسَخَّره لهذا كلِّه، وأَمره فأَطاع!

٦ ـ هذا الكون مسلمٌ طائعٌ لربه، ومؤمنٌ عابدٌ لمولاه، إنه كونٌ ذو روح تَعرفُ ربَّها الحق، فتستسلمُ له طائعة، وتسجدُ له خاشعة، وتسبِّحُ له عابدة، وتَغارُ على حلاله، وتنتفضُ لمهابته، وتغضبُ للشرك من بعضِ البشر الجهال...

وقد استعرضَ سيد قطب مجموعاتٍ من الآياتِ القرآنية، في تقريرِ كلِّ حقيقةٍ من الحقائقِ القرآنيةِ الإيمانيةِ الست، مما جعلَ القارىءَ لهذا الفصْلِ يعرفُ الكونَ على حقيقته، من خلالِ آياتِ القرآن، واستعراضِ سيد قطب لها!

حقيقة الحياة وحقيقة الإنسان:

خَتَمَ الأُستاذُ محمد قطب ـ ناشرُ كتاب «مقومات التصور الإسلامي» لشقيقه ـ الكتاب برؤُوسِ أَقلامٍ كان سيد قطب قد

أَعَدَّها، ليصوغَ منها فصليْن آخريْن، فصلاً بعنوان «حقيقة الحياة»، وفصلاً آخرَ بعنوان «حقيقة الإنسان».

وقالَ حول ذلك: «أَشَرْنا في المقدمةِ إلى أَنَّ هناك فصليْن ناقصيْن في نهايةِ الكتاب، هما «حقيقة الحياة» و«حقيقة الإنسان». كما أَشرنا إلى أَنَّ الشقيقَ كان يُعِدُّ مسودةً بالنقاطِ الرئيسية التي يريدُ أَنْ يتناولَها في كلِّ فصل، قبلِ الكتابةِ فيه.

وفيما يلي النقاط التي أَثبتَها في المسودة عن كلّ من الفصلين الغائبيْن، ننشرها على صورتِها التي كتبَها بها، كما وَعَدْنا في مقدمةِ الكتاب، لعلَّها تعطي القارىءَ فكرةً عامة عن موضوعِ كلّ من الفصلين..»[1]

رؤوس أقلام حول «حقيقة الحياة»:

الأفكار التي سجلها بشأن «حقيقة الحياة» هي:

١ ـ الحياةُ ليست إِلهاً، وليست تلقائية، ولا وُجدتْ مصادفة، وإِنما هي مخلوقة، خَلَقَها اللهُ بقدر، وأَودعَها خصائصِها.

٢ ـ الطبيعةُ ليست إِلهاً، إنما هي مخلوقة، خلَقَها الله، وجعلَها مناسبةً لظهورِ الحياة.

٣ ـ خلقَ اللهُ الحياةَ من الماء، وجعلَ الماءَ أصلَ الحياة، وخلقَ منه كلَّ المخلوقاتِ الحية.

---

(١) مقومات التصور الإسلامي: ٣٥٦.

٤ ـ هذه الحياةُ مقدَّرة، قَدَّرَها اللهُ تقديراً دقيقاً، الأَقواتُ مقدرةٌ في بُنْيَةِ الأَرض وفي نظامِ الكون، والموافقاتُ مُقَدَّرَةٌ في كيان الحياة، وفي الظروفِ المحيطةِ بها.

٥ ـ كلُّ ما يدبُّ على الأَرض من أَحياء، أُممٌ ذات تنظيمات كأُمة الإنسان، حياتها قائمةٌ على قاعدةِ الأُمةِ المنظمة.

٦ ـ تقومُ الحياةُ على قاعدةِ الزوجية، وهذه الزوجيةُ لا تَشملُ الأَحياء فقط، ولكنها تشملُ الأَشياء كلَّها.

٧ ـ جميعُ الأَحياءِ مكفولون برزْقِ الله، مُحاطون بعلْمِه ورعايتِه، خاضعونَ لسلطانه.

٨ ـ جميعُ الأَحياءِ عابدون لله.

٩ ـ هناك عوالمُ أُخرى حيةٌ غيرُ مرئية، أَخبَرنا اللهُ عنها، وذكَرَ لنا بعض صفاتِها، وبعضَ جوانب حياتها، منها: الملائكة، والجن، والشياطين.

رؤوس أَقلام حول «حقيقة الإنسان»:

والأفكار التي سجلها بشأن «حقيقة الإنسان» أربعون، أَشهرُها ما يلي:

١ ـ القرآنُ يَعرضُ أنماطاً عديدةً من نماذجِ النفوسِ البشرية، تشملُ مختلفَ النماذجِ البشرية، في حالاتِها المستقيمة وفي

حالاتِها المنحرفة. وهو لا يَعرضُ «النفس البشرية» في صورةِ مذهب، وإنما في صورةِ «حقيقةٍ» واقعية.

٢ ـ الإِنسانُ مخلوقٌ متميز، استخلفَه اللهُ في الأَرض، وزوَّده بخصائصِ الخلافة. وهو كريمٌ على الله. وعنده قدرةٌ على التعاملِ مع الكونِ وما فيه ومَنْ فيه، من الملائكة والجن وباقي الموجودات.

٣ ـ عند الإِنسانِ قدرةٌ لأَنْ يرتقي إِلى أَرفع وأَرقى من آفاقِ الملائكة المقربين. وعنده استعدادٌ لأَنْ ينحطَّ إِلى أَدنى من دركاتِ الحيوان البهيم.

٤ ـ حياةُ الإنسانِ مصممةٌ على قاعدةِ التكاملِ بين الزوجين ـ وليس التماثل ـ وآصرةُ التجمعِ الكبرى بينَ أَفرادِ هذا الإِنسان هي العقيدة، وهي التي تليقُ بإِنسانيتهم.

٥ ـ خلافةُ الإنسان في الأَرض مقيدةٌ بعهدِ الله وميثاقه، وإِذا أَحسنَ القيامَ بواجبه فإِنَّ اللهَ يكافؤُه على ذلك بالجزاءِ الأُخروي، وهو الجنةُ ونعيمُها.

٦ ـ فطرةُ هذا الإنسان مؤمنة بالله، متوجهةٌ إِليه، وإِذا غطاها ركامُ الكفرِ والشهوات فإِنها تنتفضُ عند الخطر، وتلجأُ إِلى الله طالبةً منه الفرجَ والخلاص.

٧ ـ أَفرادُ الجنسِ الإنساني متساوون في عبوديتِهم لله، وأَساسَ التفاضلِ بينهم عندَ الله هو التقوى، وأَكرمُهم عند الله أَتقاهم.

٨ ـ الإِنسانُ مبتلى في هذه الدنيا، يبتليهِ اللهُ بشتى الابتلاءات، ليصبرَ ويَحتسب، وهو ذو فاعلية إِيجابية، في نفسِه وفي ما حولَه، وبينَ اختيارِه ومشيئته وقَدَرِ الله وإرادتِه تناسُقٌ وترابط.

٩ ـ يتحركُ الإنسانُ في حياته، ويحققُ اللهُ به قَدَرَه، وهو مكلّفٌ مؤتَمن، ويحاسَبُ على ذلك، وحياتُه ممتدَّة لا تنقطعُ بالموت، تبدأُ من عالم الذر، وتمتدُّ إِلى دارِ البقاء.

١٠ ـ أَمَرَ اللهُ الإِنسانَ بالدخولِ في دينه، وتحكيمِ شرعه ومنهاجه، والولاءِ لله ولرسوله والمؤمنين، وضمنَ له النصرَ والغلبةَ إِنْ قامَ بذلك.

١١ ـ معركةُ الإِنسانِ مع الشيطان مستمرةٌ متواصلةٌ عنيفة، وزَوَّدَه اللهُ بأسلحة النصرِ فيها، والرسلُ يقودونَه في هذه المعركة، وهم بَشَرٌ من البشر، جاءوا برسالةٍ واحدة.

١٢ ـ النفسُ الإنسانيةُ ذاتُ استعدادٍ للخير والشر، وسُنَّة اللهِ هي التمكينُ لعباده الصالحين. والانتقامُ من أَعدائه الكافرين.

١٣ ـ يسمحُ الإسلامُ بنموِّ النماذجِ الإنسانيةِ المتعددةِ في إطاره، بتناسُقٍ وتوافُق، كما يسمحُ الإسلامُ بتعدُّدِ وسائلِ وأَنماطِ الحركةِ والحياة الاجتماعية داخلَ إَطارِه أَيضاً.

١٤ ـ بين التصورِ الإِسلامي والفطرةِ الإِنسانية وشائجُ عميقةٌ واستجاباتٌ كثيرة، في أَركانه وفي تكاليفه. وإِذا أَخطأ الإِنسانُ فإِنَّ بابَ التوبة مفتوحٌ أَمامه، ليتوبَ اللهُ عليه.

١٥ ـ يُزاولُ الإِنسانُ في حالتِه السوية كلَّ نشاطِه الإِنسانيِّ داخلَ إِطارِ الإسلام، ويستطيعُ أَنْ يلبِّيَ نوازعَ فطرتِه الفردية والجماعية، وقد نَظَّمَ الإِسلامُ له هذا كلَّه!

١٦ ـ غايةُ الوجودِ الإِنساني هي التي حدَّدَها الله، وهي عبادتُه وحْدَه لا شريكَ له، وتحقيقُ الخلافةِ التي كَلَّفَه اللهُ بها، لإِصلاحِ الحياة الدنيا على منهج الله، لينالَ الجزاءَ الحسنَ عند الله.

١٧ ـ يتعامَلُ الإِسلامُ مع الإِنسان تعاملاً واقعياً، كما هو في واقعه، ويُحسنُ الظَّنَّ به، ويعترفُ بقوَّتِه وضعفِه، ويَرتقي به إِلى أَقصى درجات الكمالِ المقدَّرِ له.

١٨ ـ أَعطى الإِسلامُ الإِنسانَ مجالاً واسِعاً ليتحرَّك فيه، وهذا المجالُ لم يتوفَّرُ له في أَيِّ مذهبِ آخر، ويمنحُ اللهُ هذا الإِنسانَ المعرفةَ والعلم.

هذه هي فصولُ كتاب «مقومات التصورِ الإِسلامي» عَرَّفْنا بها تعريفاً موجزاً في هذه الصفحات، وهذا الكتابُ كان خاتمةَ حياةِ سيد قطب، ختمَ به أَبحاثَه ومؤلفاتِه ودراساتِه، كما ختمَ به حياتَه وتجربتَه، وهو من أَعمقِ كتبه كما لاحَظْنا، ومن أَكثرها دلالةً على نظرتِه إِلى القرآن، وصلتِه الحيةِ به، واستحضارِه الدقيقِ لآياتِه، وحُسنِ تصنيفِها وتبويبها، ودقةِ الاستنباطِ منها!!.

(٩)

مزايا فكر سيد قطب
وأَخطاءُ التعامل معه

نختمُ هذا الفصل عن مسيرةِ سيد قطب العلميةِ والفكريةِ والحياتية بالإشارةِ المجملةِ إلى أَهمِّ ملامحِ شخصيته، وأَبرزِ مزايا فكره، وأَشهرِ أَخطاءِ التعامل معه، وسوءِ النظرِ إلى فكره وتراثِه ونتاجه.

محبة سيد قطب وتقديره وليس تقديسه:

وننطلقُ في هذا من وجوبِ تقديرِ العلماءِ الروادِ واحترامِهم، فقد أَوجبَ اللّهُ علينا تقديرَ ومحبةَ أَهلِ الفضلِ والعلمِ والسابقة، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ...﴾ [الحشر: ١٠].

وأَخبرَنا أنَّ مَنْ أَحَبَّ العلماءَ الصالحين فإِنه يكونُ معهم في الجنة، لأَنَّ المرءَ يُحشَرُ معَ مَنْ أَحب. قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ

وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩].

ونُقِرَّ بأنَّ سيد قطب كانَ من العلماءِ الصالحين، والرّوّادِ المفكرين، والدعاةِ المجاهدين، وأَنه يستحقُّ منّا التقدير والاحترام، والمحبةَ والثناء.

نقول: يستحقُّ منّا التقدير، ولا نقول: التقديسَ!!

إنَّ تقديسَ العلماءِ لا يجوز، لأَنه من الغُلُوِّ والمبالغة، وادِّعاءِ العصمةِ لهم، ومن المعلومِ أَنه لا عصمةَ لأحدٍ في هذه الدنيا إلاّ لرسلِ اللّهِ عليهم الصلاة والسلام.

العلماءُ ليسوا معصومين عن الخطأ، فقد يُخطئون، وتقديسُهم والغلوُّ في النظرِ إليهم حرام ـ أَمّا تقديرُهم ومحبتُهم، ووزْنُ كلامِهم بميزانِ الحق، المتمثلِ بالكتابِ والسُّنَّة، فهذا واجبٌ على المسلمين.

بهذه النظرةِ ننظرُ إلى سيد قطب وفكره، مُقَدّرين له، مُعْجَبين به، مُحِبّين له، مستفيدين من فكره وعلمه.

سيد قطب: انطباق الاسم على المسمى:

ومن حِكمةِ اللّهِ أن ينطبقَ اسْمُه عليه تماماً: «سيد قطب»! وقليلاً ما تنطبقُ الأَسماءُ على مسمياتها تمامَ الانطباق، وكان هو من هذا القليل، حيث كانَ سيداً حقاً، وكان قطباً حقاً!

وأَقتبسُ هنا كلماتٍ لسيد قطب قالَها في الإمامِ الشهيد حسن البنا رحمه الله، مبيناً التوافقَ بين اسمه وبينَ عملِه في بناءِ الرجال!

قال في مقال: «حسن البنا.. وعبقرية البناء»:

«في بعضِ الأَحيان تبدو المصادفةُ العابرة كأَنها قَدَرٌ مقدور، وحكمةٌ مدبَّرة في كتابٍ مسطور.. حسن البنا.. إِنها مجردُ مصادفة أنْ يكونَ هذا لقبُه.. ولكن مَن يقولُ إِنها مصادفة، والحقيقةُ الكبرى لهذا الرجل هي البناء، وإِحسانُ البناء، بل عبقريةُ البناء؟

لقد عَرفت العقيدةُ الإسلامية كثيراً من الدعاة.. ولكنَّ الدعايةَ غيرُ البناء.. وما كلُّ داعية يملكُ أنْ يكونَ بَنَّاءً.. وما كلُّ بَنّاء يوهَبُ هذه العبقريةَ الضخمةَ في البناء.. هذا البناءُ الضخم.. الإِخوانُ المسلمون.. إِنه مظهرُ هذه العبقريةِ الضخمةِ في بناءِ الجماعات..»[1].

إلى أَنْ يقول: «... تُرى أَكانَتْ مصادفةً عابرةً أَنْ يكونَ هذا لقبُه؟ أَم أَنها الإِرادةُ العليا التي تنسِّقُ في كتابها المسطورِ بين أَصغرِ المصادفات وأَكبرِ المقدورات، في توافقٍ واتساق..»[2].

وما قالَه عن حسن البنا في التوافقِ بين اسمِه وعمله، ينطبقُ عليه في التوافقِ بين اسمِه وشخصيتِه وحياته.

---

(١) دراسات إسلامية: ٢٢٥.

(٢) المرجع السابق: ٢٢٧.

هو سيد قطب.. وعاشَ حياتَه سيداً حُرّاً عزيزاً أبياً كريماً ـ كما لاحظْنا في الفصولِ السابقة ـ وكان «قُطْباً»، رائداً في المحطاتِ التي تنقَّلَ فيها، والمراحلِ التي قطعها، هو قُطْبٌ في الأَدب والنقد، وقُطْبٌ في الدعوةِ والحركة، وقُطْبٌ في الجهادِ والمواجهة، وقُطْبٌ في الفكرِ والبحثِ، وقُطْبٌ في التصنيفِ والتأليف.

وغادر هذه الحياةَ الدنيا «سيداً قُطْباً» كما عاشَها سيداً قُطْباً، ورغْمَ أَنَّ جثتَهُ لحظةَ استشهاده كانت معلَّقةً على أَعوادِ المشنقة، فإنَّ روحَه كانت محلِّقَةً في سماءِ العلياء. وينطبقُ عليه قول الشاعر:

عُـلُـوٌّ فـي الـحَـيـاةِ وفـي الـمَـمـاتِ
لَـحَـقٌّ تِـلْـكَ إِحْـدى الـمَـكْـرُمـاتِ

إِننا نقررُ حقيقةً جازمة، هي أنَّ سيد قطب كان في طليعةِ العلماءِ الربانيين في هذا العصر، وأَنه كانَ رائداً في وقتٍ قلَّ فيه الرّوّاد، وأَنه قَدَّمَ ما قَدَّمَ للفكرِ والدعوة، وخلَّفَ تراثاً إسلامياً حركياً عالياً!

أهم ملامح وصفات سيد قطب:

أهم ملامح شخصيته هي: الصدقُ، والجديةُ، والحركيةُ، والعصاميةُ، والعزةُ، والشجاعةُ، والكرمُ، والتواضعُ والنزاهة»[1].

---

(١) سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد: ٤٩٢.

ومن صفاتِ سيد قطب ومزايا فكرِه وأُسلوبه التي سجلَها الباحثون:

سجلَ الأُستاذُ عبد الباقي حسين أَربعة منها، هي: الشمول، والعمق، والوضوح، والصدق[1].

والصفاتُ والمزايا التي سجلَها الأُستاذُ زين العابدين الركابي هي: الطهارةُ، والعزةُ. ووضوحُ الرؤية[2].

والصفاتُ التي سجلَها الأُستاذ محمد علي قطب هي: العمقُ، والحيويةُ، والشمولُ، والثورية[3].

والصفاتُ التي سجلَها الدكتورُ عبد اللّه الخباص هي: الدقةُ والوضوح، والإِطالةُ والتكرار، والانفعالُ، والتعليلُ، والعنفُ والجرأة، والسخرية[4]..

وقد سجَّلَ الأُستاذُ يوسف العظم عشرين خصيصةً لعطاءِ سيد قطب الفكري، وهذه الخصائص والمزايا هي:

١ ـ الغزارة.

٢ ـ الشمول.

٣ ـ الإِيمانُ بالفكرة، والصدق في التعبير عنها.

---

(١) انظر «سيد قطب حياته وأدبه» العبد الباقي: ٣١٧ ـ ٣٣٣.

(٢) تقديم الركابي لمقالات سيد قطب «معركتنا مع اليهود»: ٥ ـ ١٧.

(٣) ثورة الفكر الإسلامي سيد قطب لمحمد علي قطب: ٢٣ ـ ٧٦.

(٤) سيد قطب الاديب الناقد للخبا ص: ٢٢٢ ـ ٢٢٤.

٤ ـ العمق.

٥ ـ الخلودُ والمستقبلية.

٦ ـ الإِسلام هو الحضارة.

٧ ـ التفريقُ بين الإسلام والكهنوت.

٨ ـ الدعوةُ إلى استئنافِ الحياة الإسلامية.

٩ ـ العرضُ الإِيجابيُّ في غيرِ دفاع ولا اتهام.

١٠ ـ كشفُ زيفِ الحضارة المادية.

١١ ـ تميُّزُ الإسلام وتفرُّده.

١٢ ـ الإِشراقُ والعذوبة.

١٣ ـ القوةُ والتحدي.

١٤ ـ بلوغُ القلوبِ والأَفهامِ لدى الخاصة والعامة.

١٥ ـ طموحُ الأمة وآمالُ المستضعفين.

١٦ ـ صاحبُ مدرسةٍ متفردةٍ فكراً وأسلوباً.

١٧ ـ رائدُ حركةٍ وداعيةُ تنظيم.

١٨ ـ الإِقبالُ على عطائِه بظمأ ورغبةٍ وشوق.

١٩ ـ نقلُ عطائِه وترجمتُه إلى لغات كثيرةٍ وأُمم شتى.

٢٠ ـ سَعَةُ الأُفق وبُعْدُ النظر[١].

---

(١) رائد الفكر الإسلامي سيد قطب ليوسف العظم: ١٩٣ ـ ٢٠١.

أهم مزايا فكر سيد قطب:

ونركز على أَهمّ المزايا التي ميزتْ عطاءَ سيد قطب الفكري:

١ ـ الإِقبالُ على المطالعة والبحث: كان مَنْهوماً نَهَماً عجيباً للبحثِ والمطالعةِ والدراسة، لا يَمَلُّ من ذلك. فمنذُ أنْ فتحَ عينيه على القراءةِ في القرية وهو يقرأ، وبقيَ على هذا أكثر من أَربعين سنة، وهو يقرأُ ويبحثُ ويدرسُ ويُطالع، ويفكِّرُ ويحللُ ويتدبرُ ويَستنتج. وساعاتُ مطالعتِه قبلَ سجنه تزيدُ على أَربع عشرة يومياً، وقدْ زادتْ هذه الساعاتُ بعد سجنه.

كان يَعرفُ قيمةَ الوقت وأَهميته، ولذلك لم يُضيِّعَه عَبَثاً، وإِنما أَحسنَ توظيفَه واستغلالَه والاستفادةَ منه، وخاصة في حياتِه الإِسلامية التي استغرقَت الربعَ قرن الأَخير من حياته: ١٩٤٠ ـ ١٩٦٦.

وهذه نعمةٌ غامرةٌ من الله، أَنعمَ بها عليه، ووجَّهه لما خلقَه له، ويَسَّر له طريقَه في المطالعة والبحث. وكلٌّ ميسَّرٌ لما خلَقَهُ اللّهُ له.

٢ ـ العصامية وعلو الهمة والنفس التواقة: كانت همةُ سيد قطب عالية، حيث عاشَ حياته جاداً جدّياً، فأَحسنَ النظرَ إلى الحياة والتعاملَ معها، فلم يكنْ معَ العابثين اللاّعبين الفارغين، وكان نظرُهُ إلى أَعلى، نحوَ الريادَةِ والعطاءِ والإِيجابية.

وشقَّ طريقَه نحو ما يريدُ بعصاميةٍ ملحوظة، ومجاهَدةٍ مدروسة. لم يدعَمْه قويّ، ولم يتبنَّهُ حزب، ولم تُظهِرْه جهةٌ أو جماعة! حتى عندما انضمَّ إلى «الإخوان المسلمين» أَفادَهم بما عندَه من مواهبَ وطاقاتٍ وقدراتٍ وإِمكانيات، ولم يَستفدْ منهم شيئاً!!

ولذلك قالَ للأُستاذ أَحمد أَمين عام ١٩٥١ ـ وسبَقَ أَنْ نقلْنا كلامَه له ـ: «خَطَطْتُ طريقي بنفسي مستقلاًّ، وبجُهدي خالِصاً، لم يأخذْ بيدي عظيم، ولم يُقَدِّمَني إلى الناس أُستاذ».

لم يحملْ مِنَّةً ولا جَميلاً إلاّ لله وحدَه، فاللّهُ وحده هو الذي امتنَّ عليه، فوفَّقَهُ لما وفَّقه إليه، وأَعانَه على قطعِ طريقه بمددٍ وعونٍ منه، ومنحَهُ عُلُوَّ الهمةِ والعصامية والجدية.

وكانتْ نفسُ سيد تُوّاقَة، تتوقُ دائماً إلى ما هو أَعلى وأَفضل، لا يَقبلُ أَنْ يتوقَّفَ في محطَّةٍ نهائياً، فكلَّما قطعَ مرحلة، تاقَتْ نفسُه إلى ما بعدَها، وكُلَّما وصلَ محطة، دعَتْهُ همتُه العاليةُ إلى محطةٍ أُخرى، فارتحلَ إِليها، وينطبقُ عليه وصفُ «الحالّ المرتحل».

وفي آخر حياتِه تاقَتْ نفسُه إلى الجنة، فوجَّه همتَه العاليةَ إليها، فثبتَ على الحق، وواجَهَ الباطل، وخَدَمَ دينَه، وأَعطاهُ اللّهُ ما تمنّاه.

ولما قابَلَه الأُستاذُ أَحمد رائف قُبيلَ الحكم عليه بالإِعدام في أَحدِ ممراتِ السجنِ قال له: ماذا تنتظر؟

فأَجابه سيد: لقد أَدَّيْتُ واجبي، وأَنتظرُ الآنَ القدومَ على ربّي ليكرمني!

٣ ـ القوة والوضوح والثورية: منحهُ اللّهُ أُسلوباً متميِّزاً في البحثِ والعرضِ والصياغة والمواجهة، يقومُ على القوةِ والوضوحِ والثورية.

ولهذا أَطلقَ عليه الأُستاذُ محب الدين الخطيب لقبَ «لسان الدين».

ووصفَه الدكتورُ طه حسين بصفتيْن: المثاليةُ المثاليةُ، والعناد.

وقال عنه الأُستاذُ علي الطنطاوي: إِنه يهاجِمُ، مُهاجماً ومُدافعاً ومُحايداً.

ومما منحَ فكره القوةَ إِيمانُه بما يقول، والتزامُه به، ومعايشتُه له، فأَفكارُه وعباراتُه خرجَتْ من قلبه، واقتاتَتْ على قلبه وأَعصابه ونفسِه وحياته، ومنحها هذا قوةً وتأْثيراً، ولما دفعَ حياتَه ثمناً لفكره، ماتَ هو وعاشَ فكْرُه.

وصدقَ في قولهِ عن سِرِّ «قوة الكلمة»: إِنَّ كلماتِنا تبقى عرائسَ من الشمع، فإِذا مِتْنا في سبيلِها، دَبَّتْ فيها الروح وكُتبْ لها الحياة!

ولذلك صدقَ وصْفُ الأُستاذ محمد قطب لتفسير «الظلال»: الكتابُ الذي عاشَه صاحبُه، بروحِه وفكرِه، وشعورِه وكيانِه كلِّه.. وعاشهُ لحظةً لحظة، وفكرةً فكرة، ولفظةً لفظة، وأَودَعَهُ خلاصةَ تجربتِه الحيةِ في عالَم الإِيمان..».

٤ ـ الحافظة الواعية والعقلية اليقظة: كان ذكياً أَلمعياً، فَطِناً يقظاً، لَمّاحاً للفكرة، ملتقِطاً للَّطيفة، حَسَنَ الاستيعابِ للأَفكار، والهضمِ لما يُطالع، والتفاعلِ مع ما يطَّلعُ عليه، والانتقاءِ لما يَمُرُّ به من معارفَ وعلومٍ وثقافات، أَخَذَ الصالحَ النافعَ المقبولَ منها، وطرحَ السيءَ الباطلَ منها.

كان يتفاعَلُ مع ما يقرأ، ويُخزنُه في حافظتِه الواعية، ويحتفظُ به لوقتِ الحاجة. ولهذا كان علْمُه في حالةِ «نُمُوٌّ» دائم، وزيادةٍ متنامية!

مَثَلُه في الحافظةِ الثقافيةِ العلمية الناضجةِ الواعية كَمَثَل الشجرة. فصاحبُها يزرعُها، ثم يتعاهَدُها بالرعايةِ والعناية والمراقبةِ والاهتمام، ويبقى على هذا عدةَ سنوات، ولما تكبرُ الشجرةُ وتبدأُ مرحلةَ العطاء والإِثمار، يستمتعُ صاحبُها بثمارِها، ويجلسُ تحتَها، ويهزُّها هَزّاً خفيفاً فتتساقطُ عليه الثمراتُ الناضجة!

كان نتاجُ سيد قطب الفكريِّ في المرحلةِ الأَخيرة من حياته غزيراً، لأَنه مرحلةُ العطاء، وثمرةُ البناءِ الثقافي في المراحل

السابقة، وكان يؤتي أُكُلَه الشهيَّ الجنيَّ عند أَولِ استحضارٍ وطلبٍ له.

ولما غادرَ سيد قطب هذه الدنيا، كان عندَه الكثيرُ من المشاريعِ العلمية، والعديدُ من الأَبحاثِ والدراسات الموضوعية الناضجة، وكتبَ في بعضها فُصولاً وأوراقاً، لكنَّ الطغاةَ أَتلفوها، فماتَتْ بموته، منها: معالم في الطريق: القسمُ الثاني، وفي ظلال السيرة، وهذا القرآن، وأَوَّلياتٌ في هذا الدين، وتصويباتٌ في الفكرِ الإسلامي المعاصر.

٥ ـ **الانطلاق من القرآن في فكره وعطائه:** يصحُّ أَنْ نسمّيه «الرجلَ القرآني»! فقد تعاملَ مع القرآن منذُ طفولتِه، وأَثَّرَ القرآنُ البليغُ المعجزُ على أدبه، فكانتْ عباراتُه بليغة، وكانَ أُسلوبُه سلساً مشرِقاً مؤثِّراً ساحراً، وكان بيانُه فصيحاً لطيفاً رشيقاً.

ولما أَقبلَ على الفكرِ الإسلامي، يُشَكِّلُه ويُكَوِّنُه على أَساسِ القرآن كان أَدَبُه القرآنيُّ البليغ «وعاءً» لهذا الفكر، فكان فكرُه واضحاً مفهوماً سَلِساً مشرقاً! ومعلومٌ أنَّ الفكرَ بغير أُسلوب أدبيٍّ مشرق قد يكونُ فلسفةً جافة، أو كلاماً معقداً، وقد يكونُ كلاماً ساذجاً ضعيفاً ركيكاً!!

وصَدَقَ سيد قطب في إِقباله على القرآن، حيثُ أَلقى على «عتبتِه» كل ماضيه الثقافيِّ والفكري، وأَلغى كلَّ المعارف والثقافات والآراء التي تتعارضُ مع حقائقِ القرآن، ودخلَ عالم

القرآن بدونِ مقرَّراتٍ مسبقَة، وتركَ للقرآن أَنْ «يُشَكِّلَ» له فكْرَه وثقافتَه وعلمه.

كان قرآنيَّ الأَدب والتعبير، قرآنيَّ الأُسلوب والصياغة، قرآني العلمِ والمعرفة، قرآنيَّ الفكر والثقافة، قرآنيَّ الوعي والعقل، قرآني التقعيدِ والتحليل، قرآنيَّ الدعوةِ والحركة والجهاد والمواجهة. أَخَذَ كلَّ هذه المجالاتِ والجوانبِ من القرآن.

وكثيراً ما كانَ يصرحُ في «الظلال» و«المعالم» ـ وغيرهما ـ بالإِقبال على القرآن والسُّنَّة، والاكتفاءِ بهما، وحسنِ فهمِهما، والانطلاقِ منهما..

ويمكنُ أنْ نعتبرَ هذا «سلفيةً واعية» من سيد قطب! أَيْ أَنَّه كان سلفياً واعياً ملتزماً، مكتفياً بالقرآنِ والسُّنَّة، رافضاً لكلِّ ما يخالفُ الكتابَ والسُّنَّةَ، محارباً لكلِّ «بدعة» ضالَّةٍ في العلمِ والمعرفةِ والفكر والثقافة!

٦ ـ **الجدة والأَصالة في فكره**: كان مبدعاً رائداً في فكرِه وعطائِه ونَتاجه، لم يكررْ ما قالَه السابقون في التفسيرِ والدعوةِ والفكر والعقيدة، وكان يقول: «إنَّ أَعمارَنا القصيرة، وساعاتِنا المحدودة أَقصرُ وأَثمنُ مِنْ أَنْ تُضَيَّعَ في التكرار»!

وتبدو هذه المزيةُ واضحةً عند مقارنة ما قدمَه في العقيدةِ والتفسيرِ والدعوة مع ما قَدَّمه الآخَرون، من السابقين

والمعاصرين، قَدَّمَ الجديدَ الأَصيل البديعَ في تفسيره «الظلال» وفي «المعالم» و«الخصائص» و«المقومات»!

٧ ـ **الواقعية الحية في فكره:** كان فكْرُه واقعياً حياً حركياً نامياً. أي أَنه كان يعالجُ ويناقشُ مشكلاتِ عصره، وقضايا واقعِه، وكان ينصرفُ عن القضايا النظريةِ القديمة، التي أَشغلت العلماءَ السابقين في القرونِ الماضية، والتي لا فائدةَ في بحثها ـ كما كان ينصرفُ عن المباحثِ والمسائلِ الافتراضية الفقهية والتشريعية التي ليسَ لها بُعْدٌ واقعي..

كان حريصاً على بحثِ ما يعيشُه الناس ويدركونَه ويُعانونَه، وتقديمِ الحلولِ الإِسلامية لحياتهم الواقعية.

وهذه الواقعيةُ الحيةُ تتطلبُ منه أنْ يكونَ في «الخندقِ» الأَول في مواجهةِ الجاهلية، والوقوفِ أَمامَ الطغاة، وأَنْ يتكلمَ في مسائلَ «حَسّاسَة» بالغةِ الخطورة، وأَنْ يُصارحَ القولَ في موضوعاتٍ ساخنةٍ حادّة!!

كثيرٌ من المفكِّرين والباحثين والمؤلِّفين يُشفقونَ من الدخولِ في هذه المواقع الساخنة الحسّاسَةِ الواقعيةِ الحية، هَرَباً من تكاليفِها الباهظة، ويَهربون منها ـ رغمَ الحاجةِ الماسَّةِ لها ـ إلى مسائل وموضوعاتٍ فكرية نظرية جامدة، يُشغلون فيها أَنفسهم ـ وقُرّاءَهم ـ ويُكَرِّرون القولَ فيها، لأَنهم لا يستطيعون دفْعَ ثمنِ الموضوعاتِ الواقعية الحساسة!

ولهذا كان سيد قطب رائداً للفكرِ الإسلامي المعاصر. الفكرِ الحركيِّ الدعوي الجهادي.

كان يقول: لا بُدَّ مِنْ أَنْ يتمَّ البلاغ!

ويقول: إذا سَكَتْنا نحنُ فمن الذي يتكلَّم؟ ولا يجوزُ للقائدِ أَنْ يأخذَ بالرَّخَص!

وصدقَ فيه قول الشاعر:

إِنَّ الـزَّعـامـةَ والـطَّـريـقُ مَـخـوفَـةٌ
غَـيْـرُ الـزَّعـامَـةِ والـطَّـريـقُ أَمـانُ

٨ ـ الانتقال بالفكر الإسلامي إلى الهجوم على الفكر المعادي: كان المفكِّرون السابقون «يُدافعون» عن الفكرِ الإسلامي مدافعة، أَمامَ شبهاتِ واتهاماتِ الفكرِ الماديِّ الجاهليِّ الغازي، بأَنْ يوقِفوا «الإسلامَ في قفصِ الاتهام» ـ هذا عنوانُ كتابٍ للدكتور شوقي أَبو خليل ـ ويقومونَ بالدفاعِ عنه، كما يدافعُ المحامي عن موكِّله المتهم! ومنهم مَن كان يُبْهَرُ بالفكرِ الغربيِّ الغازي، فيتأَثَّرُ به، ويَقْبَلُ بعضَ طروحاته، أو يُزاوجُ ويوفِّقُ بينَه وبينَ الفكرِ الإسلامي!

لم يكن سيد قطب من هؤلاء، إنما انتقلَ بالفكرِ الإسلامي من موقعِ «الدفاع على استحياء» إلى موقع «الهجوم الواعي المتَّزِنِ البَصير».

كان يعيشُ استعلاءَ الإيمان، ويمتلىءُ يقيناً بأَنه على الحق، وأَنَّ ما معه هو الحق، وأَنَّ خصمه على الباطل، ولهذا لم ينهزمْ أَمامَ الباطلِ، ولم يُعانِ من آثارِ الهزيمةِ النفسية والروحية، ولم تزلّ قدمُه في أَرضٍ فكريةٍ رخوةٍ مهزوزَة.

كان ينصحُ الدعاةَ بمواجهةِ الأَفكارِ الباطلة المعادية، والامتلاءِ يقيناً وثقةً بالحقِّ الذي معهم، وتقديمِ هذا الإِسلام للآخرين. بجرأةٍ وشجاعةٍ وثباتٍ وحُسنِ أُسلوب!

هذه هي أَهَمُّ المزايا التي تميَّز بها فكرُ سيد قطب، فجعلَتْ منه فكْراً متميزاً، وجعلَتْه فكراً حياً قويّاً منتَشِراً، حتى بعد استشهاد صاحبِه، وبهذه المزايا كان سيد قطب رائدَ الفكر الإِسلامي المعاصر، رحمه الله.

فكر سيد قطب يثير جدلاً كبيراً:

هذا وقد أثار فكرُ سيد قطب حديثاً طويلاً، وجدلاً واسعاً، رغمَ مرورِ أَكثرَ من ثلاثين عاماً على استشهادِه، وما زالَ يثيرُ جدلاً وحواراً ونقاشاً، وسَيبقى يثيرُ هذا في المستقبل، وهذا مظهرٌ من مظاهرِ قوةٍ وحيويةٍ وأَصالةٍ وواقعيةِ هذا الفكر! فبعضُ الناسِ يموتُ فكرُهم قبلَ وفاتهم، وبعضُ الناس يموتُ فكرُهم بوفاتِهم! وبعضُ الناسِ يبقى فكرُه حياً بعدَ موتِه بعشرات السنين ومرورِ القرون.. وسيد قطب من النوعِ الأَخير، مَثَلُه كَمَثَل ابنِ تيمية وابنِ القيم وغيرهما.

وُوجِهَ فِكْرُ سيد قطب بالفئاتِ التالية:

١ ـ **الأَعداء لهذا الدين**: من الغربيين والشيوعيين والصهيونيين والعلمانيين وأَعوانِهم من الظالمين المزوِّرين في بلادِ المسلمين، وهؤلاء تولَّوا مهاجمةَ فكرِ سيد قطب، من منطقِ مهاجمةِ الإِسلام نفسِه ومحاربةِ رجالِه وجنودِه وعلمائه. وموقفُ هؤلاء طبيعيٌّ مفهوم. لأَنَّ حربَهم لهذا الدين دعَتْهم إلى حربِ سيد قطب وفِكْرِه. ولم يتمكَّنوا من حربِ فكره، فها هو موجودٌ منتشرٌ في العالم الإسلامي، ولله الحمد.

٢ ـ **الجاهلون من المسلمين**: وهم الذين لم يُحسنوا فهمَ فكرِ وكلامِ سيد قطب، لضيقِ أُفقهم، وقلةِ علمِهم، ولهوى في نفوسِهم، فَقَوَّلوه ما لم يَقُل، ونادوا بأَفكارٍ باطلة نسبوها لسيد قطب، مثل: دعوى تكفيرِ المخالفين من المسلمين، وحرمةِ العمل في الوزارات والوظائفِ العامة، ومنعِ التعاملِ مع الفقه الإسلامي، ووجوبِ العزلةِ الحسية المادية والانقطاع عن المجتمع!!

٣ ـ **المتعصبون ضد سيد قطب من الإسلاميين**: مِن هؤلاء مَنْ ينتمي لما يُسَمّى بالتيارِ «السلفي»، الذي يتبنّى أفكاراً خاصةً معينةً في بعضِ فرعياتِ العقيدة والدعوة، كالكلام على بعضِ صفات الله، والكلامِ على الاستواء والعلوِّ والنزولِ والمعيةِ لله تعالى، فرفضوا القول باتباعِ سيد قطب للكتابِ والسُّنَّة، وفهمِ سلف الأمة، واعتبروهُ في العقيدة مخالِفاً للفهمِ السلفيّ، ومن ثَمَّ

اتَّهموه في عقيدتِه، وفي دينِه وإسلامِه، وفي علمِه وفهمِه، وبعضُهم أَصدرَ كتباً أَدارَها على هذا، وبعضُهم أَخرجَه من دائرةِ العلم، وبعضُهم أَخرجَه من دائرةِ الإِسلام!!

ومن المتعصبين ضدَّ سيد قطب وفكرِه الحركيِّ الدعوي: بعضُ الدعاة إلى الإِسلام، وبعضُهم من المنتمين لجماعةِ الإِخوان المسلمين، وبعضُهم ممن وصلَ إلى مراكز قيادية داخلَ جماعةِ الإخوان المسلمين، وهؤلاء تعصَّبوا ضدَّ فكرِ سيد وآرائِه في فقهِ الدعوة والحركة، واتَّهموا فكْرَه بأَنَّه مرفوضٌ غريبٌ على العمل الإسلامي، وأَنه نتاجُ التجربةِ المريرة التي عاشَها في السجن، وأَنه من ثم «فكْرُ سجون» ضيقٌ منغلقٌ متشنجٌ «متكَلِّس»!! ولا يَصلحُ للإِخوانِ المسلمين الإِصلاحيّين المنفتِحين على مُؤَسَّسات المجتمعِ وأنظمتِه! ولهذا حاربَ هؤلاء المتعصَّبونَ من الإِخوان المسلمين فكرَه وآراءَه الدعويةَ الحركية!

٤ ـ المتزنون المنصفون: وهم الذين تعامَلوا مع فكرِ سيد قطب بمنهجيةٍ وموضوعية، فلم يُبالغوا في تقديرِهِ إلى مرحلةِ التقديس وادِّعاءِ العصمة وقَبولِ كلِّ حرفٍ كتبه! ولم يُغالوا في التعصبِ ضدَّه ومجافاتِه ومهاجمتِه، كما فعلَ الآخَرون من الإسلاميين ـ من بعضِ السلفيين وبعضِ الإخوان المسلمين ـ.

وهؤلاء المتَّزِنون طَبَّقوا على فكرِ سيد قطب الميزانَ الإِسلاميَّ العادل في النظرِ والتقويم، وَوَزَنوا هذا الفكرَ بالحقِّ

المتمثلِ بالكتابِ والسُّنَّة، فأَخذوا ما وافقَ هذا الحقّ، وهو كثير، ورَفَضوا من فكْرِه ما خالَفَ الحق، وهو قليلٌ نادر! ومَثَّلوا بهذا الوسطيةَ الإِسلاميةَ الواعية، والإِنصافَ الإِسلاميَّ المطلوب.

وهؤلاء المتَّزنون المُنْصِفون هم القطاعُ الكبيرُ من الإِخوان المسلمين، ومن باقي دعاةِ الإِسلام الملتزمين بالكتابِ والسُّنَّة، ومن جمهورِ المثقَّفين ثقافةً إِسلامية، المحبّين للإِسلام، المتلزمين به، الداعين إليه، وهم كثيرونَ في وسط الأمة، ولله الحمد!!

أهم أخطاء التعامل مع فكر سيد قطب:

وألخصُ فيما يلي أهمَّ الأَخطاءِ التي قد يقعُ بها بعضُهم في نظرتِهم إلى فكْرِ سيد قطب، وتعاملِهم مع مؤلفاته.

١ ـ النظرُ إلى مؤلفاتِ سيد قطب بهدفِ التقاط الأَخطاء:

إنَ هؤلاء يتعاملون مع فكرِ سيد قطب وتراثِه بسوءِ نية، فهم يريدونَ التقاطَ ما فيها من أَخطاء، وتسجيلَ ما عليها من مآخذ، تَرى الواحدَ منهم يُقَلِّبُ الصفحات العديدة من الكتاب، ولا يلفتُ نظرَه ولا يُثيرُ إِعجابَه ما يراه من تحليلاتٍ ونظراتٍ وتعليلات وإِضافات. فإذا رأى خطأً أو مأخذاً وقعَ فيه سيد قطب طارَ فرحاً بذلك، لأَنه وَجَد بغيتَه، وحققَ ظنَّه السيء، وقال: وجدتُها! وجدتُها! ها هو سيد قطب الذي تحبونَه وتُقدرونَه، يقولُ: كذا وكذا!

لماذا لم يلفتْ نظرَ الواحدِ من هؤلاء عشراتُ الصفحاتِ الجيدة الصائبة، ولفتَ نظرَهُ جملةٌ صغيرةٌ في جزءٍ من سطر؟

إنَّ تَصَيُّدَ الأَخطاء، وتسجيلَ العيوب والمآخذ، وتكبيرَها كثيراً، لتطغى على الإيجابيات والحسنات، منهجٌ مرفوضٌ إسلامياً، وإِنْ دلَّ على شيء فإِنما يدلُّ على نفسيةِ وعقليةِ وتفكيرِ صاحبه!!

وقديماً قال الشاعر:

وَعَيْنُ الرِّضا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَليلَةٌ
وَلَكِنْ عَيْنَ السُّخْطِ تُبدي المَساوِيا

وقديماً اشتكى شاعِرٌ أَمثالِ هؤلاء، فقال:

إِنْ يَسْمَعوا ريبَةً طاروا بها فَرَحاً
عَنّي وَما سَمِعوا مِنْ صالِح دَفَنوا
جَهْلاً علينا وَجُبْنَا عَنْ عَدُوِّهِمو
لَبِئْسَتِ الخُلَّتانِ الجَهْلُ والجُبْنُ

وإنَّ مَثَلَ الذين لا يلفتُ نظرَهم إلاّ الأَخطاءُ القليلة، ويَغفلونَ عن الحسناتِ والإيجابيات العديدة مثَلُ الحشراتِ الطيارة التي لا تلتفتُ لأَشجارِ البستانِ الجميلة، وأَزهارِه الطيبة، وأَوراقِه الخضراء، وروائحِه الزكية، فإذا رأَتْ قذراً أَوْ رجساً أقبلتْ عليه، بعكس النحل الذي لا يلفت نظرَهُ القذرُ النجسُ، وإنما هو

مع الأزهار والأَشجارِ والروائح الزكية، ليصنعَ من ذلك عسلاً فيه شفاءٌ للناس!!

٢ ـ سوء تصنيف الأخطاء بجعلها كلها بدرجة واحدة:

قد يجدُ الناظرونَ بعضَ الأَخطاء في فكرٍ وتراثٍ وكتابات سيد قطب، ووقوعُه في الخطأَ أَمرٌ طبيعي، لأَنه غيرُ معصوم، وليسَ الغريبُ أَنْ يُخطىءَ سيد قطب، ولكنَّ الغريب هو أن يتعمَّدَ بعضُهم تصيُّدَ الأَخطاء والبحثَ عنها، وأَنْ يُسيءَ النظرَ إِليها.

إنَّ هؤلاء الناظرين في الأَخطاءِ لا يُحسنون تصنيفَها، ولذلك يجعلونَها كلَّها بدرجةٍ واحدة، مهما كان حجْمُها ونوعُها وميدانُها وموضوعُها.

الأخطاء في تصنيفها ثلاثة:

الأخطاءُ التي قد يقعُ بها بعضُ الباحثين والدارسين ثلاثةُ أَنواع:

الأَول: خطأٌ في الباعث والمقصد: وهذا خطأٌ منهجيٌّ أَساسيٌّ جَذري، ينصبُّ على أَساسِ العملِ العلمي والباعثِ عليه ونيةِ الباحث فيه.

وهذا الخطأُ الجذريُّ يُلغي العملَ، ويَقضي على ما فيه من صوابٍ جزئي، لأَنَّ نيةَ الباحثِ فيه سيئة، والباعثَ عليه عنده خبيث.

وخيرُ ما يمثّلُ هذا الخطأ أَعمالُ المستشرقين والعلمانيّين، التي يدرسونَ فيها الإِسلامَ والقرآن، فقد نرى شيوعيين أَو يساريين أو علمانيين أو يهوداً أو نصارى يكتبون عن الإِسلام، وينظرونَ في القرآن، ويتحدثون عن حقائقِ هذا الدين. وقد يُقَدِّمون بعضَ الصوابِ في دراساتهم، لكنه صوابٌ قليل، يُقَدِّمونه بهدفٍ خبيثٍ، ليموِّهوا على المسلمين ويَخْدَعوهم، ويضعوا بجانبِ هذا الصوابِ القليل رُكاماً من التشويهِ والتحريفِ والتزوير.

وقد يُعجبُ بعضُ المسلمين بهم، ويُخدعُ بدراساتِهم وادعائِهم الموضوعيةَ والعلميةِ والنزاهة، فتنطلي عليه حيلتُهم!

هذا الخطأ الجذريُّ الذي وقع فيه هؤلاء الباحثون المغرضونَ يُلغي عملَهم كلَّه، لأَنهم ما أَرادوا به وجْهَ الله.

الثاني: خطأٌ في المنهج والخطة، مع سلامةِ المقصد وحسنِ النية: تجاوَزَ أَصحابُ هذا الخطأ المحطةَ الأُولى الخطيرة، وتمتَّعوا بنيةٍ حسنة، ومقصدٍ سليم، وباعثٍ نبيل، وأَرادوا خدمةَ الإِسلام والمسلمين، والتقربَ إلى ربِّ العالمين!

لكنَّ منهجَهم كان خاطئاً، وخطَّتهم كانت باطلة.. ولهذا وقعوا في أَخطاءَ منهجيةٍ عديدة، نتجَ عنها ركامٌ كبير من الباطل، وأَحياناً قد يوفَّقون في بعضِ جزئياتِ الصواب، وهي جزئياتٌ فرعيةٌ قليلة.

وخيرُ ما يمثلُ هذا الخطأ أعمالُ ودراساتُ رجالِ الفرق الإسلامية السابقة، المعروفةِ في التاريخ الإسلامي، من معتزلةٍ وشيعةٍ وخوارج ومرجئة.

إنَّ منهجَ هؤلاء في فهمِ الإسلام، والتعاملِ معه خاطىء، لا يتفقُ مع المنهج الصوابِ الذي كان عليه الصحابةُ والتابعون، وهذا قادَهم إلى الوقوعِ في العديدِ من الأَخطاء، وإلى تراكمِ هذه الأَخطاءِ حتى شكَّلَتْ «رُكاماً» ثقيلاً كبيراً.. ولكنهم قد يُوَفَّقون في بعضِ الجزئيات، ويُصيبون في بعضِ الفرعيات، إلاَّ أَنَّ هذا الصوابَ قليلٌ نادرٌ وسطَ ذلك الركامِ الكبيرِ من الأَخطاء!

وعلينا أَنْ نكونَ حَذِرين في التعاملِ مع نتاجِ وفكرِ رجال الفرق هؤلاء، فنتعرَّفَ على الأَخطاءِ المنهجية التي وقعوا فيها، والتي قادَتْ إلى ذلك الركامِ الكبير. وعلينا أن نكونَ منصفين معهم، فنبحثَ عن الصوابِ القليلِ النادرِ الذي وُفِّقوا له، والمدفونِ وسْطَ ذلك الركامِ المردود!

الثالث: خطأ في بعض خطوات الطريق، مع سلامة المقصد وصواب المنهج: اتصفَ العلماءُ الذين يقعونَ في هذا النوع من الأَخطارِ بسلامةِ المقصدِ وحسنِ النية، وابتغوا بعملهم وجْهَ الله، ثم كانَ منهجُهم في التعاملِ مع القرآنِ وفهمِ الإِسلام صحيحاً صواباً. وهذا قادَهم إلى الصوابِ الكثير في معظم ما قَدَّموا من

آراءَ ونظراتٍ وأَفكار، لأنَّ سلامةَ المنطلق تقودُ إلى صحةِ السير، وصوابُ المنهج يُنتجُ أَحسنَ النتائج.

ولكنَّ هؤلاء العلماء ليسوا معصومين، ووقوعُهم في الخطأ أَمْرٌ طبيعي، ولكنْ ما موقعُ خطئِهم من علمِهم وفكرهم؟ إنه خطأٌ في بعضِ الجزئيات والفرعيات، يتمثَّلُ في بعضِ التحليلات والاستنتاجات، وبعضِ الآراء والأَفكار والنظرات، وبعضِ الأَلفاظ والجمل والعبارات.

وخيرُ ما يمثلُ هذا الخطأ، الأَخطاء التي تكونُ في مؤلَّفات علماءِ أَهل السُّنَّة والجماعة، العلماءِ في التفسيرِ والحديث والعقيدة والفقهِ والسيرةِ والتاريخ.

مَنْ مِن علماءِ أَهلِ السُّنَّة لم يخطئ في بعضِ الأَفكارِ والجزئيات والعبارات؟ أَلم يخطىء ابنُ تيمية وابنُ القيم؟ أَلم يخطىء الطبريُّ والرازي وابن كثير؟ أَلم يخطىء البخاريُّ ومسلم؟ أَلم يخطىء أَبو حنيفة والشافعيُّ ومالك وأَحمد؟ أَلم يخطىء تابعون أَعلام وصحابةٌ كرام؟

فلماذا نغتفرُ لهؤلاءِ أَخطاءَهم الفرعية الجزئية، ونعتذرُ لهم عنها، فإذا أَخطأَ سيد قطب مثلَ أَخطائِهم رفعْنا رايةَ الإِنكار وأَصابعَ الاتهام وأَحكامَ الإِدانة والإعدام؟ نتهمُه في نيتِه وفي دينِه وفي علمِه!!

خطأُ سيد قطب الموجودُ في بعضِ كتبه فرعيٌّ جزئيٌّ ثانوي، وليس أَساسياً في نيتِه ومقصده، ولا منهجياً في منطلقاتِه وقواعِده. وهو في نفسِ مستوى أَخطاء ابنِ تيمية وابن القيم، فما نقولُه في أَخطاءِ علمائِنا السابقين نقولُه في أَخطاءِ سيد قطب!

٣ ـ الخطأُ في الحكم الناتجِ عن سوء تصنيف الأَخطاء الجزئية:

الذين جعلوا أَخطاءَ سيد قطب في كتبه كلِّها بدرجةٍ واحدة، ووضَعواها ضمنَ قائمةِ الأَخطاءِ الجذريةِ الأَساسية المنهجية، انتقلوا إلى خطوةٍ أَخطر، حيث نَصَّبوا أَنفسَهم «قضاة»، وصاروا يُحاكمون سيد قطب، وهم بهذهِ النفسيةِ الباحثةِ عن العيوب فقط، التي لا تُحسنُ تصنيفَ تلك الأَخطاءِ والعيوب.

ولذلك يُصدرون أَحكاماً جائرةً على سيد قطب وفكرِه، يتَّهمونَه في نيتِه ومقصدِه، ويُخَطِّئونه في منهجه ومنطلقِه، ويتكلَّمون على علمِه وفكره، وعلى طبيعتِه وشخصيتِه، وعلى عقيدتِه وإِيمانه!

عقيدةُ سيد قطب منحرفة! وفكرُه خاطىء! وعلمُه غيرُ موجود! ونظراتُه وتحليلاتُه باطلة! وفكرُه زائغٌ ضالّ! وآراؤُه مردودة! وكتبُه مليئةٌ بالباطل.. ومن ثم لا تَجوزُ قراءةُ كتبه، ولا اعتمادُ فكره! ويجبُ تأليفُ الكتبِ في التحذيرِ من فتنته! وتحصينِ الناسِ من ضلالاتِه! ومنعُ كتبه من التداولِ في المكتبات!!

لماذا هذا الحكمُ الشديدُ الصارم؟

لأنَّ سيد قطب أَخطأَ في كذا وكذا وكذا..

لكنْ ما نسبةُ هذه الأَخطاءِ التي عَدَدْتُموها عليه إلى الصواب الكثيرِ الذي لم تَعْدّوه عليه؟ تفسيرُ «الظلال» مثلاً أكثرُ من أَربعةِ آلاف صفحة من القطع الكبير، وقد يوجَدُ فيه عشرونَ خطأ فرعياً جزئياً، أو خمسون خطأً! لكن ما نسبةُ خمسينَ عبارة خاطئة إلى أربعة آلاف صفحة؟

لماذا نغتفرُ للإمام ابن تيمية مائةَ خطأ في موسوعَةِ «الفتاوى». ولا نغتفرُ لسيد قطب مائةَ خطأ في موسوعة الظلال؟ وأَخطاءُ الاثنين في جزئياتٍ وفرعيات ثانوية، وليسَ في البواعثِ أو المنطلقاتِ أو المناهج العامة!!

صدقَ القائل: كفى المرءَ نَبْلاً أَنْ تُعَدَّ معايِبُه؟.

٤ ـ محاكمة سيد قطب وفكره إلى صورة معينة في ذهن الباحث:

بعضُ الناظرين في فكْر سيد قطب وتراثِه وكتبِه، يحاكمُ سيد إلى صورةٍ معينةٍ في ذهنِه، صورةٍ مذهبية أو كلامية أو فقهية أو فكرية.

بعضُ الدارسين في العقيدةِ وتاريخِ الفرق الإسلامية يبحثُ في كتبِ سيد قطب ليرى موافقتَه لآراءِ المعتزلة أو الأشاعرة أو الخوارج أو المرجئة أو الشيعة، فإذا وجدَ موافقةً للمعتزلة في

جزئيةٍ اعتبره معتزلياً! وإذا وجدَ آخر موافقتَه للأَشاعرة في مسألة اعتبره أَشعرياً! وإِذا وجد آخر موافقتَه للخوارج في مسألة اعتبره خارجياً! وإِذا وجد آخر موافقتَه للشيعةِ في نقطة اعتبره شيعياً!!! وهكذا..

وبهذا يكونُ سيد قطب: معتزليّاً أَشعرياً خارجياً شيعياً صوفياً سلفياً!!! وهذا تخليطٌ لا يقولُه عاقل!!

إِن آراءَ رجالِ المذاهبِ الإِسلامية السابقة الفكرية والفقهية ليست هي الأَصلَ الذي يحاكَمُ إليه نَتاجُ العلماء المتعاملين مع النصوص، لَسْنا ملزمين أَنْ نفهمَ القرآنَ والحديثَ والفقه والتشريع على منهجِ المعتزلة أو الأَشاعرة أو الخوارج أو السلفيين أو الصوفيين أو المذهبيين!! إِننا ملزمون أَن نفهمَ الإِسلامَ من نصوصِه المتمثلةِ في آياتِ القرآن، وما صحَّ من حديث رسول الله ﷺ، وفهمِ الصحابة والتابعين، ونستعينُ في ذلك بفهمِ علماءِ أَهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ، المتلزمِ بالكتابِ والسُّنَّة وفهمِ سلفِ الأُمة!

لا يَجوزُ أَنْ نحاكمَ سيد قطب في فكرِه وكتبِه إلى أَحدِ المذاهب أو الفرقِ الإِسلاميةِ المعروفة في التاريخ الإِسلامي، لأَنه هو لم يكن تابعاً لأَحدِ تلك المذاهب أو الفرق!

سيد قطب يأخذ من الكتاب والسُّنَّة مباشرة:

كان سيد قطبُ في فكره الإِسلامي ملتزماً بنصوصِ الكتابِ والسُّنَّة، لقد تجاوزَ الفرقَ الإِسلامية، واستقى من «رأسِ النبع»

الأَصيلِ الصافي، وأَخَذَ فكْرَه من القرآنِ نفسِه.. أَخَذَ عقيدتَه من القرآنِ مباشرة، قبلَ «الخلافِ المذهبيِّ والكلاميِّ بين المسلمين، وتعاملَ مع القرآنِ بدون مقررات سابقة. وأَخبرنا عن ذلك في عدةِ مواضعَ من «الظلال» و«المعالم» و«الخصائص»!

يقولُ: «ومنهجُنا في استلهامِ القرآنِ الكريم أَلاّ نواجِهَه بمقرَّراتٍ سابقةٍ إِطلاقاً. لا مقررات عقلية، ولا مقرراتٍ شعورية ـ من رواسبِ الثقافات التي لم نَسْتَقِها من القرآنِ، نحاكمُ لها نصوصَه، أو نستلهمُ معاني هذه النصوص وفقَ تلك المقرراتِ السابقة!..».

لا يعني أَنْ يكونَ سيد قطب من المعتزلة إِذا وافَقهم في جزئية، ولا أَنْ يكونَ من الأَشاعرةِ إِذا وافَقهم في مسأَلة، ولا من الخوارج إِذا وافقَهم في أَمر.. وهكذا.. لأَنه رجعَ إلى الأَصْلِ الذي تمثَّلَ في الكتاب والسُّنَّة وفهمِ سلفِ الأُمة! ولم يكنْ يعنيهِ وهو يقدمُ فكْرَه أَنْ يكونَ موافقاً لهؤلاء أو أُولئك، إِنما كان يعنيه أَنْ يكونَ فهمُه للنص صحيحاً، واستنتاجُه منه صواباً!!

٥ ـ عدم جمع كلام سيد قطب المتفرق حول الموضوع الواحد:

قد يناقشُ سيد قطب الموضوعَ الواحد في أكثر من كتاب، وفي أكثر من موضعٍ في الكتابِ الواحد، وهذا أَبرزُ ما يكونُ في تفسيره «الظلال».

وكلُّ الكُتّابِ والمؤلِّفين هكذا ـ فقد يعالجُ أَحَدُهم الموضوع الواحدَ في عدةِ كتب، ومعنى هذا أَنه قد يكونُ له رأيٌ وتحليلٌ في كتاب، وبعدَ سنوات يغيِّرُ ذلك الرأيَ في كتابٍ آخر، وقد يَطبَعُ الكتابَ نفسَه طبعةً أُخرى، بعد سنوات من الطبعةِ السابقة، فيغيِّرُ رأْيَه في الطبعةِ الجديدة، وهكذا..

وعلى الباحثِ أَنْ يتابعُ كلامَ المؤلِّف عن الموضوعِ الواحد في كلِّ كتبه، وأَنْ يجمعَ كلامَه المتفرقَ في كتبه، ثم ينظرُ فيه مجتمعاً، ليتعرفَ على حقيقةِ رأيِ المؤلف!

وبعضُ الناظرين في كتبِ سيد قطب يغفلُ هذه الناحيةَ، فيقعُ في أَخطاءَ خطيرةٍ في فهمِ حقيقةِ رأي سيد قطب في الموضوع.

فإذا ما وقفَ على كلامِ سيد عن الموضوعِ في موضعٍ ما، ورأَى فيه خطأً، أَعلنَه وجهرَ به، وصرَّحَ بأَنَّ سيد أَخطأَ في الموضوعِ الفلاني، بدليلِ قولِه كذا وكذا!!! ويوردُ عبارتَه بالنصِّ ليُقنعَ القارىءَ بما يقول!!

ولو جَمَعَ كلامَ سيد عن الموضوع نفسِه في الكتب والمواضعِ الأُخرى، ونظرَ فيه مجتمعاً، فسوفَ يزولُ اللَّبسُ الذي عنده حولَه، وتتضحُ الصورةُ عنده، ويُحسنُ فهمَ رأيِ سيد في الموضوع!

كان سيد قطب يُعيدُ النظرَ في أَفكارِه وآرائِه، ويُعَدِّلُ فيها حسبَ مكتسباتِه العلميةِ الجديدة، يُصَوِّبُ لنفسِه، ويصححُ فكْرَه، ويتراجعُ عن خطأ وقعَ فيه، ويعلنُ ذلك صراحةً بجرأةٍ وثقةٍ وتواضع.

ولا يَعرفُ الباحثُ تراجُعَه عن خطأ سابق، وتوضيحَه لفكرةٍ غامضة، إلاّ إِذا وقفَ على كلامِه اللاحق، وجمعَ الموضعيْن.

عبارات موهمة حول وحدة الوجود:

ونورد مثالاً مختصراً، كثر حولَه الكلام، وهو اتهامُ سيد قطب بأَنه يقولُ بوحدةِ الوجود، تلك العقيدةُ الكفريةُ الباطلة، التي لا يقولُ بها مسلم، والتي تقومُ على أنَّ الوجودَ كلَّه وحدةٌ واحدة، وجودُ اللّهِ الخالق، ووجودُ المخلوقين، فالخالقُ والمخلوقُ والربُّ والعبدُ والله والكون والإنسان، وحدةٌ واحدة، وشيءٌ ماديٌّ واحد، لا ينفصلُ فيه شيءٌ عن شيء!!

هذا الضلالُ نسبَهُ بعضُهم إلى سيد، واتهمه بأَنَّه يؤمنُ بهذا الفكر! واعتمدَ على عبارةٍ لسيد قطب في «الظلال»، كَبَّرَها وضَخَّمَها وأَوَّلَها واستنطقَها، واعتبرَها شاهدةً عل ذلك، ومن ثَمَّ أَصدرَ حكْمَه الجائرَ على عقيدةِ سيد، ومن ثَمَّ أَعدمَ فكرَه وإِيمانَه وعلْمَه وكتبه!

يقولُ في تفسير سورة الحديد: وما يكادُ يُفيقُ من تصوُّرِ هذه الحقيقةِ الضخمة التي تملأُ الكيانُ البشري وتفيض، حتى تطالعَه حقيقةٌ أُخرى، لعلَّها أَضخمُ وأَقوى.. حقيقةَ أَنْ لا كينونةَ لشيءٍ في هذا الوجودِ على الحقيقة، فالكينونةُ الواحدةُ الحقيقيةُ هي لله وحده سبحانه!..

... ويتلفَّتُ القلبُ البشري، فلا يجدُ كينونةً لشيء إلاّ لله. وهذه كلُّ مقوماتِ الكينونة ثابتةٌ له دون سواه، حتى وجودَ هذا القلب ذاته لا يتحقَّقُ إلاّ مستمداً من وجود الله، فهذا الوجودُ الإلهيُّ هو الوجودُ الحقيقيُّ الذي يستمدُّ منه كلُّ شيء وجودَه... وهذه الحقيقة هي الحقيقةُ الأُولى التي يستمدُّ منها كلُّ شيء حقيقتَه، وليس وراءَها حقيقةٌ ذاتية، ولا وجودٌ ذاتيٌّ لشيء في هذا الوجود...»[1].

وقال في تفسير سورة الإخلاص: «قل هو الله أحد.. إنها أَحديةُ الوجود.. فليس هناك حقيقةٌ إلاّ حقيقَتُه.. وليس هناك وجودٌ حقيقيٌّ إلاّ وجودُه، وكلُّ موجودٍ آخر فإنما يستمدُّ وجودَه من ذلك الوجودِ الحقيقي.. ويستمدُّ حقيقتَه من تلك الحقيقةِ الذاتية..»[2].

لا نرى في كلامه في هذيْن الموضعيْن قولاً بوحدةِ الوجود، ولا إيماناً بهذه الفكرةِ الضالةِ الكافرة، بينما اعتبرَ بعضُهم الفقرتيْن

(١) في ظلال القرآن ٦: ٣٤٧٩ ـ ٣٤٨٠. باختصار.

(٢) المرجع السابق ٦: ٤٠٠٢ ـ ٤٠٠٦.

قولاً بذلك!! وهَبْ أَنَّ كلامَهم صحيح، وأنَّ الفقرتيْن موهمتيْن غيرَ واضحتيْن، وأَنهما يُفهمُ منهما ذلك. فماذا نفعل؟

وعبارات واضحة محددة في رد وحدة الوجود:

يجب أن نجمعَ كلامَ سيد قطب عن «وحدةِ الوجود» وعن «الألوهية والعبودية» في مختلفِ المواضعِ المتفرقة في تفسيره «الظلال»، وفي كتبه الأُخرى، وعلى رأْسها: «خصائص التصور الإسلامي» و«مقومات التصور الإسلامي». إذا أَرَدْنا أَنْ نكون عادِلين منصفين، وأَنْ يكون كلامُنا موضوعياً منهجياً!!

قالَ في الطبعة المنقحة من «الظلال» ـ أي بعدَ كلامِه السابق المبهم الموهم ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٥].

«... وهذه صفةٌ أُخرى من صفاتِ الله، توضِّحُ مقامَ الأُلوهية ومقامَ العبودية.. فالعبيدُ جميعاً يقفونَ في حضرةِ الأُلوهية موقفَ العبودية، لا يتعدّونه ولا يتجاوزَونه..

وفي ظلِّ هذه الحقيقة تبدو سائرُ التصوراتِ المنحرفةِ للذين جاؤوا من بعدِ الرسل، فَخلطوا بينَ حقيقةِ الأُلوهية وحقيقةِ العبودية، فزعموا اللّهَ ـ سبحانه ـ خليطاً يمازجُه أو يشاركُه بالبنوَّة، أو بغيرها من الصور، في أَيِّ شكل وفي أَيِّ تصور..

... وهذه هي النصاعَةُ التي يتميزُ بها التصورُ الإِسلامي، فلا تَدَعُ مجالاً لتلبيسٍ أو وهم، أو اهتزازٍ في الرؤية، الأُلوهية أُلوهية،

والعبوديةُ عبودية، ولا مجالَ لالتقاءِ طبيعتِهما أَدنى التقاء.. والربُّ رب، والعبدُ عبد، ولا مجالَ لمشاركةٍ في طبيعتهما ولا التقاء...»[1].

وفي موضعٍ آخرَ من الظلال يقولُ بوضوحٍ وصراحةٍ وتحديد: «والنظريةُ الإسلامية: أَنَّ الخلقَ غيرُ الخالق، وأَنَّ الخالق ليس كمثله شيء.. ومن هنا تنتفي من التصور الإسلامي فكرةُ: «وحدة الوجود» على ما يفهمُه غيرُ المسلم من هذا الاصطلاح ـ أيْ بمعنى أنَّ الوجودَ وخالقَه وحدةٌ واحدة، أَو أَنَّ الوجودَ إِشعاعٌ ذاتيٌّ للخالق، أو أَنَّ هذا الوجودَ هو الصورةُ المرئيةُ لموجِدِه.. أو على أَيِّ نحوٍ من أَنحاءِ التصوُّرِ على هذا الأساس.

والوجودُ وحدةٌ في نظرِ المسلم على معنى آخر: وحدةُ صدورِه عن الإِرادةِ الواحدةِ الخالقة، ووحدةُ ناموسه الذي يَسيرُ به، ووحدةُ تكوينِه وتناسُقِه واتجاهه إلى ربِّه في عبادةٍ وخشوع..»[2].

وقالَ عن نفسِ الموضوع في كتابِ خصائص التصور الإسلامي: «إِنَّ الإِسلامَ يبدأُ فيفصل فصلاً تاماً كاملاً بين حقيقةِ الأُلوهية وحقيقةِ العبودية.. وبين مقام الأُلوهية ومقام العبودية،

---

(١) في ظلال القرآن ١: ٢٨٨. باختصار.

(٢) المرجع السابق: ١٠٦.

وبين خصائص الأُلوهية وخصائص العبودية.. بحيث لا تقومُ شبهةٌ أو غبشٌ حول هذا الفصلِ الحاسمِ الجازم..»[1].

نكتفي بهذه الأَمثلةِ الثلاثة الصريحةِ الواضحةِ الحاسمة في نقضِ سيد قطب لفكرةِ «وحدة الوجود» الكافرة، وهناك عشراتُ المواضعِ الواضحةِ في «الظلال» و«الخصائص» و«المقومات» وغيرها.

أَلا تكفي هذه الأَمثلةُ الواضحةُ في إِزالةِ اللَّبْس عن العباراتِ الموهمة المبهَمةِ في تفسيرِ سيد لسورتَيْ الحديد والإِخلاص، ومعرفةِ حقيقةِ رأيه في هذه المسألة؟

أَعتقدُ أَنها تكفي لو صَفَتْ القلوبُ، وصَلحت النفوس، واستقامت النيّات!!

ولذلك لا بُدَّ من جمعِ كلامِ سيد قطب المتفرق عن الموضوعِ الواحد، والنظرِ فيه مجتمعاً، لمعرفةِ حقيقةِ رأْيه فيه!

٦ ـ إغفال المنهج الإسلامي في النظر في أقوال سيد قطب عند تعارضها:

وهذا خطأٌ كبيرٌ أَيضاً، وقعَ فيه بعضُ الناظرين في فكرِ سيد قطب، وهو أَنهم قد يقفون على عباراتٍ متعارضة أَحياناً لسيد قطب في بعضِ الموضوعات، فيغفلون المنهجَ الإِسلاميَّ العادلَ

---

(١) خصائص التصور الإسلامي: ١٥٥.

في التعاملِ معها، وبما أنَّ بعضَ هؤلاء ممن وقعوا في بعضِ الأَخطاء الخمسةِ المذكورة سابقاً، ويَهدفون إلى الْتقاطِ ما يرونَه خطأً في فكرِ سيد، ويُكَبِّرونَه ويُضَخِّمونه للحكمِ عليه، فلذلك يعتمدونَ العبارةَ التي يعتبرونَها وثيقةَ إدانةٍ ضدَّ فكر سيد، ولو تعارضَ ذلك مع المنهجِ الإسلامي في النظرِ في الأقوال المتعارضةِ في الظاهر.

المنهجُ الإسلامي في الجمع بين الأَقوالِ المتعارضة يقومُ على أَربعِ مراحل متدرجة، كما قررَ ذلك علماءُ الأُصول:

أولاً: الجمعُ بين النصوصِ المتعارضة، والاجتهادُ في التوفيق بينها، من خلالِ طرق التوفيقِ الصحيحة.

ثانياً: إذا لم يُمكن التوفيقُ بين تلكَ الأَقوال، فيُلجأُ إلى الترجيح، بأَنْ يرجَّحَ القولُ المتفقُ مع طرقِ الترجيحِ الصحيحة.

ثالثاً: إذا لم يُمكن الترجيحُ بينها، فيُلجأُ إلى القولِ بالنسخ، حيثُ يَنسخُ القولُ المتأَخِّرُ القولَ المتقدم الذي سبقه، وقالَه المؤلِّفُ أَولاً.

رابعاً: إذا لم يُمكن القولُ بالنسخ، ولم يمكن تحديدُ المتأخر والسابق، يُسْقَطُ اعتبارُ تلك الأَقوالِ المتعارضة، وتُلغى كلُّها، ولا يُعتمدُ واحدٌ منها!

قالَ الشيخُ عبد الوهاب خلاف: «إذا تعارضَ النّصّان ظاهراً،

وجبَ البحثُ والاجتهادُ في الجمعِ والتوفيقِ بينهما، بطريقٍ من طرقِ الجمع والتوفيق، فإنْ لم يمكنْ، وجبَ البحثُ والاجتهادُ في ترجيحِ أَحدِهما بطريقٍ من طرق الترجيح، فإن لم يمكنْ هذا ولا ذاك وعُلِمَ تاريخُ ورودهما كان اللاحقُ منهما ناسخاً للسابق، وإنْ لم يُعْلَمْ تاريخ ورودِهما توقَّفَ عن العملِ بهما..

وإذا تعارض قياسان أو دليلان من غيرِ النصوص ولم يُمكن ترجيحُ أَحدهما عُدِلَ عن الاستدلالِ بهما..»[١].

وطرقُ الترجيح ـ في المرحلةِ الثانية من مراحلِ النظرِ في النصوصِ المتعارضة ـ هي: ترجيحُ دلالةِ العبارة على دلالةِ الإشارة، وترجيحُ المنطوقِ الصريحِ على المنطوقِ غيرِ الصريح، وترجيحُ المنطوقِ الصريح على المفهوم، وترجيحُ المفسّر على الظاهر[٢]..

ولو التزمَ الناظرونَ في فكر سيد قطب بهذه المراحلِ والخطواتِ المنهجية، وتعامَلوا مع كلامِه على أَساسها، لخرجوا بنتائجَ صحيحة، وأَصدروا عليه أَحكاماً صائبة، وعندها تزولُ اعتراضاتٌ وشبهات وإشكالات عديدة، أُثيرتْ حولَ سيد قطب وفكره..

---

(١) علم أصول الفقه لعبد الوهاب خلاف: ٢٢٩.

(٢) انظر المرجع السابق: ٢٣١ ـ ٢٣٢.

يطبقون على كلام سيد قطب مفهوم المخالفة:

وإِغفال هؤلاء الناظرين للمنهجِ الإِسلاميِّ في النظر في أَقوالِ سيد قطب المتعارضة قادَهم إلى خطأ خطير، هو تطبيقُ «مفهومِ المخالفة» على كلامِ سيد!

يقرأُ أحدُ هؤلاء عبارةً لسيد قطب، ولا يكلِّفُ نفسَه أَنْ يجمعَ معها مثيلاتِها، وإِنما يُقَوِّلُها ما ليسَ فيها، ويستخرِجُ منها ما لم يقلْ سيد فيها، وينسبُ لسيد رأياً لم يقلْه، ويُلزمُه بأَشياءَ لم تلزمْه، وذلك بسبب تطبيقِ «مفهوم المخالفة» على تلك العبارة.

قال الدكتور عدنان زرزور: «... ليس معنى حديثِ سيد رحمه الله عن المجتمعِ الجاهليِّ أنْ نسارعَ إلى تخريجِه على دارِ الحرب، وسحبِ أَحكامِ هذه الدار ـ التي ذكَرها الفقهاء ـ على هذا المجتمع، بحجةِ أَنه ليس دارَ إِسلام فهو إِذَنْ دارُ حرب، ونُطبِّقُ عليه مِنْ ثَمَّ أَحكامَ دار الحرب التي ذكَرها الفقهاء..

ليسَ هذا ما عناهُ سيد رحمه الله، بل لعلَّ هذا الفهمَ لكلامه من أَسوأَ ما يمكن تأويلُه به أو حملُه عليه!

... ولعلَّ هذا الخطأَ في الفهم والتأويل ـ في هذا المثال وأَمثاله ـ جزءٌ من خطأ أكبر في التعاملِ مع الظلال والأَخذِ عنه، وهو خطأُ اعتمادِ مفهومِ المخالفة لكلامِ سيد رحمه الله، والتي لو

طَرَحَها القراءُ والدارسونَ في فهمِ كلامِه رحمه الله، لانتهتْ أكثرُ المشاكل من أذهانِ أَصحابها...»[1].

إِنَّ اعتمادَ بعضِهم لمفهومِ المخالفة وتطبيقَه على فكر سيد قطب، جعلَهم ينسبونَ له أَقوالاً لم يقلْها، وأَحكاماً لم يُصْدِرْها.. وأَلزموه بلوازمَ لا تلزمُه، لأَنه صرحَ في مواطنَ أُخرى بنقضِها ونفيها!

وإِذا كان لازمُ المذهب ليس بمذهب، فإِنه لا يجوز لنا أَنْ نُلزمَ صاحبَ المذهب به، لا سيما أَنه صرحَ في موضعٍ آخر بنفيه!! وإِلزامُه به يكونُ افتراءً عليه!

هذه الأَخطاءُ الستة هي أَهمُّ أَخطاءِ التعاملِ مع فكر سيد قطب، وهي التي أَوقعَتْ أَصحابَها في أَخطاء في الأَحكام التي أَصدروها على فكرِ سيد، والنتائج التي خَرجوا بها، ولا غَرابةَ في ذلك، لأَنَّ ما بُنيَ على الخطأ فهو خطأ.

ولو التزمَ الناظرون في فكرِ سيد قطب بالعلميةِ والمنهجية، وتخلّوا عن تلك الأَخطاءِ في التعامل معه. لزالت معظمُ الإِشكالات التي أَثاروها على فكره، وتخلَّوا عن معظمِ الاعتراضات التي اعترضوها عليه، لأَنها ثمرةٌ لتلك الأَخطاء!!

---

(١) علوم القرآن للدكتور عدنان زرزور: ٤٢٧ ـ ٤٢٨.

خاتمة
شهادات إِنصاف لسيد قطب

نختمُ هذه الدراسةَ عن حياةِ سيد قطب وتراثِه الأَدبي والفكري، وريادتِه للفكرِ الإسلامي، وفقهِ الدعوةِ والحركة والجهادِ والمواجهة بتسجيل شهاداتِ إِنصافٍ له، تضعُ النقاطَ على الحروف، في مسائلَ أُثيرتْ حولَ فكرِه الدعويِّ الحركي الإِسلامي، وتذكُرُ وجْهَ الحقِّ بمنتهى الإِيجاز والاختصار.

وقد اخترْنا ثلاثَ شهادات، صادرةً عن ثلاثةِ رجال، هم قادةٌ في الفكرِ الإِسلاميِّ المعاصر، والدعوةِ الإِسلامية المعاصرة.

الأُولى: شهادة شقيقه الأُستاذ محمد قطب:

في بدايةِ عام ١٩٧٣ نشرتْ مجلةُ «الشهاب» الإِسلامية اللبنانية، مقالاً للمهندس «عبد الله أبو عزة» ـ أَحدِ قادةِ تنظيمِ الإِخوان المسلمين الفلسطينيين، سَجَّلَ فيه عدةَ اتهاماتٍ لسيد قطب وفكرِه ونظرتِه إلى فقه الدعوة والحركة، وقد تركَ السيد أبو عزة تنظيمَ الإِخوان المسلمين بعدَ ذلك!

وأَثارتْ مقالاتُ أَبي عزة في مجلةِ الشهاب ردودَ فعلٍ عديدةً حادّةً عنيفةً قاسية، وانقسمَ المتجادلون من الإِسلاميين على صفحاتِ المجلة إلى فريقيْن:

فريقٌ منصفٌ لسيد قطب وفكرِه، بَيَّنَ وجْهَ الحقِّ في المسائلِ الفكرية والفقهية والدعوية المثارة، وحقيقةِ رأيِ سيد قطب الموضوعيِّ فيها.

وفريقٌ متحاملٌ على سيد قطب وفكرِه وفقهِه الدعوي، كالَ لسيد قطب الاتهاماتِ جزافاً، وأَساءَ فهمَ واستيعابَ وتأويلَ كلامه!

واستاءَ كثيرٌ من الإِسلاميين مِن هذه المعركة، ومِنْ تحامُل بعضِ الدعاةِ من الإِخوان المسلمين وغيرهم على سيد قطب، واتهامِهم له بالباطل، ولَمّا يمضِ على استشهادِه سبعُ سنوات!

واطلعَ الأُستاذ محمد قطب على بعضِ هذا الجدل والصخب، وكان حديثَ عهدٍ في الخروج من السجن، لأَنه أُفرج عنه عام ١٩٧٢، بعد توقيفٍ زادَ على سبع سنوات.

رسالة محمد قطب إلى كمال السنانيري:

كتب الأستاذ محمد قطب رسالةً إلى الأُستاذ الشهيدِ كمال السنانيري ـ أَحدِ قادةِ الإِخوان المسلمين في مصر، وهو زوجُ المجاهدة أَمينة قطب، وقد استُشهد بعدَ ذلك في سجنِ السادات!

وقد وضَّحَ في رسالتِه وجْهَ الحق في كثيرٍ من القضايا المثارة. ونشرتْ مجلةُ الشهابِ اللبنانية رسالةَ الأُستاذ محمد قطب إلى السنانيري: وفيما يلي نصُّ الرسالة:

«أخي...

السلامُ عليكم ورحمةُ الله وبركاته، وبعد:

فإنكَ تعلم يا أَخي ما دارَ من لَغَطٍ في محيط الإِخوان، حولَ كتاباتِ الشهيدِ سيد قطب، وما قيل من كونها مخالفةً لفكرِ الإِخوان، أَو جديدةً عليه.

وأُحِبُّ في هذا المجال أَنْ أُثبتَ مجموعةً من الحقائق أُحِسُّ بأَنني مطالَبٌ أَمامَ الله بتوضيحِها، حتى لا يكونَ في الأَمر شبهة..

إِنَّ كتابات سيد قطب قد تركَّزَتْ حولَ موضوعٍ معين، هو: بيانُ المعنى الحقيقي للا إِله إِلاّ الله، شعوراً منه بأَنَّ كثيراً من الناس لا يُدركون هذا المعنى على حقيقته، وبيانُ المواصفاتِ الحقيقية للإيمان، كما وردَتْ في الكتابِ والسُّنَّة، شعوراً منه بأن كثيراً من هذه المواصفاتِ قد أُهمل، أو غَفل الناسُ عنه!

ولكنَّه مع ذلك حرصَ حِرْصاً شديداً على أَنْ يُبيِّنَ أَنَّ كلامَه هذا ليسَ مقصوداً به إِصدار أَحكامٍ على الناس، وإِنما المقصودُ به تعريفَهم بما غفلوا عنه من هذه الحقيقة، ليتبَّنوا هم لأنفسهم: إِنْ

كانوا مستقيمين على طريقِ الله كما ينبغي، أَمْ أَنهم بعيدون عن هذه الطريق، فينبغي لهم أَنْ يعودوا إليه..

ولقد سمعتُه بنفسي أَكثرَ من مرة يقول: «نحنُ دعاةٌ لَسْنا قضاة!».

إنَّ مهمتَنا ليستْ إِصدارَ الأَحكام على الناس، ولكنَّ مهمتَنا تعريفُهم بحقيقةِ «لا إله إلا الله»، لأنَّ الناسَ لا يعرفون مقتضاها الحقيقي، وهو التحاكمُ إلى شريعةِ الله!

كما سمعتُه أكثرَ من مرة يقول: إنَّ الحكْمَ على الناس يسلتزمُ وجودَ قرينةٍ قاطعةٍ لا تَقْبَلُ الشّك! وهذا أَمْرٌ ليس في أَيدينا، ولذلك فنحنُ لا نتعرضِ لقضيةِ الحكمِ على الناس، فضلاً عن كوننا دَعوةً ولسنا دولة، دعوةً مهمتُها بيانُ الحقائق للناس، لا إِصدارُ الأَحكام عليهم...

أَمّا بالنسبةِ لقضيةِ المفاصلة، فقد بَيَّنَ في كلامه أَنها المفاصلة الشعورية، التي لا بدَّ أَنْ تنشأَ تلقائياً في حسِّ المسلم الملتزم، تجاهَ من لا يلتزمونَ بأَوامرِ الإِسلام، ولكنها ليست المفاصلةَ الحسيةَ المادية، فنحنُ نعيشُ في هذا المجتمع، وندعوهُ إلى حقيقةِ الإِسلام، ولا نعتزلُه! وإلاّ فكيفَ ندعوه؟

تعقيب محمد قطب على أفكار شقيقه الشهيد:

تلك خلاصة كتابات سيد قطب.. ولي على هذه الخلاصةِ تعقيبان:

الأَول: هو تأكُّدي الكامل ـ بإِذن الله ـ من أَنه ليس في هذه الكتاباتِ ما يخالفُ الكتابَ والسُّنَّة، اللّذيْن تقومُ عليهما دعوةُ الإخوان المسلمين.

الثاني: هو تأكُّدي الكاملُ ـ أيضاً ـ من أَنه ليس في هذه الكتابات ما يخالفُ أَفكارَ الإمامِ الشهيد حسن النبا، مؤسِّسَ هذه الجماعة، ولا ما يُخالفُ أَقوالَه...

وهو الذي قال في رسالةِ «التعاليم» ـ في البندِ العشرين ـ على أَنَّ المسلمَ الذي لا يجوزُ تكفيرُه هو: الذي نطقَ بالشهادتين، وعملَ بمقتضاهُما، وأَدّى الفرائض..

وذلك فضلاً عن كونِ كتاباتِ سيد قطب ـ كما أَسلَفْت ـ لم يَقْصِدْ بها إِصدارَ الأَحكامِ على الناس، وإِنما كان قصدُه منها ـ كما قَصَدَ الإِمامُ الشهيد بالضبط ـ وهو بيانُ حقيقةِ الإسلام، ومواصفاتِ المسلم، كما وردتْ في كتابِ الله، وسُّنةِ رسوله ﷺ.

تلكَ حقائق، أَرى أَنَّ من واجبي أَنْ أُبيِّنَها وأُوَضِّحَها، أَداءً للشهادةِ لله، فإِننا لا ندري متى نلقى الله.. ولا يَنبغي لنا أَنْ نلقاهُ وقد كتمْنا شهادةً عندنا لله!. واللّهُ الموفقُ إلى سواءِ السبيل..»[1].

---

(١) مجلة الشهاب اللبنانية: العدد الخامس. السنة التاسعة. تاريخ ٢٥ شعبان ١٣٩٥ هـ. ومجلة الكويتية. عدد: ٧٢١. تاريخ: ١٧ شوال ١٣٩٥هـ.

الثانية: شهادة عمر التلمساني: المرشد العام للإخوان المسلمين:

الأُستاذُ عمر عبد الفتاح التلمساني هو المرشدُ العامُّ الثالث لجماعة الإخوان المسلمين، وقَدَّمَ شهادةً لسيد قطب وفكره ثمينةً قيمة.

وقيمةُ هذه الشهادة أَنها صادرةٌ عن مرشدِ عامٍّ الإِخوان وقائدِهم، وصاحب المرجعيةِ القيادية الأُولى فيهم،، ونقدِّمُ هذه الشهادةَ للذين يستمرّون في الطعنِ في سيد قطب وفكره، وهم من «الإِخوان المسلمين» المتلزمين بتنظيمِ الجماعة! ونقول لهم: أَلا تكفيكمُ شهادةُ المرشد العام للجماعة؟

قال التلمساني رحمه الله في كتابه «ذكريات لا مذكرات» عن فكرِ سيد قطب:

«أَذْكُرُ أَنَّ الشهيد سيد قطب له مؤلَّفاتٌ عدة وجيدة، على مستوى رفيع، منها: في ظلال القرآن، والعدالةُ الاجتماعيةُ في الإسلام، ومعالم في الطريق.

وتمتازُ هذه المؤلَّفاتُ بالنقمةِ على الظلم فِي كلِّ مظاهره، والحرصُ على رفعِ المعاناة عن كلِّ الطبقات، وأَنْ تسودَ مصرَ الحرية، التي ليس لها حدود، إلاّ فيما أَحَلَّ اللّهُ وحرم، وما تواضعَتْ عليه الأُممُ الراقيةُ ذاتُ الحرياتِ الواسعة.

هذه هي المبادىءُ والمتطلبات التي تسودُ مؤلفاتِه، والتي سعى إلى تحقيقِها طوالَ حياته، مع إِيمانه الكامل بأَنَّ ذلك لن

يكونَ إلاّ إذا طبقت الحكوماتُ شرعَ الله. فهو لا يَرى في غيره إصلاحاً ولا نجاحاً.

ثناء التلمساني على سيد قطب وكتبه:

فليس إذن في «معالم في الطريق» جديدٌ في فكر سيد قطب، ولكن بما أَنَّ «معالم في الطريق» كتبه الشهيدُ في السجن، بعدَ أَنْ ذاقَ أَلوانَ العذابِ على مختلفِ قسوتِها ووحشيتِها، فقد بدتْ نقمتُه على مخالفةِ الشرع أَوضحَ وأَظهر..

وما أَرادَ الشهيدُ الأُستاذُ سيد قطب في يومٍ من الأَيام أَنْ يكفِّرَ مسلماً، لأَنه من أَعلمِ المسلمين بأَنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ في أَكثر من حديث: إِنَّ مَنْ قال لا إله إلا الله، مؤمناً بها قلبُه، لن يُخَلَّدَ في النار.. ونحن نعلمُ أَنه لَنْ يُخَلَّدَ في النار إِلا الكافرون، وهم الذين يُنكرونَ وحدانيةَ الواحد القهار!

هذه واحدة، والثانية: أَن كثرةَ تردادِه لكلمةِ «المجتمع الجاهلي» لم يقصِدْ بها تكفيرَ المجتمع، ولكن تشديدَ النكيرِ على الظلمةِ والطغاة والمستغلين والمشكِّكين!

وهو أُسلوبٌ تعرفه اللغةُ العربية، ففي العذاب ـ وهو ترهيبٌ وتخويف ـ يقولُ الله: «فبشره بعذاب أليم»، والبُشرى لا تُساقُ إلاّ في مجالِ الخير والنعيم.. وفي كثيرٍ من أَحاديثِ رسول الله ﷺ: «ليس مِنّا مَنْ فعلَ كذا». «أو قال كذا». ولم يَقصد بذلك

التكفير، ولكن أنَّ ذلك ليسَ من سُنتنا أو عملنا، والقصدُ تقليلُ الدرجات!!

والذين يعرفونَ الشهيدَ سيد قطب ودماثَةَ خلقِه، وجَمَّ أَدبه وتواضعَه، ورقةَ مشاعره، يَعرفون أَنه لا يكفِّرُ أَحداً!!

إِنه داعيةٌ إِسلامي، من عيون دُعاةِ المسلمين! ظَلَمَه مَنْ أَخذ كلامَه على غيرِ مقاصده، ومَنْ هاجَموه متجنّين، لما رأَوا من عميقِ تأثيرِ كلماتِه وكتاباتِه على الشباب الطاهر النظيف!

هذا موجزٌ مقتضبٌ للمبادىء التي قامَ عليها كتاب «معالم في الطريق».. وقد كانَ لي شرفُ الاطّلاع عليه قبلَ طبعه، ونحنُ في مستشفى «ليمان طرة». ولا يتسعُ المجالُ لأَكثرَ من ذلك، في موضوع يحتاجُ إلى مؤلفات!

لقد تحدثتُ عن الشَّهيد «سيد قطب» بما فيه الكفاية.. وأُضيفُ أَنه لمَّا أُفرجَ عنه أَول الأَمر أَرسلَ إِليَّ وأَنا في السجن، يُخبرني أَنَّ الجمهوريةَ العراقية طلبتْهُ ليعملَ في مجالاتِ التعليم والتربية هناك! واستشارَني في الرفضِ أَو القبول! وكان رأيي أَنْ يَقبل، لتخوُّفي مما كنتُ أَتوقعُه بالنسبةِ له من رجالِ الانقلاب.. ولكنه آثرَ البقاءَ في مصر، ليدافعَ عن رأيه.. وهو قَدَرُ الله، الذي لا ينفعُ معه احتياطٌ ولا حذر...»[1].

---

(١) ذكريات لامذكرات لعمر التلمساني: ٢٨٠ ـ ٢٨١.

الثالثة: شهادة الدكتور بكر أبو زيد:

كتبَ «ربيعُ بن هادي عمير المدخلي» ـ عضوُ هيئةِ التدريس في الجامعةِ الإِسلامية في المدينة أَكثرَ من كتابٍ في الطَّعن في سيد قطب وفكره. ومن أشهرِ كتبه في ذلك كتابان:

الأَول: أَضواءٌ إِسلامية على عقيدةِ سيد قطب وفكره.

والثاني: مطاعن سيد قطب في أَصحابِ رسول الله ﷺ.

وأَصدرَ الكتابين عام ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م. ونشرتْهما «مكتبةُ الغرباء الأَثرية» في المدينة.

وقد أَساءَ ربيعُ بن هادي المدخلي القولَ في سيد قطب وفكرِه، وكانَ في كلامه «متجنِّياً متحامِلاً» عليه، وقد توفَّرَتْ فيه الأَخطاءُ التي سجلْناها سابقاً، في تعاملِ بعضِهم مع سيد قطب وفكرِه..

يبدو ذلك من بعضِ العناوين الصارخة المثيرة في كتاب «أَضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب وفكره». منها: شذوذُ سيد في تفسيرِ «لا إله إلا الله» عن أَهل العلم. عدمُ وضوحِ الربوبية والأُلوهية عند سيد وفي ذهنه. سيد وتكفيرُ المجتمعاتِ الإِسلامية. قولْ سيد بخلقِ القرآن وأَن كلامَ الله عبارةٌ عن الإرادة. قولُ سيد بعقيدةِ وحدةِ الوجود والحلولِ والجبر. غلوُّ سيد في تعطيلِ صفاتِ الله كما هو شأَنَ الجهمية. إنكارُه للميزان على طريقةِ المعتزلة والجهمية. اعتقادُ سيد أَنَّ الروحَ أزليةٌ منفصلةٌ عن ذات

الله. سيد يُجَوِّزُ للبشرِ أَنْ يُشَرِّعوا قوانينَ لتحقيقِ حياةٍ إسلامية صحيحة. إِيمانُ سيد قطب بالاشتراكية المادية الغالية[1]...

وإذا كانتْ هذه العناوينُ بهذه الحدَّة والتحامل، فكيفَ يكونُ تحامُلُ وتجنّي كاتبها في المضمون؟

ولا يَعنينا هنا تفنيدُ اتهامات «ربيع بن هادي» لسيد قطب وفكرِه، وبيانِ تحامُله وتجنّيه عليه، وإنما يَعنينا تسجيلُ شهادةٍ منصفةٍ للدكتور بكر أبو زيد.

بكر أبو زيد يرفض تجني ربيع بن هادي على سيد قطب:

لما أنهى ربيع بن هادي المدخلي كتابه «أَضواء إِسلامية على عقيدة سيد قطب وفكره»، وقبلَ أن يدفَعَه للطبع أَرسلَه إلى الأُستاذ الدكتور «بكر بن عبد الله أبو زيد» ليقرأَه، وينظرَ في الملاحظاتِ التي قد تُسَجَّلُ عليه!

وقرأَ بكر أَبو زيد كتابَ ربيع بن هادي، وساءَهُ اتهاماتُ المدخلي لسيد قطب، ورأى أنَّ كتابَه لا يصلحُ للنشر.

وأَرسلَ إلى ربيع المدخلي رسالةً قيمة، سَجَّلَ فيها نصحَه له، وأَبرزَ له فيها أَخطاءَه التي وقعَ فيها، وأَثبتَ فيها شهادةَ إنصافٍ لسيد قطب قيمة، لأَنها صادرةٌ عن رجلٍ عالم، من كبارِ علماء

---

(١) انظر فهرس كتاب «أضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب وفكره» للمدخلي: ٢٣٩ ـ ٢٤٠.

«الاتجاه السلفي»، له منزلةٌ عاليةٌ عند هؤلاء في داخلِ السعودية وخارجها، وله منزلةٌ عالية عند المسلمين المعاصرين.

نص رسالة بكر أبي زيد لربيع بن هادي:

ونثبت في ما يلي الرسالة الناصحة التي أَرسلها الدكتور بكر أَبو زيد لربيعِ المدخلي:

بسم الله الرحمن الرحيم

فضيلة الأَخ الشيخ: ربيع بن هادي مدخلي الموقر

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. وبعد..

فأُشيرُ إلى رغبتكم قراءةَ الكتابِ المرفق: «أَضواء إِسلامية على عقيدة سيد قطب وفكره». هل من ملاحظات عليه؟ ثم هذه الملاحظات هل تَقضي على هذا المشروع، فيُطوى ولا يُروى؟ أَمْ هي مما يمكن تعديلُها، فيترشحُ الكتاب بعدُ للطبع والنشر؟ ويكونُ ذخيرةً لكم في الآخرة، بصيرةً لمن شاء الله من عباده في الدنيا!

ملاحظات بكر أبو زيد على كتاب ربيع بن هادي:

لهذا أبدَي ما يلي:

١ ـ نظرْتُ في أَولِ صفحةٍ منه «فهرس الموضوعات» فوجدتُها عناوين قد جمعَتْ في سيد بطب ـ رحمه الله تعالى ـ أُصولَ الكفر، والإِلحاد، والزندقة: القولُ بوحدة الوجود، القولُ

بخلقِ القرآن، يُجَوِّزُ لغيرِ الله أَنْ يُشَرِّع، غلوُّه في تعطيلِ صفاتِ الله تعالى، لا يَقبلُ الأَحاديثَ المتواترة، يشكِّكُ في أُمورِ العقيدة التي يَجبُ الجزمُ بها، يُكَفِّرُ المجتمعات...

إِلى آخرِ تلك العناوين، التي تقشعِرُّ منها جلودُ المؤمنين!!

وأَسِفْتَ على أَحوالِ علماءِ المسلمين في الأَقطار، الذين لم يُنَبِّهوا على هذه الموبقات! وكيفَ الجمعُ بين هذا وبين انتشارِ كتبه في الآفاقِ انتشارَ الشمس، وعامَّتُهم يستفيدونَ منها، حتى أَنتَ في بعض ما كتبت!

عند هذا أَخذتُ بالمطابقةِ بين العنوان والموضوع، فوجدتُ الخبرَ يكذبُه الخبر! ونهايتُها بالجملة عناوينُ استفزازية، تجذبُ القارىءَ العاديَّ إلى الوقيعةِ في سيد ـ رحمه الله تعالى ـ.

وأَما القارىءُ الذي عنده قدرٌ يسير من البصيرة، فإِنه إِذا قرأَ الموضوعَ داخل الكتاب، سيجدُ عنده ردةَ فعلٍ قوية نحو ما كتبت، وعودةَ الحنين إلى كتبِ سيد ـ رحمه الله تعالى ـ.

وإِني أَكرهُ لي ولكم ولكلِّ مسلم، مواطنَ الإِثم والجُناح.. وإِنَّ من الغبنِ الفاحشِ إِهداءُ الإِنسانِ حسناتِه إلى مَن يعتقدُ بغْضَه وعداوتَه!

٢ ـ نظرتُ، فوجدتُ هذا الكتاب يفتقدُ «أُصولَ البحثِ العلمي»: الحيدةُ العلمية، منهجُ النقد، أَمانةُ النقل والعلم، عدمُ هضمِ الحق!

كتاب ربيع بن هادي يفتقد أدب الحوار وأمانة النقل:

أما أدب الحوار، وسموُّ الأسلوب، ورصانةُ العرض، فلا تمتُّ إلى الكتاب بهاجس!! وإليك التدليل.

أولاً: رأيتُ الاعتمادَ في النقل من كتبِ سيد ـ رحمه الله تعالى ـ من طبعاتٍ سابقة، مثل «الظلال» و«العدالة الاجتماعية». مع علمِكم أَنَّ لها طبعاتٍ معدَّلَة لاحقة!

والواجبُ حسبَ أُصولِ النقد والأَمانة العلمية تسليطُ النقدِ ـ إِنْ كان ـ على النصِّ من الطبعةِ الأَخيرة لكلِّ كتاب، لأَنَّ ما فيها من تعديل، ينسخُ ما في سابقتها!

وهذا غيرُ خافٍ ـ إن شاء الله تعالى ـ على معلوماتِكم الأَوَّلية. لكن لعَلَّها غلطةُ طالب، حَضَّرَ لكم المعلومات، ولَمّا يَعْرِفْ هذا؟

وغيرُ خافٍ أَيضاً ما لهذا من نظائرَ لدى أَهلِ العلم! فمثلاً كتابُ «الروح» لابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ لَمّا رأَى بعضُهم فيه ما رأَى، قال: لعلَّه في أَوَّلِ حياته!.. وهكذا في مواطنَ لغيره..

وكتاب «العدالة الاجتماعية» هو أولُ ما أَلَّفَه في الإسلاميات والله المستعان!

ثانياً: لقد اقشعرَّ جلدي حينما قرأتُ في فهرس هذا الكتاب قولُكم: «سيد قطب يَجَوِّزُ لغيرِ الله أَنْ يُشَرِّع»!! فهرعْتُ إِليها قبلَ كل شيء، فرأيتُ الكلامَ بمجموعهِ نقلاً واحداً لسطورٍ معدودة من

كتابه «العدالة الاجتماعية». وكلامُه لا يفيدُ هذا العنوان الاستفزازيَّ!!

ولْنفرضْ أَنَّ فيه عبارةً موهمةً أو مطلقة، فكيفَ نُحَوِّلُها إلى مؤاخذةٍ مكَفِّرة؟ تنسفُ ما بنى عليه سيد ـ رحمه الله تعالى ـ حياتَه، ووظَّفَ له قلمه، من الدعوةِ إلى توحيدِ الله تعالى في «الحكم والتشريع»، ورفضِ سَنِّ القوانين الوضعية، والوقوفِ في وجوهِ الفَعلة لذلك!!

إنَّ اللّهَ يحبُّ العدلَ والإنصافَ في كلِّ شيء، ولا أَراك ـ إن شاء الله تعالى ـ إلاّ في أَوبةٍ إلى العدلِ والإنصاف!!

ثالثاً: ومن العناوينِ الاستفزازية قولُكم: «قولُ سيد قطب بوحدة الوجود..»!!

إِنَّ سيداً ـ رحمه الله تعالى ـ قالَ كلاماً متشابهاً، حَلَّقَ فيه بالأُسلوب، في تفسيرِ سورتي الحديد والإخلاص، وقد اعْتُمِدَ عليه بنسبةِ القولِ بوحدةِ الوجودِ إليه!

وأَحسنْتُم حينما نقلْتُم قولَه في تفسيرِ سورة البقرة، من ردِّهِ الواضحِ الصريحِ لفكرةِ وحدةِ الوجود، ومنه قولُه: «ومن هنا تَنتفي من التفكير الإِسلامي الصحيحِ فكرةُ وحدةِ الوجود».

وأَزيدكم: إنَّ في كتابه «مقومات التصور الإسلامي» ردّاً شافياً على القائلين بوحدة الوجود.

لهذا فنحنُ نقول: غَفَرَ اللّهُ لسيد كلامَه المتشابه، الذي جَنَحَ فيه بأُسلوب، وَسَّعَ فيه العبارة! والمتشابهُ لا يُقاومُ النَّصَّ الصريحَ القاطِعَ من كلامه!

لهذا أَرجو المبادرةَ إلى شطبِ هذا التكفيرِ الضمني لسيد ـ رحمه الله تعالى ـ وإِني مشفقٌ عليكم!!

رابعاً: وهنا أَقولُ لجنابكم الكريم بكلِّ وضوح: إِنكَ تحتَ هذه العناوين «مخالفتُه في تفسيرِ لا إله إلا الله للعلماء وأَهل اللغة» و«عدمُ وضوحِ الربوبية والألوهية عند سيد»..

أَقول: أَيها المحب الحبيب ـ لقد نَسَفْتَ بلا تثبُّت،جميعَ ما قرَّرَه سيد ـ رحمهُ الله تعالى ـ من معالمِ التوحيد، ومقتضياتِه ولوازمِه التي تحتلُّ السمةَ البارزةَ في حياتِه الطويلة!

فجميعُ ما ذكرتُم يلغيه واحدة، وهي: إِنَّ توحيدَ اللّهِ في الحكمِ والتشريعِ من مقتضياتِ كلمةِ التوحيد!

وسيد ـ رحمهُ الله تعالى ـ ركّز على هذا كثيراً، لِما رأَى من هذه الجرأةِ الفاجرةِ على إِلغاء شرعِ الله من القضاءِ وغيره، وإِحلالِ القوانينِ الوضعيةِ بدلاً عنها، ولا شكَّ أَنَّ هذه جرأةً عظيمة، ما عهدَتْها الأُمةُ الإِسلاميةُ في مشوارها الطويل، قبلَ عام ١٣٤٢هـ.

خامساً: ومن عناوين الفهرس: «قولُ سيد بخلقِ القرآن، وأَنَّ كلامَ الله عبارةُ عن الإِرادة»!!

ولَمّا رجعْتُ إلى الصفحات المذكورة، لم أَجِدْ حرفاً واحداً، يصرحُ فيه سيد ـ رحمه الله تعالى ـ بهذا اللفظ: القرآنُ مخلوق!

كيف يكونُ هذا الاسْتِسْهالُ للرمي بهذه المكفِّرات؟

إِنَّ نهايةَ ما رأَيتُ له تمدُّدٌ في الأُسلوب، كقوله: «ولكنهم لا يملكونَ أَنْ يُؤَلِّفوا منها ـ أي الحروف المقطعة ـ مثل هذا الكتاب، لأَنه من صنعِ الله، لا من صنعِ الناس»!

وهي عبارةٌ لا نشكُّ في خطئها! لكن: هل نحكُمُ من خلالِها أَنَّ سيداً يقولُ بهذه المقولةِ الكفرية «خلق القرآن»؟ اللهمَّ إِني لا أَستطيعُ تَحَمُّلَ عهدةِ ذلك!!

ولقد ذكَّرَني قولُه هذا بقولٍ نحوِه، للشيخ «محمد عبد الخالق عضيمة» ـ رحمه الله تعالى ـ في مقدمةِ كتابه: «دراسات في أُسلوبِ القرآن الكريم، الذي طبعَتْه ـ مشكورة ـ جامعةُ الإِمامِ محمد بن سعود الإسلامية! فهل نرمي الجميع بالقولِ بخلقِ القرآن؟ اللهم لا!!

وأَكتفي بهذه من الناحية الموضوعية ـ وهي المهمَّة ـ.

ست ملاحظات أخرى لبكر أبو زيد على كتاب ربيع بن هادي:

ومن جهات أخرى أُبدي ما يلي:

١ ـ مسودة هذا الكتاب تقعُ في (١٦١) صفحة بقلم اليد، وهي بخطوطٍ مختلفة! ولا أَعرفُ منه صفحةً واحدةً بقلمكم

حسبَ المعتاد!! إلاّ أَنْ يكونَ اخْتَلَفَ خَطُّكُم، أو اختلط عليّ!! أَم أَنه عُهِدَ بكتبِ سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ لعددٍ من الطلاب، فاستخرجَ كلُّ طالبٍ ما بدا له،تحتَ إِشرافِكم أو بإِملائِكم!!!

لهذا فلا أَتحقَّقُ من نسبتِه إِليكم، إلاَّ أَنَّ ما كتبْتَه على طرَّتِه أَنه من تأليفِكم! وهذا عندي كافٍ في التوثيقِ بالنسبةِ لشخصِكم الكريم!!

٢ ـ مع اختلافِ الخطوط، إلاَّ أَنَّ الكتابَ من أَوَّلِه إلى آخره يَجري على وتيرةٍ واحدة، وهي: أَنه بنفسٍ متوتِّرة، وتهيُّجٍ مستمر، ووثبةٍ تضغطُ على النص، حتى يتولَّدَ منه الأَخطاءُ الكبار، وتجعلُ محلَّ الاحتمال ومشتبهَ الكلام محلَّ قطع، لا يَقبلُ الجدال.. وهذا نكْثٌ لمنهجِ النقد: الحيدة العلمية!!

٣ ـ من حيثُ الصياغة: إِنْ قارَنّا بينَه وبين أُسلوب سيد ـ رحمه الله تعالى ـ فهو في نُزولٍ، وسيدٌ قد سَما!

وإِن اعتبرناه من جانبِكم الكريم، فهو أُسلوب «إِعدادي»!! لا يناسبُ إِبرازَه من طالبِ علمٍ حازَ العالميةَ العالية..

لا بدَّ من تكافؤ القُدرات في الذوقِ الأَدبي، والقدرةِ على البلاغةِ والبيان، وحسنِ العرض.. وإِلاّ فَلْيُكْسَر القلم!!

٤ ـ لقد طغى أُسلوبُ التهيُّجِ والفزع، العلمي للنقد! ولهذا افْتَقَدَ الرّدّ أَدبَ الحوار!!

٥ ـ في الكتابِ من أُوَّلِه إلى آخره: تَهَجُّم، وضيقُ عَطَن، وتَشَنُّجٌ في العبارات، فلماذا هذا؟

٦ ـ هذا الكتابُ يُنَشِّطُ الحزبيةَ الجديدة، التي أَنشأَتْ في نفوسِ الشبيبة جُنوحَ الفكر، بالتحريمِ تارة، والنقدِ تارة، وأَنَّ هذا بدعة، أو ذاكَ مبتدع، وهذا ضلال، وذاكَ ضالّ.. ولا بَيِّنَةَ كافيةَ للإثبات!!

وَوَلَّدَتْ غُرورَ التديُّنِ والاستعلاء! حتى كأَنَّما الواحدُ عند فعلَتِه هذه يُلقي حِمْلاً عن ظهره، قد استراحَ مِن عَناءِ حمله، وأَنه يأْخُذُ بحجزِ الأُمةِ عن الهاوية، وأَنه في اعتبارِ الآخرين قد حَلَّقَ في الورعِ والغيرة على حرماتِ الشرع المطهر!!

وهذا من غيرِ تحقيق، هو في الحقيقةِ هَدْم! وإِن اعْتُبِرَ بناءً عاليَ الشرفات، فهو إلى التساقط، ثم التبردُ في أَدراجِ الرياح العاتية!

هذه سماتٌ ستّ، تَمَتَّعَ بها هذا الكتاب، فكانَ غيرَ مُمْتِع!!

هذا ما بدا لي، حسبَ رغبتكم..

ثناء بكر أبو زيد على سيد قطب:

وأعتذر عن تأخرِ الجواب، لأَنني من قبلُ ليس لي عنايةَ بقراءةِ كتب هذا الرجل، وإِنْ تداولَها الناس!!

لكن هولَ ما ذكرتم، دَفَعني إلى قراءاتٍ متعددةٍ في عامَّةِ كتبه، فوجدْتُ في كتبِه خيراً كثيراً، وإيماناً مشرقاً، وحَقّاً أَبلجاً، وتَشريحاً فاضحاً لمخططات العداءِ للإسلامِ! على عثراتٍ في سياقاتِه، واسترسالٍ بعباراته! ليتَهُ لم يَفُهْ بها! وكثيرٌ منها ينقضُها قولُه الحق في مكانٍ آخر! والكمالُ عزيز!!!

والرجلُ كان أَديباً نَقّادة، ثم اتَّجَهَ إلى خدمةِ الإسلام، من خلالِ القرآن العظيم، والسُّنَّةِ المشرفة، وسَخَّرَ قَلَمَه ووقْتَه ودَمَه في سبيلها، فَشَرِقَ بها طُغاةُ عصْرِه!!

وأَصَرَّ على موقفِه في سبيل الله تعالى، وكَشَفَ عن سالفَتِه!.. وطُلِبَ منه أَنْ يسطُرَ بقلمه كلماتِ اعتذار! وقالَ كلمته الإيمانية المشهورة: إِنّ أصبعاً أَرفَعُهُ للشهادة، لنْ أكتبَ به كلمةً تضارّها! أو كلمة نحو ذلك!

فالواجبُ على الجميع الدعاءُ له بالمغفرة! والاستفادةُ من علمه! وبيانُ ما تَحَقَّقْنا خَطَأَه فيه!

وإِنَّ خطأَه لا يوجبُ حرمانَنا من علمه، ولا هَجْرَ كتبِه!

واعْتَبِرْ ـ رعاك الله ـ حالَه بحالِ أَسلافٍ مَضَوْا، أَمثالَ أَبي إِسماعيل الهروي والجيلاني، كيف دافعَ عنهما شيخُ الإِسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ ما لديهما من الطوام! لأَنَّ الأَصلَ في مسلكِهما نصرةُ الإِسلام والسُّنَّة!

وانظرْ «منازل السائرين» للهروي ـ رحمه الله تعالى ـ تَرَ عجائبَ لا يُمكنُ قَبولُها! ومع ذلك فابنُ القيم ـ رحمه الله تعالى ـ يعتذرُ عنه أَشَدَّ الاعتذار، ولا يُجَرِّمُه فيها، وذلكَ في شرحه «مدارج السالكين»!

وقد بسطْتُ في كتاب «تصنيف الناس بين الظّنِّ واليقين» ما تيسَّرَ لي من قواعدَ ضابطة في ذلك!

حكم بكر أبو زيد على كتاب ربيع بن هادي:

وفي الختام: فإني أنصحُ فضيلةَ الأَخ في الله، بالعدولِ عن طبعِ هذا الكتاب «أَضواء إسلامية...».

وإنه لا يجوزُ نَشْرُه، ولا طَبْعُه، لما فيه من التَّحامُل الشديد، والتدريبُ القويُّ لشبابِ الأُمةِ على الوقيعةِ في العلماء، وتشذيبِهم، والحَطِّ من أَقدارهم، والانصرافِ عن فضائلهم!!

واسْمَحْ لي ـ بارك الله فيك ـ إِنْ كنتُ قسوتُ في العبارة، فإنه بسببِ ما رأَيْتُه من تحامُلِكم الشديد، وشَفَقَتي عليكم، ورغبتِكم الملحةِ بمعرفةِ ما لديَّ نحوه، جرى القلمُ بما تقدَّمَ!!

سَدَّدَ اللّهُ خطى الجميع.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أخوكم

بكر بن عبد الله بن أبو زيد ٢٠/ ١/ ١٤١٤هـ

ثبت المراجع

١ ـ الإخوان المسلمون: رؤية من الداخل. أحداث صنعت التاريخ، محمود عبد الحليم، دار الدعوة، الإسكندرية، الطبعة الأولى: ١٩٧٩.

٢ ـ الإخوان وعبد الناصر: القصة الكاملة لتنظيم ٦٥، أحمد عبد المجيد. الزهراء للإعلام العربي، الطبعة الأولى: ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م.

٣ ـ أسرار حركة الضباط الأحرار والإخوان المسلمون، حسين محمد أحمد حمودة. الزهراء للإعلام العربي، الطبعة الثانية: ١٩٨٧.

٤ ـ الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تصوير مؤسسة الرسالة عن الطبعة المصرية.

٥ ـ الأطياف الأربعة، سيد قطب وإخوته، بيروت، الطبعة الثانية: ١٩٦٧ بدون ناشر.

٦ ـ أمريكا من الداخل بمنظار سيد قطب، الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، دمشق ـ الطبعة السابعة: ١٤١٥ ـ ١٩٩٥.

٧ ـ أيام من حياتي، زينب الغزالي، دار الشروق، بدون تاريخ.

٨ ـ البوابة السوداء، أحمد رائف، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، الطبعة الرابعة: ١٤٠٨ ـ ١٩٨٨.

٩ ـ التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار الشروق ـ بدون تاريخ.

١٠ ـ حقيقة الخلاف بين الإخوان المسلمين وعبد الناصر، محمد حامد أبو النصر، الطبعة الأولى: ١٩٨٧ ـ بدون ناشر.

١٢ ـ خصائص التصور الإسلامي، سيد قطب، دار الشروق ـ بدون تاريخ.

١٣ ـ دراسات إسلامية، سيد قطب، دار الشروق ـ بدون تاريخ.
١٤ ـ ذكريات الحلقة الخامسة، علي الطنطاوي، دار المنارة ـ جدة، الطبعة الأولى: ١٤٠٧ ـ ١٩٨٧.
١٥ ـ ذكريات لا مذكرات، عمر التلمساني، دار الطباعة والنشر الإسلامية ـ القاهرة: ١٩٨٥.
١٦ ـ رائد الفكر الإسلامي المعاصر، الشهيد سيد قطب، يوسف العظم، دار القلم، الطبعة الأولى: ١٩٨٠ ـ ١٤٠٠.
١٧ ـ رسائل إلى شهيد، أمينة قطب، دار الفرقان، عمان، الطبعة الأولى: ١٤٠٥ ـ ١٩٨٥.
١٨ ـ سراديب الشيطان: صفحات من تاريخ الإخوان المسلمين، أحمد رائف، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، الطبعة الأولى: ١٤٠٩ ـ ١٩٨٩.
١٩ ـ السلام العالمي والإسلام، سيد قطب، دار الشروق ـ بدون تاريخ.
٢٠ ـ سيد قطب الأديب الناقد، الدكتور عبد الله الخباص، مكتبة المنار، الزرقاء ـ الطبعة الأولى: ١٩٨٣.
٢١ ـ سيد قطب أو ثورة الفكر الإسلامي، محمد علي قطب، دار الحديث ـ بيروت ـ الطبعة الثانية: ١٣٩٥ ـ ١٩٧٥.
٢٢ ـ سيد قطب: حياته وأدبه، عبد الباقي محمد حسين، دار الوفاء ـ المنصورة ـ الطبعة الأولى: ١٤٠٦ ـ ١٩٨٦.
٢٣ ـ سيد قطب: من القرية إلى المشنقة، عادل حمودة، سينا للنشر ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى: ١٩٨٧.
٢٤ ـ سيد قطب: من الميلاد إلى الاستشهاد، الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي. دار القلم ـ الطبعة الثانية: ١٤١٥ ـ ١٩٩٥.
٢٥ ـ الشاطىء المجهول ـ ديوان شعر ـ سيد قطب. مصورة عن نسخة في جامعة لندن ـ بدون ناشر.
٢٦ ـ الشهيد سيد قطب، جماعة أصدقاء الشهيد سيد قطب. بدون ناشر أو تاريخ.

٢٧ ـ الصبر والثبات ـ ديوان شعر ـ جمال فوزي، تقديم عمر التلمساني، دار الأنصار ـ القاهرة: ١٩٧٨.
٢٨ ـ صحيح مسلم، بعناية محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر ـ بيروت: ١٤٠٣ ـ ١٩٨٣.
٢٩ ـ طفل من القرية، سيد قطب. الدار السعودية للنشر ـ جدة. بدون تاريخ.
٣٠ ـ علم أصول الفقه، عبد الوهاب خلاف. دار القلم ـ الكويت، الطبعة الثانية عشرة: ١٣٩٨ ـ ١٩٧٨.
٣١ ـ العدالة الاجتماعية في الإسلام، سيد قطب. دار الشروق: ١٣٩٤ ـ ١٩٧٤.
٣٢ ـ عندما غابت الشمس، عبد الحليم خفاجي. مكتبة الفلاح ـ الكويت ـ الطبعة الأولى: ١٣٩٩ ـ ١٩٧٩.
٣٣ ـ في ظلال القرآن، سيد قطب. الطبعة الأولى ١٩٥٣، دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة.
٣٤ ـ في ظلال القرآن، سيد قطب. دار الشروق، الطبعة الثالثة: ١٣٩٧ ـ ١٩٧٧.
٣٥ ـ في ظلال القرآن في الميزان، الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار المنارة ـ جدة ـ الطبعة الأولى: ١٣٩٦ ـ ١٩٨٦.
٣٦ ـ كتب وشخصيات، سيد قطب، دار الكتب العربية ـ بيروت. بدون تاريخ.
٣٧ ـ لماذا أعدم سيد قطب وإخوانه، بدون تاريخ أو ناشر.
٣٨ ـ لماذا أعدموني، سيد قطب. الشركة السعودية للأبحاث والتسويق، بدون تاريخ نشر.
٣٩ ـ لماذا اغتيل الشهيد حسن البنا، عبد المتعال الجبري، دار الاعتصام، القاهرة ـ الطبعة الأولى: ١٣٩٧ ـ ١٩٧٧.
٤٠ ـ مدخل إلى ظلال القرآن، الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي. دار المنارة ـ جدة: ١٤٠٦ ـ ١٩٨٦.
٤١ ـ المدينة المسحورة، سيد قطب. دار الشروق ـ بدون تاريخ.

٤٢ ـ مذابح الإخوان في سجون ناصر، جابر رزق. توزيع دار الوفاء ـ القاهرة: ١٩٨٦.

٤٣ ـ مذكرات سائح في الشرق العربي، أبو الحسن الندوي. مؤسسة الرسالة ـ الطبعة الثانية: ١٩٧٥.

٤٤ ـ مذكرات عبد المنعم عبد الرؤوف: أرغمت فاروق على التنازل عن العرش، عبد المنعم عبد الرؤوف. الزهراء للإعلام العربي ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى: ١٩٨٨.

٤٥ ـ مشاهد القيامة في القرآن، سيد قطب. دار الشروق ـ بدون تاريخ.

٤٦ ـ معالم في الطريق، سيد قطب. دار الشسروق ـ بدون تاريخ.

٤٧ ـ معركة الإسلام والرأسمالية، سيد قطب. الدار السعودية لنشر ـ جدة ـ الطبعة الرابعة: ١٩٦٩.

٤٨ ـ معركتنا مع اليهود، سيد قطب. بتقديم زين العابدين الركابي، دار الشروق، الطبعة الثانية: ١٣٩٨ ـ ١٩٧٨.

٤٩ ـ مقومات التصور الإسلامي، سيد قطب. بتقديم محمد قطب، دار الشروق، الطبعة الأولى: ١٤٠٦ ـ ١٩٨٦.

٥٠ ـ المنهج الحركي في ظلال القرآن، الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار المنارة ـ جدة ـ الطبعة الأولى: ١٤٠٦ ـ ١٩٨٦.

٥١ ـ مهمة الشاعر في الحياة، سيد قطب. دار الشروق ـ دون تاريخ.

٥٢ ـ الموتى يتكلمون، سامي جوهر. المكتب المصري الحديث ـ القاهرة ـ الطبعة الثانية: ١٩٧٧.

٥٣ ـ النقد الأدبي: أصوله ومناهجه، سيد قطب. دار الشروق ـ بدون تاريخ.

٥٤ ـ نقد كتاب مستقبل الثقافة في مصر، سيد قطب. الدار السعودية للنشر ـ جدة ـ الطبعة الثانية: ١٩٦٩.

كتبٌ صدرت للمؤلف

مرتبة حسب صدور طبعاتها الأولى.

١ ـ سيد قطب الشهيد الحي. نفد
٢ ـ نظرية التصور الفني عند سيد قطب. نفد
٣ ـ أمريكا من الداخل بمنظار سيد قطب.
٤ ـ مدخل إلى ظلال القرآن. نفد
٥ ـ المنهج الحركي في ظلال القرن. نفد
٦ ـ في ظلال القرآن في الميزان. نفد
٧ ـ مفاتيح للتعامل مع القرآن.
٨ ـ في ظلال الإيمان.
٩ ـ الشخصية اليهودية من خلال القرآن.
١٠ ـ تصويبات في فهم بعض الآيات.
١١ ـ مع قصص السابقين في القرآن: ١ ـ ٣.
١٢ ـ البيان في إعجاز القرآن.
١٣ ـ ثوابت للمسلم المعاصر.
١٤ ـ إسرائيليات معاصرة.
١٥ ـ سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد.
١٦ ـ لطائف قرآنية.

١٧ ـ هذا القرآن.
١٨ ـ حقائق قرآنية حول القضية الفلسطينية.
١٩ ـ الخلفاء الراشدون بين الاستخلاف والاستشهاد.
٢٠ ـ التفسير والتأويل في القرآن.
٢١ ـ الأتباع والمتبوعون في القرآن.
٢٢ ـ التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق.
٢٣ ـ الخطة البراقة لذي النفس التواقة.
٢٤ ـ تفسير الطبري تقريب وتهذيب: ١ ـ ٧.
٢٥ ـ الرسول المبلغ: صلى الله عليه وسلم.
٢٦ ـ القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث: ١ ـ ٤.
٢٧ ـ تهذيب فضائل الجهاد لابن النحاس.
٢٨ ـ تعريف الدارسين بمناهج المفسرين.
٢٩ ـ القبسات السَّنِيّة من شرح العقيدة الطحاوية.
٣٠ ـ سيد قطب: الأديب الناقد، والداعية المجاهد، والمفكر المفسر الرائد.

المحتوى